منهج القرآن فى تربية المجتمع

دكتور

عبد الفتاح عاشور

استاذ التفسير وعلوم القرآن ـ المساعد
بجامعة الأزهر والجامعة الاسلامية
والمعهد العالى للدعوة الاسلامية
بالمدينة المنورة

الطبعة الأولى

١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م

الناشر
مكتبة الخانجى بمصر

فى غرة رجب ١٣٩٢ هـ الموافق ١٠ اغسطس ١٩٧٢ م
نال المؤلف بهـذا البحث درجة العالمية (الدكتوراه) فى التفسير وعلوم القرآن من كلية أصول الدين ـ جامعة الأزهر .

دار الجيل للطباعة ١٤ قصر اللؤلؤة - الفجالة
جمهورية مصر العربية تليفون ٩٠٥٢٩٦

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَاكُنتَ تَدْرِى مَاٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُوراً نَّهْدِى بِهِ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ * صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَافِى ٱلْأَرْضِ أَلَا إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ » .

(صدق الله العظيم)

(سورة الشورى ٥٢/٤٣ ، ٥٣)



تقـــديم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وأصحابه ومن سلك سبيلهم وسار على نهجهم الى يـــوم الدين ..

« أما بعد »

ففي ظلال العلم وتحت لوائه تمر الانسانية ـ فى عصرنا هذا ـ بمرحلة خطيرة لم تحدث فى تاريخها كله .. وذلك أن العلم الـــذى تستظل به هو علم المادة والسيطرة على مظاهر الطبيعة وتسخيرها لخدمة الانسان .. وكان يمكن أن يكون هذا التقدم العظيم فى مجال الكشف والاختراع وسيلة لاسعاد البشر لو أنه أشرق من أفق الــوحى الالهى والتشريع الربانى وسار على هدى الله وتوجيهه .. لكن الظروف التى تطور فيها البحث العلمى أدت الى انفصاله عن دين الله وهديه بل والعداء لدين الله وهديه ..

وذلك أن أوربا التى استيقظت على البعث الاسلامى وجدت أمامها الكنيسة ورجالها تفرض سلطانها وجهلها باسم الدين ، وتشرد وتعذب وتقتل كل من رفع صوته بخلاف ما تؤمن به ، وظن الناس أن ذلك دين الله فثاروا عليه وعلى رجاله ، وانطلقوا فى طريقهم يرفضون كل دين ..

ومن سوء الحظ أن الأمة الاسلامية التى بثت الحياة فى الـــدول الأوربية كانت قد راحت فى سبات عميق وسيطر الجهل والفقر والتأخر على مجتمعات الاسلام فى الوقت الذى انطلق فيه عملاق العلم يحطم كل قيد وفى مقدمة ذلك قيد هذا الدين ورجاله الذين وقفوا عقبة فى سبيل

التقدم •• ورغم أن الاسلام لا يعرف هذا العداء ولم ينبت فى أرضه ـ فالاسلام صانع العلم والعلماء ورائد النهضة والمدنية ـ الا أن هذا الوباء : وباء الانفصال بين العلم والدين أصاب العالم كله فانحرف باسم العلم عن طريق الاله العظيم وأصبح كالمجنون أعطيته سلاحا فضرب به نفسه وقتل به غيره •• وهدد العلم حياة الناس وأذهب أمنهم وراحتهم •• وصار القوى بما يمتلك من وسائل القوة يفرض سلطانه وجبروته وظلمه على الضعفاء ••• وعاد الأمر همجية ووحشية •• وشاعت النظريات الفاسدة والأفكار المنحلة فحطمت ما تبقى من مبادىء وها هو ذا العالم اليوم يعانى التمزق والضياع ولا يدرى من أين يأتيه التمزق والضياع !! يحاول أن يلم شعثه ويستجمع نفسه فيعب من كأس الملذات والشهوات !! وأن يداوى جروحه بما يسره لنفسه من وسائل الترفيه والترويح فلا يزيده ذلك كله الا تمزقا وضياعا !! ••

وما أحوج العالم المجهد المتعب الى أن يرى نور القرآن الذى أضاء الدنيا يوم أن لفها الظلام وخيم عليها البؤس والشقاء فبدد ظلامها ومحا بؤسها وشقاءها بما أتاحه لها من الأمان وما رسمه لها من منهج للحياة •• هذا المنهج الذى تقدم به محمد بن عبد الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى البشرية فحاربته وحاربها وجاهدته وجاهدها حتى وضعه بين يديها وسلمه لها فاذا فيه القوة والسيادة وفيه السعادة والطمأنينة والهدوء النفسى •• واذا بها ترى فيه منهجا لا كمناهج البشر انما هو تخطيط يفوق قدرة البشر •• يحيط بحاجات الفرد ويلبى آمال المجتمع وتطلعاته ويمزج بين الحاجات والآمال والتطلعات فى رفق ورحمة ومودة: فلا ترى اعتداء الفرد على حق مجتمعه ، ولا تتألم من ظلم المجتمع للفرد ، انما هو الانسجام الكامل ، والوحدة التى تحيطها النفحات والبركات ، مما حاولت كل بحوث الفلاسفة والمفكرين الى يومنا هذا أن تصل الى شىء منه فما استطاعت وما يمكن لها أن تستطيع فذلك أفق عال وتربية

ربانية سماوية وهذه أفكار البشر موصومة ـ دائمـــا ـ بالعجـــز والقصور ..

ولقد أزعجنى وأثارنى من زمن بعيد .. من يوم أن عرفت الحياة واستمتعت باشراق كتاب الله يملأ على حسى ووجدانى ويستولى عـلى مشاعرى وكيانى .. أزعجنى علو الباطل وانتفاخه وتكبر ادعياء العلم من مفكرى الشرق والغرب الذين ظنوا أن ما عندهم حق وما عداه زور وبهتان وعلى أساس من فلسفتهم أقيمت مجتمعات يسرت لها الظروف أسباب القوة المادية فى غفلة من حملة الرسالة الالهية الخالدة مما أتـاح لهذه المجتمعات وتلك النظم الفاسدة أن تعيش هذه الفترة من الزمن .

وكثيرا ما كنت أسائل نفسى : ماذا يمكن لنا أن نقدم للانســانية الحائرة الضالة ؟ .

هل نقدم لها جديدا فى النظريات الفلسفية البشرية أو فى مجـال الصناعة والزراعة والتقدم العلمى ؟ هل نقدم لها اضافات فى عالم الفـن والأدب ؟؟ لقد شبعت من كل ذلك .. بل وشقيت بكل ذلك .. !!

وأنظر فأرى فى تاريخ الاسلام الاجابة : اذ كان يجاور الجزيـرة العربية دولتان عظيمتان هما دولة الفرس والروم .. وصلتا الى مستوى من الحضارة المادية والرقى الاجتماعى يقارب حضارة اليوم ويزيد .. وحين انطلق المسلمون من جزيرتهم الى هذه البلاد فاتحين لم يحملوا لها زيادة فى الرقى المادى ولا فنا فى الصناعة والتجارة انما حملوا لها أعظم هدية وأرقى مدنية تليق بهذا الانسان الذى استخلفه الله فى الأرض .. حملوا رسالة القرآن ومنهجه فى صنع المجتمعات وأخذوا بهذا المنهج يربون الأمم فأنقذوها مما تعانيه من ضيق النفس وظلم الحكام وتعاسة الأيام وأعادوا لها حياة الاستقرار والكرامة والعزة .

وقلت : لنا فى رسول الله أسوة ، وفى أصحابه قدوة •• واننا لن نستطيع أن نقدم سوى ما قدم هذا الرسول وأصحابه الأطهار فننقذ مستقبل البشرية ونحميها من الدمار والهلاك •

والأمر بالنسبة لنا جد خطير : لأن ما بين أيدينا من كتاب الله دواء لأمراض المجتمعات وهو علينا ميثاق وعهد : ان فرطنا فيه نقضنا الميثاق وخنا عهد الله ••

لذلك بادرت بهذه الدراسة الشاملة لمنهج القرآن فى تربية المجتمع بعد أن شغلنى هذا الموضوع فترة طويلة من الزمن وأنا أقول : هل يمكن لروح القرآن التى بثت الحياة فى أمة العرب أولا وفى الدنيا كلها ثانيا أن تدب من جديد فى عالمنا فتعيد له الحياة النابضة بالسلام والمحبة والايمان ؟ وهل ما زالت أنواره التى هدت قافلة الانسانية تشع سنا يضىء دياجير الشك ويمحو شبهات الظلام •

وكان لابد لارواء النفس وتهدئتها من الالتجاء الى البحث والتنقيب حتى تصل الى ما تبتغى وتريد •

ولقد اتجهت الدراسات القرآنية الى جوانب خاصة من منهج القرآن فسلطت عليها الأضواء وكشفت عن أصالتها وأهميتها لكن العالم فى حاجة الى تقديم هذا المنهج متكاملا شاملا لكل حاجات المجتمعات • وهذا ما حاولت أن أصل اليه بهذا العمل المتواضع •• ولقد أردت أن يكون ذلك برهانا ساطعا على دقة منهج القرآن وعظمته وسموه واحاطته بكل جانب من جوانب حياة الأفراد والمجتمعات : فكان التمهيد لهذا ببيان ما وصل اليه المجتمع العربى والعالمى قبيل نزول القرآن من فساد وضياع وذلك بدراسة أحوال المجتمع العربى الاجتماعية والسياسية

والاقتصادية ، والمؤهلات العربية لحمل الرسالة ، ودراسة المجتمع العالمي ممثلا في بني اسرائيل والمسيحية والامبراطورية الرومانية وبلاد فارس والهند والصين وباقي دول العالم المعروف آنذاك . ثم استنتاج تتبين منه حاجة العالم كله لرسالة القرآن ..

وبعد هذا التمهيد ، الباب الأول : **في القرآن والعقيدة** نرى فيه دلائل وجود الله ودلائل وحدانيته وكيف هدى القرآن المشركين والملحدين الى طريق الله .. كما نرى في هذا الباب سر الثلاثة عشر عاما التي قضاها رسول الله في مكة لا يدعو لشيء من تفصيلات منهج القرآن انما يدعو الى عبادة الله وحده لا شريك له ..

وفي الباب الثاني : **القرآن والتربية الأخلاقية** .. نجد ارتباط الأخلاق بالعقيدة وكيف كانت العبادات أسلوبا من أساليب التربية الأخلاقية ونلمس دقة هذا المنهج وهو يغرس الأخلاق الفاضلة في النفوس وكيف نجح في ذلك ..

ثم الباب الثالث : **القرآن والبناء الاجتماعي** : ندرس فيه نظام الأسرة والتكافل الاجتماعي والمعاملات المالية وبناء المجتمع على الحرية والمساواة ثم نظام الحكم الاسلامي واقامته على دعائم العدل والشورى ورعاية شريعة الله يحميها الحاكم والمحكوم وكيف وصل نظام الحكم بذلك الى مستوى رفيع لم تحلم به المجتمعات أبدا ..

وفي الباب الرابع : **تنظيم القرآن لعلاقة المجتمع الاسلامي بالمجتمعات الأخرى** فسنعرض فيه للعلاقات الدولية في القرآن وموقف القرآن من أهل الكتاب وموقفه من أهل الشرك .. وأخيرا : خاتمة نبين فيها ــ بعد المقارنة تفوق منهج القرآن في تربية المجتمع على أرقى ما وصل اليه

العالم فى العصر الحديث من مناهج لبناء المجتمعات وتربيتها وكيف لـم تفلح التربية الرأسمالية أو الشيوعية فى خلق المجتمع الصالح والانسان الصـالح ••

ورغم وعورة الطريق ومشقاته التى تحتم على الباحث فى مثل هذا الموضوع أن يحيط بكل ما كتب فى الدراسات الاسلامية عامة والقرآنية خاصة وما أكثرها ، وتفرض عليه أن يقف طويلا متأنيا فاحصا ليستخلص منها شيئا •• رغم ذلك فقد غمرتنى سعادة لا تعادلها سعادة وأنا أتابـع مراحل هذا المنهج الربانى كما رسمها القرآن الكريم فأراه منهجا فريدا فذا يحمل العزة والكرامة والأمان لبنى الانسان ، وقد آن للمؤمنين بهذا المنهج الالهى أن يحملوه ويحملوا معه أرواحهم على أكفهم وينطلقوا به الى بلاد الله كما انطلق الرعيل الأول فينقذوا عباد الله من هوة الضـلالة والشقاء •

وأهمية هذا البحث فى حياتنا المعاصرة تبدو عظيمة ضخمة بعـد أن جرب الانسان كثيرا من مناهجه وأفكاره وخرافاته فقادته الى هلاكه وضياعه •• وأهمية الجهاد فى سبيل اقراره فى واقع الحياة وترجمته عمليا أعظم وأضخم ، مما يحتم على حملة رسالة القرآن أن يهبوا لانقـاذ المستقبل الانسانى وأن يردوا الانسانية الشاردة الى حياض القـرآن ترتوى من نبعه المصفى وتعيش له وبه حياة الرحمة والأمان ••

وأبادر فأقول : أنا واثق من نفاسة ما أومن به أعتز به وأفاخـر أعرضه أمام العالمين : فليأت كل قوم بما عندهم ومنجهنا القرآنى هـو الأعلى ـ دائما ـ سوف تخر له السحرة سجدا لأنه وحى الله ومنهج الله وما أعظم أن تعنو له الجباه وتخشع فى محرابه القلوب وأن يرفض البشر

ما اخترعوه من خرافات وأباطيل ليتوافدوا على المنهج القرآنى يتربون فى رحابه ويجعلونه لهم رائدا ودليلا وهاديا وقمرا منيرا يكشف لهم عثرات الطريق .

« قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِى : أَدْعُوٓا۟ إِلَى اللَّهِ . . . عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ اتَّبَعَنِى ، وَسُبْحَٰنَ اللَّهِ وَمَا أَنَا۠ مِنَ الْمُشْرِكِينَ [١] » .

« وَمَا تَوْفِيقِى إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ [٢] » .

وصلى الله وسلم وبارك على محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين

عبد الفتاح عاشور

---

(١) سورة يوسف ١٢/١٠٨ .

(٢) سورة هود ١١/٨٨ .

تمهيد

دراسة ـ موجزة ـ للمجتمع العربى والعالمى قبيل نزول القـرآن

الحاجة الى التغيير :

أولا ــ المجتمع العربى :

(أ) أحواله الاجتماعية .

(ب) الوضـع السياسى .

(جـ) الوضـع الاقتصادى .

(د) حالتهم الدينية والفكرية .

(هـ) مؤهلات العرب لحمل الرسالة

ثانيا ــ المجتمع العالمى :

(أ) بنـو اسرائيل .

(ب) المسيحية والامبراطورية الرومانية .

(جـ) بـلاد فـارس .

(د) الهنـــد .

(هـ) الصـــين .

(و) نظرة عـامة .

ثالثا ــ اســتنتاج :

الحاجة الى التغيير

ـ المجتمع العربى الذى بدأ فيه القرآن نداءه أولا ..

والمجتمع العالمى الذى هو حقل الرسالة .. ثانيا

الانسان فى أى أرض يعيش عليها .. هل كان فى حاجة الى رسالة القرآن ؟؟ المجتمع العربى : ما هى عاداته وتقاليده ودينه وسياسته .. هل كان ذلك فى حاجة الى تدخل السماء وتعهدها لرجل تربيه وترعاه لتحمله أمانة الدعوة يبلغها فى صدق الى من عاشوا فى الجزيرة العربية أولا والعالم المعروف آنذاك ثانيا ؟

وهذا العالم : ما هى أفكاره وعقائده وعاداته وأخلاقه ؟

هل ما وصل اليه الفكر الانسانى قبيل نزول القرآن أدى الى اسعاد الانسان ووضع قدميه على طريق الحق والأمان .. أو أن السبل به قد التوت ، والطرق به قد ضلت فعاش موزع الاحساس مطموس الفطرة شقى القلب حائر الفكر .. فقد انسانيته ففقد معها كرامته وعزته؟ فهو فى حاجة الى رحمة تنشر عليه رداءها وهو فى شوق الى مرفأ يحس عنده بالراحة والطمأنينة ؟؟

المجتمع العربى والمجتمع العالمى كلاهما ـ اذن ـ يحتاج الى دراسة موسعة فى أحواله الاجتماعيةـ والسياسية والاقتصادية والدينية .. لكن ليس هنا موضع تلك الدراسة العميقة المطولة .. ويكفى أن نشير ـ فى اجمال ـ الى كل ذلك لنتبين ـ فحسب ـ حاجته الى التغيير وأن تلك النظم كلها وصلت الى مرحلة خطيرة من الخبث والتعفن .. ويكفينا ـ أيضا ـ أن نبين ـ فى ايجاز ـ استعداد العالم كله للتغيير الذى جاء به ـ كتاب الله ، وتلك المؤهلات التى أودعها الله فى البيئة العربية فكان العرب

بها أهلا لحمل هذه الرسالة الى الجنس البشرى واستطاعوا أن ينشروا فى ربوع الدنيا مبادىء سامية أضاء بها هذا القرآن فى كل بقعة غمرتها أنواره وشع فيها سناه ..

اولا ـ المجتمع العربى :

(ا) أحواله الاجتماعية :

انقسم العرب فى الجزيرة العربية الى قسمين ، بدو وحضر ، والبدو هو القسم الغالب :

« فأما البدو فكانوا ، ولا يزالون ـ يحتقرون الصناعة والتجارةانما يعيشون على ما تنتجه ماشيتهم : يأكلون لحومها بعد علاج بسيط ويشربون ألبانها ويلبسون أصوافها ويتخذون منها مساكنهم .. واذا اشتد بهم الضيق أكلوا الضب واليربوع .. وهم يعتمدون فى تغذية ماشيتهم على الطبيعة يخرجون بها فى مواسم المطر الى منابت الكلأ لترعى فاذا انتهى الموسم عادوا الى مواطنهم ينتظرون أن يحول الحول وينزل الغيث واذا احتاجوا الى غير ما تنتجه ماشيتهم تعاملوا عن طريق البدل فكانوا يستبدلون بالماشية وتتاجها ما يتطلبون من تمر ولباس ..

ونوع آخر اتخذوه وسيلة من وسائل العيش وهو الغارة والسلب: يغيرون على قبيلة معادية ـ وكثيرا ما تكون المعاداة ـ فيأخذون جمالهم ويسبون نساءهم وأولادهم ، وتتربص بهم القبيلة الأخرى فتفعل مافعلوا بل هم : اذا لم يجدوا عدوا من غيرهم قاتلوا أنفسهم .. ولعل خير ما يمثل ذلك قول القطامى :

فمن تكن الحضارة أعجبته   فأى رجال بادية ترانا
ومن ربط الجحاش فان فينا   قنا صلبا وأفراسا حسانا

وكنا اذا أغــرن عــلى قبيل فأعوزهــن نهب حيث كانــا
أغرن من الضباب على حــلال وضبة •• انه من حان حــانــا
وأحيانا عــلى بكــر أخينــا اذا مــا لم نجد الا أخــانــا

أما الحضر : فهم أرقى من ذلك كثيرا : يسكنون المدن ويقــرون فيها ويعيشون على التجارة أو الزراعة وقد أسسوا قبل الاسلام ممالك ذات مدنية كاليمن والغساسنة فى الشام واللخميين فى العراق [1] » •

ولا يتوهم أن العرب فى حضرهم بعدوا عن عادات البدو كثيرا أو أنهم فى حالة من الرقى الاجتماعى تغنيهم عن رسالة رائدة •

كلا فالعرب : بدو وحضر •• وصلوا الى مرحلة خطيرة من الفساد الاجتماعى ، وكل ما هنالك من فروق بين بدوهم وحضرهم انما هــو الاستقرار المادى والرقى الذى يواكب كل مجتمع تنتظم حياته الاقتصادية وان كان تحت هذا المظهر البراق ذلك الضعف المهين والتأخر الذى سلب الانسان حريته وكرامته وأمنه ••

والمجتمع العربى مجتمع طبقى تفصل بين طبقاته حدود واضحة ، تتحكم روابط الدم والقرابة فى تحديد طبقات هذا المجتمع : فكان فيه طبقة الأحرار : وهم أبناء القبيلة الصرحاء الذين يجمع بينهم الدم الواحد والنسب المشترك ••

وطبقة الموالى : وهم من انضموا الى القبيلة من العرب الأحرار من غير أبنائها عن طريق الجوار أو الحلف أو العتقاء من الأرقاء فيها ••

---

(١) فجر الاسلام ، لاحمد امين ، ص ١٢ .

وطبقة الأرقاء : وهم المجلوبون عن طريق الشراء أو أسرى الحرب•
ولكل من هذه الطبقات واجب لا يتعداه فرضه عليه نظام المجتمع•
« فالفرد جزء من قبيلة يعيش لها ويدور فى فلكها •• وخير ما يصور ذلك قول دريد بن الصمة :

وهل أنا الا من غزية ان غوت
غويت وان ترشد غزية أرشـــد ؟ [٢] »

فاذا شذ الفرد عن قواعد المجتمع وتصرف تصرفا يسىء الى ســمعة القبيلة نبذته القبيلة وغضبت عليه وأعلنت خلعه وأهدرت كل حق لــه عليها فلا يجد أمامه الا أحد طريقين :

اما أن يلجأ الى قبيلة أخرى يحتمى بحماها ويصبح مولى من مواليها أو أن يخرج الى الصحراء يلوذ بها ويعتمد على قوته فى فرض نفسه على مجتمع قطع كل صلة بينه وبينه فيصبح النهب والسلب وقطع الطـريق وسيلته للحياة وأسباب الرزق ••

وأهم الواجبات التى تقع على أفراد القبيلة الأخذ بالثأر ممن سولت له نفسه من القبائل الأخرى ان يعتدى على أحد ابنائها مهما كلفهم ذلك من جهد ومال ودماء ••

« ولقد كان العرف يجعل الثائر يلتزم باتخاذ شارات خاصة : فهو يبتعد عن كل ملذات الحياة : فلا يقـــرب النســـــاء ولا يتطيب أو يتدهن [٣] » •

---

(٢) مكة والمدينة فى الجاهلية وعهد الرسول ، لأحمد ابراهيم الشريف ص ٣٣ •
(٣) المرجع السابق ، ص ٣٣

« ولا يشرب الخمر ولا يقول الشعر الا فى هجاء أو رثاء ويظل على هذه الحال أياما وشهورا وأحيانا أعواما ـ فاذا أخذ بثأره حل له ما حرم على نفسه (٤) » الا أن العربى حين ذابت شخصيته فى كيان قبيلته وجبت عليها الحماية له والدفاع عنه « بل ومعاونته فى كل أمر : خير أو شر ويعبر عن ذلك قولهم : انصر أخاك ظالما أو مظلوما •• ويصوره شاعرهم:

قوم اذا الشر أبدى ناجذيه لهم   طاروا اليه زرافات ووحدانا

لا يسألون أخاهم حين يندبهم   فى النائبات على ماقال برهانا(٤)

أما **طبقة العبيد** : فهم ليسوا من العرب الصرحاء وقد كانوا فى وضع اجتماعى سيىء : فقد سلبتهم الأوضاع الاجتماعية الطبقية جميع الحقوق الانسانية التى هى من حق الانسان •• وعاشت هذه الطبقة حياة الذلة والانكسار •• ليس لها ملكية ، ولا يسمع لهم شكوى ولا يجوز للعبد أن يتزوج الا بأمر سيده على أن يتزوج رقيقا مثله •• بل ان العربى الصميم قسم الأعمال الى شريفة خسيسة : فرعى الماشية وخدمة المنزل والحلاقة والحجامة والنجارة والحدادة وأمثال ذلك مما يستنكف العربى القيام بها كانت طبقة العبيد تقوم بها ••

أما **المولى** : فهو الجار أو الحليف أو المعتق : والجوار يتم بالطلب الصريح والاجابة أو باتيان عمل يفهم منه قيام هذه الرابطة •

« وحقوق الجار المترتبة على قيام الجوار تتلخص فى قول هانىء ابن مسعود سيد بنى شيبان حين أجار النعمان بن المنذر : « قد لزمنى زمامك وأنا مانعك مما أمنع منه نفسى وأهلى وولدى ما بقى من عشيرتى الأدنين رجل (٥) » •

---

(٤) محاضرات فى تاريخ الأمم الاسلامية ، للشيخ الخضرى ، ص ٢١.
(٥) الأغانى ، ١٢٦/٢ .

والحليف : هو جار بصفة لازمة : وقد كان الرجلان يشهدان على أنفسهما ويعقدان الحلف بالمواثيق والأيمان والعهود .. وقـــد أورد الطبرى فى تفسيره مأثورا عن الميثاق الذى يشهد عليه الملأ بين الملتحق والملتحق به :

« دمى دمك وثأرى ثأرك وحربى حربك وسلمى سـلمك ترثنى وأرثك وتطلب بى وأطلب بك وتعقل عنى وأعقل عنك .. (٦) » .

وفى هذا المجتمع الطبقى كانت حمية الجاهلية تتحكم فى تصرفاته . ويرى العربى أن ما تواضع عليه مجتمعه دينا يجب التزامه قال تعالى :

« وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا : وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا واللهُ أَمَرَنَا بِهَا . . » (٧) .

وقال :

« وإذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ . . قَالُوا : بَلْ نَتَّبعُ ما أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمَ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ . . » (٨) .

وبقى هذا التفاوت الطبقى رغم الاحساس بالقرابة ووجود علاقات الحلف والجوار وأصبح أمرا مقررا ومؤثرا من تمايز الناس ووجـــود طبقات عليا وطبقات سفلى وطبقات أشراف وطبقات سوقة وعوام ..

---

(٦) جامع البيان ، للطبرى ، جـ ٨ ، ص ٢٧٥ ، ٢٧٦

(٧) سورة الاعراف ٢٨/٧ .

(٨) سورة البقرة ١٧٠/٢ .

أما صلة الرجل بالمرأة : فكانت صلة السيد المتحكم فيمن لا أمر لهم ولا قدرة عندهم ، هذه صلة النكاح وهى الرباط الذى يتم به تكوين أسرة .. تروى لنا السيدة عائشة رضى الله عنها صورة عن هذه الصلة فتقول :

« ان النكاح فى الجاهلية كان على أربعة أنحاء : منها نكاح الناس اليوم : يخطب الرجل الى الرجل وليته أو بنته فيصدقها ثم ينكحها ، والنكاح الآخر كان الرجل يقول لامرأته اذا طهرت من طمثها أرسلى الى فلان فاستبضعى منه فاذا تبين حملها أصابها زوجها اذا أحب ، وانما يفعل ذلك رغبة فى نجابة الولد .. فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع . ونكاح آخر : يجتمع الرهط ما دون العشرة فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها فاذا حملت ووضعت ومر عليها ليال بعد أن تضع حملها أرسلت اليهم فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها تقول لهم : قد عرفتم الذى كان من أمركم وقد ولدت فهذا ابنك يا فلان : تسمى من أحبت باسمه فيلحق به ولدها ولا يستطيع أن يمتنع به الرجل .. والنكاح الرابع يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لا تمنع من جاءها وهن البغايا : كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علما فمن أرادهن دخل عليهن فاذا حملت احداهن ووضعت حملها جمعوا لها ودعوا القافة (*) ثم ألحقوا ولدها بالذى يرون فالتاطه (**) ودعى ابنه لا يمتنع من ذلك(٩) » .

ومع هذه الصورة المزعجة التى قدمتها لنا السيدة عائشة فهناك من يحاول أن يعلى من قدر الأمة العربية تعصبا وحمية لها : فيدعى أن

(*) القافة : جمع قائف ، وهو الذى يعرف شبه الولد بالوالد بالآثار الخفية .

(**) التاطة : الحقه به ، وأصل اللوط [بفتح اللام] اللصوق .

(٩) البخارى ، كتاب النكاح ، باب من قال لا نكاح الابولى .

النوع الأول هو ما عليه جمهورهم « وما عداه فمقصور على ذوى الدعارة من الشبان الذين لا يخلو منهم زمان أو مكان ولم يكونوا يطلقون عليه الا السفاح واتخاذ الأخدان ولم يكن ذلك أمرا مستحسنا عند جمهورهم» ويؤكد ذلك بقوله : « اذ المعروف عن العربى من غيرته علـــى أهله ومحافظته على شرفه يبعد ذلك [١٠] » •

ولكن مجتمعا لا تحكمه شريعة هادية ولا يقوده دين صـــحيح ولا توجهه نداءات السماء لا يستبعد أن تكون فيه تلك المهازل الخلقية والضعة والمهانة مما لا يصلح معه دفاع الشيخ الخضرى تكريما لأمـة جاهلة وبيانا لفضل جماعات من الناس تحكمهم الشهوة ويسيطر عليهم حب الغلب ويشهد عليهم شاهد منهم هو جعفر بن أبى طالب فيقـول للنجاشى :

« أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتى الفواحش وتقطع الأرحام ونسىء الجوار ويأكل القوى منا الضعيف •• الى آخر ما قال [١١] » •

ولقد كانت المرأة فى وضع اجتماعى سيىء تحملت ألوانا كثيرة من الظلم فقد كان من عادات هذا المجتمع أن يطلق الواحد منهم امرأته فاذا قارب موعد انتهاء عدتها راجعها لا عن حاجة ولا لمحبة ولكن لقصـــد تطويل العدة وتوسيع مدة الانتظار ضرارا ، وكان الرجل يطلق امرأته ويقول : كنت لاعبا ، كما كانوا يمنعون النساء أن يتزوجن من أردن من الأزواج بعد انقضاء عدتهن حمية الجاهلية ، بل انهم كانوا اذا مـــات الرجل أصبح أولياؤه أحق بامرأته وكأنها متاع يورث فان شـــاءوا

---

(١٠) محاضرات فى تاريخ الأمم الاسلامية ، للشيخ الخضرى ، ج ١ ص ٢٠ •

(١١) سيرة ابن هشام ، ج ١ ، ص ٢٦٢ •

تزوجها واحد منهم أو زوجوها من أرادوا أو منعوها من الزواج أما هى فليس لها رأى ولا حيلة .

ولعل التعاسة والشقاء والأوهام التى تبدأ بها المرأة أول خطوة فى طريق الحياة المستقرة تعطى دليلا واضحا لما كانت عليه المرأة فى الجاهلية: فبرغم ما فرضه عليها المجتمع من قيود سلبت ارادتها طعنها فى أعز ما تملك ووجه اليها سهما قاتلا فى أقوى عاطفة لديها انها عاطفة الأمومة : وذلك أنها اذا حملت سيطر على وجدانها خوف أذهب من حياتها السعادة والاستقرار لأن مصير طفلتها الوأد : « وكانت مذاهبهم مختلفة فى الوأد وقتل الأولاد : فمنهم من كان يئد البنات لمزيد الغيرة ومخافة لحوق العار بهم من أجلهن وهم بنو تميم وكندة وقبائل آخرون (١٢)» . ومنهم من كان يئد البنات لغير تلك الأسباب .

وكيفية الوأد والطريقة التى يؤدى بها بشعة مجافية للرحمة والانسانية فانهم كانوا اذا بلغت البنت ست سنوات يأمرون أمها بتطييبها وتزيينها ويذهب الواحد منهم بابنته هذه الى الصحراء وهناك يكون قد حفر لها بئرا فيقول لها انظرى فيها ثم يدفعها من خلفها ويهيل عليها التراب حتى تستوى البئر بالأرض .

وصورة أخرى يرويها ابن عباس فيقول : « كانت الحامل اذا قربت ولادتها حفرت حفرة فمخضت على رأس تلك الحفرة فاذا ولدت بنتا رمت بها فى الحفرة واذا ولدت ولدا حبسته (١٣) » .

والوأد المحقق للبنت المشوهة الخلقة : تشاؤما من هذا التشويه .

---

(١٢) العرب واطوارهم ، محمد عبد الجواد الأصمعى ، جـ ١ ص٢٥٢

(١٣) المرجع السابق ، جـ ١ ، ٢٥٣ .

واذن فقد وصلت المرأة العربية الى حالة بائسة فى الوضع الاجتماعى وعاشت شبه أمة مستعبدة لا ملك لها ولا مشورة وما ورد فى شعرهم من التغنى بجمالها واثبات أهميتها انما كان خيال شعراء وارضاء لمتعة يقضيها رجل •

والواقع غير الخيال فلنسأل هذا الواقع ينبئنا النبأ اليقين ويشهد أن المرأة العربية عاشت على هامش المجتمع لا أثر لها ولا اقتدار لديها •

(ب) الوضع السياسى :

فاذا ما تركنا صلات الرجل بأهله وجيرانه ووضع الفرد فى المجتمع العربى لنلقى نظرة سريعة على الوضع السياسى الذى كانت تحياه الجزيرة العربية قبيل نزول القرآن فاننا نجد أن العرب كانوا جماعات غير منظمة تحيا حياة قبلية ويحكمها عرف القبيلة وسلطانها وهو لم يكن سلطانا يسيطر فيه الحاكم على المحكوم ، ولهذا الحاكم نواب وقادة ، وقضاة ، وجيش منظم ، وحكومة تضرب على أيدى المعتدى ، وانما كان قوة اجتماعية رأت الجماعة العربية فيها حفظا لكيانها وتيسيرا لمصالحها ومع ذلك فهم قوم أحرار لا يملكهم أحد : يثأر المعتدى عليه لنفسه ممن اعتدى عليه وعلى قبيلته أن تشد أزره • يقول ابن حزم : « وكانت العرب بلا خلاف قوما لقاحا لا يملكهم أحد كربيعة ومضر وأياد وقضاعة ، أو ملوكا فى بلادهم يتوارثون الملك كابرا عن كابر •• (١٤) » •

ويوضح هذا الوضع السياسى سير توماس أرنولد فيقول « لم يكن هناك اطلاقا أى منهج منظم للادارة أو القضاء كالذى نعرفه عن فكرة الحكومة فى العصر الحديث •• وكانت كل قبيلة أو عشيرة تؤلف

---

(١٤) الفصل فى الملل والأهواء والنحل ، ج ٢ ، ص ٨٥ •

جماعة منفصلة مستقلة تمام الاستقلال وينسحب هذا الاستقلال أيضا على أفراد القبيلة : فكل فرد منهم لا يعتبر زعامة شيخ القبيلة أو سلطته الا رمزا لفكرة عامة شاءت الظروف أن يأخذ هو منها بنصيب بل كان مطلق الحرية فى أن يرفض ما اجتمع عليه رأى الأغلبية من أبناء قبيلته .. وأبعد من هذا : أنه لم يكن هناك نظام لنقل سلطة الرئيس ، اذ كان يختار لها ــ غالبا ــ أكبر أفراد القبيلة سنا ، وأكثرهم مالا ، وأعظمهم نفوذا ، وأجدرهم بكسب الاحترام الشخصى ، واذا ما تضخمت قبيلته تشعبت فروعا كثيرة يتمتع كل منها بحياة منفصلة ووجود مستقل ولا تتحد الا فى ظروف غير عادية اشتراكا فى الدفاع عن القبيلة أو قياما بغارات بالغة الخطورة .. (١٥) » .

ولكننا لا ننسى أن تصرف الفرد الشخصى الذى يتحدث عنه « أرنولد » ليس مطلقا تماما : فانه حر فى أن يرفض ما اجتمع عليه أبناء القبيلة أو أن يأخذ به لكن جزاء هذا الرفض خطير لأنه يعرض صاحبه الى الطرد والابعاد والخلع وحينئذ لا يجد له سبيلا الا الالتجاء الى قبيلة أخرى يحتمى بها ويصبح مولى من مواليها أو يعمد الى الصحراء يتخذ من السلب والنهب وقطع الطريق وسيلة للحياة وطريقا يعبر به عما يحس به من حرمان وطرد .

وكيف يعرف النظام السياسى طريقه الى قوم انعدمت بينهم روح الاجتماع وتحكمت فيهم عصبية الجاهلية ووقفت كل قبيلة لأختها بالمرصاد تنتهز فرصة للانقضاض عليها والاستيلاء على مواردها وليس لذلك من سبب الا حياتهم المجدبة الفقيرة وتنافسهم فى الاستحواذ على مواطن الكلأ والعشب .. ؟ ..

---

(١٥) الدعوة الى الاسلام ، ترجمة حسن ابراهيم ، ص ٥١ ، ٥٢ .

ويزيد نيران العداوة اشتعالا : كبر مسيطر على النفوس وحب فى اشباع غريزة السيطرة والاستعلاء .. ترى ذلك فى وضوح اذا مات أكبر الاخوة وله ولد صالح يكون موضع أبيه فيتنازع أعمامه رئاسة العشيرة ولا يسلم أحد منهم للآخر فيورثهم ذلك تباغضا تزيده الأيام شدة .. وتبقى احن فى الصدور وعداوات فى القلوب تدفع الى حروب طاحنة تؤدى الى تيتيم الأطفال وتأييم النساء : « لذلك كانت الجزيرة دائمة الحروب والمنازعات قلما يخلو منها زمان أو مكان واذا رجعت الى أسبابها المباشرة وجدتها فى بعض الأحيان تافهة كما كان فى حروب الفجار .. وفى البعض الآخر تراها أمورا يمكن حلها على أسهل الوجوه كالحروب بين عبس وذبيان وبين بكر وتغلب ولكن الأسباب الحقيقية سابقة على ذلك وهى النفور المتأصل فى القلوب .. (١٦) » .

أمة مزقتها الحروب وأنهكت قواها الأحقاد والثارات فلا غرو أن تسقط ممالكها الشهيرة تحت أيدى المحتل الغاصب « فاليمن فقدت استقلالها منذ نهاية الربع الأول من القرن السادس وسقطت تحت حكم الأحباش ثم حكم الفرس .. (١٧) » وبعد أن كانت تتحكم فى التجارة بين الشرق والغرب سادها الاضطراب وفقدت منزلتها التجارية العظيمة ..

« والحيرة » أضحت امارة فارسية يحكمها أمير فارسى ولم تعد لها مكانتها فى حماية حدود الجزيرة العربية ..

ومملكة « الغساسنة » ضاعت هيبتها بعد أن غير الروم سياستهم نحوها وأصبح أمرها فوضى ..

---

(١٦) محاضرات فى تاريخ الأمم الاسلامية للشيخ الخضرى ، ص ٢٤.
(١٧) النهاية فى غريب الحديث والأثر لابن الأثير ، ج ١ ، ص ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٦٥ .

ولم يبق متمتعا بالاستقلال سوى « مكة » فقد كانت هى البلـد الآمن الذى لم يخضع لحاكم أجنبى قط والذى اشتهر بقدرته على حماية العائذين ببيت الله الحرام وانزال السكينة والسلام عليهم •• وفى ذلك يقول الله ممتنا على أهل مكة :

« أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً ءَامِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ؟ ؟ »(١٨).

ويقول :

« فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ الَّذِى أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ . . »(١٩).

وأصبحت « مكة » تمثل القلب النابض للجزيرة العربية يتمتع أهلها بنوع من السلطة والتنظيم الاجتماعى فقد اقتسمت عائلات « مكة » المناصب الكبرى فيها : فاختص الهاشميون بالسقاية ، وبنو عبد الدار بالسدانة والحجابة واللواء والندوة ، ولبنى سهم جباية الأموال ، ولبنى عدى : السفارة ، ولبنى مخزوم السقية ، ولبنى أمية : العقاب ، ولبنى تيم : الديات ، ولبنى نوفل : الرفادة ••

ومثلت « دار الندوة » صورة للحكم النيابى ، ووضع التنظيم الاجتماعى لها شروطا معينة فلم يكن يقبل فى عضويتها من لم يبلغ سـن الأربعين من غير قريش الا أن يكون قد امتاز بميزة خاصة لذلك كان الشيوخ الطاعنون فى السن وكبار التجار والشعراء يمثلون معظم أعضائها

---

(١٨) سورة العنكبوت ، ٦٧/٢٩ .

(١٩) سورة قريش ، ٣/١٠٦ ، ٤ .

« وقد كان الأفخاذ من رؤساء الأسر يجلسون على التوالى طبقا لمقام أفخاذهم وكانوا لا يبرمون أمرا الا بعد بحثه وتمحيصه فى برلمانهم الأهلى « دار الندوة » وكانت قراراتهم محترمة عند الجميع ونافذة على الجميع [٢٠] » .

واذا كان هذا هو حال « مكة » وحدها فان مدينة « يثرب قد انقسمت انقساما خطيرا ووقف فيها أبناء العمومة من الأوس والخزرج يتربص كل فريق بالآخر ولعبت يد « اليهود » دورها محركة الفتن ، غارسة للعدوات ، ليكون اليهود فى مأمن من تجمع هؤلاء العرب ولتقوى شوكتهم وتمتلىء جيوبهم بالمال حين يتفرق هؤلاء ، ولا يتفرغ واحد منهم لمنافسة اليهود فى ميدان التجارة والثراء .. ومثلت موقعة « بعاث » صورة لهذه الفوضى وتلك الحروب ولم يعد أحد يأمن على نفسه الخروج من حيه لأنه يعرض نفسه للخطر .. وسادت « المدينة » حال من قلة الأمن جعلت الحياة فيها غير ممكنة فكانت الحاجةماسة الىرجل يدخلفى الفجوة المفتوحة بين الفريقين ويقضى على الفوضى لكن كان لابد أن يكون رجلا محايدا لا تشوبه شائبة التورط فى المنافسات الداخلية بين القبيلتين .. [٢١] » .

اليمن ، ومملكتا الحيرة والغساسنة طمع فيها العدو .. و « يثرب » ممزقة الأوصال ، وباقى الجزيرة صحراء تنتشر فيها القبائل العربية هنا وهناك وبعض بلادهم المستقرة كالطائف لا أثر لها يذكر وليس هناك سوى « مكة » تتمتع بثقة غالية من كل أنحاء الجزيرة لوجود بيت الله الحرام الذى تعظمه سائر العرب ..

---

(٢٠) نشأة الدولة الاسلامية د. أمين سعيد ، ص ٤ .

(٢١) تاريخ الدولة العربية من ظهور الاسلام الى نهاية الدولة الأموية للمستشرق الألمانى يوليوس فلهوزن ، ترجمة د. عبد الهادى أبو ريده ، ص ٧ .

قوم هذا وضعهم السياسى ماذا يصنعون أمام من كانوا يطلقون عليهم : الأسدين ؟؟

وماذا تكون قوتهم أمام أكبر امبراطوريتين فى العالم آنذاك ؟

دولتى الفرس والروم .. ؟ .

هل من رباط يضم شتات تلك القبائل المتناحرة ويضمد جراح ممالكهم الضائعة حتى يستطيع العرب الوقوف فى وجه الخطر الذى يجثم على صدورهم فى الشرق والغرب ؟؟

لقد حنوا الى هذا التجمع فانتشرت المحالفات بصورة واسعة فى النصف الثانى من القرن السادس بين القبائل تعبيرا عن احساس القبيلة بأنها لا تستطيع أن تعيش فى مجالها الضيق وأنها محتاجة الى غيرها من القبائل تتحالف معها وتؤاخيها وتربط مصيرها بمصيرها ..

وأحيوا ما درس من حرمة الأشهر ومنعوا فيها القتال حتى يتوافروا فيها لاصلاح أنفسهم كما عظموا « الكعبة » فكانت ملجأ للخائف والعائذ وهذا كله يبين مدى احساس العرب بأنهم فى حاجة الى يد حانية تجمعهم ودولة توجههم ، فقد سئموا الحروب وملوا التفرق وكرهوا ما هم عليه من انقسام وفوضى ، لكن هذا الاحساس ما كان يغنى شيئا وما كان ليغير من واقعهم شيئا ، وليس هناك من يأخذ بأيديهم الى طريق الوحدة ويهديهم سواء السبيل ، بل ما كان هذا الاحساس لينقذهم مما هم فيه وباقى جوانب المجتمع الاجتماعية والاقتصادية والدينية والفكرية فى حال من الاضطراب الذى يحتاج الى صيحة قوية توقظ المشاعر وتحمل المشاعل وترتاد الطريق ..

(ج) الوضع الاقتصادى :

نعم ما كان شعورهم بالحاجة الماسة الى الأمان والرحمة والاستقرار ليرفعهم الى مرتبة هذا التصور وقد بلغت حالتهم الاقتصادية حدا خطيرا من الانتهازية والاستغلال فأثرى القوى على حساب الضعيف وأصبح التفاوت بين الأغنياء والفقراء يهدد المجتمع بالانهيار والدمار •

هذا — مثلا — عبد الله بن جدعان التميمى يشرب فى كأس من الذهب حتى سمى «حاسى الذهب» ، وآخر « كعبد المطلب بن هاشم يكفن فى حلل قيمتها ألف مثقال من الذهب وطرح عليه المسك حتى ستره، كما اشتهر بنو مخزوم بالثروة والمال حتى كان أحدهم وهو عبد الله بن أبى ربيعة يلقب بعدل قريش وقد كان رجلا موسرا وكان متجره الى اليمن •• [٢٢] » ••

وهذا أبو أحيحة بن سعيد بن العاص بن أمية يشترك فى القافلة التى كان يقودها أبو سفيان بن حرب والتى كانت السبب فى موقعة « بدر » يشترك بثلاثين ألف دينار •• وهذا المبلغ يمثل الثراء الذى كان عليه هؤلاء فى تلك الأيام ••

وبجانب هؤلاء آلاف من الرقيق والموالى ومن لا يمتلكون شيئا • يطحنهم الفقر ويهدهم الاحتياج المر الى القوت فامتلأت صدورهم بالعداوة والحقد •• وفى مرتفعات الصحراء وعلى جنبات قوافل التجارة لهؤلاء الموسرين تألفت جماعات خطيرة من مخلوعى القبائل وشذاذ الآفاق ومن قست عليهم تلك الأوضاع الاقتصادية الجائرة ، وقد ربط بين أفراد هذه الجماعات الاحساس بالحرمان والظلم فاتخذت لنفسها طريق

---

(٢٢) الأغانى ، جـ ١ ، ص ٨ ، ٢٩ ، جـ ٤ ص ٥ •

السلب والنهب وسيلة للحياة فى مجتمع يؤمن بأن الحق للقوة وأن الغاية تبرر الوسيلة .. وما كان لهذه الجماعات من قطاع الطرق أن تبدو ظاهرة اجتماعية لولا ما وصل اليه الوضع الاقتصادى من تعسف واستغلال لم يخفف منه عطف ذوى القلوب الرحيمة ولا كرم أهل المروءة والنخوة ممن لا يخلو منهم زمان أو مكان ..

ولقد كان التعامل « بالربا » يمثل المظهر الاقتصادى والتجارى وكان مصدر ربح ووسيلة لتنمية الثروة معترفا به .. وكان يبلغ أحيانا أضعاف القرض دون مارحمة أو شفقة فتضيع بذلك أموال المدين ويحيا حياة الفقر والحرمان ..

وبجانب الربا كانت المساومات وبيع البضائع المتوهمة التى لم تصل بعد .. كما باعوا المحاصيل قبل حلول يوم الحصاد بوقت طويل مما أدى الى افلاس بيوت واثراء أخرى ..

« ولم تكن هناك رقابة على ضبط المكاييل وتنظيم البيع والشراء وحماية السذج من البدو من الوقوع فى يد المحتالين والغشاشين .. ومع أن الكيل والوزن كان موجودا الا أن البيع والشراء مجازفة كان أمرا سائدا .. كما كان من وسائلهم المناجشة فى البيع وهى : أن يزيد شخص فى السلعة أكثر من ثمنها لا ليشتريها ولكن ليغرى غيره فيقع فيها .. كما كان الغش والمخادعة أمرا جاريا فى الأسواق فكانوا يبلون الحنطة والشعير ليكثر كيلها أو يخفون الردىء داخل الطيب ويخلطون التمر الردىء بالجيد ويحفلون « يصرون » الابل والغنم والبقر فلا يحلبونها أياما حتى تبدو كثيرة اللبن ثم يبيعونها (٢٣) .. »

---

(٢٣) مكة والمدينة فى الجاهلية وعهد الرسول ، ص ٣٦٧ .

وشاع بينهم البيع بالنسيئة « تأجيل الثمن » ومثلت الـــرهون الفاسدة نوعا سيئا للاستغلال فقد كان انتفاع الدائن بالمرهون والاستيلاء عليه ان عجز المدين أمرا شائعا ، ومع هذا الفساد الاقتصادى تســخير العقائد الفاسدة فى ابتزاز الأموال والاكثار من جمعها فقد قال أهل مكة : « لا ينبغى لأهل الحل أن يأكلوا من طعام جاءوا به معهم من الحل الى الحرم اذا جاءوا حجاجا أو عمارا ولا يطوفوا بالبيت اذا قــدموا أول طوافهم الا فى ثياب « الحمس (٢٤) » . فان لم يجدوا منها شيئا طافــوا بالبيت عراة فان تكرم منهم متكرم من رجل أو امرأة ولم يجد ثياب « الحمس » فطاف فى ثيابه التى جاء بها من الحل ألقاها اذا فرغ مــن طوافه ثم لم ينتفع بها ولم يمسها هو ولا أحد غيره أبدا وكانت العرب تسمى تلك الثياب « اللقى » (٢٥) » .

الا أن التاريخ يبين لنا أن الطواف مع العرى كان مبالغة فى التقديس والتطهر ولكن قريشا استغلت تلك العادة القديمة لصالحها وفرضت ثيابها وطعامها على العرب . وما زال حق « الحمس » يتطور حتى صار دينــا متبعا ..

أرأيت هذا الفساد الذى عم المجتمع ؟ وكيف سيطر حب المال على كل خلق وكل فضيلة فخرج الأثرياء بتجارتهم فى الصيف والشتاء الــى البلاد والممالك المجاورة يربحون ويتمتعون .. وبقى أهل الفاقة والضعفاء يلعقون جراح فاقتهم وضعفهم ويحملون بين جوانبهم ثورة عارمة عــلى تلك الأوضاع الفاسدة الشاذة التى ظهرت بوادرها فى هؤلاء الذين انتشروا

---

(٢٤) الحمس : لقب قريش سميت بذلك لتحمسها وتشددها فى دينها .

(٢٥) ابن هشام ، جـ ١ ص ١٣٣ .

عبر الصحراء يغيرون وينهبون ويقتلون ويفرضون حياتهم على مجتمع تقطعت بينه وبينهم وسائل العيش النظيف والحياة الآمنة المستقرة ؟؟ ..

(د) حالتهم الدينية والفكرية :

وفساد تلك النواحى الاجتماعية والسياسية والاقتصادية يرجع أول ما يرجع الى أنه لا دين يصلح ولا شريعة تحكم ، ولا قانون يفرض سلطانه على النفوس ويوجه القلوب ، انما هى بقايا دين ضاعت معالمه ولم يبق منه الا ما أضافه الجهل وسطره الهوى والشهوة من الأوهام والخرافات وليس له من دليل .. وليس لأصحابه عليه من حجة ولا برهان وتوزعت الجزيرة العربية أديان مختلفة الا أنها جميعها لم تعط صورة واضحة للاله الحق .. اذ بعد أن رفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل وعرف العرب الههم الواحد الأحد لم يستطيعوا مواصلة مسيرة التوحيد ، ولم تستطع عقولهم أن تتصور حقيقة الألوهية كما أوضحها الأنبياء والمرسلون ، ولم يدركوا الا أشياء محسوسة لديهم ، يرونها بعيونهم ويلمسونها بأيديهم ، وانقلب تعظيمهم لله الى تعظيم للحجارة وغيرها والتقرب بذلك الى الله .

يقول الخضرى : « ان العرب لما كثروا واحتاجوا لمبارحة مكة والانتشار فى أرجاء الجزيرة كانوا يأخذون معهم شيئا من حجارة الحرم أو الكعبة ليكون معهم أثر من آثار بركتها فيعظمون هذا الحجر تعظيمهم للكعبة فانتشر لذلك تعظيم الحجارة والتقرب بها الى المعبود الأعظم(٢٦) »

وأول من نقل بعض الأوثان من بلاد الشام الى الكعبة هو عمرو بن لحى فوجد استعدادا عند العرب من تعظيمها لأحجار الكعبة فعبدوها ..

---

(٢٦) محاضرات فى تاريخ الأمم الاسلامية للشيخ الخضرى ، ص ٤٤ .

روى ابن الكلبى : أن عمرو بن لحى مرض مرضا شديدا فقيل له ان بالبلقاء من الشام حمة اذا أتيتها برأت فأتاها فاستحم بها فبرأ ووجد أهلها يعبدون الأصنام فقال : ما هذا : فقالوا : نستسقى بها المطر ونستنصر بها على العدو .. فسألهم أن يعطوه منها .. فنقلها وقدم بها مكة ونصبها حول الكعبة .. (٢٧) » .

وهناك سبب آخر لعبادة الأصنام يرويه ابن الكلبى أيضا وهو تقديس الأفراد وتعظيمهم فهذا « اساف ونائلة من جرهم » وكان « اساف » يعشق « نائلة » ثم قدما للحج فدخلا الكعبة فوجدا غفلة من الناس وخلوة فى البيت فواقعها فمسخا حجرين فوضعا عند الكعبة ليتعظ بهما الناس فلما طال مكثهما وعبدت الأصنام عبدا معها .. (٢٨) » ..

الا أنهم مع عبادتهم للأصنام لم يكونوا ينكرون وجود الله ــ سبحانه ــ فاذا ما سئلوا عمن خلق السموات والأرض قالوا :

« خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٢٩) ».

انما عبادتهم للأصنام ــ كما حكى الله عنهم اذ قالوا :

« مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى (٣٠) » .

وبقيت للعرب آثار من نداءات اسماعيل عليه السلام « فقد كان كما قال ربنا : « صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا . . (٣١) »

---

(٢٧) الأصنام لابن الكلبى ص ٨ .
(٢٨) الاصنام لابن الكلبى ، ص ٩ ، ٢٩ .
(٢٩) سورة الزخرف ٩/٤٣ .
(٣٠) سورة الزمر ٣/٣٩ .
(٣١) سورة مريم ٥٤/١٩ ، ٥٥ .

لذلك « ما من كلمة من كلمات الفرائض لم تعرف عند عرب الجاهلية بلفظها وجملة معناها كالصلاة والصيام والزكاة والطهارة ، ومناطها كلها أنها حسنة عند رب البيت أو عند الله . وجاء فى صحيح مسلم عن عبد الله بن الصامت أن أبا ذر الغفارى قال له : يا ابن أخى : صليت مرتين قبل مبعث النبى صلى الله عليه وسلم فسأله : فأين كنت تتوجه ؟ قال : حيث وجهنى الله .. وجاء فى البخارى : أنهم كانوا يصومون يوم عاشوراء .. (٣٢) .

على أن عبادتهم للأصنام كانت سطحية لا تعمق فيها ولا نظر .. وهذا بعض ما ذكره ابن الكلبى مما يدل على ذلك : « كان لكنانة صنم يقال له « سعد » بساحل « جدة » فأقبل رجل بابل له ليوقفها عليه يتبرك بذلك ، فلما أدناها منه وكان عليه أثر دماء نفرت الابل وذهبت فى كل وجه وتفرقت فأسف صاحبها لذلك وغضب على « سعد » وتناول حجرا ورماه به وقال : لا بارك الله فيك الها .. أنفرت على ابلى .. ثم خرج فى طلبها حتى جمعها وانصرف وهو يقول :

أتينا الى سعد ليجمع شملنا ... فشتتنا سعد فلا نحن من سعد
وهل سعد الا صخرة لا قوى لها ... ترجى فلا تدعى لغى ولا رشد ؟

وكان « لمزينة » صنم يقال له « نهم » وكان له سادن يسمى « خزاعى بن عبد نهم » فلما سمع النبى صلى الله عليه وسلم ثار على الصنم فكسره وأنشأ يقول :

ذهبت الى « نهم » لأذبح عنده ... عنيزة نسك كالتى كنت أفعل
فقلت لنفسى حين راجعت عقلها ... أهذا اله ؟ أبكم ليس يعقل
أبيت .. فدينى اليوم دين محمد ... اله السماء الماجد المتفضل (٣٣)

---

(٣٢) مكة والمدينة فى الجاهلية وعهد الرسول ، ص ١٦٩ .
(٣٣) الأصنام لابن الكلبى ، ص ٣٧ ، ٣٩ ، ٤٠ .

كما يوضح ذلك « دوزى » فيقول :

« وكانوا يغضبون من الآلهة ويجبهونها بحقيقة ما يعتقدون كما كانوا يتحدونها ، وكانوا يطرحون الأزلام فى غضب وازدراء اذا كانت مشورتها على غير ما تهوى نفوسهم ويسبون الأصنام ويرجمونها بالحجارة اذا عاكسهم القدر فظنوه من غضب تلك الآلهة ويسقطون آلهتهم عن عروشها ويشبعونها سبا لأقل سبب [٣٤] •• »

أرأيت صورة مشوهة صنعتها الأيدى من الحجر أو الخشب كيف تسيغ العقول عبادتها والتقرب لها الا أن يكون ذلك هزلا لا جد فيه ؟؟ ••

وهل رأيت الها يصنعه أهله من الحلوى ، فاذا جاعوا أكلوه •• ؟ ألا ان ذلك كله لهو الضلال المبين •

نعم كانوا يحتقرون تلك الآلهة المصطنعة ومع ذلك فقد تعصبوا لها ورأوا فيها مجد الآباء والأجداد ومثلت أهم عناصر النظم الاجتماعية بل ادعوا أن عبادتهم لهذه الآلهة من مشيئة الله كما أن تحليلهم وتحريمهم دون الرجوع الى شريعة هادية من مشيئة الله أيضا ••

قال تعالى :

« وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا : لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ . . ؟ » [٣٥] .

---

(٣٤) تاريخ الاسلام السياسى ، د. حسن ابراهيم ، ص ١٥٢ •
(٣٥) سورة النحل ٣٥/١٦ •

وقال :

« سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَا ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ »(٣٦)

ووقف بهم تفكيرهم عند هذا الحد من التعصب ولم يكلفوا أنفسهم البحث والنظر وأصبحت عبادة الأصنام هى الدين الشائع فى الجـزيرة العربية ..

وبجانب الوثنية كان للعرب نحل وديانات أخرى : منها الصابئـة : ويعبد أتباعها النجوم والكواكب وقد انتشرت فى بـلاد اليمن وحران وأعالى بلاد العراق .. والقرآن يذكر عبدة الكواكب فى مملكة سبأ حين يتحدث عن ملك سليمان وما أعطاه الله له من جزيل النعم .. ومع علم سليمان الواسع ففوق كل ذى علم عليم : يأتيه الهدهد من مكان بعيـد يقول له معتذرا عن تأخيره : ما نقرؤه فى سورة النمل من قول الله تعالى على لسان الهدهد .

« أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ * إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ

---

(٣٦) سورة الأنعام ١٤٨/٦ .

ٱللهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ . »(٣٧) .

وابراهيم ، عليه السلام ــ يجارى قومه فى عبادتهم ليأخذ بيدهم الى الاله الحق قال تعالى :

« فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَباً قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ *فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ *فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ *إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَآ أَنَا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ(٣٨) » .

تلك عبادة الكواكب التى « كانت تقوم على ثالوث مكون من الاله الأب وهو : القمر ــ والالهة الأم وهى : الشمس .. أما الاله الابن فقد كان نجم الزهراء .. (٣٩) » .

---

(٣٧) سورة النمل ٢٧/٢٢ ــ ٢٤ .

(٣٨) سورة الأنعام ٦/٧٦ ــ ٧٩ .

(٣٩) دراسات فى تاريخ الشرق القديم لأحمد فخرى ص ١٣٣ .

وأمام هذه الآلهة المدعاة قدمت القرابين وأريق دم الانسان فى سبيل وهم فاسد ودين باطل .. هذا عبد المطلب بن هاشم ينذر اذا بلغ بنوه عشرة أن يذبح واحدا منهم قربانا لآلهته فلما تحقق رجاؤه جاء بابنه عبد الله ليذبحه لولا أن أشير عليه بضرب القداح بينه وبين الفداء من الابل حتى ترضى الآلهة وما زال يضرب القداح حتى وصلت الابل مائة فذبحها فداء لابنه ..

قال تعالى :

« وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَافَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ » (٤٠).

« وهذا هو المنذر بن ماء السماء (٥٠٥ ـ ٥٥٤م) فى الحيرة يقدم كثيرا من أسرى المسيحيين تكريما للسيار « فينوس » (الزهرة) كما كان عرب شبه جزيرة سيناء يقدمون القرابين البشرية لنفس هذا السيار .. (٤١) » ..

كما انتشرت عبادة النار فى الأماكن التى خضعت لحكم الفرس زمنا ، والنار تمثل العنصر الشفاف الذى يرمز الى الخير الذى لابد أن ينتصر على قوة الشر كما جاء بالديانة المصطنعة التى اخترعها «زرادشت » فى بلاد فارس .

---

(٤٠) سورة الأنعام ٦/١٣٧ ، وانظر ابن هشام جـ ١ ص ١٠٣ ، ١٠٤

(٤١) تاريخ الاسلام السياسى ص ٧١ .

أما الأديان السماوية فقد دخلت الجزيرة العربية منذ وقت مبكر :
فالنصرانية دخلت بلاد العرب بفضل جهود الدولة الرومانية الشرقية فى القرن الرابع الميلادى ، ولما كانت العلاقات وثيقة بين العرب والبيزنطيين، فقد تأثر العرب بالمسيحية الى حد ما .. فانتشرت فى الجنوب عن طريق الحبشة وفى الشمال عن طريق سورية وشبه جزيرة سيناء الآهلة بالأديرة والصوامع .. وقد انقسمت النصرانية فى ذلك الوقت الى عدة فرق ، تسرب منها الى جزيرة العرب فرقتان : فكانت النسطورية منتشرة فى الحيرة ، واليعقوبية فى غسان وسائر قبائل الشام (٤٢) » ..

أما اليهودية : فانها جاءت من الشمال « ومن المرجح أن يكون أول مهاجريهم جاءوا فى القرن الأول قبل الميلاد وقد استقرت جاليات كثيرة منهم على طريق القوافل وبخاصة المدن التى كانت حولها أرض زراعية » (٤٣) .

« واشتهر بها (أى ببلاد العرب) دين اليهودية فان السريانيين واليونان طردوا اليهود من بلادهم فقابلهم بنو اسماعيل بالترحيب وتهود منهم كثير لما رأوه فى كتب اليهود القديمة من التعظيم للاله الذى اهتدى الخليل عليه السلام الى عبادته سبحانه واشتهر الدين بالجهات : الحجاز ونواحيها : خيبر والمدينة بين قبائل قريظة والنضير ذات الشوكة المتأصلة هناك من زمن مديد كما اشتهر بجزء عظيم من قبائل اليمن بعد أن نقله التبابعة الى ممالكهم فى سنى ٢٥٥ ، ٣٠١ ، ٤٩٥ بعد الميلاد .. (٤٤) » .

على أن فريقا آخر من المؤرخين يرى أن « يهود هذه الجزيرة نزحوا اليها من فلسطين على أثر الحروب التى شنها الرومان ضد اليهود بسوريا

---

(٤٢) تاريخ الاسلام السياسى ص ٧١ .
(٤٣) دراسات فى تاريخ الشرق القديم ص ١٣٢ .
(٤٤) خلاصة تاريخ العرب : لسديو ص ٣٨ .

والتى انتهت بطردهم منها وتشتتهم فى أنحاء متفرقة فهاجر منهم بنــــو النضير وبنو قريظة الى شمال شبه جزيرة العرب وأقاموا بها الى أن نزح اليهم من بلاد اليمن قبائل الأوس والخزرج الوثنية بسبب سيل العــرم الذى خرب بلادهم .. (٤٥) » ..

والرأى الأخير هو ما نميل اليه ويؤيده الواقع التاريخى .. وكل ما يعنينا فى موضوعنا أن نبين ما انتشر فى الجزيرة العربية من ديانات سماوية وغير سماوية لا أن نستقصى أصل كل قوم وكيف وفدوا على تلك البلاد .. ويكفى أن نعرف أن تعاليم التوراة من بعث وثواب وعقاب شاعت فى الجزيرة بسبب وجود اليهود وخاصة فى الأماكن التى اختلطوا فيها بأهلها ..

وبين اليهودية والمسيحية كان التنافس على أشده وكانت العداوات كلما قوى فريق صب جام سخطه على الآخر .. ولعل ما فعله ذو نواس الحميرى بنصارى نجدان خير دليل على ذلك .. فقد حفر لهم أخدودا ملأه نارا وألقى فيه من لم يرجع عن دينه ولم ينته الا بعد أن تـــدخل البيزنطيون وطلبوا من نجاشى الحبشة أن يهب لانقاذ اخوانه فى الدين.. وفى ذلك يقول القرآن :

« قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ * ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ * ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ

(٤٥) قيام الدولة العربية الاسلامية فى حياة محمد صــلى الله عليه وسلم للدكتور / محمد جمال الدين سرور ص ٤٤ .

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ »(٤٦) .

ولم تتمكن اليهودية أو المسيحية من فرض نفسها على الجزيرة العربية ولم تنتشر بما يلائم ما بذل فى سبيل الدعوة لكل منها من مجهودات ولم يدخل فيهما الا عدد قليل من العرب وما ذلك الا لأن بنى اسرائيل جعلوا دينهم مقصورا عليهم وادعوا أنهم شعب الله المختار ، الأمر الذى لا يحقق المساواة بين اليهود وغيرهم ..

والمسيحية تعددت فرقها ومذاهبها ، وامتلأت بالتعقيدات ، ولم يستطع الذهن العربى أن يستسيغ مثل هذه الديانات المعقدة .. كما أن العربى كان يرى أن اليهودية والمسيحية شىء دخيل فى حياته لا يمثل ماكان عليه العرب من حب الفخر والاعتزاز بالنسب والقبيلة فكانوا يتطلعون الى دين يعبر عنهم ويحملون أمانة رسالته ويستطيعون به الوقوف فى وجه الأسدين : فارس والروم .. يقول القرآن :

« وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُوراً * ٱسْتِكْبَاراً فِي ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ »(٤٧) .

---

(٤٦) سورة البروج ٨٥/٤ – ١٠ .
(٤٧) سورة فاطر ٣٥/٤٢ – ٤٣ .

وهكذا لم يكتب لليهودية أو النصرانية أو الزرادشتية النجـــاح والانتشار وبقيت عبادة الأصنام دينا شائعا فى كل مكان : يمثل السذاجة فى التفكير والجهل والانحراف عن طريق الحق ..

كما أن قلة من العرب وقفت بها عقولها عنـــد الظاهر الملموس فأنكرت ما وراء الغيب وجحدت الاله الحق ، وعاشت فى حيز ما تـرى وما تشاهد ، وقال قائلهم ان هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر .. ان هى الا أرحام تدفع وأرض تبلع .. وليس لهؤلاء من دليل على هـذا الانكار ان هى الا أوهام وظنون . وفيهم يقـول القرآن الكريم :

« وَقَالُواْ مَاهِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ »(٤٨) .

ولم يتنبه لهذه الحالة وما وصلت اليه من سوء الا قلة مستنيرة واعية نظرت فى دين قومها فوجدته ضلالا وبهتانا : اذ كيف يصنع الانسان الهه من حجر ثم يخر له ساجدا ؟؟

وعبادة النار : جهل أى جهل ، واليهودية والمسيحية ملئتا بالخرافات والتعقيدات .

والدهريون أبعد الناس فى الانحراف عن الطريق الواضح المستقيم

---

(٤٨) سورة الجاثية ٤٥/٢٤ .

ولهذا بحث هؤلاء عن دين جديد يحمل الطهر والعفة والاعتقاد الصحيح فدعوا الى توحيد الله ونبذ عبادة الأوثان ، كما دعوا قومهم الى الاقلاع عن سيىء العادات : كوأد البنات وشرب الخمر ولعب الميسر ، واهتدوا الى أن الناس لم تخلق هكذا هملا انما لابد من بعث أمام اله واحد يحاسب الناس ويجازيهم عما قدموا من خير وشر ..

وهذه النزعة التي كانت قبيل الاسلام يطلق عليها « التحنف » وعلى أصحابها « الحنفاء » أو « التائبون » ، لأنهم كانوا يقولون : نحن على دين ابراهيم .. والقرآن يقول فى ابراهيم :

« مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَـٰكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ »[(٤٩)] .

ويقول :

« إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِّلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ[(٥٠)] » .

ولكن هذه النزعة لم تنتشر بشكل واسع انما بقى العرب فى اضطراب فكرى .. « وأصبح أهل الجاهلية لا يعرفون لم يصلون ولا الى من يتوسلون !! يذبح أحدهم للصنم ويدعو الى الله ، وفيهم عبدة النار وعبدة الأصنام وفيهم الموحدون والمشركون وغير ذلك من أنواع العبادات المتضاربة وظهر فى أثناء ذلك الاضطراب من حرم الخمر ورفض الأصنام، وأصبح الناس يتوقعون الفرج من باب النبوة وكان ذلك حديث الناس

---

(٤٩) سورة آل عمران ٦٧/٣ .

(٥٠) سورة النحل ١٢٠/١٦ .

فى مجالسهم ، فادعى النبوة غير واحد من قبائل مختلفة وهم بعضهم بادعائها مما يدل على تنبه الأذهان الى امر الدين والتفكير فى عـــواقب الأعمال •• (٥١) »

وزاد الأمر سوءا أن الخرافات والأوهام أصبحت جزءا من عقيدتهم ومكونا أساسيا يوجه فكرهم وحياتهم: فالغيلان والهامة والأرواح الشريرة وغير ذلك لها أو فى نصيب عندهم •• يقول المسعودى : « كانت العرب قبل الاسلام تزعم أن الغيلان توقد بالليل النيران للعبث والتحيل واختلال السابلة •• قال أبو المطراب :

فلله در الغــول أى رفيقــة لصاحب قفر حالف وهــو معبر

أرنت بلحن بعد لحن وأوقــدت حوالى نيرانا تلوح وتزهــــــر

والعرب قبل الاسلام تقول : ان من الجن من هو على صورة نصف الانسان وانه كان يظهر لها فى أسفارها فى حين خلواتها وتسميه«شقا»(٥٢)

« ومن معتقداتهم الفاسدة :

أن من خرج فى سفر والتفت وراءه لم يتم سفره فان التفت تطيروا له •• وأن من علق عليه كعب أرنب لم تصبه عين ولا سحر يزعمون أن الجن تهرب من الأرنب لكونها تحيض •• وأن المرأة اذا أحبت رجــلا وأحبها ثم لم يشق عليها رداءه وتشق عليه برقعها فسد حبهما وأن الرجل اذا قدم قرية فخاف وباءها فوقف على بابها قبل أن يدخلها ونهق كما تنهق الحمير لم يصبه وباؤها ، وأن الرجل اذا ضل وقلب ثيابه اهتدى ، وأن الناقة اذا نفرت وذكر اسم أمها فانها تسكن ••

---

(٥١) تاريخ التمدن الاسلامى لجرجى زيدان جـ ١ ص ٤٧ .

(٥٢) مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودى جـ ٢ ص ١٥٧ ، ١٦٠ ، ١٦١ .

ومن المعتقدات الفاسدة : الرتم والرقيمة والتعمية والتفقئة والعر وضرب الثيران عن البقر وتثنية الضربة والهامة والصفر ••

فأما الرتم : فكان أحدهم اذا أراد سفرا فى الجاهلية عمد الى شجرة فيعقد غصنا منها فاذا عاد من سفره فوجده قد انحل قال : خانتنى امرأتى وان وجده على حالته قال : لم تخنى ••

والرقيمة : ناقة كانت العرب اذا مات واحد منهم عقلوا ناقته عند قبره وسدوا عينيها حتى تموت يزعمون أنه اذا بعث من قبره ركبها ••

والتفقئة والتعمية ، كان الرجل منهم اذا بلغت ابله ألفا قلع عين الفحل يزعمون أن ذلك يدفع عنها العين فاذا زادت عن الألف فقأ عينه الأخرى ••

والعر : داء يشبه الجرب يصيب الابل فكانوا فى الجاهلية يكوون الابل السليمة ويزعمون أن ذلك يبرىء السقيمة من هذا الداء ••

وكانت البقر : اذا امتنعت عن الشرب يضربون الثيران ويزعمون أن الجن يركبون الثيران فيصدون البقر عن الشرب ••

ويزعمون أن الانسان اذا قتل ولم يؤخذ بثأره يخرج من رأسه طائر كالبومة يسمى « بالهامة » ولا يزال يصيح على قبره ويقول : اسقونى الى أن يؤخذ بثأره ويقولون أيضا انها تخبره بما يكون بعده •• قال بعضهم ••

هامتى تخبرنى بما تستشعروا فتجنبوا الشنعاء والمكروها

ويزعمون أن الصفرة حية تكون فى الباطن فاذا جاع الانسان عضت شرسوفه (٥٣) فيقولون : عضت شرسوفه الصفر حتى جاء الاسلام والعرب ترى صحة الهامة والصفر فقال النبى صلى الله عليه وسلم : لا هامة ولا صفر .. (٥٤) »

ومن أقبح العوائد : « عادة استسقائهم بالكيفيات القبيحة الخارجة عن الآداب الانسانية وهى استمطارهم بالعشر وذلك أنهم كانوا يخرجون فى أوقات الجدب واحتباس المطر لطلب السقيا فيجمعون حزم النبات المسمى بالعشر والسلع » ويربطونها فى آذناب البقر ثم يشعلونها بالنيران ويصعدون البقر على هذه الحال الى الجبال والربوات المرتفعة مفرقين بينها وبين أولادها مستسقين بهذه المناظر الشنيعة .. (٥٥)

(هـ) مؤهلات العرب لحمل الرسالة :

نعم وصلت الجزيرة العربية قبيل نزول القرآن الى حالة من الفوضى الفكرية والاضطراب الدينى . والأوهام المسيطرة ، والعادات السيئة التى لا حد لها .. تعثرت القافلة وغاب عن القوم من يدلهم على الطريق وخبا هذا الضوء الوهاج الذى أناره ابراهيم الخليل وابنه اسماعيل حول بيت الله المحرم .

نعم عاش العرب فى هذا الضلال وذلك الفساد .. فلماذا اختارهم الله ليكونوا حملة الرسالة العامة ورشحهم للدفاع عن دينه : هل لديهم من المؤهلات ما يجعلهم أهلا لهذا الشرف وذلك الفضل ؟؟

---

(٥٣) الشرسوف : كعصفور : غضروف معلق بكل ضلع أو سقط الضلع وهو الطرف المشرف على البطن . (القاموس المحيط جـ ٣ ص ١٧٥) .

(٥٤) النفخة الملوكية فى أحوال الأمة العربية الجاهلية للسيد / نور الدين القلوصنى الأزهرى ص ١٤٤ ، ١٨٥ .

(٥٥) اجمال الكلام فى العرب والاسلام لمصطفى الدمياطى ص ٣٤ .

لقد كان للبيئة العربية بصحراواتها الواسعة وانطلاق أهلها دون قيود من نظام مفروض أو سلطان مهمين ما غرس فيهم حب الحرية وعشقها ونفى عنهم بلادة الطبع التي تجعل صاحبها يألف سماع ما يهين شرفه فلا يثور ولا يغضب ، وأصبحت الحرية عنوان المجتمع العربى •• والحر : شجاع يدفع حياته فداء لشرفه وكرامته •• وهكذا كان العربى شجاعا لا يخاف الموت ، مقاتلا لا يبالى من يقاتل ، يدافع عن قبيلته بكل ما يملك يضحى بدمه رخيصا حماية لمن احتمى به ورضى بجواره ويثور لأحقر شيء وتدفعه حميته القوميةحمية الجاهلية الى الاندفاع فى وجه من يجرح كبرياءه ويعتدى على حريته •

« ويكفى لاستفزاز القوم أن ينادى مستغيث : يالفلان أو : واذلاه فما هو الا أن يطيروا اليه ذرافات ووحدانا حتى كان يصل بهم ذلك الى رعونة لا تمهل صاحبها ريثما يفكر فى العواقب •• يقول سعد بن ناشب المازنى مفتخرا بنفسه :

اذا هم ألقى بين عينيه همـــه ... ونكب عن ذكر العواقب جانبا
ولم يستشر فى أمره غير نفســه ... ولم يرض الاقائم السيف صاحبا(٥٦)

يقول سديو :

« فكانوا سريعى الغضب أقوياء الجراءة ، سفاكين للدماء ، معتقدين الأوهام الكاذبة كثيرى المشاجرة كراهية فى مطلق التحكم عليهم لما جبلوا عليه من حب الاستقلال الذى يظنونه الخير الوحيد من بين ماتمتعوا بـه مع ماهم عليه من كثرة السعى والجهد فى الضراوة المعاشية المصحوبة بصعوبة المعاملة وقوة الغلب وشدة الحرص على الانتقام الـ آنهم كانوا ذوى حرية وعزة نفس (٥٧) » ••

(٥٦) محاضرات فى تاريخ الأمم الاسلامية ص ٤٤ .
(٥٧) خلاصة تاريخ العرب لسدبو ص ١٨ .

الا أن هذه الحرية كالهواء والشمس حق مشاع ليس هناك من ينتزعه لأن الدواعي اليه لم تكن موجودة فكان يتمتع به الناس لأنه شيء زهيد لا قيمة له ، لا يغير .. من ظلم السادة ولا يطامن من كبرياء الأقوياء ولا يخضع أهل القوة والجبروت .. وكانت حمية الجاهلية وعصبيتها مصدر التعاسة والشقاء لهذا المجتمع .. فتجد فيه النعمان بن المنذر يجعل يوما للغضب لا يدخل أحد عليه فيه الا قتله ويوما للعفو لا يلقى أحدا فيه الا عفا عنه وأغدق عليه العطاء .. كما ترى كليب وائل الذى كان يرمى الكلب حيث يعجبه الصيد فلا يجرؤ أحد على الدنو من مكان يسمع فيه نباحه ولهذا سمى « كليب » وقيل « لا حر بوادى عوف » لأنه من عزته كان لا يأوى بواديه من يملك حريته فى جواره فكلهم أحرار فى حكم العبيد ..

« ولو لم يكن هذا دأب الملوك فى معهود العرب الأولين لما قالت احدى الملكات فيما رواه القرآن الكريم على لسانها :

« إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ» (٥٨) .

الا أن هذه الحرية وما استلزمته من عصبية وأنفة وكبرياء كانت من المؤهلات النفسية القوية التى أهلت العرب للانطلاق ، وما هو الا أن شحذها القرآن وهذبها حتى آتت أكلها باذن ربها واعتدلت فى الطريق دون تعسف أو كبر أو التواء .

وهذه البيئة التى صنعت هذه الحرية كانت أحد الأسباب فى صفاء الذهن العربى وتكوين العقلية وطلاقة فكرهم وألسنتهم فنطقوا بالحكمة بديهة وارتجالا .. يقول جرجى زيدان فى العرب :

---

(٥٨) حقائق الاسلام وأباطيل خصومة للعقاد ص ١٤٣ والآية من سورة النمل ٢٧/٣٤ .

« يظهر مما وصل الينا أنهم كانوا كبار العقول •• أهل ذكاء ونباهة واختبار وحنكة وأكثر معارفهم من ثمار قرائحهم •• وهى تدل على صفاء أذهانهم وصدق نظرهم فى الطبيعة وأحوال الانسان مما لا يقل عن نظر أعظم الفلاسفة ، فان قول زهير بن أبى سلمى فى معلقته : رأيت المنايا خبط عشواء •• الى قوله :

وان خالها تخفى على الناس تعلم •• لا يقل شيئا عن أحكام أكابر الفلاسفة [٥٩] • ولقد تميز المجتمع العربى بصفات جميلة كان من أهمها الكرم : يوقد كرماؤهم نارا حول خيامهم يستدل بها ابن السبيل •• فاذا قدم الضيف وليس عند العربى الا ناقته التى هى حياته وحياة ولده قام الى ناقته فذبحها لضيفه خشية أن ينطق لسانه فيه قال قائلهم :

واعلم بأن الضيف يوما سوف يحمد أو يذم ••

ولقد دعاهم الكرم الى لعب الميسر فقد كانوا يطعمون المساكين ماربحوه ولكن هذه المنفعة لا تعدل ما يوقعه لعب الميسر بين اللاعبين من العداوة والبغضاء ••

كما دعاهم الى شرب الخمر الذى يجر الى المهالك وربما أدى بصاحبه الى الخزى والخسران •

فهذا أبو غبشان المالكى حينما كانت له سدانة الكعبة يوم كانت فى خزاعة أداه شغفه بالخمر وحبه لها الى بيع سدانة الكعبة ومفاتيحها الى قصى بن كلاب القرشى بزق خمر حتى ضرب به المثل فى الخسران فيقال : اخسر من أبى غبشان •• وفى ذلك يقول القائل :

---

(٥٩) تاريخ آداب اللغة العربية لجرجى زيدان ج ١ ص ٢٩ .

باعت خزاعة بيت الله اذ سكرت　　بزق خمر فبئست صفقة البادى
باعت سداتتها بالنزر وانصرفت　　على المقام وظل البيت والنادى[٦٠]

كذلك كان الوفاء بالعهد عندهم ذمة ودينا « يتمسكون به ويستهينون فى سبيل الوفاء به قتل أولادهم وتخريب ديارهم •• ومن نتائج هذا الخلق أنهم كانوا يغلون فى الوفاء للجار والحليف حتى يكون عندهم مقدما على الآباء والاخوان »[٦١] •• الحرية والعزة القومية والكرم والوفاء بالعهد والشجاعة واللسان الطلق الفصيح والذهن المتقد الذكى معالم واضحة فى حياة الجزيرة العربية وجدها الاسلام فكانت موانع ودوافع •• موانع : وقفت فى طريق القرآن وجعلت الكثيرين يأنفون الدخول تحت لواء الاسلام والانطواء لتعاليم جاء بها محمد بن عبد الله كبرا وعنادا •

قال تعالى :

« فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ »[٦٢] .

ودوافع : جعلت أهل الوفاء والشجاعة يحمون رسول الله وما أتى به من وحى الله بأموالهم وأنفسهم وأولادهم حين آمنوا برسالة القرآن وتذوقوا طعم الايمان بل انها أحد الأسباب التى دفعت القبائل لحماية من آمن منها بمحمد كما هو واضح حين انحاز بنو هاشم الى شعب أبى طالب وفيهم المسلم وغير المسلم حمية وتعصبا لرسول الله ••

---

(٦٠) اجمال الكلام فى العرب والاسلام لمصطفى الدمياطى ص ٣١ ، ٣٢
(٦١) فجر الاسلام ــ احمد امين ص ١١ .
(٦٢) سورة الأنعام ٦/٣٣ .

وما من أمة من الأمم خلصت للشر كله فلا بد أن يشيع فيها بصيص من ضياء الحق وان كان يتوارى خلف حجب الظلام الحالك ..

وهكذا كانت الأمة العربية قبيل نزول القرآن : انتشر فيها وباء الجاهلية ، وخيم عليها ظلام الكفر ، وعاشت فى ضلال الباطل ولم تبق ناحية من نواحيها : اجتماعية واقتصادية وسياسية ودينية وخلقية الا وامتدت اليها يد الموت الذى يلحق الأمم .. ولحق بها داء العمى فتاهت بها الطرق وضلت سواء السبيل .. الا أن هذا الميت كان يستعد للبعث ويتطلع الى الحياة .. وأودع الله فيه من الصفات ما أهله لحمل هذه الرسالة الخالدة وان كانت هذه المؤهلات الخطيرة قد انحرفت عن غايتها فأصبحت الشجاعة للاعتداء .. والحرية للكبرياء والكرم للتفاخر والتظاهر .. والوفاء بالعهد وسيلة لحروب طاحنة تضيع فيها دماء الأبرياء فلا غرو أن أمسك القرآن بزمامها وقادها لنصرة الحق ورفعة دين الله ..

ولعل خير ما يصور حال العرب قبيل الاسلام هو ما قاله جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه للنجاشى ملك الحبشة ..

« أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسىء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف فكنا على ذلك حتى بعث الله الينا رسولا منا ، نعرف نسبه ، وصدقه ، وأمانته ، وعفافه ، فدعانا الى الله لنوحده ، ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ،والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنة .. وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا ، وأمرنا بالصلاة،

والزكاة ، والصيام ، فصدقناه وآمنا به ، واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئا وحرمنا ما حرم علينا وأحللنا ما أحل لنا فعدا علينا قومنا . فعذبونا ، وفتنونا عن ديننا ، ليردونا الى عبادة الأوثان عن عبادة الله تعالى وأن نستحل ماكنا نستحل من الخبائث (٦٣) .

ثانيا ـ المجتمع العالمى :

واذا كان المجتمع العربى قبيل نزول القرآن على هذا الحال من الانحراف والضلال ، فان العالم كله من حوله كان يموج بالاستعباد ، والظلم ، والجاهلية ، والتدين الباطل ، والمذاهب الفاسدة ، والأفكار الشاذة ، والعادات الممقوتة ، والبؤس ، والشقاء ، والحرمان .. كل ذلك خيم على ربوع الأرض مما جعل الدنيا كلها تتطلع الى باب تنفذ منه الى كنف الرحمة وتستريح وراءه من هذا العناء ، وتلتقط بعده أنفاسها اللاهثة ، وتستقر فى جوار الأمان والسلام .

الامبراطورية الرومانية والفارسية وبلاد الهند والصين والعالم المعروف آنذاك شاعت فى ارجائه مفاسد واباطيل ، قتلت فيه روح الانسان الذى جعله الله خليفة فى الأرض .. والأديان السماوية من اليهودية والمسيحية لم تعد صالحة لهداية الانسانية وحمايتها من الاضطراب والتشتت والضياع ..

***

(أ) بنو اسرائيل :

بنو اسرائيل .. أبناء يعقوب .. وفرع النبوة من ابراهيم الخليل، صبروا فى مجال الدعوة الى الله فأعطاهم قيادة الانسانية ، وجعلهم حملة المشاعل . ودعاة الايمان :

---

(٦٣) ابن هشام جـ ١ ص ٢١٣ .

قال تعالى :

« يَٰبَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ (٦٤) » .

وهذا الفضل مرده الى رسوخ قدمهم فى ميدان الحق .

كما قال سبحانه :

« وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ (٦٥) » .

الا أنهم جحدوا نعمة الله وتعالوا فى كبرياء ونظروا الى الانسانية فى زراية واحتقار ، وادعو أنهم شعب الله المختار ، وأنهم السادة وغيرهم عبيد ، فلم يبالوا ما يصنعون بالبشرية ولم يجدوا غضاضة فى ظلم أو استغلال ينزل بأى انسان ..

قال تعالى :

« ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ (٦٦) » .

وأقبلت عليهم الدنيا فأحبوها .. واستولى حب المال على مشاعرهم وقلوبهم فباعوا — فى سبيله — دينهم وحرفوا ما أنزل الله طمعا فى الكسب الرخيص والعرض الزائل .

---

(٦٤) سورة البقرة ٤٧/٢ .

(٦٥) سورة السجدة ٤٢/٣٢ .

(٦٦) سورة آل عمران ٧٥/٣ .

يقول الله :

« فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ (٦٧) » .

ويقول :

« وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ (٦٨) » .

ويقول :

« وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٦٩) »

وما استجاب بنو اسرائيل لداعى الله وما اهتدوا الى الطريق المستقيم انما اعتدوا على مصادر الرحمة واطفأوا مصابيح الهداية الربانية وعاشوا فى الظلام الحالك ، وأصموا آذانهم عن النداء الالهى ، فاستحقوا غضب الله ومقته ولعنته وطرده ..

---

(٦٧) سورة البقرة ٢/٧٩ .
(٦٨) سورة آل عمران ٣/١٨٧ .
(٦٩) سورة آل عمران ٣/٧٨ .

يقول الله سبحانه :

« فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا * وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَـٰنًا عَظِيمًا * وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ (٧٠) » .

ويقول :

« ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ (٧١) » .

وتاريخهم مليء بالانحراف من بدايته لنهايته ، ولم يشرق فى أفقه غير فترة قصيرة من الزمن صبروا فيها فاستحقوا تقدير الله لهم وتفضيله اياهم أما بعد ذلك فقد عثوا فى الأرض فسادا وبدأ ذلك فى وقت مبكر .. اذ لم يكن للمعجزات الباهرة التى أجراها الله على يد موسى عليه السلام أثر ظاهر فى تغيير سلوكهم : فهذه عصا موسى التى أرعبت فرعون وملأه وأخذت بقلوب السحرة فخروا لها ساجدين ، وعصا موسى التى ضرب بها

---

(٧٠) سورة النساء ٤/١٥٥ – ١٥٧ .

(٧١) سورة آل عمران ٣/١١٢ .

البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ، وعصا موسى التى ضرب بها الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عينا .. الآيات التى تترى لم تلق قبولا عندهم فما كادوا يمرون على قوم يعكفون على أصنام لهم حتى أهابوا بنبيهم ..

« يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * إِنَّ هَٰؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (٧٢) »

ويذهب موسى ليتلقى الألواح من ربه وفيها لهم هدى ونور فينسى بنو اسرائيل ربهم الحق حين رأوا عجل السامرى الــذى صنعه لهم ويتوجهون له بالعبادة والطاعة من دون الله ..

قال تعالى :

« وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ » .

وقال :

« إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ (٧٣) »

---

(٧٢) سورة الأعراف ١٣٨/٧ ، ١٣٩ .

(٧٣) سورة الأعراف ١٤٨/٧ ، ١٥٢ .

ولم يردهم عن غيهم نصح هارون حين قال :

« يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى * قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ[74] » .

فلما أصر على نصحهم هموا به ليقتلوه .. انظر اليه وهو يعتذر لأخيه موسى فيقول ما حكى القرآن عنه :

« ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ[75] »

واذا كانوا قد هموا بهارون ليقتلوه ، فقد قتلوا من بعده كثيرا من أنبياء الله :

قال تعالى :

« أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ * وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ[76] » .

---

(٧٤) سورة طه ٢٠/٩٠ ، ٩١ .

(٧٥) سورة الأعراف ١٥٠/٧ .

(٧٦) سورة البقرة ٨٧/٢ ، ٨٨ .

لقد عتوا عن الحق واستكبروا على هدايات السماء ، فمسخهم الله ، وغير قلوبهم وحقت عليهم كلمته وأذاقهم جزاء ما صنعوا :

« فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ * وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧٧) »

جنس طرده الله وأبعده عن رحمته وضرب عليه الذلة والمسكنة هل يصلح للحياة ؟ وهل يصلح أن يكون خليفة فى الأرض فضلا عن أن يكون حامل رسالة وصاحب دعوة ومرشدا الى طريق رب العالمين ؟؟

ان التاريخ ليشهد .. وان الحقائق لتنطق بأن بنى اسرائيل كانوا ــ ومازالوا ــ فى حاجة ماسة الى من يأخذ بيدهم وينقذهم من وهدة الضلالة ، ويضع أيديهم على مصادر الرحمة والأمان ، لأنهم ضاعوا فى متاهات الباطل ، وعموا عن الحق الواضح الصريح ..

(ب) المسيحية .. والامبراطورية الرومانية :

أرسل الله المسيح عيسى بن مريم عليه السلام داعيا الى المحبة والسلام مكملا لرسالة موسى ومصدقا لما بين يديه من التوراة وخلت دعوته من الأحكام والتشريعات الا ما كان من قبيل التخفيف عن قومه فأحل لهم بعض ما حرم عليهم ، واقتصرت رسالته على مكارم الأخلاق من الصفح والعفو والاخلاص والتجرد لله والترفع عن حب الدنيا والعطف

---

(٧٧) سورة الأعراف ٧/١٦٦ ، ١٦٧ .

على الفقير والاحساس بحاجة البائس وتحمل الأذى الى غير ذلك من الأخلاق العالية •

ولنستمع اليه وهو يقول : « سمعتم أنه قيل عين بعين وسن بسن، وأما أنا فأقول لكم : لا تقاوموا الشر •• بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضا ، ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء ، ومن سخرك ميلا واحدا فاذهب معه اثنين [(٧٨)] » ••

ويقول : « لا تقدرون أن تخدموا الله والمال لذلك أقول لـكم : لا تهتموا لحيـاتكم بما تأكلون وما تشربون ولا لأجسـامكم بمـا تلبسون » [(٧٩)]

ويقول : « ما أعسر دخول ذوى الأموال ملكوت السموات •• وأقول لكم : بأن مرور جمل فى ثقب ابرة أيسر من أن يدخل غنى ملكوت الله •• [(٨٠)] » ••

الا أن هذا النداء الرحيم وجد قلوبا صما قاسية كالحجارة أو أشد قسوة •• رأت فى هذا النداء خطرا يهدد شهواتها ومطامعها ، فثارت عليه وكادت له وأجمعت على قتله ••

وأخذ بنو اسرائيل يبحثون عن عيسى عليه السلام ـ فى كل مكان ـ ولم يستريحوا الا بعد أن زال هذا الخطر ، وتأكدوا أنهم قضوا عليه •• ولكن عناية الله كانت له حافظة ومن كيدهم له حامية مانعة :

---

(٧٨) انجيل متى ، الأصحاح الخامس ـ الفقرات ٣٨ ـ ٤٠ •

(٧٩) انجيل متى ، الأصحاح السادس الفقرة ٢٥ •

(٨٠) انجيل متى ، الأصحاح التاسع عشر الفقرة ٢٣ ، وانجيل لوقا ، الأصحاح الثامن عشر الفقرة ٢٥ ، ٢٦ •

« وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا * بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً(٨١) » .

وبقي حواريو عيسى وتلامذته المخلصون حاملين مشاعل الانجيل من بعده ، ولكنهم تفرقوا في البلاد وانتشروا في الأرض تحت وطـأة الاضطهاد اليهودي وقسوته .. وهنا كان قد برز الى الوجود عملاق كبير هو الدولة الرومانية وريثة الأمة اليونانية ، وفتوحات الاسكندر الأكبر : اذ قد استولى الرومان على مقدونيا ومدن اليونان وآسـيا الصغرى وسوريا ومصر وامتدت امبراطوريتهم من نهرى الرين والطونة شمالا الى الصحراء الكبرى جنوبا ومن المحيط الأطلسي غربا الى نهر الفرات شرقا ولم يبق خارجا عن ملكهم الا بلاد العراق وشبه الجزيرة العربية ، ومرت السنوات وأتباع عيسى يلقون العنت والارهاق والظلم فى دولة الروم .. وكان من الطبيعي ألا يبقى الانجيل الذى أنزله الله على عيسى بعد أن تفرق حملته ونزل بهم من العذاب والتشريد والتنـكيل والقتل ما أنقص عددهم ولم يبق من هذا الانجيل الا قصص ينقصها صحة السند ، وعدالة الرواة تنسب كل مجموعة من هذه القصص الى راو من الرواة وتسمى فى مجموعها الأناجيل .

وجاء « قسطنطين » فوجد الفرس الساسانيين يهددون دولته عنـد حدودها الشرقية فنقل عاصمة ملكه من روما الى بيزنطة سـنة ٣٣٣م وسماها القسطنطينية نسبة لاسمه كما اعترف بالديانة المسيحية كـدين

---

(٨١) سورة النساء ١٥٧/٤ ، ١٥٨ .

من الأديان الرسمية فى دولته وعطف على المسيحيين عامة حتى يضمن ولاءهم ووحدة بلاده وقوتها أمام خطر الفرس الساسانيين على الحدود الشرقية واخطار غيرهم من القبائل الجرمانية المتبربرة الرابضة على الحدود الشرقية .

ولم تلبث المسيحية أن أصبحت الدين الرسمى للدولة الرومانية القديمة بعد عصر قسطنطين فى أواخر القرن الرابع الميلادى ولكن الأفكار المسيحية على مر هذه القرون تأثرت بالوثنية اليونانية والفلسفة الاغريقية فانقلبت الى عبادة صور ودين وثنية .. يقول ـ « سل » العالم الانجليزى عن نصارى القرن السادس الميلادى : « أسرف المسيحيون فى عبادة القديسين والصور المسيحية وجد خلاف عن طبيعة المسيح وما اذا كانت مزدوجة أو الهية تلاشت فيها طبيعة المسيح كما تتلاشى قطرة من الخل تقع فى بحر عميق لا قرار له [٨٢] » ..

وصدق الله اذ يقول :

« ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ [٨٣] » .

وتعددت المذاهب ، وكثرت الفرق ، واضمحلت عظمة الامبراطورية الرومانية ، وضاع منها جزؤها الغربى حين سقطت روما سنة ٤٧٦ تحت

---

(٨٢) المجتمع الاسلامى د. احمد شلبى ص ٢٩ .

(٨٣) سورة التوبة ٣١/٩ .

عنف الغارات الشديدة التى وجهتها لها القبائل المتبربرة ، التى تسكن الأراضى الواقعة شمالى نهرالطونة وشرقى الراين «ولم يبق من امبراطورية الرومان سوى قسمها الشرقى المعروف باسم الدولة الرومانية الشرقية التى كانت تشمل بلاد اليونان ، ومقدونيا ، وتراقيا ، وآسيا الصغرى وتضم جزءا كبيرا من الوطن العربى • يشمل سوريا ، وفلسطين ، ومصر ودب النزاع والشقاق بين أصحاب المذاهب المتنازعة ودخلت السلطات الحاكمة حلبة هذا الخلاف فأضافت بذلك بلاء الى بلاء ، •• « فكان الامبراطور وأهل دولته يقولون : ان للمسيح طبيعتين ومشيئتين وأما رعيته فى مصر والشام فكان أكثرهم يقولون بطبيعة واحدة ومشيئة واحدة وهم اليعاقبة وفى زمن هرقل سعى البطريك اثناسيوس بطريك اليعاقبة فى منبج فى التوفيق بين الطائفتين فخاطب الامبراطور فى ذلك وذهب مذهبا متوسطا بين القولين وهو : أن للمسيح طبيعتين ومشيئة واحدة فوافقه الامبراطور واستمهله ريثما يخاطب البطريرك القسطنطينى « بيروس » وهو سورى الأصل •• وكان اثناسيوس قد اتفق معه على ذلك قبل مخاطبة الامبراطور فنشر الامبراطور بهذا المعتقد منشورا قبل به أكثر الأساقفة الشرقيين الا « صفرونيوس » البطريرك الأورشليمى وبعض الأساقفة وفى مقدمتهم أسقف عمان وسائر أهل الكنيسة الملكية فشق ذلك على الامبراطور فعمل على الانتقام من الذين لم يقبلوا بمنشوره وفيهم جانب عظيم من الروم فأصبح الانقسام مزدوجا : الامبراطور والبطريرك القسطنطينى والاسكندرى والانطاكى حزب يقول بطبيعتين ومشيئة واحدة ، واليعاقبة ومنهم الأقباط وأهل موران وسائر داخلية سوريا ومصر حزب آخر والنساطرة وهم أهل العراق والجزيرة حزب آخر فضلا عن طوائف أخرى غير هذه منهم الخياليون والأكيفاليون واليعاقبة كانوا أقساما مما يطول شرحه •• (٨٤) •• »

(٨٤) تاريخ التمدن الاسلامى لجرجى زيدان ص ٥٤ .

وقالوا : ان الله هو المسيح بن مريم وقالوا : ان الله ثالث ثلاثة ..
وغاب عنهم أن عيسى عبد الله ورسوله وأنه كلمة الله وآية قدرته حين نفخ
فى مريم من روحه فكان هذا النبى الكريم ..

وشاعت فى أرجاء الامبراطورية الرومانية فلسفة الأغريق وخرافاتهم
فأخذوا منها ما يوافق أهواءهم ولا يتعارض مع شهواتهم .. ومثلت
الأبيقورية وزعيمها الفيلسوف اليونانى « أبيقور » ٣٤ ق ٠م٠ .. قمة
الانحراف الخلقى والعقائدى : وذلك أن أشهر نظرياته هى :
نظرية السعادة وسواء كان النقل عنه صحيحا أو خطأ فان ما عرف عنه أنه
كان يرى السعادة فى اللذة « ويعلن أبيقور سخطه على الذين يجرءون
على انكار أمر معترف به من جميع المشاعر بين جميع الأحياء ولا فرق
فى ذلك بين العجماوات والانسان .. كذلك من الواضح البين أن اللذة
المقصودة هنا هى لذة الجسد سواء كان ذلك فى الرضا الذى ينتج عن
اشباع المعدة أو فى هذه المتعة الأكثر رقة التى تبعثها اللمسات الخفيفة
من الأيدى الناعمة .. [٨٥] .. »

وهو ينصح بالآتى : ١ ـ أطلب اللذائذ التى لا يكون وراءها ألما

وهو ينصح بالآتى ، ١ ـ اطلب اللذائذ التى لا يكون وراءها ألما

٣ ـ اياك واللذة التى تحرمك من لذة أكبر
منها أو تكون عاقبتها ألما أكبر منها ..

٤ ـ احتمل الألم الذى ينجيك من ألم أكبر
منه أو الذى يكون من ورائه لذة كبرى

---

(٨٥) الفلسفة اليونانية : أصولها وتطوراتها : للبيريفو أستاذ الفلسفة بجامعة باريس ترجمة د. عبد الحليم محمود ، د. أبو بكر ذكرى ص ١٩٣ .

وبرغم أن أبيقور أوصى بثلاثة أصول أخرى هى : التبصر ، والحزم، والعدل ، وأن مذهبه فى اللذة هو الحكم على الحواس لا الخضوع لها، فان الجانب الرخيص والسهل فى فلسفته هو الذى عرف منه واشتهر به يقول البيرريفو « كان الأمل فى اللذة الغريزية داعيا لأن يجمع فى أقرب وقت فى حدائق المدرسة صفوفا متراكمة من « قطيع أبيقور » رجالا ونساء لم يكونوا أهلا لأن يعمروها وأن ينتسبوا اليها [٨٦] » وكان لمذهبه فى الاله وحقيقة الألوهية خطر أيما خطر فهو يرى أن الآلهة يقفون من البشرية موقفا سلبيا ولا يتدخلون فى أعمالنا ولا يختلطون بنا اختلاطا يكدر علينا الحياة ، ولما لم يكن لها علاقة بنا ولا اختلاط فليس من الواجب علينا أن نقدم لها أى نوع من أنواع العبادة .. ولماذا ـ اذن ـ نخافها وهى لا تستطيع أن تنالنا بأى أذى ؟؟ ومع ذلك فليست العوالم ولا الآلهة التى تعمر ما بينها حائزة لصفة الخلود .. ان الآلهة لا تستطيع أن تفر من القضاء المحتوم مثلها فى ذلك مثل جميع الموجودات المؤلفة من الذرات نعم ان لها حياة أطول من حياة الكائنات الانسانية ولكنها لا مفر لها من الفناء بالموت الذى يتأتى على الجميع بلا استثناء [٨٧] » ..

اللذة هى المطلب الأسمى ، والآلهة لا تحاسب أحدا فلماذا يتحمل الأبيقوريون أعباء الحياة ومشاكلها ويعكرون صفو حياتهم ولذة أنفسهم بما يتمتعون به .. لهذا رأوا الابتعاد عن الحياة الاجتماعية ورفضوا أن يشاركوا فى تحمل أعبائها لأن ذلك يعرض استقلال الأبيقورى وهدوءه الروحى للخطر ..

---

(٨٦) المرجع السابق ص ١٩٦ .

(٨٧) المرجع السابق ص ١٩٣ .

ومثل هذه الفلسفات التى جرفت دولة الرومان جعلتها أمة تبحث عن اللذة فانتشرت فيها الموبقات المهلكة ، والانحلال الخلقى ، وعاشت أمة القانون والحضارة والحروب والقوة فريسة لعقائد محرفة لا أثر لها فى النفوس أو القلوب ، وفلسفات ضالة سيطرت على الأفكار والمشاعر ، ولهذا عم الشقاء وانحرف الرؤساء وحكموا بالطغيان والجبروت وفرضوا على الرعية البائسة ما أرهقها وسلب حريتها وارادتها ، مما كان سببا فى انهيار امبراطورية الرومان وانحلالها .. يقول « ويلز » فى كتابه : موجز تاريخ العالم : أما الطرق العظيمة وخرائب البنايات الفخمة وتقاليد القانون والسلطان التى خلفتها (الامبراطورية الرومانية) وأثارت بها دهشة الأجيال التالية فيجب ألا تخفى عن أعيننا أن كل أبهتها الظاهرة أقيمت على ارادات مسلوبة وذكاء مكبوت ، ورغبات كسيحة ومنحرفة .. وحتى الأقلية التى كانت تسودها ــ فوق خضم الاستعباد المتلاطم ــ ولجات القمع والسخرة كانت أرواحها تتقلب على جمر القلق والتعاسة .. وولى من الدنيا الشعور القديم باستقرار النظم ، وولت معه الثقة فى القسيس والمعبد والقانون والعرف ..

وفى هذا الجو الذى يعمه الرق والقساوة والخوف والقلق والتبديد والتظاهر بالمظاهر ، والتهافت على اشباع الملذات ، كان ينتشر فى الناس هذا الوباء : وباء الاشمئزاز الذاتى ، وعدم الاطمئنان العقلى ، وكان يتفشى فيهم هذا الالتماس الأليم للسلام وان نالوه فى مقابل التخلى عن الدنيا والمكابدة الارادية للآلام [٨٨] .. »

حرفت التوراة وضاعت مع جشع اليهود وحبهم للحياة .. ومن بعدها خبا نور الانجيل وتبدلت تعاليمه .. وحلت مبادىء الانحلال محل

---

(٨٨) موجز تاريخ العالم هـ. ج. ويلز ترجمة عبد العزيز توفيق ومراجعة محمد مأمون ص ١٦٤ ، ١٧١ .

الهداية الالهية وعاش الناس تحت الحكم الرومانى أسوأ ما عرفت البشرية فى تاريخها من استعباد للشعوب وظلم وقهر لها ..

فهل بعد هذا الفساد فساد ؟؟

لقد أصبح المرءوسون فى يد رؤسائهم «كأشباح اللاعب يديرها من وراء حجاب ويظنها الناظر اليها من ذوى الألباب .. وظن أفراد الرعايا أنهم لم يخلقوا الا لخدمة سادتهم ، وتوفير لذاتهم كما هو الشأن فى العجماوات مع من يقتنيها » (٨٩) ..

آفبعد هذا تصلح الحياة ؟؟ ..

وهل تبقى ــ هكذا ــ دون تدخل من قبل السماء لانقاذ هؤلاء البؤساء المظلومين ؟ ان رحمة الله أوسع وعنايته أكرم من أن تتخلى عن الخلق وتتركهم فى الظلمات والله بعباده رءوف رحيم ..

(ج) بلاد فارس :

اذا كان بنو اسرائيل والروم أهل كتاب سماوى فاننا الآن أمام أمة لا دين لها الا ما تعتقده من الوهم الباطل . والآراء البشرية التى لا تعطى الصورة الصادقة والمنهج المتكامل لتعايش الانسان مع ربه ومع الناس أجمعين ..

هذه هى ــ المجوسية ــ دين الفرس العام تبين جهل القوم وسوء معتقدهم ..وبنيان هذه العقيدة : عبادة النار واقامة بيوت العبادة وتقديم القرابين لها .. يقول الشهرستانى ، « ثم ان التثنية اختصت بالمجوس حتى أثبتوا اثنين مدبرين قديمين ، يقتسمان الخير والشر ، والنفع والضر ،

---

(٨٩) رسالة التوحيد .. للامام محمد عبده ص ١٣١ ، ١٣٢ .

والصلاح والفساد يسمون أحدهما النور والآخر : الظلمة •• وبالفارسية يزدان واهرمن • ولهم فى ذلك تفصيل مذهب •• ومسائل المجوس كلها تدور على قاعدتين اثنتين ••احداهما بيان سبب امتزاج النور بالظلمة والثانية بيان سبب خلاص النور من الظلمة وجعلوا الامتزاج مبـــدأ والخلاص معادا •• » (٩٠) ••

وجاء ــ زرادشت ٦٦٠ ــ ٥٨٣ق•م « يهذب من عبادة المجوس ويصلح من عقيدتهم فما خرج كثيرا عنها فقد ادعى أن النور والظلمة أصلان متضادان وأن « الخير والشر والصلاح والفساد والطهارة والخبث انما حصلت من امتزاج النور والظلمة ولو لم يمتزجا لما كان وجود العالم ، وهما يتعاونان ويتغالبان الى أن يغلب النور الظلمة والخير الشر ثم يتخلص الخير الى عالمه والشر ينحط الى عالمه وذلك سبب الخلاص (٩١) •• » ••

واذن فالنار عند « زرادشت » رمز لفكرة الصراع بين الخير والشر وأن الخير الذى يرمز له بالنور سوف ينتصر فى النهاية على الشر الــذى يرمز له بالظلمة ، ودين زرادشت فيه تعدد الآلهة وفيه « ثنوية » الا أنه مع ذلك قال بالبعث وبالحياة الأخرى والحساب «وبين أن الاعتقاد والقول والعمل موارد التكليف ، فاذا قصر الانسان فيها خرج عن الدين والطاعة واذا جرى فى هذه الحركات على مقتضى الأمر والشريعة فاز الفـــوز الأكبر •• » (٩٢) ••

ولم يبق للفرس من دين زرادشت الا الثنوية وعبادة النار •• ولهذا أحيا الكهنة الطقوس التى كانت موجودة من قبل كعبادة الأصنام وتقديم

---

(٩٠) الملل والنحل للشهرستانى ج ١ ص ٢٣٢ •
(٩١) الملل والنمل للشهرستانى ج ١ ص ٢٣٧ •
(٩٢) الملل والنمل للشهرستانى ج ١ ص ٢٣٨ •

القرابين لها •• واختفت ديانة زرادشت خمسة قرون الى أن ظهر «أردشير» ابن بابك سنة ٢٢٦م من آل ساسان الملقبين بالأكاسرة•• ولم يلبث الأكاسرة ان عمدوا الى القيام بنهضة شاملة فى النواحى الاقتصادية والثقافية والحربية وأحيوا التراث الفارسي وكانت « الزرادشتية » من أبرز مظاهر هـذا التراث الا أنها فى ذلك الحين كانت بعيدة كل البعد عن اتجاهات زرادشت وكانت تحقق أهداف الملوك وطغيان الكهنة •• ومجتمع يعيش بلا دين لابد أن يجرفه تيار الشيطان • وتوجه حياته الشهوة والانحلال والظلم، ولابد أن تظهر فيه دعوات تدعو الى التبرؤ من هذا الفساد •• لكن مثل هذه الدعوات لا سند لها من وحى سماوى أو توجيه الهى •• ولهـذا أضافت الى الشر شرا والفساد فسادا ••

« فمانى » الذى ظهر فى أواخر القرن الثالث المسيحى يـزعم أن العالم مصنوع مركب من أصلين قديمين أحدهما نور والآخر ظلمة وأنهما أزليان لم يزالا ولن يزالا « وفرض على أصحابه العشر فى الأموال كلها ، والصلوات الأربع فى اليوم والليلة والدعاء الى الحق وترك الكذب والقتل والسرقة والزنى والبخل والسحر وعبادة الأوثان » •• « واعتقـاده فى الشرائع والأنبياء : أن أول من بعث الله تعالى بالعلم والحكمة آدم أبو البشر ثم بعث شيثا بعده ثم نوحا بعده ثم ابراهيم بعد عليهم الصلاة والسلام •• ثم بعث بالبددة الى أرض الهند وزرادشت الى أرض فارس والمسيح كلمة الله وروحه الى أرض الروم والمغرب وبولس بعد المسيح اليهم ثم يأتى خاتم النبيين الى أرض العرب •• » (٩٣) ••

واختط طريقا يحارب به الشهوة التى وجهت مجتمعه •• « فنادى بحياة العزوبة ، وحرم النكاح لحسم مادة الفساد والشر من العـالم ،

---

(٩٣) الملل والنحل للشهرستانى جـ ١ ص ٢٤٨ .

وانتصار النور على الظلمة بقطع النسل واستعجال الفناء .. الا أن هذه الدعوة الخطيرة لتخريب العالم أودت بحياته فقتله بهرام بن هرمز بن سابور سنة ٣٧٦ م قائلا : « ان هذا خرج لتخريب العالم فالواجب أن يبدأ بتخريب نفسه [٩٤] » ..

ومن بعد « مانى » ظهر « مزدك » سنة ٤٨٧م فرأى أن سبب الكراهية هو المال والنساء واذن فليس هناك فى رأيه وسيلة لازالة أسباب الشقاق والخلاص بين الناس الا أن تكون الأموال والنساء مشاعا حرا يأخذ منه من يشاء ما يشاء ..

يقول الشهرستانى : « أحل ــ مزدك ــ النساء وأباح الأموال وجعل الناس شركة فيهما كاشتراكهم فى الماء والنار والكلأ .. » [٩٥] ..

وقد أتيح لدعوة « مزدك » الانتشار بعد أن أيدها « قباذ » والد ــ أنوشروان ــ وآمن بها الشباب وأصحاب الشهوة ودعاة الانحلال ..

يقول الطبرى : « كاتف السفلة » ــ مزدك ــ فى دعوته وشايعوه فابتلى الناس بهم وقوى أمرهم حتى كانوا يدخلون على الرجل داره فيغلبونه على منزله ونسائه وأمواله لا يستطيع الامتناع منهم وحملوا « قباذ » على تزيين ذلك وتوعده ان رفض فلم يلبثوا الا قليلا حتى صاروا لا يعرف الرجل ولده ولا المولود أباه ولا يملك الرجل شيئا مما يتسع به .. » [٩٦] ..

---

(٩٤) المجتمع الاسلامى د. شلبى ص ٣٠ ، ٣١ .

(٩٥) الملل والنحل للشهرستانى جـ ١ ص ٢٤٩ .

(٩٦) تاريخ الأمم والملوك للطبرى جـ ١ ص ٨٨ .

وهذه الدعوة المنحلة التى أراد « مزدك » أن يصلح بها مجتمعه قضت عليه ــ أيضا ــ « فحين اطلع « أنوشروان » على خزى ــ مزدك » وافترائه طلبه فوجده فقتله » (٩٧) ..

وتحت ظلام هذه العقائد المزيفة عاش الفرس يعانون قسوة الملوك وتجبر الحكام الذين انتهزوا هذا الجهل المطبق فادعوا أنهم من عناصر علوية مقدسة وبنوا ادعاءهم على مذهب «مترا» أحد مصلحيهم الذى رفع سلطان الملوك الى عرش السماء وقال : « ان الشمس تشع عليهم قبسا من نورها وهالة من بركتها فيرمزون بعروشهم على الأرض الى عرش الله فى عليين (٩٨) .. »

ولهذا أنزل الفرس ملوكهم منزلة الآلهة وقدموا لهم القرابين وأنشدوا لهم أناشيد الطاعة والعبودية واعتقدوا أنهم وحدهم الذين يجوز لهم أن يلبسوا التاج ويسيطروا على الناس أيا كانت سمعتهم أو كفاءتهم .. وبقى المجتمع الفارسى مجتمعا جاهلا تتحكم فيه الملوك وتفرق بين أفراده طبقية قدسية باعدت بين الناس ولم يستطع كل انسان فى طبقة أن يتعداها الى سواها من الطبقات مهما أوتى من كفاءة خاصة وتجارب معينة .. ومجتمع هذا حاله فى حاجة الى من يأخذ بقياده الى الأفق الربانى المشرق الوضىء ..

(د) الهنــــد :

نحن الآن أمام أمة جمعت من المتناقضات أقواها ومن الأعاجيب أعظمها وذلك لاتساعها واختلاف أماكنها وتباعد ما بين أطرافها .. يقــــول

(٩٧) الملل والنحل للشهرستانى جـ ١ ص ٩ ٢ .
(٩٨) الله .. للعقاد ص ٩٧ .

الشهرستانى : « الهند أمة كبيرة ، وملة عظيمة ، وآراؤهم مختلفة ، منهم البراهمة وهم المنكرون للنبوات أصلا ومنهم من يميل الى الدهر ، ومنهم من يميل الى مذهب الثنوية ، ويقول بملة ابراهيم عليه السلام ، وأكثرهم على مذهب الصابئة ومناهجها فمن قائل بالروحانيات ومن قائل بالهياكل ومن قائل بالأصنام الا أنهم مختلفون فى شكل الهياكل التى ابتدعوها وكيفية وأشكال وضعوها ، ومنهم حكماء على طريق اليونانيين علما وعملا .. [99] ..

أمة جمعت من كل صنف ، وعبدت كل شيء وتشعبت بها الآراء ، وتعددت فيها الملل .. أمة متفرقة متدهورة فى أخلاقها ، ونظام مجتمعها ، فكان حالها قبيل رسالة القرآن أسوأ حالة وصلت اليها الهند فى تاريخها.

يقول أبو الحسن الندوى : « اتفقت كلمة المؤرخين فى تاريخ الهند على أن أحط أدوارها ديانة وخلقا واجتماعا كان ذلك العهد الذى يبتدىء من مستهل القرن السادس الميلادى .. فقد شاركت الهند فى التدهور الخلقى ، والاجتماعى ، الذى شمل الكرة فى هذه الحقبة من الزمن .. وبلغت الوثنية أوجها ووصل عدد الآلهة الى ٣٣٠ مليونا .. وقد أصبح كل شيء رائعا وكل شيء جذابا وكل مرفق من مرافق الحياة الها يعبد .. وهكذا جاوزت الأصنام والتماثيل والآلهة والالهات الحصر وأربت على العد .. فمنها أشجار تاريخية وأبطال تمثل فيهم الله .. وجبال تجلى عليها بعض آلهتهم ، ومعادن كالذهب والفضة تحمل سر الألوهية ، وأنهار وآلات حرب وآلات التناسل ، وحيوانات أعظمها البقرة وغير ذلك .. وقد ارتقت صناعة نحت التماثيل فى هذا العهد حتى فاق هذا العصر فى

---

(٩٩) الملل والنحل ــ للشهرستانى جـ ٢ ص ٢٥٠ .

ذلك جميع العصور الماضية •• وقد عكفت الطبقات كلها وعكف أهل البلاد من الملك الى الصعلوك على عبادة الأوثان •• (١٠٠) ••

قوم مشركون تمثلوا آلهتهم فى كل مظاهر الحياة •• وربما بدا من أناشيدهم الدينية أنهم توصلوا الى صفة الاله الواحد الأحد لكنهم بعدوا عن هذه الحقيقة وتوجهوا الى مظاهر قدرة الله فى خلقه فقدموا لها القرابين واتخذوها آلهة من دون الله ••

لقد قالوا فى بعض أناشيدهم الدينية : « اننى أنا الله •• نور الشمس وضوء القمر وبريق اللهب ووميض البرق وصوت الرياح وأنا الرائحة الطيبة التى تنبعث فى أنحاء الكون والأصل الأزلى لجميع الكائنات وأنا حياة كل موجود وصلاح الصالح أنا الأول والآخر والحياة والموت لكل كائن •• (١٠١) » ••

فطرتهم تنادى من الأعماق بأن الله واحد ، وجهلهم يطمس نور هذه الفطرة فيشركون بربهم تلك المخلوقات المسخرة بأمر الله ••

ومثلت البرهمية أهم ديانات الهند القديمة ومن بعدها كانت البوذية وهى كما يقول العقاد : « لا تعتبر اضافة فى صميم العقائد الدينية بل اضافة فى آداب السلوك وفلسفة الحياة • واضافة فى عرض الآراء على غير المستأثرين بها قديما من سدنة الهيكل والمحراب •• » وفلسفة البوذية متناقضة ، فهى تنكر الشخصية الانسانية ولا تعترف بالذات أو بالروح وهى مع هذا تؤمن بتناسخ الأرواح وثبوت شىء فى الانسان يبقى على

---

(١٠٠) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين لأبى الحسن الندوى ص ٤٨ وما بعدها .

(١٠١) ذيل الملل والنحل لمحمد سيد الكيلانى جـ ٢ ص ١٠ .

التنقل بين الأجساد والدورات وهى تؤمن بالكل أو المطلق الصمدى « الوجود » ثم تنفى عنه الذات كما تنفيها عن الانسان مع أن الكل بغير ذات لا يكون كلا بمعنى من معانى الكلية ولكنه شتات من أجزاء متفرقة .. [١٠٢] .. »

وليس المقام هنا لنقد أديان الهند وما انتشر فيها من عقائد ولكنها الاشارة العابرة لما وصل اليه الفكر الهندى وأثر ذلك فى حياة الهنود ..

ولعل أشهر ما عرف فى الهند هو نظام الطبقات الذى أقيم على أساس من الديانة البرهمية .. وذلك أن البراهمة اعتبروا أنفسهم من عنصر الهى : فهم كهنة الأمة الذين لا تجوز الذبائح الا بحضرتهم وتحت أيديهم واذن فهم سادة الطبقات ورأس الأمة المفكر ومن بعدهم طبقات ثلاثة : ١ ــ الكشتريا وهم رجال الحرب . ٢ ــ الوشيا .. وهم التجار والصناع . ٣ ــ الشودرا وهم طبقة الخدم والعبيد ..

وبقى فريق آخر من الشعب الهندى لا يدخل فى هذه القسمة الجائرة وهم المنبوذون .. ولقد حال انحطاط شأنهم دون اعتبارهم حتى بين الطبقات الدنيا من الخدم والأجراء ..

« وديانة المنبوذين تنحصر فى عبادة الأرواح ، وأعظم الآلهة عندهم يظهر فى شكل « كومة » من الآجر أو فى هيئة أخرى ساذجة .. وهذا الاله هو الذى يمنح الخصب للعواقر ويحمى المحاصيل من الآفات ويرعاهم برعايته وعنايته ولكل مدينة الهها .. [١٠٣] ..

---

(١٠٢) الله / العقاد ص ٦٥ ، ٦٨ .

(١٠٣) ذيل الملل والنحل حـ ٢ ص ١٣ .

أفكار ساذجة وديانات باطلة وأوضاع اجتماعية جائرة قام بناؤها على تلك الأفكار وهذه الديانات أمة عاشت آلاف السنين على هذا الوهم وتلك الخرافات فى مسيس الحاجة الى من يدلها على الطريق ويرشدها الى الهدى ..

فهل يمكن لها أن تستغنى بضلالها عن هداية الله وبباطلها عن الحق الذى جاء به كتاب الله .. ؟

(هـ) الصين :

الصين تلك الأمة المرحة الضاحكة التى رأت أن الانسان طيب بالفطرة ، وأن الحياة ترضى من لا يسرف فى تقاضيها ، ويلحف فى الطلب عليها — هذه الأمة عاشت بلا دين صادق ، أو عقيدة ثابتة ، وانما توجهت الى روح الحياة تستلهم منها معنى الاله الحق ، فرأت السماء وما فيها من كواكب ، والأرض وما عليها من جبال وما يجرى فيها من بحار وأنهار .. ورأت أبطالها وأسلافها يذهبون ولا يعودون وتبقى ذكرياتهم حية فى النفوس وفى القلوب فاندفعت الأمة الصينية الى كل هذا فقدسته وعبدته وقدمت له القرابين .. وادعت له صفات الألوهية .. وكانت عبادة روح أسلافهم وأبطالهم هى أشيع ما عرف عنهم من ألوان العبادة والطاعة ..

ولم يبعث لهم رسل .. انما وجد بينهم حكماء ومعلمون واشتهر حكيمهم ومعلمهم « كونفشيوس » بالاخلاص فى الدعوة الى اصلاح النفس الانسانية وتكوين مجتمع سليم قوامه المحبة والاخاء والعدل والطاعة عن الرضا .. يقدمها الولد لوالده والأخ الأصغر للأخ الأكبر والمحكوم لحاكمه ..

كما اشتهر بالدعوة الى جملة من الفضائل النفسية : كالصدق

والاخلاص والقناعة والصمت الا فيما يجب الكلام فيه ومعاملة النــاس بالرفق والمودة وغير ذلك من الفضائل .. لكن « كونفشيوس » لم يهتد الى الحياة الأخرى فأنكر الجنة والنار والثواب والعقاب .. وقد سأله بعض تلاميذه مرة عن الموت فقال : اننا لم ندرس الحياة بعد .. فكيف ندرس الموت ?? .

ومات « كونفشيوس » فتوجه الصينيون الى روحه بالعبــادة والتقديس وأقاموا لها الهياكل وقدموا لها القرابين وانتقلت عبادة هذا الفيلسوف عبر الاجيال الى يومنا هذا ..

وعلى مثال « كونفشيوس » كان الفيلسوف « لاوتز » وهو أسن من صديقه وكلاهما دعا الى الخير والفضيلة الا أنهما افترقا فى الخــلق والمزاج وان اتفقا فى العقيدة والايمان .. « فلاو » يقول : من كان طيبا معى فأنا طيب معه ومن أساء الى فأنا طيب معه كذلك فلنجز الســيئة بالحسنة ولنعمل الطيب على كل حال .. أما « كونفشيوس » : فهــو يوصى بأن نقابل السيئة بالعدل وأن نقابل الاحسان بالاحسان [١٠٤] ..

وأتباع « لاوتز » يبنون منهجهم على التصوف ، واحتقار العادات القديمة والاعتقاد بأن الدرس والتحصيل والتفكير العقلى ليس وسيلة لاكتساب المعرفة انما سبيلها تطهير النفس والتدرج فى كمالاتها الى مرحلة الاتصال التام أو الوحدة التامة بين الفرد والقانون الأعظم .. كما دعــا « لاوتزر » الى هجر العمل والاقتصار على التأمل والتجربة الصوفية .. وبعد وفاة « لاوتزر » أفسدت تعاليمه وتفشتها الأساطير وضمت اليهــا أشد الطقوس والفكرات الخرافية تعقيدا وخروجا على المألوف .. وحدث

---

(١٠٤) الله .. للعقاد ص ٧١ .

فى الصين مثلما حدث فى الهند بالضبط أن نشطت فكرات السحر البدائية وتحركت الأساطير البشعة التى ظهرت فى ماضى طفولة جنسنا تكافح ضد التفكير الجديد فى العالم ونجحت فى أن تسدل عليه ساترا سابلا من طقوس غريبة مضحكة وغير معقولة وعتيقة بالية .. [١٠٥] ..

وليس من الغريب أن تنتقل أكبر ديانات الهند الى الصين وتلك هى ـ البوذية ـ التى نشرها الهنود والصينيون الذين ذهبوا الى الهند وعادوا الى قومهم حاملين رسالة البوذية .. الا أنهم حين نقلوها كانت قد فقدت بساطتها وتحولت الى عبادة تماثيل وصور .. يقول الأستاذ أبشوراتوبا : لقد قامت فى ظل البوذية دولة تعنى بمظاهر الآلهة وعبادة التماثيل [١٠٦] ..

الكونفوشيوسية والتاوزمية والبوذية عقائد ونحل سرت فى كيان الأمة الصينية ووجهت حياتها .. وحياة أمة توجهها تلك المذاهب لا تحيا حياة الانسان الراقى الذى يشعر بقيمته وعراقة أصله وصلته الوثيقة بالسماء .. وأمة هذا شأنها فى حاجة الى عون الله حتى يمكن لها أن تسير الى غايتها وهى آمنة عثرات الطريق ..

(و) نظرة عامة :

بنو اسرائيل .. والرومان .. والفرس والهند والصين هذا القطاع الكبير من الانسانية ضل طريقه وعاش فى ظلام الشك والجهل والبهتان ، وعلى شاكلته كانت تعيش الدنيا بأسرها ، فلم يبق فيها موضع الا وانسان يمرغ كرامته أمام صنم ، ويذل عزته تحت أقدام الطغاة ونسى الانسان

---

(١٠٥) موجز تاريخ العالم : ويلز ص ١٧١ .

(١٠٦) المجتمع الاسلامى د. شلبى ص ٣٣ .

انسانيته مع تيار الشهوة والشيطان وضاع حقه بل فقد كيانه من أجل أطماع الملوك والمستبدين ••

« ففى اسبانيا وفرنسا الجنوبية كان شعب « الويزيجو » الأوربيين يصاولون الملك « كلوفيس » وأولاده الكاثولوكيين •• وفى فرنسا نفسها كان أولاد « كلوفيس » هذا متقادرين متسافكين وكانت الحروب التى شبت نيرانها بين المملكة « الويزيجوتية » و « برونهو » والمملكة الفرنكية فيريديجوند « تهىء للتاريخ أشد الصحائف اثارة للأسى والكمد ••

أما فى انجلترا فكان « الانجلو » ينازعون « السكسونيين » الأرض التى احتلوها واستعبدوا فيها ذرية « كيمريس » وهم أقدم المغيرين على تلك الجزيرة التى تتطلع اليوم للوقوف فى مقدمة الأمم علما وصناعة وقوة وهى التى كانت فى ذلك الوقت مجالا للقوة الوحشية السائدة فى تلك الغياهب الحالكة •• أما فى أفريقيا فكان اليونان الرومانيون أنفسهم ـ وهم أخلاط من عساكر وتجار وحكام مجموعين من آفاق مختلفة ـ دائبين على امتصاص دم القطر المصرى وعاملين على جعل مصر العلمية ذات المجد القديم كالجثة المصبرة عديمة الحس والحراك وكان هذا شأنهم أيضا فى الأقاليم الخصيبة وقتئذ الواقعة فى الجهات الشمالية من أفريقيا التى انتزعوها من أيدى الفنداليين ••

« والخلاصة أن جو العالم الأرضى كان متلبدا بسحب الاضطرابات الوحشية فى كل جهة وكان اعتماد الناس على وسائل الشر أكثر من اعتمادهم على وسائل الخير وكان أجمع الرؤساء للثقة والطاعة أشدهم صيحة فى اصلاء نيران الحرب والمعارك •• ولم يكن يأخذ بعواطف القلوب ولا يؤثر عليها تأثيرا حادا وان كان وقتيا الا شىء واحد وهو الغنيمةوسلب

الأمم والشعوب والمدائن والأعيان ورجال الحروب وفقـــراء الحرائين وبسطاء المتسولين (١٠٧) .. »

واذن فقد كان العالم الذى أشرقت عليه رسالة القرآن « عالما متداعيا قد شارف النهاية .. خلاصة ما يقال فيه ، انه عالم فقد العقيدة كما فقد النظام أى أنه فقد أسباب الطمأنينة فى الباطن والظاهر ، طمأنينة الباطن التى تنشأ من الركون الى قوة فى الغيب تبسط العدل وتحمى الضعف ، وتجزى الظلم وتختار الأصلح الأكمل من جميع الأمور .. وطمأنينة الظاهر التى تنشأ من الركون الى دولة تقضى بالشريعة وتفصل بين البغاة والأبرياء وتحرس الطريق وتخيف العائثين بالفساد (١٠٨) ..

لقد « كانت دولتا العالم : دولة الفرس فى الشرق ودولة الرومان فى الغرب فى تنازع وتجالد مستمر ..دماء بين العالمين مسفوكة وقوى منهوكة وأموال هالكة وظلم من الاحن حالكة .. ومع ذلك فقد كان الزهـــو والترف والاسراف والفخفخة والتفنن فى الملاذ بالغة حدا مالا يوصف فى قصور السلاطين والأفراد والقواد ورؤساء الأديان من كل أمة : وكان شره هذه الطبقة من الأمم لا يقف عند حد فزادوا فى الضرائب وبالغوا فى فرض الاتاوات حتى أثقلوا ظهور الرعية بمطالبهم وأتوا على ما فى ايديها من ثمرات أعمالها وانحصر سلطان القوى فى اختطاف ما بيـــد الضعيف ، وفكر العاقل فى الاحتيال لسلب الغافل ، وتبع ذلك أن استولى على تلك الشعوب ضروب من الفقر ، والذل ، والاستكانة ، والخـوف والاضطراب لفقد الأمن على الأرواح والأموال .. (١٠٩) » ..

---

(١٠٧) الاسلام فى عصر العلم للأستاذ / محمد فريد وجدى ص ٢٧٥ – ٢٨٠ .

(١٠٨) عبقرية محمد للعقاد ص ١٢ .

(١٠٩) رسالة التوحيد للامام محمد عبده ص ١٣١ .

يوضح هذه الصورة المحزنة لحال العالم الأستاذ أبو الحسن الندوى فى كتابه القيم : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين •• فيقول :

« بعث محمد بن عبد الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والعالم بناء أصيب بزلزال شديد هزه هزا عنيفا فاذا كل شىء فيه فى غير محله نظر الى العالم بعين الأنبياء فرأى انسانا هانت عليه انسانيته : رآه يسجد للحجر والشجر والنهر وكل ما لا يملك لنفسه النفع والضرر •• رأى انسانا معكوسا قد فسدت عقليته وفسد نظام فكره وفسد ذوقه •• رأى مجتمعا هو الصورة المصغرة للعالم ، وكل شىء فيه فى غير شكله أو فى غير محله •• فقد أصبح الذئب فيه راعيا ، والخصم الجائر قاضيا ، وأصبح المجرم فيه سعيدا حظيا ، والصالح محروما شقيا •• ورأى عادات فاسدة تستعجل فناء البشرية وتسوقها الى هوة الهلاك ••

رأى معاقرة الخمر الى حد الادمان ، والخلاعة والفجور الى حد الاستهتار ، وتعاطى الربا الى حد القسوة ، والظلم الى حد الوأد وقتل الأولاد •• رأى ملوكا اتخذوا بلاد الله دولا وعباد الله خولا (خدما وعبيدا) ورأى أحبارا ورهبانا أصبحوا أربابا من دون الله يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله ••

رأى المواهب البشرية ضائعة أو زائفة لم ينتفع بها ولم توجه التوجيه الصحيح فعادت وبالا على أصحابها وعلى الانسانية : فقد تحولت الشجاعة فتكا وهمجية ، والجود تبذيرا واسرافا والأنفة حمية جاهلية ، والذكاء شطارة وخديعة ، والعقل وسيلة لابتكار الجنايات ، والابداع فى ارضاء الشهوات ••

رأى الأمم قطعانا من الغنم ليس لها راع والسياسة كجمل هائج

حبله على غاربه ، والسلطان كسيف فى يد سكران يجرح به نفسه ويجرح به اخوانه[١١٠] ..

أرأيت صورة عامة وشاملة فى تاريخ الانسان مثل هذه الصورة للفساد والانحطاط والتطلع الى التغيير واللهفة الى الخروج من هذا الكابوس المسيطر والحنين الى الأمان والراحة والسلام ؟؟ ..

انه عالم متحفز للثورة .. مستعد للرسالة .. يموج بالفتن والظلم والهلاك وتغلى مراجله بالحقد على هذا كله وهو يتساءل متلهفا : أين الطريق ؟؟ وتتجاوب أصداؤه فى الشرق والغرب : هل من سبيل للنجاة ؟ وكيف تكون النجاة ؟؟ ..

ثالثا ـ استنتاج :

أمة عربية جرفتها العصبية ، وانتشرت فيها العقائد الفاسدة ، وسادت فيها الأوضاع الاجتماعية الجائرة ، ليست لها دولة وان كانت تتأهب لاقامة دولة .. الخطر فى الشرق والغرب يحدق بها « هرقل الرومى يرسل الى مكة من يحكمها ، وأبرهة الحبشى يزحف الى مكة بمن يهدم كعبتها ويستبدل بها كعبة غيرها .. وفارس تطغى على شرق البلاد وعلى جنوبها وتنظر هذه الأمة فترى أن تجارة العالمين فى يدها : القوافل السائرة من خليج فارس الى بحر الروم والقوافل التى تسير من اليمن الى الشام أو من بحر القلزم الى بحر الروم انما تسير فى رعاية العرب فان رضوا جرت الأرزاق بين المشرق والمغرب وبين المغرب والمشرق وان غضبوا بارت التجارة وكسدت الأسواق .. [١١١] » .

---

(١١٠) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين للسيد ابو الحسن على الحسنى الندوى ص ٧٨ ، ٧٩ .

(١١١) عبقرية محمد ـ للعقاد ص ١٣ .

أمة رأت فساد دينها فتطلعت الى غيره •• وكانت ظاهرة « التحنف » أصدق دليل على هذا التطلع •• ورأت فساد نظامها الاجتماعى فاجتمع عقلاؤها يتعاهدون باسم الله المنتقم ليكونن مع المظلوم حتى يؤدى اليه حقه وذلك حلف الفضول الذى يقول فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أحب أن يكون لى بحلف حضرته فى دار ابن جدعان حمر النعم ••

والعالم كله ؟؟ ••

سقطت من يده المشاعل المضيئة وخبت أنوار الرسالات على أرضه فنظر يمنة ويسرة فوجد ظلاما مطبقا وهلاكا محققا فرنا الى الاستقرار واشتاق الى الرحمة وسار يبحث عن الهداية ••

واذن :

فهى أمة لهفى •• وعالم مترقب رسالة السماء •• تنتظر الأمة العربية وينتظر معها العالم من يربيها ويربيه على المنهج الواضح ويرسم للدنيا كلها ـ فى رفق ومودة ـ معالم الطريق ••

وانها لتربية القرآن ومنهجه الربانى الذى تربت عليه الانسانية كلها كما سنرى فى صفحات مقبلة ••

ان شاء الله ••

الباب الأول

القرآن ... والعقيــدة ..

الفصل الأول ..

ـ وجود الله ... ووحدانيته .

الفصل الثانى ..

ـ ثلاثة عشر عاما فى مكة لاقرار العقيدة ..



الفصل الأول

وجود الله .. ووحدانيته

دين الهـداية

أولا : ــ دلائل وجود الله .. ووحدانيته :

١ ــ الانسان .

٢ ــ عالم الحيوان .

٣ ــ عالم النبات .

٤ ــ عالم الكواكب .

٥ ــ الرياح .

٦ ــ من دلائل الوحدانية : الأرض ..

ثانيا : ــ وقفة مع الملحدين :

ثالثا : وقفة مع المشركين :

(أ) التوحيد دعوة الأنبياء .

(ب) خطاب للمشركين .

(جـ) تهديد لهـم .

(د) مفارقة ضخمة .

(هـ) هل يمكن أن يكون لله شريك ..

وهذا هو الطريق ..

دين الهــــداية

الأمة الحائرة •• والعالم الضال •• والظـــلام المطبق فى الشرق والغرب •• والنفوس المترقبة لميلاد يوم جديد تشرق فيه شمس الأمان على جنبات هذا الكون الذى مزقته الأحقاد وأنهكته العداوات وصـار يكبو كلما أراد النهوض ، وليس له من هاد أو دليل •• الكل يرنو الى حياة الرحمة والسلام •• ومحمد بن عبد الله تكلؤه يد العناية الربانية ، وتتعهده غرسا فتنميه ثمرا شهيا ، يحمل مشعل الهداية لهذا العالم الحائر وجاء كتاب الله خطابا عاما : يخاطب الناس على اختلاف مللهم ونحلهم وأديانهم •• وفيهم المنكر للوجود الالهى والمثبت له الا أن الطريق بـه قد التوى فعاش على الشرك وعبد مع الله آلهة أخرى من حجر أو شجر أو حيوان أو انسان •• وهناك أهل الكتاب من اليهود والنصـــارى ضلوا وأضلوا وضلوا عن سواء السبيل ••

وأمام هذا الحشد الجامع من البشر وقف القرآن يخاطب كلا بأسلوبه ويضع بين يدى كل منكر حجته ليقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق •• والقرآن فى تربيته أمة على العقيدة الصحيحة وفى أخـــذه بيدها الى طريق الحق لم يرد أن يكون أسلوبه جدلا عقيما •• وتفلسفا باطلا •• وأدلة تستعصى على العقول مناحيها ، وتغيب عن أهل الفكر والنظر مدلولاتها ومراميها ، •• انما جاء سلسا سلسبيلا يفهمه العـامة والخاصة ويفهمه العربى فى أعماق الصحارى العربية كما يفهمه أهــل الحضارة والثقافة فى أرجاء الأرض ويتذوقه من عاصر الوحى وشـــهد تنزلات القرآن ومن بعد به العهد عن هذا العصر فى كل زمان ومكان ••

والقرآن يبدأ بالفطرة فيوقظها ويذكرها بما هو مغروس فى أعماقها ليجد أنها معترفة بوجود الخالق العظيم فهى فى ذلك لا تحتاج الى دليل •

يقول ربنا :

« وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ * أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ »[١] .

انها الفطرة السليمة التى خلقها الله وهى تعرف ربها .

كما قال سبحانه :

« فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ »[٢]

تعرفه وتلوذ به اذا مسها الضر ولم تجد الا قوة القـوى تحتمى بها وتستظل بعطفها :

قال تعالى :

« وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا »[٣] .

---

(١) الأعراف ١٧٢/٧ ، ١٧٣ .

(٢) الروم ٣٠/٣٠ .

(٣) الاسراء ٦٧/١٧ .

ويقول :

« وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ * ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٤) »

انها الفطرة التى تجيب وهى تسأل ..

« قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قُلْ مَن بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ » (٥)

ويقول :

« وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ (٦) »

ويقول :

« وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ (٧) »

---

(٤) النحل ٥٣/١٦ ، ٥٤ .
(٥) المؤمنون ٨٤/٢٣ – ٨٥ .
(٦) لقمان ٢٥/٣١ ، الزمر ٣٨/٣٩ .
(٧) العنكبوت ٦١/٢٩ .

ويقول :

« قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ (٨) »

قال الامام القزوينى فى سراج العقول :

« الدليل أن معرفة الله واجبة كونها من الأمور التى تصل العقول اليها .. فان الانسان اذا دهاه أمر وضاقت به المسالك فلابد أن يستند الى اله يتأله له ويتضرع نحوه ويلجأ اليه فى كشف بلواه .. ويسمو قلبه صعودا الى السماء .. ويشخص ناظره اليها من حيث كونها قبلة لدعاء الخلائق أجمعين .. فيستغيث بخالقه وبارئه طبعا .. وجبلة .. لا تكلفا وحيلة ومثل ذلك قد يوجد فى الأطفال والوحوش والبهائم أيضا فانها ظاهرة الخوف والرجاء رافعة رؤوسها الى السماء عند فقدان الكلأ والماء واحساسها بالهلاك والفناء .. هذا كله مركوز فى جبلة الحيوانات فضلا عن الانسان العاقل وهى الفطرة المذكورة فى القرآن والحديث ولكن أكثر الناس قد ذهلوا عن ذلك فى حالة السراء وانما يردون اليه فى الضراء قال تعالى : « واذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون الا اياه » ..

وأيضا فان عامة الناس فى جميع أقطار الأرض دعت أنفسهم الى الاعتراف بأن لهم خالقا من غير معلم ولا اثبات حجة عندهم ولا اصطلاح

---

(٨) يونس ٣١/١٠ ، ٣٢ .

وقع بين كافنهم من أهل البوادى وأقاصى الهند والصين وأهل الجزائر الذين لم يبلغهم داع الى الاسلام ولا الى الشرك فانهم استغنوا بشهادة أنفسهم على الأعم الأغلب بالخالق جل جلاله وذلك قوله تعالى :

« قالت لهم رسلهم : أفى الله شك •• فاطر السموات والأرض ؟؟ وهذا كله قريب من الضروريات •• [٩] » ••

والقرآن حين يوجه نداءه للفطرة لتفيق وتعتدل فى الطريق السوى يأخذ بيدها الى مظاهر الملك ويتعمق بها فى أسرارالملكوت ويسائلها مع كل لمسة وهمسة •• ومع كل لفتة واشارة •• من رب هذا ؟؟ فلا تملك الا أن تقول أنت يارب الذى وهبته حياته وأعطيته نماءه وقوته •• وأودعته سرا مكنونا حار فيه العلماء ووقفوا أمامه يشهدون مع يد الفطرة التى تلمس هذا بأن الله وحده رب هذا الكون ومسيره •• وبين يديك الآن بعض الأدلة على توحيد الله وهى أدلة أيضا على وجوده لذلك قدمناها قبل أن نرى كيف أرشد القرآن كلا من الملحدين والمشركين ودلهم على الطريق الواضح المستقيم ••

أولا ــ دلائل وجود الله •• ووحدانيته :

١ ــ الانسان :

هذا الانسان ! !

ذلك العالم الأصغر •• أعجوبة الصناعة الالهية وآية من آيات الاله القادر يسائلنا القرآن عنها فيما يسائلنا فيقول :

---

(٩) دلائل التوحيد لمحمد جمال الدين القاسمى ص ١٤ ــ ١٦ .

« وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ [١٠] »

نبصر ماذا ؟؟ نبصر هذه الآيات ؟ وأى آيات وعلامات ودلائل فى خلق الانسان نبصرها ونعرفها ؟ نعم نبصر .

« مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُ * مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ * ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُ * ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ * ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُ [١١] »

ويوضح لنا ربنا هذا الخلق العجيب فيقول :

« وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ * ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ [١٢] »

ويلفت أنظارنا الى سر من أسرار هذا التكوين فيقول :

« خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى

---

(١٠) الذاريات ٢٠/٥١ ، ٢١ .
(١١) عبس ١٨/٨٠ – ٢٢ .
(١٢) المؤمنون ٢٢/٢٣ – ١٦ .

بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقاً مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ »[١٣]

ويلقى بين أيدينا تلك المفارقة العجيبة بين التراب والنطفة .. والانسان السوى المعتدل الخلقة الذى يتكاثر ويتناسل ويكون له الأبناء والحفدة ؟ فيقول :

« خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ »[١٤]

ويقول :

« وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً »[١٥]

ويقول :

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ * وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجاً لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ »[١٦]

ويتحدث عن مراحل حياة الانسان وأطواره فيقول :

---

(١٣) الزمر ٦/٣٩ .

(١٤) النحل ٤/١٦ .

(١٥) النحل ٧٢/١٦ .

(١٦) الروم ٢٠/٣٠ ، ٢١ .

« هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً وَمِنكُمْ مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ »(١٧)

ان نفخة من روح الله فى قبضة من التراب صـــنعت هذا الكائن العجيب شاهد عظمة ٠٠ ودليل ربوبية ٠

قال تعالى :

« ٱلَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنْسَٰنِ مِن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ * ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُم ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ »(١٨)

واللفتة البديعة فى هذه الآيات اشارتها الى ذلك التباين فى خلـق الانسان فانه خلق من نطفة فعلقة فمضغة فعظام كساها الله لحما ثم خرج من بطن أمه فى وقت معلوم يسمع بعد لحظات ، ويرى بعد أيام قليلات ، ثم يدرك ويحس بعد أيام طويلات ٠٠ ينتقل من طبيعة الى طبيعة ومن حال الى حال :

فطبيعة الدم غير طبيعة الماء (المنى) وطبيعة اللحم غير طبيعة العظم

---

(١٧) غافر ٦٧/٤٠ ٠

(١٨) السجدة ٧/٣٢ ـ ٩ ٠

والسن والظفر والشعر •• وهذا كله وهو فى ظلمات ثلاث •• فمن اذن الذى خلق من الماء بشرا سويا ثم جعله نسبا وصهرا ؟

ثم من الذى جعل الناس أزواجا وأصنافا مختلفين لونا وشكلا ولغة وادراكا :

قال تعالى :

« وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ »(١٩)

من الذى قدر الآجال والأعمار والأرزاق ؟ من الذى خلق الانسان من صلصال كالفخار ومن حمأ مسنون ؟ ومن الذى صوره فى الأرحام ووهب لمن يشاء اناثا ووهب لمن يشاء الذكور أو زوجهم ذكرانا واناثا •• وجعل من يشاء عقيما ؟ من الذى جعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ؟ هل يمكن أن يكون خلق هذا الانسان عبثا ولهوا أو مصادفة عمياء ؟ أو أن يكون هناك رب آخر مع الله أبدع هذا الابداع وخلق هذا الخلق فى أحسن صورة وأجمل منظر وأبهى حلة ؟ • ان الفطرة هى التى تجيب : تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا ••

٢ ـ عالم الحيوان :

وهذا عالم الحيوان !!

فيه من عجائب الخلق ما يستحق أن يقف عندها كتاب الله يلفت اليها الأنظار ، انه عالم مستقل •• بل عوالم تحار فيها العقول •• هذا التنوع فى الخلق من حيوانات برية ، وبحرية ، وهوائية طائرة ، وحيوانات حشرية صغيرة لا ترى الا بالمجاهير ، وأخرى كبيرة فقرية وثدييه •• وحيوانات

---

(١٩) الرووم ٢٢/٣٠ .

طويلة العمر ، وأخرى قصيرة الأجل ، وحيوانات تبيض وحيوانات تلد ، وحيوانات للأكل والحمل والألبان ، ومنافع أخرى كثيرة وحيوانات أخرى لا ينتفع بها الانسان •• وحيوانات ملساء الجلد لا شيء عليها وحيوانات أخرى مكسوة الجلد بالريش والصوف •• واختلافها في الألوان والأصوات وطريقة الحياة ، وتناول الطعام أغرب وأعجب ••

يقول القرآن :

« وَمَا مِنْ دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ »[٢٠]

ويقول :

« وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ »[٢١]

ويقول :

« وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ »[٢٢]

---

(٢٠) الأنعام ٣٨/٦ .

(٢١) النور ٤٥/٢ .

(٢٢) هود ٦/١١ .

ويسأل :

« أَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ »(٢٣)

ويقول :

« أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ »(٢٤)

ويمتن على الانسان بهذه النعمة فيقول :

« وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ * وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ »(٢٥)

ويقول :

« وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ

---

(٢٣) النحل ١٦/٧٩ .

(٢٤) الملك ٦٧/١٩ .

(٢٥) النحل ١٦/٥ ــ ٨ .

وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ » (٢٦)

فهل هذا التنوع والتمايز والتناسق فى عالم الحيوان الملىء بالأسرار خلق مصادفة أو عبثا ؟ ••

أو يدع فرصة ليظن أحد بأن لله شريكا فى ملكه ؟؟

ان الفطرة التى انصتت الى هذا التساؤل هى التى أجابت : سبحانه وتعالى عما يصفون ••

٣ ـ عالم النبات :

ويد الفطرة التى أخذ بها القرآن تستطيع أن تلمس ما حولها من عالم النبات : هذه حبة توضع فى باطن الأرض فلا تتأثر برطوبة ما نزل عليها من الماء انما تربو وتنتفخ وتنشق من أسفل عن جذور تمتد فى باطن الأرض ، ومن أعلى عن ساق يصعد الى أعلا ، شاقا لنفسه طريقا بين التراب • وبين الجذر والساق لا تنقطع الصلة حتى يطيب الزرع والثمر ويؤتى أكله فى حينه الموقوت باذن ربه •• وهل يتصور أن النواة على ضعفها تكون نخلة باسقة تمسك بها الجذور ولا تتأثر لهبوب الرياح وتؤتى أشهى الثمار ؟؟ وجذور الشجر والنبات تختلف شكلا ونوعا كل بمقدار ونظام رتيب •• وهذا التنوع والتمايز فى الثمرة الواحدة فانها تختلف حجما ولونا ومذاقا رغم أنها نوع واحد وفى أرض واحدة وتسقى بماء واحد وترى بعضها يؤكل باطنه ويرمى ظاهره وبعضها يؤكل ظاهره ويرمى باطنه ولو نظرت الى بساتين الأعناب والنخيل والأشجار لرأيت صنع الله : كيف نمت تلك الأغصان وتفرعت هذه الفروع وتغايرت تلك الثمار وتشكلت هذه الألوان وتنوعت هذه المذاقات •• انها الآيات الباهرة التى لا تحتاج الا الى العقل الذى يفهم والقلب الذى يفقه •• وانها الدلائل

---

(٢٦) النحل ١٦/٨٠ .

الميسرة الملموسة التى وقفت عندها تربية القرآن تقول للفطر المستقيمة : هذه آيات الله .. فهل من مجيب .. ؟ ..

يقول تعالى :

« أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ [٢٧] »

ويقول :

« إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ [٢٨] »

ويقول :

« وَهُوَ ٱلَّذِى أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » [٢٨]

ويقول سبحانه :

« وَهُوَ ٱلَّذِى أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ

---

(٢٧) الواقعة ٥٦/٦٣ ، ٦٤ .

(٢٨) الأنعام ٦/٩٥ ، ٩٩

وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ »(٢٨)

ويقول عز من قائل :

« وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٩) »

انها الفطرة المأمورة بالنظر فى هذه الحقائق الباهرة ..

قال تعالى :

« فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِ * أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَباً وَقَضْباً * وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً * وَحَدَآئِقَ غُلْباً * وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا * مَّتَٰعاً لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ (٣٠) »

تأمل فى نبات الأرض وانظـــر   الى آثـــار ما صـــــنع المليك

---

(٢٨) الأنعام ١٤٠/٦ .

(٢٩) الرعد ٤/١٣ .

(٣٠) عبس ٢٤/٨٠ — ٣٢ .

عيون من لجين شـــاخصـــات   بأزهار هى الذهب السـبيك
على قضب الزبرجد شـاهدات   بأن الله ليس لـه شريـك

انها حين تنظر بعين الانصاف سوف تهتف من أعماقها : حقا : ان الله ليس له شريك ..

٤ ـ عالم الكواكب :

وهذا عالم الكواكب :

تراها معلقة فى الفضاء تسير فى مداراتها باحكام ودقة ونظام تعرف بمسارها عدد السنين والحساب .. وتتنوع بتنقلاتها الفصول من صيف وخريف وشتاء وربيع .. وعالمها يحير العقول ويختلب الأبصار ..

هذا هو العلم يقول لنا عن الشمس وهى احدى تلك الكواكب :

« الشمس هى كرة متأججة بنار أشد وطيسا من كل نار على الأرض وهى أكبر من الأرض بأكثر من مليون مرة . أما بعـدها عنا فنحـو ٩٢٫٥٠٠٫٠٠٠ ميل .. هذا وان هى الا نجمة ، وليست هى فى عـداد النجوم الكبرى .

وهناك مشكلة أخرى أعيى حلها النهائى عقول العلماء والفلكيين ، هى أن الشمس كما يؤخذ من علم طبقات الأرض لم تزل تشع نفس المقدار أو نحوه من الحرارة مدة ملايين من السنين فاذا كانت الحرارة الصادرة عنها نتيجة احتراقها .. فكيف لم تفن مادتها مع توالى العصور ؟ فلا شك أن طريقة الاحتراق الجارية فيها غير ما نعهد ونألف والا لكفاها ٦٠٠٠ سنة لتحترق وتنفذ حرارتها .

« أما فضل الشمس علينا فليس أنها مصدر نورنا ونارنا فقط بل هى محور نظامنا السيارى ومصدر حياتنا أيضا .. فهى التى تبخر مياه

البحر وترفعها غيوما فى الجو وتنزلها أمطارا على الأرض حيث تجرى جداول وأنهارا تروى زرعنا وتنمى أغراسنا وتثير الرياح وتهيج الأنواء ، فتطهر الهواء وتنقيه ، وتزجى السفن والمراكب فى عباب المحيط . وهى التى تجر المركبات وتدير الآلات البخارية ، وما الفحم الحجرى الا حرارة نارها المدخرة منذ قديم الأدهار لينتفع بها بنو العصور المتأخرة ، ولا حياة لولا الشمس لحيوان ، ولا نبات ، فالحيوانات تنتعش بحرارتها ، والأطيار تغرد بأنوارها وتسبح تسبيحا ، وبحرارتها وأنوارها تبزغ النباتات وتنمو الأشجار ، وتزهو الأزهار ، وتنضج الثمار فنحن مدينون للشمس بمأكلنا ومشربنا وهى علة وجودنا على هذه الأرض » ..

فاذا تجاوزنا الشمس وجدنا أن :

أقرب نجم الينا بعد الشمس يعادل بعده ٢٦٠ر٠٠٠ مرة بعد الشمس عنا .

ويعتبر هذا شيئا ضئيلا جدا بالنسبة لنجوم المجرة التى أسماها القدماء « طريق التبانة » بل تعتبر المجموعة الشمسية ذرة اذا قيست بالمجرة ، اذ انها تحتوى على مائة مليون نجم موزعة فيما يشبه القرص المفرطح الرقيق نسبيا ..

ويقول هيربرت سبنسرجوتز مؤلف كتاب « الفلك العام » :

« ان الضوء يستغرق مائة ألف سنة ضوئية ليصل بين طرفى المجرة ومعلوم أن الضوء يسير بسرعة ١٧٦ ألف ميل فى الثانية أو ٣٠٠ ألف كيلو متر وعلى هذا فان السنة الضوئية تعادل عشر مليون مليون كيلو مترا ..

وليست هذه المجرة التى تبلغ هذا الحد من الضخامة التى لا يقوى العقل على استيعابها الا واحدة من كثيرات لم يحصها العد ..

وبقى أن نعرف أن أقرب مجرة لمجراتنا تبعد سبعمائة ألف سنة ضوئية »[٣١] . والقرآن يبسط هذه الأدلة بأسلوبه العذب الذى تخالط رناته أوتار القلوب فيقول :

« هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ »[٣٢]

ويقول :

« وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ * وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ * لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ »[٣٣]

ويقول :

« ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى

---

(٣١) قصة الكون من السديم الى الانسان ، من كتاب الطاقة الانسانية لاحمد حسين ص ١٥ .

(٣٢) يونس ١٠/٥ .

(٣٣) يس ٣٦/٣٨ — ٤٠ .

لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَـٰتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ » (٣٤)

ويقول :

« وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » (٣٥)

ويقول :

« وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » (٣٦)

ويقول :

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ » (٣٧)

ويقول :

« ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ * وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ * وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ » (٣٨)

---

(٣٤) الرعد ٢/١٣ .

(٣٥) النحل ١٢/١٦ .

(٣٦) الأنعام ٩٧/٦ .

(٣٧) الحج ٦٥/٢٢ .

(٣٨) الرحمن ٥/٥٥ ــ ٧ .

ويقول :

« وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ » (٣٩)

ويقول :

« أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى ٱلسَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ » (٤٠)

ويقول :

« وَٱلسَّمَاءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ » (٤١)

٥ ـ الرياح :

وظاهرة أخرى من ظواهر هذا الوجود .. جلية واضحة أمام الناظرين وهى جلية واضحة لأنها لا يستغنى عنها انسان أو حيوان أو نبات فهى أساس نظام الحياة على هذا الكوكب ..

نعم هى بادية ولكن للأعين البصيرة والقلوب المستعدة للايمان ..

أرأيت الرياح ؟؟ وكيف أحكم الله سيرها وقدر قواها ووزعها على هذا الكوكب الأرضى توزيعا دقيقا رصده العلماء وقسموا على أساسه هذا العالم الى مناطق حارة وباردة ومعتدلة وعرفوا سيرها فكانت الجوار فى البحر كالأعلام ..

---

(٣٩) المؤمنون ٢٣/١٧ .
(٤٠) ق ٥٠/٦ .
(٤١) الذاريات ٥١/٤٧ .

وكيف أدخل فى تكوين الهواء مادة الحياة التى لو زادت لأدت الى احتراق الأرض وما عليها ومن عليها ولو قلت لاختنق الأحياء جميعا ..

وهذه الرياح تحمل حبوب اللقاح : احياء للنبات والأشجار ، والسحاب الذى يحمله الهواء وما يتبع ذلك من مطر ورعد وبرق .. وكله أثر بليغ ليد القدرة لا يسير خبط عشواء انما هو الاحكام والدقة ..

تلك الآيات الباهرات وقف عندها القرآن مرشدا وهاديا يخبر ويستفهم ويقول :

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَاماً فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ » (٤٢)

ويقول :

« هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ * وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ » (٤٣)

---

(٤٢) النور ٢٤/٤٣ .

(٤٣) الرعد ١٣/١٢ ، ١٣ .

ويقول :

« وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيٰحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرٰتِ كَذٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ »(٤٤)

ويقول :

« وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيٰحَ لَوٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنٰكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخٰزِنِينَ »(٤٥)

ويقول :

« أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيٰحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ أَءِلٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ تَعٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ »(٤٦)

ويقول :

« وَمِنْ ءَايٰتِهِ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَات وَلِيُذِيقَكُمْ

---

(٤٤) الأعراف ٧/٥٧ .

(٤٥) الحجر ١٥/٢٣ .

(٤٦) النمل ٢٧/٦٣ .

مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ »[٤٧]

ويقول :

« وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ * إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ * أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ »[٤٨]

ويقول :

« وَٱللَّهُ ٱلَّذِى أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ »[٤٩]

من دلائل الوحدانية : الأرض :

والأرض !!

أقرب شيء الى الانسان •• ترنو اليها التربية القرآنية لتأخذ منها الدليل الذى يتناسق مع منطق الفطرة ويؤلف مع أشواقها للمعرفة نغما هادئا يريح الأعصاب ويشبع رغبات القلب ••

الأرض منها خلقنا وعليها عشنا وفيها ندفن ومنها نبعث ••

---

(٤٧) الروم ٤٦/٣٠ .

(٤٨) الشورى ٣٣/٤٢ ، ٣٤ .

(٤٩) فاطر ٩/٣٥ .

أرأيت الأرض ؟؟ انها آية من آيات الله القادر •• فيها البحـــار والأنهار والجبال والوديان والصحارى •• ما فى باطنها أعجب مما عــلى ظاهرها •• جعلها خالقها مستعدة لاستقبال الانسان واستخلافه فيها •• جعل ثلاثة أرباعها ماء مالحا حتى لا تفسد الحياة وتتعفن •• وجعل هذا الماء الكثير وسيلة أخرى تسير بها قافلة الحياة •• اذ يتبخر بواســطة حرارة الشمس ويتصاعد من مسطحات المياه ليكون السحب التى تنزل ماء عذبا صافيا يحيى الانسان والحيوان والنبات •• وأجــرى فى الأرض الأنهار والبحار متجاورة لا يبغي أحدها على الآخر •• وجــعل الجــزء الباقي مهيئا لحياة الانسان ومسخرا لخدمته : فلاهو بالرخو تغوص فيه الأقدام ولا بالصلب الذى يستعصى حفره والانتفاع به •• ولم يجعله باردا فيتجمد ما فوقه ولا حارا يحرق ما عليه •• انما هو التناسب والتوافق بين خصائص الانسان وما ينتفع به حتى تكمل اللذة ويتم الانتفاع •• وانها لآية قريبة وملموسة تراها فطرة الانسان ولا تملك الا أن تجيب بأن هذه الأرض برهان القدرة الالهية والعظمة الربانية ••

ومن حق القرآن أن يواجه هذه الفطرة بهذه التساؤلات فيقول :

« أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ »(٥٠)

ويقول :

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ

---

(٥٠) النمل ٦١/٢٧ .

ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَٰنُهَا وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ » (٥١)

ويقول :

« أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰداً * وَٱلْجِبَالَ أَوْتَاداً » (٥٢)

ويقول :

« أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتاً * أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتاً * وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتاً * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ » (٥٣)

ويقول :

« أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى ٱلسَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ » (٥٤)

---

(٥١) فاطر ٣٥/٢٧ ، ٢٨ .
(٥٢) النبأ ٧٨/٦ ، ٧ .
(٥٣) المرسلات ٧٧/٣٥ — ٣٨ .
(٥٤) الغاشية ٨٨/١٧ — ٢٠ .

ومن حق التربية القرآنية أن تمتن بهذه النعمة وهى تقول :

« وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ * وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ » (٥٥)

وتقول :

« وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » (٥٦)

وتقول :

« وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » (٥٧)

وتقول :

« وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا » (٥٨)

---

(٥٥) الحجر ١٥/١٩ ، ٢٠ .
(٥٦) فاطر ٣٥/١٢ .
(٥٧) النحل ١٦/١٤ ، ١٥ .
(٥٨) الفرقان ٢٥/٥٣ .

وتقول :

« قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَٰلَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَٰتَهَا فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ * ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ »(٥٩)

وتقول :

« ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ بَنَٰهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّٰهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَٰهَا * وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَٰهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَٰهَا * وَالْجِبَالَ أَرْسَٰهَا * مَتَٰعاً لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ »(٦٠)

انه هذا الكون الفسيح فى سمائه وأرضه وما فى سمائه وأرضه حقل خصيب وتربة طيبة تنقل فيها تربية القرآن شجرة التوحيد الخالص لتغرسها فى أعماق النفس الانسانية حتى لا يؤثر فيها تيار الانحراف .. ولا تجرفها أمواج الشرك ..

---

(٥٩) فصلت ٩/٤١ ــ ١١ .

(٦٠) النازعات ٢٨/٧٩ ــ ٣٣ .

ثانيا ـ وقفة مع الملحدين :

ومن هذا الكون تأخذ الدليل الواضح لتقتلع به جـذور الباطل وتقضى على جراثيم الالحاد والانكار .. انظر الى هذه التربية وهى تواجه الملحدين والمنكرين لوجود الله الذين يقولون ما حكى الله عنهم « ما هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر[٦١] » كيف يجادلهم القرآن ويأخذ بأيديهم الى الطريق .. مبينا لهم ولأمثالهم : أن انكارهم وليد الجهل والأوهام ،

« وَمَا لَهُمْ بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ »[٦١]

اذ يستحيل أن تكون هذه الحياة وليدة الصدفة العمياء بعد أن بدا من مظاهر هذا الوجود ما يؤكد حاجته الى خالق مدبر عليم .. ويكفى فى بيان جهل هؤلاء الملحدين أن النظرة العابرة توحى بأن اخراج الحياة من العدم وايداع ما فيها ومن فيها سر البقاء والتجدد دليل أيما دليل على الوجود الربانى ..

قال الأستاذ ليثز فى خطاب الرئاسة السنوى بقسم الفزيولوجى من جامعة اكسفورد عام ١٩٣٦ ما فحواه :

« ان كل خلية من البروتين تتألف من سلسلة فيها بضع مئات من الحلقات .. وان كل حلقة منها هى تركيبة من ذرات قوامها حمض من الأحماض النوشادرية .. وهى أحماض يبلغ المعروف منها نحو العشرين ويجوز أن يقع كل منها موقعه على اختلاف فى النسبة والترتيب .. ولكننا لا نراها فى بعض الأنسجة الا على ترتيب واحد ونسبة واحدة بغير شذوذ ولا اختلاف ..

---

(٦١) الجاثية ٢٤/٤٥ .

فهل نستطيع أن تتخيل مبلغ الدقة فى هذه الاصابة بين احتمالات الخطأ التى لا تحصيها أرقامنا المألوفة ؟؟

يكفى لتقريب هذه الدقة من الخيال أن نذكر أن الحروف الأبجدية فى لغات البشر كافة لا تتجاوز الثلاثين ويتألف من تراكيبها المتغيرة كل ما تلفظ به الأمم من الكلمات والعبارات فاذا كانت خلية البروتين فى حجمها الخفى قابلة لأضعاف ذلك التكرار ثم لا نشاهد فيها الا كلمة واحدة فى ترتيب واحد لا يتغير — فقد عرفنا على التقريب معنى تلك الاصابة فى التوفيق والتركيب ..

يقول الأستاذ ليثز لتقريب هذا الخيال : — ان الضوء يصل من طرفى المجرة الى الطرف الآخر فى ثلثمائة ألف سنة فاذا أردنا أن نشبه اصابة الخلية فى تركيبها بمثل مفهوم — فهذه الاصابة تضارع اصابة الرصاصة التى تنطلق من الأرض فتصيب هدفا فى نهر المجرة بحجم عين الثور ولا تخطئه مرة من المرات .. وهذا على فرض أن حلقات الخلية خمسون فقط وليست بضع مئات .

يقول العقاد :

لقد بطل معنى القصد فى لغة العقل ان كان هذا كله مصادفة لاتستلزم الخلق والتدبير ونحن مع هذا لا نبلغ غاية العجب فى هذا التركيب المحكم المصيب .. لأن الجسم الحى الذى تتكرر فيه هذه المعجزات كل لحظة من لحظاته لا تزال فيه بقية للعجب لعلها أعجب من كل ما تخيلناه ، وهى أن هذه الذرات الخفية تتجمع وتتفرق وتلتئم وتنفصل على نحو يضمن لها التجدد أو يضمن الدوام للحياة فيتألف كل حى من جنسين وتخرج من كل منهما خلية واحدة يتكون منهما حى جديد وتنقسم هاتان الخليتان تارة أزواجا .. وتارة فرادى على الموضع المطلوب فى المرحلة المطلوبة ،

ويتفق عددها فى كل نوع من الأنواع الحية بغير زيادة ولا نقصان ..
ويطبع كل حيوان على عادات وغرائز تسوقه الى التناسـل فى موعده المقدور فيبنى العش قبل أن ينسل ان كان من الطيور ، ويفارق الماء الملح الى مداخل الأنهار أو الخلجان قبل أن ينسل ان كان من سمك البحار ، ويمتلىء بالشوق الى شريكه فى التوليد قبل موعد التوليد على اختلاف الأنواع والأجناس .

ونعود فنقول مرة أخرى ، « ان معنى القصد قد بطل فى عقل الانسان ان كان القول بالمصادفة هنا أيسر من القول بالخلق والتدبير .. فالقرآن الكريم قد خاطب الأحياء بلغة الحياة وخاطب العقلاء بلغة العقل حين كرر برهان الحياة وبرهان النسل فى اثبات وجود الخالق الحكيم[٦٢] » ..

والعلامة نيوتن أعظم علماء الطبيعيات يقول : « لا تشكو فى الخالق لأنه مما لا يعقل أن تكون الضرورة وحدها هى قائدة الوجود .. لأن ضرورة عمياء متجانسة فى كل مكان وزمان لا يتصور أن يصدر منها هذا التنوع فى الكائنات ولا هذا الوجود كله بما فيه من ترتيب أجزائه وتناسبها مع تغيرات الأزمنة والأمكنة .. بل ان هذا كله لا يعقل أن يصدر الا من كائن أزلى له حكمة وارادة » ويقول : « ان من المحقق ان الحـركات الحالية للكواكب لا يمكن ان تنشأ من فعل الجاذبية العامة .. لأن هذه القوى تدفع الكواكب نحو الشمس فيجب لكى تدور هذه الكواكب حول الشمس أن توجد يد الهية تدفعها على الخط المماس لمداراتها » ..

ويقول : « يجب وجود سبب عرف هذه المواد وقارن بين كميات المادة الموجودة فى الأجرام السماوية المختلفة وأدرك ما يجب أن يصـدر منها من القوة الخارقة وقدر المسافات المختلفة وأدرك ما يجب أن يصدر منها من القوة الخارقة وقدر المسافات المختلفة بين الكواكب والشمس وبين

---

(٦٢) الله : للعقاد ص ٢٣٩ ــ ٢٤١ .

توابعها ، وقدر السرعة التى يمكن أن تدور بها هذه الكواكب وتوابعها حول أجسام تصلح أن تكون مركزا لها .. » ويقول : « كيف تكونت أجسام الحيوانات بهذه الصناعة البديعة ؟؟ ولأى المقاصد وضعت أجزاؤها المختلفة ؟؟ وهل يعقل أن تصنع العين الباصرة بدون علم بأصول الأبصار ونواميسه ، والأذن بدون المام بقوانين الصوت ؟؟ كيف يحدث أن حركات الحيوانات تتجدد بارادتها ؟ ومن أين جاء هذا الالهام الفطرى فى نفوس الحيوانات ؟؟ فهذه الكائنات كلها فى قيامها على أبدع الأشكال وأكملها ألا تدل على وجود اله منزه عن الجسمانية .. حى .. حكيم .. موجود فى كل مكان يرى حقيقة كل شىء فى ذاته ويدركه أكمل ادراك[٦٣] » ..

والتربية الالهية تعرض لكل هذا فى أجمل بيان وأقوى حجة وأنصع دليل فيقول ربنا :

« إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ * فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا »[٦٤]

ويقول :

« يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ * وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ »[٦٥]

---

(٦٣) دراسات موضوعية تحت ضوء القرآن والسنة للدكتور عبدالغنى الراجحى ص ٣٦ ، ٣٧ .

(٦٤) الأنعام ٩٥/٦ ، ٩٦ .

(٦٥) الروم ١٩/٣٠ ، ٢٠ .

ويقول :

« بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ »(٦٦)

ويقول :

« ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ »(٦٧)

الى غير ذلك من الآيات التى واجه القرآن بها هذا الصنف المنحرف فى فطرته عن الطريق السوى فعاش على الظن والشك .. قال ابن رشد :

« ان قوما قالوا : كيف أبدع الله العالم لا من شىء وفعله شيئا من لا شىء .. قلنا فى ذلك : ان الفاعل لا يخلو من أن تكون قوته كقدرته.. وقدرته كارادته .. وارادته كحكمته أو تكون القوة أضعف من القدرة والقدرة أضعف من الارادة .. والارادة أضعف من الحكمة فان كانت بعض هذه الصفات أضعف من بعض فاذن ليس بيننا وبين الخالق فرق وقد لزمها النقص وهذا مستحيل أو يكون كل واحد من هذه الصفات فى غاية التمام وغاية الحكمة فهو ما يشاء كما يشاء من لاشىء وانما يتعجب من النقص الذى فينا(٦٨) » ..

وقال بعضهم : « دعوى أن الحدوث من العدم محال يقال عنها انها محال بنفسها لا بفعل قادر أزلى . وعدم ادراكنا لذلك وكونه مما يفوق طور العقل لا ينفيه اذ لا يلزم من جهل الأمر نفيه .. وقد اعترف

---

(٦٦) البقرة ١١٧/٢ .
(٦٧) فاطر ١/٤٥ .
(٦٨) دلائل التوحيد : للقاسمى ص ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ .

الماديون بتعذر معرفة أصل المادة •• وكم من أشياء مشهورة يعسر على الانسان ادراك حقيقتها •• وكما أنه لا يحق لمن لم يبصر أمرا أن ينكر وجوده فهكذا ليس لمن لم يفهم حقيقة الخالق أن ينكر وجوده سيما وهى من غيب الغيوب وأبطن البطون(*) » ••

أرأيت هذه الحملة التى شنتها تربية القرآن على دعاة الالحاد ؟؟

انها حملة ضخمة لا تدع فرصة لمنكر الا وضيعتها ولا شبهة الا وأزالتها ولا حجة الا ودحضتها •• ولهذا ايضا مزيد بيان فى الصفحات التالية ••

ثالثا ن وقفة مع المشركين :

(أ) التوحيد دعوة الأنبياء :

وكما اتجهت التربية القرآنية الى المنكر ترشده امتدت رحمتها الى المشرك الذى يدعى مع الله آلهة أخرى سواء كان صاحب كتاب منزل ضل عنه وانحرف عن تعاليمه أو ليس معه دليل ولم يأته رسول فعبد الحجر والشجر والكواكب وغيرها ••

امتدت الى هؤلاء جميعا فوجدتهم فى جهالة عمياء وضلال مبين •• فأقنعتهم بالحجة البينة والبرهان الساطع حتى استبان كل طريقه وظهر للناس وجه الحقيقة دون زيف أو بهتان ••

لقد وجد القرآن ــ وهو يربى هذه المجتمعات ــ ركاما من التراب فوق أكبر حقيقة مات تحت رايتها الشهداء وتعذب من أجلها الصالحون ، وطورد لها الأنبياء ، لأنها تحرير للانسان من كل عبودية فى الأرض وجعل هذه العبودية لله وحده •• وهى اعلاء لكرامة الانسان ومشعل يحمله فى يده يجوب به مسالك الحياة •• انها دعوة التوحيد بأكمل صوره :

(*) دلائل التوحيد : للقاسمى ص ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ .

توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية وتنزيه للإله عن النـد والشريك والوالد والولد .. دعوة لتوحيد الله فى ذاته وصفاته وأفعاله ..

« لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ »(٦٩)

وهى دعوة الأنبياء فى كل أمة قال تعالى :

« شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحاً وَٱلَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ »(٦٩)

وقال :

« وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا فَٱعْبُدُونِ »(٧٠)

وقال :

« وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ »(٧١)

---

(٦٩) الشورى ٤٢/١١ ، ١٣ .

(٧٠) الأنبياء ٢١/٢٥ .

(٧١) الزخرف ٤٣/٤٥ .

نوح أبو البشر الثانى يتجه الى قومه بهذه الدعوة ..

قال تعالى :

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ » (٧٢)

وابراهيم أبو الأنبياء ينادى قومه :

« ٱعْبُدُوا ٱللهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ » (٧٣)

وهكذا قالها هود وصالح وشعيب لأقوامهم ..

ويعقوب يسائل أبناءه :

« مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِى قَالُوا نَعْبُدُ إِلٰهَكَ وَإِلٰهَ ءَابَائِكَ إِبْرَٰهِمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهاً وَٰحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ » (٧٤)

ويوسف ابن يعقوب يخاطب دعاة الشرك فى تهكم وانكار ..

« أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَءَابَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ ٱللهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » (٧٥)

---

(٧٢) المؤمنون ٢٣/٢٣ .

(٧٣) العنكبوت ٢٩/١٦ .

(٧٤) البقرة ٢/١٣٣ .

(٧٥) يوسف ١٢/٣٩ ، ٤٠ .

وموسى يقول لقومه :

« أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ » (٧٦)

وعيسى يعلن أمام بنى اسرائيل :

« إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ » (٧٧)

ويأتى محمد صلى الله عليه وسلم على فترة من الرسل ليجد هذه الرسالات كلها قد تلاشت من على ظهر الأرض وذهبت صيحات الأنبياء أدراج الرياح ، وأن دعوة المرسلين التى تتابعت مع عمر الانسانية تدعوها الى عبادة الله وحده لا شريك له ، لم يعد لها وجود .. فاليهود حرفوا التوارة وبدلوها وقالوا : عزير ابن الله . والنصارى نسوا تعاليم الانجيل والمسيح وغيروها وادعوا : أن الله هو المسيح عيسى بن مريم وأن الله ثالث ثلاثة ..

وفى الفترة التى غابت فيها الرسالات انحرفت الفطرة عن الطريق السوى فكانت عبادة الأصنام والكواكب ومظاهر الطبيعة ..

ومن هنا جاءت رسالة الاسلام بمفهوم جديد للوحدانية أزالت ما تراكم من أتربة على دعوات الأنبياء السابقين وأعادت لهذه الدعوة جدتها ورونقها ونجحت فى غرس هذه العقيدة فى القلوب ..

وكان مفهومها لهذه الدعوة جديدا وذلك لطول العهد الذى بعد بالناس عن حقيقة الوحدانية التى كافح من أجلها المرسلون ..

---

(٧٦) الأعراف ١٤٠/٧ .

(٧٧) آل عمران ٥١/٣ .

ولأول مرة فى حياة البشرية تتفرع شجرة التوحيد وتستقر جذورها فى أعماق النفوس وتصبح دينا عاما فى أرجاء الأرض •• وهى لم تتفرع وتستقر وتصبح دينا عاما الا بعد أن أخذت على القلوب أقطارها وحاصرتها فلم تجد لديها دليلا تقدمه وسند تركن اليه فألقت بزمامها بين يدى الله واستسلمت لأمره ورضيت به ربا ••

ولم يبق بعيدا عن ساحة التوحيد الا الفطر الملتوية التى يقودها الجهل والعناد :

« فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ »(٧٨)

(ب) خطاب للمشركين :

وأول خطة وضعتها تربية كتاب الله لتصفية النفس من أدران الشرك هى الرجوع الى فطرة الانسان واحياؤها والتساؤل معها عن مظاهر الخلق والتدبير والملك والحفظ والاحسان والرحمة •• (كما سبق) ••

والفطرة لا تملك الا الاعتراف بالربوبية لله سبحانه •• وما دامت قد اعترفت بالله ربا فما يمنعها أن توحده فى ذاته وصفاته وأفعاله ؟؟ •• ان اشراك آلهة أخرى مع الله يصبح ضلالا وسوء فهم وجاهلية وعمى يستحق أن يشن القرآن حملته عليه فيظهر فساد هذه الآلهة المدعاة وعجزها الشنيع وفقرها البالغ لمن يدبر أمرها ويقوم بحاجتها فضلا على أن تعبد وتقدم لها فروض الطاعة والولاء ••

يقول القرآن مهاجما هذا الجهل :

« أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ *

---

(٧٨) الأنعام ٦/٣٣ .

وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَلاَ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ * وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لاَ يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ * إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلاَ تُنظِرُونِ »(٧٩)

ويؤكد عجز هذه الآلهة فيقول :

« وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ * أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ(٨٠) »

ويقول :

« وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِنَ السَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْئاً وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ »(٨٠)

ويبين فقرها واحتياجها فيقول :

« قُلْ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً * أُوْلَٰئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ

---

(٧٩) الأعراف ١٩١/٧ ــ ١٩٥ .

(٨٠) النحل ٢٠/١٦ ، ٢١ ، ٧٣ .

يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً » (٨١)

ويوضح حمق بنى اسرائيل وعبادتهم عجلا من دون الله فيقول :

« أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعاً » (٨٢)

وآلهتهم لا تنجيهم من عذاب الله ، لأنها لا تنقذ نفسها ..

قال تعالى :

« أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ ولَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ » (٨٣)

ويشرح لهؤلاء الغافلين مدى ما وصلت اليه آلهتهم من عجز فيقول :

« يَـٰأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْئاً لَّا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ » (٨٤)

---

(٨١) الاسراء ٥٦/١٧ ، ٥٧ .

(٨٢) طه ٨٩/٢٠ .

(٨٣) الأنبياء ٤٣/٧١ .

(٨٤) الحج ٢٢/ ٧ .

ويقول :

« ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ * إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا ٱسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ »(٨٥)

ويقول :

« قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ * وَلَا تنفعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ »(٨٦)

ويدلهم على المصدر الحقيقى للرزق فيقول :

« إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ »(٨٧)

---

(٨٥) فاطر ١٥/٣٥ .

(٨٦) سبأ ٢٢/٣٤ .

(٨٧) العنكبوت ١٧/٢٩ .

ويعرفهم أن هذه الآلهة لا تملك لأحد نفعا ولا ضرا فيقول :

« قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ (٨٨) »

كما يعرفهم أن عبادة هذه الآلهة طريق الى النار واسراف وضلال فيقول على لسان مؤمن آل فرعون :

« وَيَٰقَوْمِ مَالِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ * تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ * لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ (٨٩) »

ويعنفهم ويوبخهم ويتعجب من تفاهة أفكارهم فيقول :

« قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ

---

(٨٨) الزمر ٣٨/٣٩ .

(٨٩) غافر ٤٠/٤١ ، ٤٣ .

إِلَى يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ (٩٠) »

وهكذا تتجه تربية القرآن الى المشركين فتفضح مكنوناتهم وتسفه أحلامهم وتشنع عليهم وتضع أيديهم على مفاتيح الحق : كيف يرضى عاقل لنفسه أن يمرغ جبهته أمام حجر أصم أو انسان عاجز أو كوكب تسيره يد القدرة ؟؟ وكيف ينزل الانسان الى هذا الدرك الأسفل مع اعترافه بأن لهذا الوجود ربا ؟؟ ولم لا يتوجه مباشرة الى هذا الخالق العظيم يعبده ويزداد بالقرب منه شرفا وفضلا ..

« وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى وَلْيُؤْمِنُوا بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ » (٩١)

لذلك يتوجه الى هؤلاء منكرا ومبينا للانسانية كلها ظلمهم وجهلهم فيقول :

« وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ » (٩٢)

---

(٩٠) الأحقاف ٤/٣٦ ـ ٦ .

(٩١) البقرة ١٨٦/٢١ .

(٩٢) العنكبوت ٦٨/٢٩ .

ويقول :

« وَمَنْ أَظْلَمَ مِمَّنْ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ »(٩٣)

ويسألهم بلسان ابراهيم :

« مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِى أَنْتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ * قَالُوا وَجَدْنَا ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ * قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ »

ولما ظهر حمقهم قال لهم :

أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ »(٩٤)

ويصور مدى ما وصلوا اليه من ضلال فيقول :

« لَهُ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِ وَمَا دُعَاءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ »(٩٥)

---

(٩٣) الصف ٦١/٧ .

(٩٤) الأنبياء ٢١/٥٢ ـ ٥٤ ، ٦٦ ، ٦٧ .

(٩٥) الرعد ١٣/١٤ .

(ج) تهديد لهم :

وتنتقل التربية القرآنية بالنفوس الى جو آخر بعيد عن هذا العالم المشهود تنتقل الى يوم القيامة فتصور حال العابدين والمعبودين من الخزى والمهانة والذلة والضياع .. وكيف يتبرأ الاتباع من المتبوعين ويندم هؤلاء على ضياعهم ولات حين مناص .. فعل هذه المشاهد المفزعة تقرع قلوب هؤلاء المشركين فتنفتح أبوابها لضياء الحق ونور التوحيد ..

ويوم القيامة بكل ما فيه غيب سوف يكون .. ولكن تصوير القرآن لمشاهده يجعلنا ننسى أن هذا لم يأت بعد فيعيش الانسان متمثلا لحظاته بكل ما فيها وكأن هذه المشاهد وقعت وانقضت وما زالت شبحا مخيفا يتهدد الظالمين ولنستمع الى كتاب الله ينقلنا الى أحد هذه المشاهد فيقول :

« وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِى النَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِّنَ ٱلنَّارِ * قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِّنْ ٱلْعَذَابِ * قَالُوٓا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَٱدْعُوا وَمَا دُعَٰٓؤُا ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ » (٩٦)

---

(٩٦) غافر ٤٠/٤٧ — ٥٠ .

ويقول :

« وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ * قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَـٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا وَأَسَرُّوا ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » (٩٧)

وفى موقف بين الملائكة وعابديها يبدو خزى هؤلاء :

يقول ربنا :

« وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَهَـٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ * قَالُوا سُبْحَـٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ * فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ » (٩٨)

---

(٩٧) سبأ ٣٤/٣١ — ٣٣ .

(٩٨) سبأ ٣٤/٤٠ — ٤٢ .

وهذا موقف آخر من مواقف هذا اليوم فيه تنقطع الأسباب وتبدو الحسرات يقول فيه القرآن :

« وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ * إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا وَرَأَوُا ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ »(٩٩)

وهذه صورة أخرى مفزعة لمشهد حى متحرك من مشاهد الفزع والندامة حين يشهد المشركون على أنفسهم أنهم كانوا كافرين .. فيتوجه اليهم النداء :

« ٱدْخُلُوا فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ * وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ

---

(٩٩) البقرة ٢/١٦٥ — ١٦٧ .

لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ» (١٠٠)

وها هم أولاء أتباع عيسى الذين قالوا : ان الله هو المسيح بن مريم •• وقالوا : ان الله ثالث ثلاثة موقوفون أمام الله فى هذا اليوم ليفضح قولهم ويبين ضلالهم حين يجمع الله الرسل فيقول :

« مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا لاَ عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ » (١٠١)

ويتوجه بالسؤال الخاص الى عيسى عليه السلام :

« يٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللهِ قَالَ سُبْحٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلاَ أَعْلَمُ مَافِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِى بِهِ أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنْتَ أَنْتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ * إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * قَالَ ٱللهُ هٰذَا يَوْمُ يَنْفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ

---

(١٠٠) الأعراف ٧/٣٨ ، ٣٩ .

(١٠١) المائدة ٥/١٠٩ .

صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ » (١٠٢)

(د) مفارقة ضخمة :

وهذا لون آخر من ألوان تربية القرآن تقدمه بين يدى المشركين .. وهذا اللون يقوم على بيان المفارقة الضخمة بين الخالق والمخلوق والمتصف بصفات الكمال والمستكين الى العجز والنقص .. هذا الملكوت شاهد بأن صانعه لا يدانيه فى صفاته أحد من خلقه .. فله وحده الأسماء الحسنى .

قال تعالى :

« وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِى أَسْمَٰٓئِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » (١٠٣)

وتلمح دقة هذه التربية فى قول الله لرسوله صلى الله عليه وسلم :

« قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَآءَ كَلَّا بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ » (١٠٤)

وهذا توجيه الهى حكيم يضع أيدى الكافرين على الحقيقة الناصعة: فأين شركاؤهم فى ذلتها ونقصها وكيف توضع فى موضع المقارنة بالله الذى يمتلك العزة كلها وأمر العالم كله يصرفه بحكمته مما لا يقدر عليه الا رب العزة وحده ؟؟

ان القرآن يعرفنا الاله الحق بهذه الصفات العظيمة فيقول :

---

(١٠٢) المائدة ١١٦/٥ — ١١٩ .
(١٠٣) الأعراف ١٨٠/٧ .
(١٠٤) سبأ ٢٧/٣٤ .

«هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ * هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ» (١٠٥)

وتجمع آية الكرسى جملة من هذه الصفات الدالة على تفرده سبحانه بالألوهية والربوبية وتثبت أن من كان متصفا بذلك لابد أن يكون واحدا فى ملكه ولا شريك له من خلقه .. فتقول الآية :

« ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ» (١٠٦)

والقرآن ملىء بهذه الصفات .. يذكرها فى كثير من آياته يبرهن بها على ما اتصف به المولى جل جلاله من الصفات التى لا يماثله فيها أحد من مخلوقاته وبذلك يدلنا على أن الله واحد لا شريك له ..

---

(١٠٥) الحشر ٥٩/٢٢ ـ ٢٤ .
(١٠٦) البقرة ٢/٢٥٥ .

قال تعالى :

« وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ » (١٠٧)

وقال :

« ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ * لَهُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ * وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى * ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ » (١٠٨)

(هـ) هل يمكن أن يكون لله شريك ؟ :

وأخيرا تحاصر وجدان المرء بهذا الدليل القاطع وتقدمه فى نصاعة الحق وانسياب البرهان المقنع الذى لا يحتاج الى اعمال الفكرة ودقـة الذكاء .. يقول القرآن :

« لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ » (١٠٩)

يقول العلامة شارح الطحاوية بعد أن ذكر هذه الآية : « فتأمل هذا البرهان بهذا اللفظ الوجيز الظاهر .. فان الاله الحق لابد أن يكون خالقا فاعلا يوصل لعابده النفع ويدفع عنه الضر .. فلو كان لله سبحانه اله آخر يشركه فى ملكه لكان له خلق وفعل .. وحينئذ فلا يرضى تلك الشركة ..

---

(١٠٧) البقرة ٢/٥ ، ١٦٣ .

(١٠٨) طه ٢٠/٥ — ٨ .

(١٠٩) الأنبياء ٢١/٢٢ .

بل ان قدر على قهر ذلك الشريك وتفرده فى الملك والالهية دونه فعل وان لم يقدر على ذلك انفرد بخلقه وذهب بذلك الخلق كما ينفرد ملوك الدنيا بعضهم عن بعض بملكه اذا لم يقدر أن ينفرد منهم على قهر الآخر والعلو عليه فلابد من أحد ثلاثة أمور :

١ ـ اما أن يذهب كل اله بخلقه وسلطانه • ٢ ـ واما أن يعلو بعضهم على بعض • ٣ ـ واما أن يكونوا تحت قهر ملك واحد يتصرف فيهم كما يشاء ولا يتصرفون فيه بل يكون وحده هو الاله •• وهم العبيد المربوبون المقهورون من كل وجه •• وانتظام أمر العالم به واحكام أمره من أول دليل على أن مدبره اله واحد ملك واحد ورب واحد لا اله للخلق غيره ولا رب لهم سواء •• الى أن يقول : « فالعلم بأن وجود العالم عن صانعين متماثلين ممتنع لذاته مستقر فى الفطرة معلوم بصريح العقل بطلانه فكذا تبطل الهية اثنين فالآية الكريمة موافقة لما ثبت واستقر فى الفطر من توحيد الربوبية دالة مثبتة مستلزمة لتوحيد الالهية(١١٠) •

وتقدم تربية القرآن هذا الدليل فى أسلوب آخر فتقول :

« مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ »(١١١)

وقريب منه قوله جل جلاله :

« قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا

---

(١١٠) دعوة التوحيد : حقيقتها ـ الأدوار التى مرت بها مشاهير دعاتها للأستاذ / محمد خليل هراس ص ٣٣ •

(١١١) المؤمنون ٩١/٣٣ •

إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلاً * سُبْحَٰنَهُ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيراً » (١١٢)

نعم هذه قوى الأرض تتناحر وتتحارب ولا تتفق ابدا •• والأرض هباءة سابحة فى هذا الفضاء الشاسع والذى لا يعلم ما فيه من الكواكب والمخلوقات الا الخالق العظيم ولكن أهلها ــ دائما ــ فى تنازع وصراع فما بالنا بالقوة التى تسير هذا الكون •• هل يمكن أن تتعدد ؟؟ وحين تتعدد هل يمكن أن يقوم بينها اتفاق يدوم ملايين السنين ؟؟ ان العقل يثبت بطلان هذا التعدد لأن الاتفاق بين الآلهة مستحيل والخلاف لابد واقع •• وحينئذ تنقسم الخلائق تبعا لآلهتها وتثور العداوات وتقوم الخلافات بين الكتل المتنافسة على أبهة الملك والملكوت وبتعبير القرآن « وما كان معه من اله اذ لذهب كل اله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض » •• وهـــذه الآلهة سوف لا يسلم واحد منها للآخر ملكه انما هى المحاولة الجـــادة للاستحواذ على ما فى يد هذا الاله الآخر وهنا ينقلب عرش الرحمن الى حلبة للصراع والتنافس وتسقط عظمة الملك كله وتتحول السموات العلا الى ميدان قتال يحاول كل اله أن يستولى على مملكة الكون •• وبتعبير القرآن •• « قل لو كان معه آلهة كما يقولون اذ لابتغوا الى ذى العرش سبيلا » ••

قال الامام نور الدين الصابونى فيما رواه عنه صاحب ســـــفينة الراغب : «لو ثبتت الموافقة بينهما ــ بين الالهين ــ فهى اما ضرورية فيلزم عجزهما واضطرارهما أو اختيارية ويمكن تقدير الخلاف بينهما فيتحقق الالزام ــ وأحسن الامام اسماعيل الكلنهوى حيث قال فى حاشيته على شرح الجلال : « لا يخلو اما ان يكون قدرة كل واحد منهما وارادته كافية فى وجود العالم أو لا شىء منهما كاف فقط •• وعلى الأول يلزم اجتمــاع

(١١٢) الاسراء ١٧/٤٢ ، ٤٣ .

المؤثرين التامين على معلول واحد وهو محال وعلى الثانى يلزم عجزهما لأنهما لا يمكن لهما التأثير الا باشتراك الآخر وعلى الثالث لا يكون الآخر خالقا فلا يكون الها » ..

يقول العقاد : « وصواب الأمر أن وجود الهين سرمدين مستحيل ، وأن بلوغ الكمال المطلق فى صفة من الصفات يمنع بلوغ كمال مطلق آخر فى تلك الصفة وان الاثنية لا تتحقق فى موجودين كلاهما يطابق الآخر ولا يتمايز منه فى شيء من الأشياء ، وكلاهما بلا بداية ولا نهاية ولا حدود ولا فروق وكلاهما يريد ما يريده الآخر ويقدر ما يقدره ويعمل ما يعمله فى كل حال وفى كل صغير وكبير .. فهذان وجود واحد وليسا بوجودين ، فاذا كانا اثنين لم يكونا الا متمايزين متغايرين ، فلا ينتظم على هذا التمايز والتغاير نظام واحد واذا كانا هما كاملين فالمخلوقات ناقصة ولا يكون تدبير المخلوق الناقص على وجه واحد بل على وجوه (١١٣) » .
أرأيت أدلة القرآن وتربيته الفريدة وقيادته للنفوس حتى تستسلم لله وتؤمن به ?? آيات الله المبثوثة فى السماء والأرض والحملة العنيفة على أهل الشرك والضلال ، وبيان عجز آلهتهم واحتياجها ، ووصف الله بالصفات التى لا يشاركه فيها أحد والتى يستحيل أن يتصف بها أحد من هذه الآلهة الباطلة ، ونقل المعركة الجدلية من الندم والحسرة التى تسيطر على هؤلاء السفهاء الى تصور حى شاخص يوم الجزاء وايقاظ العقل ومحاصرته بهذه الأدلة البينة .

كل ذلك حصار قوى للفطرة يدفعها الى السبيل الواضح فلا تجد أمامها طريقا تسلكه غير هذا الطريق والا فهو الموت: قال تعالى :«أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات

---

(١١٣) الله : للعقاد ص ٢٠٧ .

ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ماكانوا يعملون »(١١٤) وهو العمى والظلام والحياة الثقيلة البائسة .. قال تعالى : هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور (١١٥) » وقال عز من قائل : « وما يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور وما يستوى الأحياء ولا الأموات (١١٦) » .

النفس التى اعترفت بالله والتى تولاها القرآن بالعناية والرعاية وغرس فيها شجرة التوحيد : أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين باذن ربها .. هذه النفس تصدق ماجاء به الوحى فتؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره .. وهذه حقيقة الايمان ، وهذا طريق الانسان كما أراد الله له أن يحيا فى ثقة من قوة الله التى تسير هذا الوجود ، وفى سعادة تسرى فى أوصاله يشعر معها بكل ما حوله ومن حوله فيتفاعل مع الحياة ويؤدى وظيفة الاستخلاف فى الأرض وينشر فى ربوعها ألوية الحق والسلام .

وهذا هو الطريق :

وحتى تظل الجماعة المسلمة على طريق التوحيد تعهدها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حركاتها وسكناتها فعلمها أن الحياة باسم الله ويجب أن تظل باسمه وحده ، فلا اسم مع اسمه ، ولا مشاركة له فى ملكه ، ولهذا عطر الحياة كلها بأريج من ذكر الله ولم يدع لحظة أو اشارة الا وسكب عليها من فيض روحه وجميل دعائه النابض بالحب والشوق لله سبحانه وبقيت أذكاره نشيدا حلوا فى سمع الزمن يرتلها أصحابه فيتجاوب معهم الكون كله مسبحا ومغنيا وشاديا ومعلنا أن العبادة لله وحده ..

---

(١١٤) الأنعام ١٢٢/٦ .
(١١٥) الرعد ١٦/١٣ .
(١١٦) فاطر ١٩/٣٥ ـ ٢٢ .

لقد علم صلى الله عليه وسلم أصحابه كيف يذكرون اسم الله فى كل شىء وعلى كل شىء :

عن جابر رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اذا دخل الرجل بيته فذكر الله تعالى عند دخوله وعند طعامه قال الشيطان لأصحابه ، لا مبيت لكم ولا عشاء .. واذا دخل فلم يذكر الله تعالى عند دخوله قال الشيطان : ادركتم المبيت ، واذا لم يذكر الله تعالى عند طعامه قال : أدركتم المبيت والعشاء [١١٧] » .

وكان صلى الله عليه وسلم اذا لبس ثوبا جديدا أو نعلا جديدا قال :

« اللهم لك الحمد أنت كسوتنيه .. أسألك خيره وخير ما صنع له وأعوذ بك من شره ومن شر ما صنع له [١١٨] » .. واذا أوى الى فراشه قال :

« اللهم أنى أسلمت نفسى اليك ووجهت وجهى اليك وفوضت أمرى اليك وألجأت ظهرى اليك رغبة ورهبة اليك لا ملجأ ولا منجا منك الااليك آمنت بكتابك الذى أنزلت ونبيك الذى أرسلت [١١٩] » .

وكان يقول : اللهم باسمك أموت وأحيا . واذا استيقظ قال : الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا واليه النشور [١٢٠] .

وكان اذا وضع رجله فى ركاب دابته قال : باسم الله .. فاذا استوى على ظهرها قال : الحمد لله الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وانا الى

---

(١١٧) رواه مسلم .
(١١٨) رواه أبو داود والترمذى وقال حديث حسن
(١١٩) رواه البخارى .
(١٢٠) رواه البخارى .

ربنا لمنقلبون . ثم قال : الحمد لله .. ثلاث مرات . ثم قال : الله أكبر ثلاث مرات ثم قال : سبحانك انى ظلمت نفسى فاغفر لى انه لا يغفر الذنوب الا أنت (١٢١) ..

وفى رواية مسلم : اللهم انا نسألك فى سفرنا هذا البر والتقوى ومن العمل ما ترضى اللهم هون علينا سفرنا هذا واطوعنا بعـــده اللهم أنت الصاحب فى السفر والخليفة فى الأهل اللهم انى أعوذ بك من وعثاء السفر وكآبةالمنظر وسوء المنقلب فى المال والأهل والولد . واذا رجع قالهن وزاد فيهن : آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون ..

بل انه علم أصحابه كيف يمكن أن يكون قضاء الشهوة باسم الله . فعن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال :«لو أن أحدكم اذا أتى أهله قال باسم الله .. اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان مارزقتنا فقضى بينهما ولد لم يضره (١٢٢) .. »

ورتب على قضاء هذه الشهوة الأجر والثواب لأنها توجهت الى الله وباسمه فيقول لأصحابه : وفى بضع أحدكم صدقة . قالوا يارسول الله أيأتى أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟ قال : أرأيتم لو وضعها فى حرام أكان عليه وزر ؟ فكذلك اذا وضعها فى الحلال كان له أجر (١٢٣) ..

وهو الذى كان يقول اذا أصبح : اللهم بك أصبحنا وبك أمسينا وبك نحيا وبك نموت واليك النشور . واذا أمسى قال : اللهم بك أمسينا وبك نحيا وبك نموت واليك النشور (١٢٤) .

---

(١٢١) رواه ابو داود وقال : حديث حســن صحيح .

(١٢٢) متفق عليه .

(١٢٣) رواه مسلم .

(١٢٤) رواه ابو داودوالترمذى وقال : حديث حسن .

ويعلم ابا بكر الصديق رضى الله عنه حين قال : يارسول الله مرنى بكلمات أقولهن اذا أصبحت واذا أمسيت قال : قل : اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة .. رب كل شيء ومليكه أشهد أن لا اله الا أنت أعوذ بك من شر نفسى وشر الشيطان وشركه .. قال : قلها اذا أصبحت واذا أمسيت واذا أخذت مضجعك .. (١٢٥) .

الى غير ذلك من هذه الضراعات المباركات التى اختلطت بمشـــاعر المؤمنين ووجدانهم فحفظتهم من انحراف الشرك وبها تحرروا من عبودية غير الله .. ولا عجب فى ذلك فالرسول مأمور أن يجعل حياته كلها لله .

يقول الحق فى كتابه على لسان نبيه :

« قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ » (١٢٦)

بل أول نداء فى وحى الله اليه :

« ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ * ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ * ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ * عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » (١٢٧)

وهى منهج واضح : القراءة باسم الله والعلم باسم الله والحياة وما فيها يجب أن تكون باسم الرب الذى خلق ..

---

(١٢٥) رواه أبو داود والترمذى وقال : حديث حسن صحيح .
(١٢٦) سورة الأنعام ١٦٢/٦ ، ١٦٣ .
(١٢٧) سورة العلق ١/٩٦ ــ ٥ .

وهذا هو الطريق .. الطريق الواضح الذى لا عوج فيه ..

يقول رب العزة :

« وَأَنَّ هٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » (١٢٨)

(١٢٨) سورة الأنعام ٦/١٥٣ .



الفصل الثاني

ثلاثة عشر عاما فى مكة لاقرار العقيـدة



ثلاثة عشر عاما فى مكة لاقرار العقيدة

الاسلام الكامل لله فى كل أمر وتحرير البشر من عبادة البشر والحجر وربطهم بالاله الحق .. انتزاع السلطان من أهل البغى والفساد وجعل ذلك لمن له الحكم واليه ترجعون .. تلك الصيحة العارمة التى انبعثت من كتاب الله وتفجرت ينابيعها مع بيانه الذى أروى الأرواح الظامئة .. كلها معان ضخمة حملتها العقيدة التى مكث القرآن ثلاثة عشر عاما فى مكة يغرسها فى القلوب ويمدها بالغذاء ويتعهدها بالعناية والحفظ حتى امتدت جذورها فى شعاب النفس الانسانية ووصلت الى أعماقها وخرجت الى الوجود باسقة الأغصان وارفة الظلال واستطاعت تلك العقيدة التى استقرت فى القلوب ان تغير ملامح الانسان وتصنع منه خلقا جديدا تغمره نفحات الله وتوجهه رعايته وعنايته ..

لقد عرفته هذه العقيدة طريقه فوجد بها نفسه الضالة وأحس بقيمته كانسان .. عرف لماذا جاء الى هذه الحياة ومن أين جاء والى أين يصير ؟ وما هى القوة التى تسير هذا الوجود .. وكيف يتحرر المرء من الخضوع لما عداها .. وعرف بهذه العقيدة كيف يتعامل مع ربه ومع الناس على اختلاف أجناسهم وألوانهم وعقائدهم ووجد بين يديه نورا هاديا استبان به المسالك المتشعبة واستطاع أن يجوبها جميعا بقدرة تستمد اندفاعها من قدرة منظم هذا الوجود فى غيبه وشهوده وملكه وملكوته ..

ومن حكمة الله أن يختار الشعب العربى فى الجزيرة العربية الذى يمثل اذ ذاك السفح الهابط للانسانية ، فلا حضارة ولا مدنية ولا قانون ولا دين غير ما أودعه فيه من خصائص كادت تموت لولا أن نفخ فيها منهج القرآن من روح الله فأحياها ووجهها الى نصرة الحق ورفعة لواء الدين .. اختار الله هذا الشعب المتخلف ليقدم منه نموذجا حيا لما يمكن أن يصنعه القرآن بالمجتمعات وكيف ينقلها من منزلتها الهابطة الى قمة

السمو والرفعة فهذه طبيعته وتلك وظيفته •• وهكذا صاغ القرآن المجتمع العربى أولا وما زال مستعدا لصياغة أى مجتمع مهما بلغت درجة تأخره وتخلفه ••

يقول تعـالى :

« كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ * ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ » (١)

لكن هذه الصياغة الربانية يبدو فيها سر عجيب : فتنزلات القرآن استمرت ثلاثة وعشرين عاما منها عشر سنوات فى المدينة وباقيها فى مكة •• وهذه الفترة التى نزل فيها القرآن فى مكة لم يعالج الا قضية واحدة هى قضية العقيدة بكل ما تشتمل عليه من توحيد للاله الحق وتحرير من أوهام الشرك وما يترتب على ذلك من ايمان بالبعث والحساب والملائكة والكتب والرسل وما يؤكد هـذه العقيدة ويثبتها فى القلوب من تنظيم أخـلاقى للمعاملة بين الخالق والمخلوق وبين الانسان وأخيه الانسان ••

أما تفصيلات الحياة وفروعها وتنظيم المجتمع المسلم وما يحكمه من تشريعات فكل هذا سكت عنه القرآن فى مكة ولم يتحدث فيه الا بعد أن استقرت عقيدة المسلمين وأصبح لهم مجتمع وسلطة تستطيع أن تنفـذ أحكام الله وشريعته •• فلماذا استمرت التربية القرآنية هذه الفترة الطويلة لا تطلب من العرب الا شيئا واحدا هو أن يعترفوا بالله ربا واحدا ؟؟

ولماذا عاش المسلمون على مدى هذه السنوات الطوال فى مكـة دون ان يعرفوا شيئا من تفصيلات النظام الاسلامى فى الحلال والحرام

(١) سورة ابراهيم ١٤/١ ، ٢ .

ودون أن يعلموا شيئا عن الصلات الاجتماعية وقوانينهـــا فى الميراث والزواج والطلاق وعلاقة الحاكم بالمحكوم وحقوق كل على الآخر ممـــا فصله القرآن فيما بعد وهو ينشىء المجتمع الجديد فى المدينة ؟؟

بل لماذا قابل العرب هذه الدعوة تلك المقابلة العنيفة ورفضوا التسليم لها ولم يجد نفعا الا السيف والدماء والمعارك التى توجت بفتح مكة فى العام الثامن للهجرة وبفتحها سقط أكبر معقل للوثنية ودانت أكبر قــوة تناوىء دعوة الاسلام •• وبرغم هذه المواجهة العنيفة فان تربية القرآن لم تتنازل عن هذه الدعوة ولم تيأس من تكرارها ولم تجد غضاضة فى أن ترددها لفظا واحدا لا يتغير : اعبدوا الله لا تشركوا به شيئا ••

أفلم يكن من الممكن أن يجد الرسول عليه السلام طريقا غير هذا الطريق يجذب قلوب العرب اليه أولا ثم يعلمهم كيف يعبدون الله وحده وقد كان فى استطاعته ــ وهو من هو فى سمو أخلاقه وعظيم مكانته ــ أن يجعلها دعوة لاصلاح ما فسد من أحوالهم الاجتماعية أو السياسية أو الأخلاقية وقد بلغت الحضيض وهو ــ لا شك ــ وأجد من أهل العقول من ينضم الى دعوته بل سيجد كثرة من هؤلاء وبهم يعلم العرب كل شيء؟؟

الا أن الله ــ جلت حكمته ــ أراد شيئا آخر •• أراد أن يربى فئة خاصة من طراز خاص ، ويبدأ بها هذا الطريق الشاق ، ويحررهــــا من أنفسها • وينقيها ويطهرها من أدران مجتمعها •• ويعايشها ثلاثة عشر عاما وفى كل يوم يدفع بهذه العقيدة الى أعماق قلوبها ويحيى جزءا من نفوسها حتى بدأ هذا الكيان الانسانى الذى تمثل فى تلك الجماعة التى اعتنقت هذا الدين لأول مرة خلقا آخر تبدلت طباعه وصفاته وأفكاره ومشاعره وأصبح قوة خطيرة : توضع فوق صدر الواحد منهم الأحجار الثقال فى حرارة مكة المهلكة ويرمى الى الأطفال يتلهون به • ويكوى بمكاوى

الحديد ، وتلهب ظهره السياط ، فلا يزيده هذا الا ثباتا واستمساكا ولا يجد الا كلمة أشرقت بها نفسه ووجد معها حياته فكأنما بعث من جديد .. لم يجد الا هذه الكلمة : أحد .. أحد ..

بل تفيض روح الواحد منهم تحت وطأة التعذيب فلا ينطق بكلمة الكفر ..

واستطاعت التربية الالهية لهذه الثلة المختارة أن تخرج للعالم من هؤلاء الأميين رعاة الأغنام : رعاة أمم ، وساسة شعوب ، وقادة معارك .. وبهم تحقق كل شيء مما كان يقترحه المقترحون : فتعدلت الأخـــلاق واستقامت الأوضاع الاجتماعية وشعر العرب بعزتهم يستمدونها من دينهم فحملوه للعالم كله بعد أن تحررت نفوسهم من نفوسهم ولم يبق لهم مطمع فى جاه أو منصب أو ثراء ولم يعد لهم الا هدف واحد : أن يروا دين الله منتصرا .. ورايته خفاقة . وشجرته يستظل بها العالمون ..

وكان من حق العرب أن يقابلوا هذه الدعوة تلك المقابلة العنيفة لأنهم وجدوا فيها خطرا أيما خطر على ما لديهم من سلطان ورأوا فى هذه الكلمة القوية التى تدعو الى وحدانية الله ثورة على كل ما عندهم من أفكار وتصورات .. انها انتزاع القوة والحكم والنفوذ وجعل الأمـر كله لله وحده ، وهى قضاء تام على العصبية والجاهلية والكبرياء ... ودعوة الى المساواة التى لا يمتاز فيها أحد على أحد بحسبه أو نسبه أو ماله انما يتقدم بتقواه وعمله .. فكيف يسلم العرب لمحمد بن عبد الله بكل هذا ؟؟ ومع ذلك لم يلاينهم ولا يداهن فى رسالة ربه انما أصر على دعوة هذه الأمة للتوحيد ولم يخرج بها الى التفريعات والتشريعات فى الفترة المكية لأن الاسلام دين عملى ينظر الى الواقع فيخطط له وليس دراسة نظرية لا طائل تحتها .. اذ كيف يشرع لهم أحكاما وليس لهـم مجتمع ينفذ هذه الأحكام .. ولم يكن من طبيعة التربية القرآنية أن

تنزل هذه الأحكام يختزنها المؤمنون بهذا الدين الى أن يحين وقتها فيطبقوها ، لأنه دين جاء يلبى حاجات المجتمع ويساير تطوره ولا ينزل الا ليعالج أمرا واقعا لا وهما متوقعا ..

وكان فى مقدور الله أن ينزل القرآن على نبيه جملة واحدة ويترك المسلمين يدرسونه ويطبقون أحكامه كلما احتاجوا لشىء لكنه سبحانه أراد أن ينزل هذا القرآن مفرقا على مدى ثلاثة وعشرين عاما حتى يصنع المجتمع المسلم الصناعة الواقعية ويربيه التربية الربانية ويوجهه فى كل خطوة وكل حركة :

قال تعالى :

« وَقُرْءَاناً فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلاً » (٢)

وقال سبحانه :

« وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلاً * وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً » (٣)

وهكذا بدت لنا حكمة تصدى القرآن ثلاثة عشر عاما لمعالجة قضية العقيدة وأنه كان يريد أن يغرس شجرتها التى تتناسب مع عظم

---

(٢) سورة الاسراء ١٠٦/١٧ .

(٣) سورة الفرقان ٣٢/٢٥ ، ٣٣ .

هذه الرسالة وشمولها وعمومها وامتدادها مع عمر الزمن الى أن ينتهى الزمن •• فلا بد أن تتشعب جذورها وتثبت وتستقر وأن تأخذ أكثر من نصف عمر الرسالة النبوية حتى اذا ما رأت شمس الحياة اشتدت على سوقها قوية لاتزلزلها عواصف المحن ، وارفة تجمع الى ظلالها البشرية كلها باسقة لا يطاولها مكابر أو معاند ، باقية ممتدة ما بقى على هذا الكوكب الأرضى انسان وما بقيت الحياة هى الحياة ••

الباب الثانى

القرآن .. والتربية الأخلاقية

الفصل الأول : ارتباط الأخلاق بالعقيدة

الفصل الثانى : العبادات أسلوب للتربية

الفصل الثالث : أخلاق الاسلام وكيف غرسها فى النفوس

الفصل الأول

ارتباط الأخلاق بالعقيدة

١ ـ العقيدة وأثرها فى النفس

٢ ـ العقيدة الصحيحة يتبعها السلوك الصحيح

٣ ـ أخلاق .. وأخلاق

٤ ـ الترابط بين الأخلاق والعقيدة



ارتباط الأخلاق بالعقيدة

١ – العقيدة واثرها فى النفس :

الانسان الذى استيقظت فطرته على نداء هذا الكون فلمس يد القدرة فى كل حركة وسكون •• ورأى عظمة الخالق حيثما تلفت وعرف ربه حق المعرفة •• وآمن بخالقه مدبرا ومصرفا فلم يتخذ له سندا سواه ولم يشرك بالله آلهة مزيفة : لأن الكل مخلوق وربه هو الخالق •• والكل محتاج والهه هو الغنى ••

هذا الانسان الذى لم يعد لشيء مما على الأرض سلطان على حسه وروحه •• ولم يبق لسلطة مهما بلغت فى عتوها وجبروتها يد على قلبه وايمانه •• انه بعقيدته – هذه – عرف وجهته وحدد طريقه وترك أهل الشرك فى ظلامهم وحيرتهم وترددهم واستعلى – بعزة الايمان – على كل مشرك ورأى ما فى يده من قيم ومبادىء هى العظمة فى سموها ورفعتها لأن قيمه ومبادئه صناعة الهية سماوية ، وقيم هؤلاء ومبادئهم صناعة بشرية أرضية •• وكيف تتساوى الأرض بالسماء ؟ والنجوم بالتراب ؟ والربوبية بالأهواء والأباطيل ؟ •

يقول تعالى :

« قُلْ أَنَدْعُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَـٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَـٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ » (١)

---

(١) الأنعام ٧١/٦ .

فهل يستوى المهتدى لله رب العالمين بالعاجز الحيران المشتت القلب والاحساس ؟ :

قال تعالى :

« ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » (٢)

وحرية المؤمن هذه هى الأساس الضخم الذى يرد للانسان كرامته وانسانيته .. وبها وحدها تصل الانسانية الى أعلى مستوياتها لأنهـا تدرك بذلك حقيقة الوجود وتشعر أنها قطعة من هذا الكون .. فـلا يعيش الفرد فى حدود أنانيته وفرديته انما تتسع المسافة فى وجدانه لتشمل الحياة بكل أبعادها « وميزة الانسان تتجلى فى ادراكه .. والادراك يبتدىء بالمحسوس وينتهى الى القيم والمعنويات .. فاذا وصل هـذا الادراك الى قمة عليا تتجمع عندها كل القيم وآمن بها على انها المرجع والنهاية لكل قيمة عليا ، وكذا لكل محس فقد وصل هذا الادراك الـى السمو وعنـدئذ يصـل مسـتواه الانسـانى الى الدرجة العليـا فى الانسانية ، وعندئذ يكون قد أدرك الوجود كله .. أدرك قاعدته التى تتمثل فى الجزئيات المنثورة المحسوسة ، وأدرك ما بعدها من قيم ، ثم أدرك قيمته الأخيرة العليا التى تتمثل فى الله الواحد » .

« والاسلام يوجه الانسان الى القيم والمعنويات جميعها ويؤكد فى التوجه من بينها قيمة المشيئة والاختيار ، ان قيمة الحرية والارادة للانسان وكذا قيمة المجتمع ثم أخيرا قيمة الوحدة فى الألوهية هى قيم ثلاث تصور

---

(٢) الزمر ٢٩/٣٩ .

المستوى الفاضل للانسانية ، المستوى الرفيع ودون ادراكها والايمان بها يقف الانسان قبل عتبة الرشد الانسانى ، يقف اما متخلفـا عن الانسانية أو فى صراع مستمر بين أن يبقى غريزيا أنانيا أى يبقى جيوانيا أو أن يصعد الى مستوى الانسان فى انسانيته (٣) » .

والمجتمع الذى يربيه القرآن طراز فريد فى احساسه بقيمة حريته . تلك الحرية التى تجعل كل فرد فيه مسئولا عن كل لفتة واشارة أمام الله العليم به وبكل ما حوله والذى هو أقرب اليه من حبل الوريد .

ومازال كتاب الله يتعهد النفس البشرية بكل ألوان التربية حتى استقامت على الطريق فلم ترغب فى سواه ولم ترهب غيره : رغبت فيه عن حب ، وخافت منه عن علم ويقين ، وارتفعت الى درجة الاخلاص فى القول والعمل ..

٢ ـ العقيدة الصحيحة يتبعها السلوك الصحيح :

ومن هذا الينبوع الدافق ارتوت الحياة بمفاهيم للأخلاق جديدة واستقرت ـ بالمنهج الذى رسمه القرآن لتربية مجتمعه ـ على أرض صلبة لا تميد وأصبحت الحرية الانسانية والمسئولية أمام الله والحب العميق لله والشعور النبيل باستخلاف الله للانسان فى تعمير الكون وارتباطه بالسابقين من أصحاب الرسالات وايمانه بما غاب عن حسه من عالم الملائكة والجن والحياة الأخرى وما فيها من جنان وأنهار ، وعذاب ونيران ، وما فيها من بعث وحساب .. واشعار الانسان بأن حياته دائمة متصلة الا أنها ذات شقين : حياة هنا على ظهر الأرض يؤدى فيها المرء مهمة الخلافة عن

---

(٣) الاسلام دين المستوى الفاضل فى الانسانية : محاضرة للدكتور محمد البهى بقاعة المحاضرات بالأزهر فى ٥/٥/٥٩م ص ١٧ .

الله ويعمرها بالحق والعدل والخير ، وحياة بعدها أطول وأبقى : حيـاة الخلود والأبد يقدم فيها كشف الحساب عن المرحلة الأولى .

قال تعـالى :

« فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » (٤)

كل هذه المعانى التى أثرت عقيدة الانسان وزادتها نماء وبهاء لا يصدر عنها غير الخلق القويم والسلوك الصحيح : يشعر المرء أن الناس جميعا اخوته فيعاملهم بالاحسان : يعطف على صغيرهم ويوقر كبيرهم ، ويساعد ضعيفهم ، ويعين محتاجهم ، ويدفع الأذى عنهم ويرشدهم الى الخير ويهديهم الى الحق ..

فالرحمة والمودة والمروءة والنجدة وما تعارف عليه العقلاء واهتدت اليه الانسانية ، وأقرته رسالات السماء من قيم الأخلاق ، عنوان صادق لصدق الايمان . وسلامة الاعتقاد فى الله واليوم الآخر .. وبدون هذا الايمان تصبح الأخلاق لفظا لا مفهوم له ولا حقيقة .. يقول العقاد :

« ان العالم الانسانى كلمة غير مفهومة عند من يدين برب غير رب العالمين . وان قيم الأخلاق كيل جزاف حين تنقطع الأسباب بين الحسنات والسيئات وبين الثواب والعقاب .. وان الانسانية الجامعة شىء لا وجود له قبل أن يوجد الانسان المسئول وانما توجد الانسانية الواحدة ويتساوى الانسان والانسان مع الاله الواحد الأحـــد رب الناس ورب العالمين أجمعين .. أفضلهم عنده أتقاهم وأصلحهم وأسبقهم للخيرات (٥) » .

---

(٤) الزلزلة ٩٩/٧ ، ٨ .

(٥) الانسان فى القرآن : للعقاد ص ٦١ .

« والصورة الواضحة لهذا الايمان وما نبع عنه من أخلاق فاضلة ، تتجلى فى تلك الصورة المشرقة التى رسمتها يد التربية القرآنية لمجتمع الاسلام الأول وبقيت مثالا فذا فى تاريخ الانسانية ، تحاول المجتمعات أن تصل الى شيء منها فلا تستطيع ، ولن تستطيع الا اذا عادت الى منهج القرآن فى تربيته تنشىء عليه جيلا وأجيالا كهؤلاء الأعلام الأفذاذ ..

يقول أبو الأعلى المودودى فى كتابه القيم «منهاج الانقلاب الاسلامى» مبينا ما أحدثته عقيدة الاسلام فى المجتمع الاسلامى الأول : « لم يتغير بهذا الانقلاب طراز ادارة البلاد فحسب بل الحقيقة أنه قد تبدلت بهذا الانقلاب العقليات ووجهات الأنظار ومناهج التفكير وتغيرت طريقة المعيشة والأخلاق والعادات تغيرا تاما .. وبالجملة قد انقلبت الأرض : أرض العرب ظهرا لبطن وتحولت الأمة بأسرها تحولا تاما ، فالذين كانوا يأتون الفاحشة من رجالهم أصبحوا حماة لأعراض النساء .. والذين كانوا يعاقرون الخمر عادوا دعاة لالقاء المسكرات واستئصال شأفتها . والذين كان دينهم التلصص وقطع الطريق ، قد بلغوا من الورع والعفاف مبلغا جعلوا يتحرجون الأكل عند أصدقائهم حذرا أن يكون من قبل أكل المال بالباطل ، الى أن أنزل الله فى كتابه ماجعلهم يطمئنون الى الاجناح عليهم فيما طعموا أو أكلوا فى مثل تلك الظروف ، والذين كان من شيمهم شن الغارات والاعتداء على حقوق الناس قد صعدوا أعلى معارج الزهد والتقى ، حتى انه لما فتحوا عاصمة بلاد الفرس وجد جندى من عامة جنودهم التاج الكسروى الذى يناهز ثمنه ملايين الدنانير أسر به الى أمير الجيش فى الليل المظلم مخفيا اياه تحت كسائه المرقع عسى ألا يراه أحد فيكون له حسن الأحدوثة بهذا الحدث الجليل ويشوب صدقه واخلاصه شيء من شوائب الرياء ، والذين كانوا لا يقيمون وزنا للنفوس البشرية ويسفكون الدماء من غير طائل ويئدون بناتهم وفلذات أكبادهم بأيديهم قد بلغوا من شعورهم بحرمة النفس أن أصبحوا لا يقدرون أن ينظروا

الى طائر صغير يراق دمه من غير شفقة ولا رحمة .. والذين ما كانوا من قبل من الأمانة والعدل فى شىء قد أصبحوا بررة يضرب المثل بأماتنهم وتعففهم حتى انه لما ذهب لجباية الخراج عاملهم الى يهود خيبر بعد أن انقادت لأمر الاسلام وخضعت له وقدموا له مبلغا كبيرا من المال ليخفف عنهم بعض ما عليهم من خراج الحكومة أبى أن يقبل الرشوة .. ورفضها رفضا باتا ، بل شطر جميع ما أغلته أرضهم فى ذلك العام شطرين وخيرهم بأن يأخذوا أيما شاءوا .. ولما رأت اليهود من العامل هذه المعاملة الغريبة أخذ العجب منهم مبلغا عظيما واستولت عليهم الدهشة حتى صاحوا قائلين : ماقامت السموات والأرض الا بمثل هذا العدل والقسط .. ونبغ فيهم من ولاة وأمراء ماكانوا يسكنون فى قصور الحكومة بل يعيشون بين الرعية فى مثل بيوتهم ، وكانوا يمشون فى الأسواق على أرجلهم ، ولم يكن لهم حرس على أبوابهم ، حتى انه كان ميسورا لكل فرد من أفراد الشعب أن يزورهم فى أية ساعة من ساعات الليل والنهار ، ونبغ فيهم من القضاة من قضى لرجل من اليهود على الخليفة نفسه ، حينما رفع الخليفة القضية الى المحكمة ، قضى لليهودى ولم يقبل دعوة أمير المؤمنين لأنه لم يتمكن من تقديم الشهود على دعواه غير ابنه ومولاه ، ونبغ فيهم من قواد العسكر من رد الجزية برمتها الى أهل المدينة وهى حمص من مدن الشام — حينما اضطر الى اخلائها لمصلحة حربية مصرحا لهم بأنهم — المسلمين — قد أخذوها جزاء منعتهم فوجب ردها للعجز عن هذه المنعة قائلا : « قد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فأنتم على أمركم » فما كان جوابهم الا أن تأثروا بصنيعهم هذا وصاحوا قائلين : لولايتكم وعدلكم أحب الينا مما كنا فيه من الظلم والغشم ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم » .

«ونبغ فيهم من السفراء مندخل بلاط رئيس قواد العساكر الايرانية والجمع حافل غاص بأعيان القوم وأمرائهم .. دخل بلاطه فمثل مبادىء

الانسانية الخالدة والاسلامية الكاملة تمثيلا رائعا أخذ بمجاميع القلوب وانتقد ما شاهد هنالك من الفوارق بين الطبقات وعلو بعضها على بعض انتقادا صريحا جديرا بالموقف ويعلم الله كم من جنود الفرس ورجـال عسكرهم ممن حضروا ذلك الحفل الحافل ، واستمعوا الى كلام السفير المسلم ، وشاهدوا موقفه الرائع . قد أحسوا بجلال دين الانسـانية ، وتأثروا بعظم شأنه فى ذلك الموقف الرهيب نفسه .. ونشأ فيهم من الرعية من بلغ من شعوره بالمسئولية الخلقية أن كان أحدهم يقترف ذنبا ويرتكب جناية فيأتى الأمير ويعترف له بجنايته ويلح عليه أن يجرى عليه حدود الله ولا يتهاون فى أمره وهو يعلم علم اليقين أن تعدى حد من حدود الله ، يعاقب صاحبه بقطع اليد ، أو يرجم بالحجارة حتى يهلك ، وذلك ليتطهر من أرجاس الاثم الذى اجترحه ولا يأتى ربه سارقا أو زانيا .. ونشـأ فيهم من الجنود من كانوا لا يقاتلون ابتغاء للرزق بل كانوا يحاربون على نفقتهم اعلاء للكلمة التى آمنوا بها لا يريدون بها جزاء ولا بديلا ولا يستأثرون بماتناله أيديهم من الغنائم بل يأتون بها كلها الى أمير الجيش ليقضى فيها حسبما نزل به التشريع (*) » .

الرحمة والنجدة والكرم والعدالة مع العدو قبل الصديق .. والأمان لكل الناس بل لكل المخلوقات : أفرع لشجرة الايمان التى امتـــدت جذورها فى خبايا النفس كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء فلما طاب الغرس طاب الثمر فآتت أكلها كل حين باذن ربها .. وجنت الانسانية من ثمار غرس القرآن وتربية الاسلام تلك المثل الخلابة والتى تجسمت فى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى الله عنهم جميعا فكانوا المثل الفريد الذى لم يتكرر من بعدهم أبدا والى يومنا هذا الا أن تكون

(*) منهاج الانقلاب الاسلامى لأبى الأعلى المودودى أمير الجمـاعة الاسلامية بباكستان وهو معرب عن الأردية ص ٦٩ وما بعدها .

حالات فردية متناثرة على مدار التاريخ لا تعطى المجتمع الذى تعيش فيه صورة الحياة الحقة التى عاشها المجتمع الأول العظيم ••

« ان اصلاح الباطن أساس لكل اصلاح ظاهرى ولا بقاء لاصلاح خارجى الا اذا تركز وكان نتيجة وأثرا للاصلاح الباطنى ، وشعبة الأخلاق هى الكفيلة بالاصلاح الباطنى •• ولعل قوله عليه الصلاه والسلام « ان فى الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله واذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب » من أقوى العبارات المأثورة فى تقرير القضية الطبيعية قضية الضمير وهى :

« صلاح الظاهر نتيجة لصلاح الباطن [٦] » ••

٣ ـ أخلاق •• وأخلاق :

هذه هى النقلة البعيدة فى المجتمع الانسانى وتلك هى ثمار الايمان الذى استقر فى القلوب فكان هذا التصور المشرق لحقيقة الانسان • وكان هذا الخير العميم الذى تمثل فى الأمانة والسلام والرحمة والمودة واللين والعفاف •• والقناعة •• والزهد فى أعراض الحياة •• والذى تمثل فى كل خلق كريم لا يميل مع الهوى ولا ينحرف مع الاغراض •• وانها لقوة العقيدة وصلابتها التى أقيم عليها صرح الأخلاق الاسلامية فكان لها تلك القوة وهذا الشمول واستمدت عظمتها من ايمان أصحابها برب واحد •• واله واحد •• وجمعت كلمة التقوى وحدها أسمى ما تتطلع اليه البشرية فى تاريخها من أداء الحق ونصرة المظلوم ، وحماية الحمى ، وعزة الانسان ، وكرامة الفرد ، وجمال الاحسان فى كل شىء والى كل شىء « ومـا التقوى ؟؟ التقوى كلمة واحـدة تجمع كل وازع يـزع الضمير •• وأقدر الناس على أمانة التقوى أقدرهم على النهوض بالتبعة وأعرفهم بمواضع المعروف والمنكر والمباح والمحظور ••

---

(٦) الاسلام عقيدة وشريعة للشيخ / شلتوت ص ٤٨٥ .

والانسان التقى مرة أخرى هو الانسان .. « الانسان » .. ما هذه التقوى التى يتعلق بها كل فضل الانسان عند رب العالمين؟؟ لو شاء فلاسفة الأخلاق لعلموا ما هذه التقوى وعلموا حقا أن كل موازينهم جميعا لا تحسن الترجيح بين فضل وفضل وبين قدرة وقدرة كما تحسنه هـــذه التقوى التى يحسبونها تسبيحة من تسابيح المعابد ، ويخيل اليهم أنها أفشل من أن تنفع العالم المحقق فى مقام الموازنة والتفضيل (٧) » .

ويوم أن تشوهت صورة التوحيد فى نفوس المنتسبين للاســلام وأصبحت العبودية لله كلمة تقال لا خلقا نابعا من الاحساس بالصــلة الوثيقة بين المؤمن وخالقه .. ويوم أن أصبح الاسلام عادة وما فيه من رسوم العبادة وأشكال القربات لله تقليدا للسابقين خاليا من الروح منقطع الصلة عن الفكر المستقيم والنظر الصحيح .. يوم أن أضحى مجتمع الاسلام بعيدا عن قرآنه وأخلاق دينه أعطى سلاحا للعدو يشهره فى وجه تربية القرآن لأتباعه .. وشاع بين الناس أن المسلم مثال الخيانة والغش والخداع والمكر وسوء الجوار ونقض العهود والاحتيال والكذب يبيع دينه بدراهم معدودات ..

وتلفتت المجتمعات الاسلامية الى أوربا .. الى العالم الغربى فهالها ما رأت من ألوان الحضارة المادية والرقى الاجتماعى .. ورأت فى القوم أعلى ما سعت اليه الانسانية فى تاريخها الطويل من الصدق فى القـــول والاخلاص فى العمل والنزاهة فى المعاملة .. واللطف الذى هو عنوان الصغير والكبير .. والنظام والدقة فى كل شىء .. الى غير ذلك من مظاهر الأخلاق العالية والقيم الرفيعة .. وخيل الى الناس أن هذا الذى يرون هو الواحة الخضراء التى وجب أن تأوى اليها البشرية ..

---

(٧) الانسان فى القرآن الكريم : للعقاد ص ٦٢ .

ونقل المسلمون ما استطاعوا من معاملات القوم ونظامهم وقانونهم وحضارتهم المادية •• ورفضوا عن عمد أو جهل مبادىء القرآن وحضارته ونظامه وتشريعاته وعاشوا فى ظلام الوهم وحيرة الشك وجرفهم تيار الفساد الذى استشرى خطره وانتشر ضرره •• وأطبق على العالم فى شرقه وغربه •• وسيطر على النفوس واستولى على القلوب وتنادى الجميع على اختلاف أديانهم ونحلهم وأجناسهم ومراتبهم ومنازلهم : هل من حاد يدلنا على الطريق ؟؟

هل من علامات نيرات يصل اليها المركب الضال الحائر ؟

ولم يستطع المظهر البراق الخادع أن يزيف الحقيقة طويلا •• وثبت أن أخلاق أوربا ومن سار فى ركابها كمن أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به فى نار جهنم ••

ثبت زيف هذه الأخلاق وفساد معدنها وخبث طويتها وانحراف غايتها ••

اذ لو تساءلت : على أى أساس أقيمت هذه الأخلاق ؟ ولأية غاية تقصد ؟ لعرفت مدى التخلف والتحلل الخلقى •• وأن هؤلاء فى حاجة الى من يدلهم على الطريق •• وأن ما عندهم من اختراعات سهلت للناس حياتهم وجملتها ،ماكانت ولن تكون سببا لاسعادالمجتمع وطمأنينة القلب والشعور بالرضا والأمن والسلام •• بل انقلبت مخترعاتهم وسائل هدامة مدمرة للانسان ولحضارة الانسان ••

على أى أساس أقيمت أخلاقهم ؟ ولأى غاية تقصد ؟ •• لعل فى الاجابة عن هذا التساؤل ما يبين الهوة الواسعة بين أخلاق وأخلاق •• أخلاق كان من نتائجها ما نرى من سلب الشعوب حقها فى الحريةوالحياة واعتداء على الآمنين وابادة للمستضعفين من الرجال والنساء والولدان

واخلاق أعطت للانسان والمجتمع الانسانى أصدق ما تمنى وأكرم ما أراد وفتحت له الطريق فشعر بقيمة استخلاقه فى أرض الله وحقق وجوده باعتباره أرفع مخلوق كرمه ربه ، وأعلى قدره ، وأسجد له ملائكته . وعلمه الأسماء كلها . وسخر له الكائنات فى الأرض والسماء ، والبحار والأنهار ، والشموس والأقمار ، والليل والنهار ..

على أى مبدأ أقيمت أخلاقهم وما غايتها ؟ ان أساسها المنفعة وغايتها تحقيق هذه المنفعة عن أى طريق .. فالصدق خلق محمود اذا ما أدى الى الكسب الاجتماعى والأدبى .. والأمانة خلق جميل اذا ما كانت وسيلة لزيادة الثروة والربح .. وهذا التعاون والنظام والدقة فى كل شىء أساسه الحفاظ على كيان مجتمعهم حتى يقف قوة تستطيع أن تنقض على من تشاء فى كل وقت ..

فاذا ما فرض قانون المنفعة التخلى عن الصدق والأمانة والقيم الانسانية العالية وجدت القوم خونة ينقضون العهود والمواثيق .. وكاذبين ينشرون الفساد فى الأرض باسم النزاهة والبحث العلمى والخدمة الانسانية وما هذا الا « الطعم » يوضع للسمك الحائر فى خضم الحياة فيأكلونه لحما وعظما ،ويسلبون الشعوب الآمنة أمنها وحريتها واستقرارها وما هذه المصانع والمبانى الضخمة ، وما تلك الحضارة ، الا بناء أقيم على بحار من دماء الأبرياء والشهداء فى أنحاء الأرض .

فهل ترى فى تلك الأخلاق بصيصا من رجاء ؟؟ وهل ماتعج به هذه المجتمعات من ألوان العهر والفجور والتحلل الخلقى يمكن أن يقام عليه بناء انسانى سليم ؟ وهل تنتظر البشرية من هؤلاء خيرا يرفعها من وهدة الشقوة والحيرة ؟ أو أنها ستعيش مذعورة خائفة أمام قنابلهم ومدمراتهم وما اخترعوه من وسائل الابادة الجماعية للانسان أينما كان ؟ وكأن حقدا

دفينا على كل البشر سيطر عليهم فانطلقوا مخربين مدمرين فاذا ما وجدوا القوة الرادعة عادوا الى المداهنة والمراوغة والوعود الكاذبة والتظاهر بأنهم دعاة أخلاق وسلام •• وأنهم الأمناء الصادقون والبررة الأوفياء والحافظون لحق الانسان فى الحياة الحرة الكريمة •• وسرعان ما ينهار ذلك كله امام الأطماع والشهوات •• وهذا منطق طبيعى •• اذ كيف نأمل من قوم أقاموا تعاملهم مع الناس على أساس من المنفعة والانتهازية سوى هذا الدمار الشامل الذى لا تحميه عقيدة رادعة ودين يربط الانسان بأخيه الانسان برغم اختلاف الألوان والأجناس والأديان ؟ •

وليس هناك من وجه للمقارنة بين أخلاق أوربا التى بنيت على هذا الأساس المنهار وأخلاق الاسلام وتربية القرآن — لأن الشقة بين هذه وتلك بعيدة •• بعيدة •• أصيبت الانسانية من جراء من دان بغير الاسلام بتلك النكسات الموجعات وعرفت من الأهوال ألوانا • ومن الجبروت أشكالا • ومن الضغائن والدماء المنزوفة المراقة ظلما وعدوانا ما لم تعرفه فى تاريخ وجودها فى هذه الحياة ••

وتذوقت طعم السلام بدخول حملة النور من أتباع محمد صلى الله عليه وسلم ، واستراحت من عناء الضلال والظلام وانفتحت عيناها على الضياء الهادى فدخل من دخل فى الاسلام عن حب واقتناع دون رهبة أو خوف •• وبقى من بقى على دينه محاطا بالحماية والحفظ على نفسه وعرضه وما له فى ظل هؤلاء البررة الصادقين الأوفياء •• ورأت الانسانية شيئا جديدا لم تعهده فى حياتها من قبل — رأت قوما زهدوا فى أعراض الحياة ونظروا الى اخوانهم من بنى الانسان فوجدوا قياصرة وأكاسرة وحكاما ظالمين يحولون بين اخوتهم فى الانسانية والحياة التى يجب أن يحياها البشر فباعوا أرواحهم فداء لتحرير اخوتهم ، وأسقطوا معاقل الظلم فى كل مكان ، وفتحوا الطريق أمام الانسان ليرى بنفسه

هذا الدين وكيف يبعث الحياة فى الأموات ، فيتحركون فى قوة يعمرون وجه الأرض كما أراد الله وأمر ، فبدت الانسانية فى مظهرها ومخبرها وحدة متماسكة تجمع بينها الفكرة وتحفظها قوة الاسلام وعقيدة المؤمنين به •• يقول الأستاذ مسينون « للاسلام ماض بديع فى تعاون الشعوب وتفاهمها •• وليس من مجتمع آخر له ــ مثلا ــ ما للاسلام من ماض كله نجاح فى جمع كلمة مثل هذه الشعوب الكثيرة المتباينة عـلى بساط المساواة فى الحقوق والواجبات •• ولقد برهنت الطوائف الاسـلامية الكبرى فى أفريقيا والهند الشرقية والجماعات الصغيرة منهم فى الصين واليابان على أن الاسلام يستطيع أن يوفق بين العناصر التى لا سـبيل الى التوفيق بينها ••

فاذا ما أريد احلال التعاون محل الخلاف بين المجتمعات فى الشرق والغرب فان وساطة الاسلام ضرورية لا غنى عنها فهو وحده الكفيل بحل المشكلة التى تواجه أوربا فى علاقتها مع الشرق •• فاذا اتحدا عظم الأمل فى أن تكون النتيجة سلاما أما اذا رفضت أوربا معاونة الاسلام وألقت بنفسها فى أحضان خصومه فان العاقبة لا يمكن أن تكون الا نكبة لهما معـا [٨] » ••

وهذه أخلاق الاسلام شامخة باسقة الأغصان •• تراها منثورة فى رياض كتاب الله الخالد تدعو الى أرفع خلق وأنبل قصد : تدعو الـى الصفح الجميل الذى لا عتاب فيه ••

قال تعالى :

« فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ » [٩].

---

(٨) أركان الاسلام الخمسة وأثرها فى حياة الأفراد والجماعات . د. يحيى الدرديرى ص ١٠٣ ، ١٠٤ .

(٩) الحجر ١٥/٨٥ .

والى مقابلة السيئة بالحسنة وهو أنفس ما وصلت اليه الانسانية فى تاريخها من كرم الخلق .. والقرآن فى تربيته لا يوجه بذلك أمرا انما يفتح أعماق النفس ، ويأخذ بقيادها الى الاستجابة لندائه فيقارن بين الحسنة والسيئة وبين عاقبة العفو والاحسان فى واقع الحياة ويجعل من تمسك بذلك رفيع القدر وصاحب حظ عظيم ـ جاهد نفسه وشيطانه وانتصر عليهما فاستحق رضوان الله .. يقول ربنا :

« وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ »(١٠)

وتدعو أخلاق القرآن الى بر الوالدين: وتستثير عطف الأبناء ومودتهم ببيان حال العجز والكبر والاحتياج .. وتعرف الأبناء كيف تكون مودة آبائهم وأمهاتهم ..

قال تعالى :

« وَٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا »(١١) .

وقال :

« وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَٱخْفِضْ لَهُمَا

---

(١٠) فصلت ٤١/٣٤ ، ٣٥ .

(١١) النساء ٤/٣٥ .

جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيراً * رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُوراً » (١٢).

وهل رأيت دعوة الى الادخار والاقتصاد أثمرت ثمرتها وآمن بها الأفراد كدعوة القرآن أتباعه الى ذلك ؟ انظر اليه وهو يجعل المبذرين اخوان الشياطين ويصور حال المسرف أو المقتر والكل يلومه وهو يتجرع كأس الحسرة والعجز ..

يقول ربنا :

« وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً » (١٣).

وهذه دعوته الى الثقة فى الله والامتناع عن قتل الأولاد لأن الله هو الرزاق وكما رزق الآباء فسيرزق الأبناء ..

قال تعالى :

« وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً» (١٤).

---

(١٢) الاسراء ١٧/٢٣ ، ٢٥ .

(١٣) الاسراء ١٧/٢٩ .

(١٤) الاسراء ١٧/٣١ .

ويقول :

«وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰق نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ»[١٥]

ومجتمع الاسلام مجتمع عفيف طاهر بعيد عن دنس الشهوات فان طريق الزنى كله فحش وضياع وهو طريق سيىء لا يوصل الى خير .. من أجل هذا كان من خلق الاسلام أن نهى المؤمنين عن الاقتراب من تلك الجريمة البشعة .

فقال جل شأنه :

« وَلاَ تَقْرَبُوا ٱلزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلاً »[١٦].

وعباد الرحمن العارفون به ..

كما قال ربنا :

« لاَ يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَاماً * يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً * إِلاَّ مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَٰلِحاً فَأُوْلَٰئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً »[١٧].

كما أن أخلاق القرآن تقوم على حرمة النفس البشرية والمحافظة عليها ، وحين يفلت الزمام فيقع اعتداءعليها تمسك هذا الزمام وتجعل للدم

---

(١٥) الأنعام ١٥١/٦ .

(١٦) الاسراء ٣٢/١٧ .

(١٧) الفرقان ٦٨/٢٥ — ٧٠ .

الذى أريق احترامه وتقديره وتوقع على الجانى العقوبة التى يستحقهـا وتحول بذلك بين استنزاف الدماء واثارة البغضاء فتقول :

« وَلاَ تَقْتُلُوا ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَٰنًا فَلاَ يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُوراً »[١٨] .

وتقول :

« وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلاَّ خَطَأً وَمَن قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلاَّ أَن يَصَّدَّقُوا فَإِن كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً * وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَٰلِداً فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً »[١٩] .

---

(١٨) الاسراء ٣٢/١٧ .

(١٩) النساء ٩٢/٤ ، ٩٣ .

وإذا كان القرآن قد حرم الاعتداء على النفس الانسانية فانه قد جعل من أخلاقه تقدير حاجة الضعاف وعدم الاعتداء على حقوقهم .. وحين يربى أجيالا على مثل هذه الصفة يضع لها الدعائم القوية ويستجيش مشاعر الانسان فى حب البقاء الذى يراه متمثلا فى أبنائه .. لذلك ينهى عن الاقتراب من مال اليتيم .. مجرد الاقتراب الا اذا كان فى ذلك حفظ لماله وتثمير له قال تعالى :

« وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ »[٢٠] .

ويذكر الانسان بأولاده وأنهم ربما كانوا أيضا أيتاما .. فمن لهم ؟؟ فيقول :

« وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً »[٢١] .

ويجعل أكل مالهم نارا فى البطون وطريقا لعذاب السعير فيقول :

« إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً »[٢٢] .

والوفاء بالعهد مظهر لكل من دان بالاسلام .. والقرآن حين يدعو لذلك يربط الانسان بخالقه ويذكره بالمسئولية أمام ربه فيقول :

---

(٢٠) الاسراء ١٧/٣٤ .

(٢١) النساء ٤/٩ .

(٢٢) النساء ٤/١٠ .

« وَأَوْفُوا بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ »(٢٣).

ويقول :

« وَأَوْفُوا بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا »(٢٤) .

ومن الوفاء بالعهد : الوفاء بالكيل والوزن بالقسطاس المستقيم فذلك برهان على حسن الطوية وعنوان على مدى التزام مبادىء القرآن اذ ان من خاف أن ينقص حبات من كيل أو دراهم من وزن لا يمكن أن يفرط فى تعاليم دينه وقرآنه .. يقول المولى :

« وَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا »(٢٥).

وهذا أمر مقرون بالوعيد الشديد كما قال سبحانه :

« وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا عَلَى ٱلنَّاسِ

---

(٢٣) النحل ١٦/٩١ ، ٩٢ .

(٢٤) الاسراء ١٧/٣٤ .

(٢٥) الاسراء ١٧/٣٥ .

يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ * أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ »(٢٦) .

والأخلاق القرآن تصل الى قمة السمو البشرى حين تجعل كل عضو من أعضاء الانسان محاسبا عما عمل ومن هنا كان لابد للمسلم من التثبت واليقين والعلم قبل الاقدام على أى أمر كما قال ربنا :

« وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا »(٢٧) .

كذلك خلق التواضع تقدمه التربية القرآنية فى هذه الصورة المشرقة التى تذكر الانسان بضعفه وعجزه وأن هناك فى هذا الكون ماهو أعظم منه وأقوى .. قال تعالى :

« وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا »(٢٨) .

بر الوالدين .. والعطف على البائسين .. والاعتدال فى الانفاق والثقة فى فضل الله ورزقه .. والابتعاد عن الفواحش .. ورحمة الضعفاء واليتامى .. والبعد عن الاستغلال .. والوفاء بالعهود .. والعلم قبل العمل .. والتواضع .. وغير ذلك من أخلاق الاسلام التى لا يسعها هذا

---

(٢٦) المطففين ٨٣/١ ــ ٦ .

(٢٧) الاسراء ١٧/٣٥ .

(٢٨) الاسراء ١٧/٣٦ .

البحث سردا للآيات وبيانا لما تحمل من معانى السمو والرفعة .. انما هى اشارات على الطريق تبين عمق التربية القرآنية ، ومنهجها الخالد فى تربية المجتمع على الأخلاق الفاضلة ..

ولعل فى وصايا لقمان لابنه ما يبين أصالة هذه التربية وامتداد جذور الأخلاق القرآنية فى أعماق الوجود الانسانى وأن المؤمن فى التزامه بها يحس أن هذا ما تعارف عليه الأنبياء وأصحاب الرسالات وأتباعهم فيشعر بأصالته وقوة الحق الذى بين يديه ..

هذا هو لقمان جالس مع ابنه يعظه بجملة من الأخلاق العالية .. وبها يعلم القرآن المؤمنين كيف يلتزمون بهذه الأخلاق ويجعلونها عنوان حياتهم ..

وأول خلق يعلمه لقمان لابنه : توحيد الله ..

« يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ »

وتوحيد الله هو الأساس الذى يقوم عليه البناء الأخلاقى المتين بل يقام عليه بناء الشرائع كلها قولا وفعلا ..

ومن معرفة الله ينبع هذا الخير الذى يقدمه لقمان لابنه حكما خالدات باقيات على مر الدهر .. اذ ينقل له وصية الله بالأبوين .. والأم على وجه خاص ويبين له طاعة هذين الوالدين وكيف تكون حتى لو أشركا بالله ..

« وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ *

وَإِنْ جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ »

ويربطه بحبل الله المتين حتى يصدر فى قوله وفعله عن احساس كامل بخطورة ما يقول وما يفعل •• فيخوفه ، بدقة الحساب واحاطة الله الكاملة بكل مافى الكون :

« يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ »

والصلاة •• والمحافظة عليها واقامة شعائرها والاعتزاز بأدائها زاد روحى يعين على مشقات الطريق •• والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر برهان ساطع على صدق الايمان الذى يغير واقع الأرض الى مايسعده ويرقيه ، ولابد لمن سلك طريق الايمان أن يصبر على ما يصيبه فى سبيل دعوته ومبادئه فهذا دليل العزيمة القوية التى لا تضعف أمام ضغط الفساد وقوة الباطل ••

« يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ »

والكبر : أسوأ صفة يمقتها الله •• فليبتعد عنها ابن لقمان وليعرف المؤمنون معه أن المولى غاضب على المتكبرين راض عن المتواضعين ••

« وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ » (٢٩)

أرأيت أخلاق القرآن ؟؟ هل هناك ما يقاربها ؟؟ ان الميزان الذى أقيمت عليه لا يخطىء أبدا وهذا سر سموها وعظمتها •• يقول العقاد :
« مصدر الأخلاق الجميلة هو •• عزم الأمور •• كما سماه القرآن الكريم وهو مصدر كل خلق جميل حثت عليه شريعة القرآن الكريم •• فالشخصية الانسانية : فى الجمال الأخلاقى كلما ارتفعت فى الاستعداد « للتبعة » ومحاسبة النفس على حدود الأخلاق •• وليس للتفاوت فى جمال الخلق مقياس أصدق من هذا المقياس ولا أعم منه فى جميع الحالات وفى جميع المقابلات بين الخصال المحمودة أو بين أصحاب تلك الخصال • فالصبر والصدق ، والعدل والاحسان ، والمحاسنة ، والأمل •• والحلم والعفو هى مثال الكمال الذى يطلبه لنفسه من يزع نفسه ويختار لها أحسن الخيرة ويأبى لها أن يهبط بها مكانا دون مكان الجميل الكامل من الخصال ومن الفعال ••

« وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ »
« فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ » « وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ » . . . « وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ

(٢٩) وصايا لقمان من سورة لقمان ٣١ الآيات من ١٣ ــ ١٩ .

إِذَا عَـٰهَدُوا وَالصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَاءِ وَٱلضَّرَّاءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُوْلَـٰئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ » .. « إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَانِ » .

« يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا ٱعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * » .

« .. لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ [٣٠] » .

هل تسعد الانسانية بغير تلك الأخلاق ؟ وهل يستطيع أحد أن يضع أخلاق النفعيين والمعتدين والآثمين موضع المقارنة مع أخلاق القرآن الا أن يبين البون الشاسع بين أخلاق .. وأخلاق ؟؟

٤ ــ الترابط بين الأخلاق .. والعقيدة :

أسلوب القرآن فى تربيته يقوم على أساس لا يتغير بتغير الزمان أو المكان : انه يقوم على أساس من اسلام الوجه لله .. فكل ما أمر به خير والالتزام به خلق جميل وحميد ، وكل مانهى عنه شر، الوقوع فيه منكر واثم عظيم .. واذن فهناك رباط وثيق بين الأخلاق والعقيدة لو انحل هذا الرباط تخبطت الأخلاق وضلت السبيل ولم تعرف لها مقياسا ترجع اليه : فما هو محمود عند قوم منبوذ عند آخرين .. وما هو خلق متين

---

(٣٠) الفلسفة القرآنية للعقاد ص ٢٠ ، ٣٢ ، ٣٤ .

اليوم سوف يكون غدا تأخرا ورجعية •• وهنا يكون الضياع والفساد: تتحلل المجتمعات باسم المدنية والتقدم وتهدر المبادىء باسم الحضارة ••

ولعل الوثنية اليونانية وزعيمها أرسطو على رأس من دعا الى انفصال العقيدة عن الأخلاق « لأن الخير فى ذاته لا يمكن أن يتحقق فى الواقع أو يجوزه انسان •• ونظرية الخير ــ كما يقول ــ يجب أن تكون عملية أصلا •• ومنذ أن استبعد أرسطو كل أساس ميتافيزيقى للفلسفة الأخلاقية أصبح ذلك النسق مسلما به لدى معظم فلاسفة الأخلاق من بعده حتى عصر «كانت» انهم يختلفون معه فى الغاية أو فى وسيلة تحقيق الغاية أو فى وصف طبيعة العلم الأخلاقى : معيارى أو وضعى أو فى ادراك الخير بالعقل أو بالحدس أو بالتجربة ، ولكنهم يلتقون معه فى أن موضوع العلم : الخير الانسانى المحدد لا المطلق وأن النسق اللازم له استقراء الوقائع والصعود منها الى النظريات لا الصعود عن المبادىء أو الأصول [٣١] » ••

ونقلت دول الغرب فلسفة اليونان ، واعتزت بها ونقلنا نحن عن هؤلاء وأولئك وأصبحت كلمة «الرجعية» «والتطور» سلاحا نشهره فى وجه كل داع الى شد الوثاق بين العقيدة والأخلاق •• لكن مبادىء القرآن التى ربت خير أمة أخرجت للناس بقيت خالدة لا يعتورها تغيير أو تبديل •• وعاش المجتمع الأول مسترشدا بهديها صادرا عنها وواردا اليها ، كما عاشت بعد هذا الجيل أجيال وجدت فى مبادئها الأساس الذى لا يميد ، وليس للعقل ولا للفكر الانسانى دخل فى اختيار النسق الأخلاقى الذى يجب على البشرية التزامه ، لأن العقول متفاوتة وهى وليدة البيئة

(٣١) الفلسفة الأخلاقية فى الفكر الاسلامى د. احمد محمود صبحى ص ٢٠ .

والتربية الا أنها لو راجعت وقارنت بين الأخلاق القرآنية وغيرها لوجدت فرقا هائلا وعظيما بين هذه وتلك : ..

« لقد أنزل الله فيما وراء الطبيعة وفى الأخلاق ما فيه كفاية تامة للمؤمن .. والمؤمن غير محتاج لما وراء ذلك : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا » فاذا ما تمرد المؤمن على هذه المبادىء وبدأ يلقى بقياده الى عقله حتى ولو كان يريد أن يصل عن طريق ذلك الى نفس النتيجة التى أتى بها الدين فانه منحرف عن هدى العبودية لله الى هدى العبودية للعقل .. وهو يفعل ذلك تقديسا لنفسه وذلك نوع من عبادة الذات أو نوع من غرور العقل والوضع الصحيح ــ اذن ــ بالنسبة لأساس الأخلاق أن نلجأ الى الدين نستمد منه الهداية والارشاد فانه هو وحده المعصوم .. أما العقل والضمير والفكر الانسانى فانه يتأرجح ويتذبذب لأنه محتاج الى القائد المربى وليس هذا القائد المربى الا الدين [٣٢] » ..

«وفى هذا التقرير الحاسم للعلاقة المتينة بين العقيدة والأخلاق مايبين خطأ المعتزلة ومن نهج نهجهم فى نظرتهم الى حسن الأفعال وقبحها وأنها ترجع الى صفات ذاتية فى الأفعال يدرسها العقل من نفسه ولا تجىء من الشرع متى أمر أو نهى ، يقول سعد الدين التفتازانى مبينا رأى أهل السنة والمعتزلة « وقد اشتهر أن الحسن والقبح عندنا شرعيان وعند المعتزلة عقليان ، وليس النزاع فى الحسن والقبح بمعنى صفة الكمال والنقص أو الملاءمة للغرض وعدمها فان ذلك يدرك بالعقل ، وان لم يرد به الشرع وانما النزاع فى الحسن والقبيح عند الله بمعنى استحقاق فاعله فى حكم

---

(٣٢) الاسلام .. والعقل د. عبد الحليم محمود ص ٥٢ ، ٦٨ ، ٦٩ .

الله المدح أو الذم عاجلا والثواب أو العقاب آجلا فعندنا (يريد أهل السنة) ذلك بمجرد الشرع ، أى ما ورد به الأمر فحسن وما نهى عنه فقبيح من غير أن يكون للعقل صفات تجعله حسنا أو قبيحا فى ذاته ، حتى لو أمر الله بما نهى عنه صار حسنا وبالعكس .. وعند المعتزلة للأفعال صفات ذاتية تجعلها حسنة أو قبيحة فى حكم الله وهذه الصفات يدركها العقل .. والفرق بين المذهبين كبير : الأمر والنهى عندنا من موجبات الحسن والقبح بمعنى أن الفعل أمر به فحسن ونهى عنه فقبح وعندهم « المعتزلة » من مقتضياته : بمعنى أنه حسن عقلا فأمر الله به وقبح عقلا فنهى الله عنه ، فالأمر والنهى اذا وردا كشفا عن حسن وقبح سابقين حاصلين للفعل ذاته (٣٣) » ..

ومما يؤكد الصلة الوثيقة بين الأخلاق والعقيدة آيات الكتاب الكريم التى ربطت بين الايمان والعمل هذا الرباط المحكم وجعلت الفعل الصادر عن الايمان انفعالا للنفس بما ينبغى أن يكون فيفعل وبما لا ينبغى أن يكون فيترك ، فأصبحت تصرفات المسلم راسخة متشعبة الجذور محكومة بأخلاق الهية سامية وأصبح الايمان والاسلام أخوين لا ينفصلان وكلاهما يعطى صورة الأخلاق القوية لمجتمع الاسلام .. « .. فمن لازم الايمان الاسلام وهو : الشهادة بالتوحيد وبالرسالة والصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد والوضوء والغسل من الجنابة والغسل يوم الجمعة والصبر .. والشكر .. والورع .. والحياء .. والأمانة .. والنصيحة .. وطاعة أولى الأمر .. والذكر .. وكف الأذى .. وأداء الأمانة .. ونصرة المظلوم .. وترك الظلم .. وترك الاحتقار .. وترك

---

(٣٣) شرح المقاصد المجلد الثانى ص ١٠٩ — ١١٠ الشهرستانى فى الملل والنحل جـ ١ ص ٥٣ وما بعدها .

الغيبة •• وترك النميمة •• وترك التجسس •• والاستئذان •• وغض البصر •• والاعتبار وسماع الأحسن من القول واتباعه •• والدفاع بالتى هى أحسن • وترك الجهر بالسوء من القول •• والكلمة الطيبة •• وحفظ الفرج •• وحفظ اللسان •• والتوبة •• والتوكل •• والخشوع •• وترك اللغو •• والاشتغال بما يعنى وترك مالا يعنى •• وحفظ العهد •• والوفاء بالعقود •• والتعاون على البر والتقوى •• وترك التعاون على الاثم والعدوان •• والتقوى •• والبر •• والقنوت •• والصدق •• والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر •• واصلاح ذات البين •• وخفض الجناح واللين •• وبر الوالدين •• وترك العقوق •• والدعاء •• والرحمة بالخلق •• وتوقير الكبير ومعرفة شرفه •• ورحمة الصغير •• والقيام بحدود الله •• وترك دعوى الجاهلية فان النبى صلى الله عليه وسلم يقول « دعوها فانها خبيثة » •• والتودد •• والحب فى الله والبغض فيه •• وترك التباغض •• وترك التناجش •• وترك شهادة الزور وترك الهمز واللمز والغمز ، وشهود الجماعات •• وافشاء السلام •• والتهادى •• وحسن الخلق •• والسمت الصالح •• وحسن العهد وحفظ السر والنكاح والانكاح ، وحب الفأل •• وحب أهل البيت •• وترك الطيرة •• وحب الزوجة •• وحب الطيب •• وحب الأنصار •• وتعظيم الشعائر •• وتعظيم حرمات الله •• وترك الغش •• وترك حمل السلاح على المؤمن وتجهيز الميت •• والصلاة على الجنائز •• وعيادة المريض •• واماطة الأذى •• وأن تحب لكل مؤمن ما تحب لنفسك •• وأن يكون الله ورسوله أحب اليك مما سواهما •• وأن تكره أن تعود فى الكفر •• وأن تؤمن بملائكة الله وكتبه ورسله وبكل ماجاءت به الرسل من عند الله •• الى مالا يحصى كثرة •• (٣٤) » ••

---

(٣٤) اركان الاسلام الخمسة واثرها فى حياة الأفراد والجماعات د. يحيى أحمد الدرديرى ص ١٧ ، ١٨ .

والآيات التى ترشد الى هذا كثيرة تفوق الحصر •• وكلها تنـادى المؤمنين الى التخلق بأخلاق الله والتزام مبادىء الاسلام ••

ولعل فى وصف القرآن لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه على خلق عظيم ما يبين مكانة الأخلاق فى دين الاسلام •• مما جعلها جديرة أن تكون الهدف الأسمى لبعثته صلى الله عليه وسلم فهو القائل ••

« انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق (٣٥) » ••

---

(٣٥) رواه الحاكم فى المستدرك .

الفصل الثانى

العبادات أسلوب للتربية

١ ــ المقصود بالعبادات

٢ ــ الصلاة .. والتربية الأخلاقية

٣ ــ الزكاة وتطهيرها للنفس

٤ ــ الصوم منهج أخلاقى

٥ ــ الحج .. والتربية الأخلاقية

٦ ــ العبادات هدف .. ووسيلة



العبادات اسلوب للتربية

١ ـ المقصود بالعبادات :

على جبل النور .. فى غار حراء .. والكون ساجد لله ، ومحمد ابن عبد الله يعتصر ذهنه وفكره بعيدا عن صخب الحياة وأباطيلها فى زمن استشرى فيه الباطل وبسط أرديته على أرض الناس .. وبينما هو مستغرق فى تأمله فى هذا المكان البعيد عن أهل مكة يبحث عن الطريق ، اذ بملك الوحى جبريل عليه السلام يضمه الى صدره ويبلغه نداء الله :

« ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ * ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ * ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ * عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » (١)

ومن هذه اللحظة التى انبثق فيها شعاع الوحى أصبح للعبادة مفهوم جديد .. وتغيرت نظرة الانسان الى كل ما يصدر عنه .. ولم تعد العبادة رسوما وطقوسا تؤدى داخل المعابد والصوامع والبيع .. وركب الفساد الجائر يطحن الناس ويقضى على أمنهم واستقرارهم وسعادتهم .. والمتعبدون فى كنائسهم وأمام آلهتهم يقولون : « اعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله » ..

نعم تغيرت هذه النظرة الضيقة للعبادة وأصبحت « اقرأ باسم ربك » منارة هادية وضعت يد الانسان على الحقيقة : فالقراءة باسم الله . والعلم باسم الله .. والصلاة باسم الله .. والحياة بما فيها ومن فيها باسم الله .. بل والممات باسم الله هكذا أمر رسول الله :

---

(١) سورة العلق ٩٦ / ١ ـ ٥ .

« قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ »[٢]

واذن فهذا الفصل بين الدين والسلوك .. بين العبادات بالمعنى الظاهر وأفعال الانسان وأقواله لا معنى له .. لأن كل عمل وقول يرتفع عليه شعار الاستسلام لله ويذكر عليه اسمه : عبادة .. وليس تقسيم الفقهاء لأبواب الفقه : عبادات ومعاملات .. الا من حيث أن الأولى عمل لا يبدو فى ظاهره التعامل الا مع الله والثانية تعامل مع خلق الله .. والتربية القرآنية ترى أن العبادات والمعاملات وغيرها يطلق عليه عبادة .. بل ان الشهوة يقضيها صاحبها ـ باسم الله ـ عبادة : « وفى بضع أحدكم صدقة » كما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم[٣] .. ومع هذا الفهم الصادق لمدلول العبادات سوف نرى فرائض الاسلام وشعائر العبادة فيه من صلاة وزكاة وصيام وحج .. سنراها وسائل تربية وتقويم للمجتمع وسندرسها وهى تمثل جزءا من العبادة التى يؤديها المجتمع المسلم فى حياته وبها يبدو فى ثوبه القشيب يرتبط بهذا الجزء الذى يؤديه فى يومه فى الصلاة وفى ماله بالزكاة وفى عامه بالصوم .. وفى عمره بالحج .. يرتبط بذلك بالجزء الأكبر : بالكون كله وبالحياة كلها .. ويتكامل دينا ودنيا .. علما وعملا .. قولا وفعلا .. ويتحول بهذا الامتزاج بين الأجزاء فى داخل نفسه وحسه الى طاقة تغيير الحياة والأحياء .. والى ينابيع خير وحب وعدل واخلاص .

---

(٢) سورة الأنعام ١٦٢/٦ ، ١٦٣ .

(٣) رواه مسلم .. ويراجع كيف جعل القرآن كل الحياة عبادة فى الباب الأول ـ فقرة : وهذا هو الطريق .

٢ ـ الصلاة .. والتربية الاخلاقية :

وهذه أول فرائض الاسلام منهج متكامل لتربية المجتمع : تطهره ظاهرا وباطنا ، وتروى فيه شجرة الأخلاق بماء الوضـوء ونور الذكر وروعة التجرد لله فاذا ما تنشده الانسانية من مساواة وعفة ومحبة ورحمة وقوة وأدب واقع حى ملموس تراه فى أصـوات الساجدين والمتبتلين والداعين والذاكرين والمتجهين لربهم والخاشعين لسيدهم .. شعورهم واحد : أنه لا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى ، وأن أكرمهم عند الله أتقاهم .. وربهم واحد لا شريك له .. وقبلتهم واحدة هى منزل الوحى الالهى والرسالة العظمى الخالدة .. وشعارهم واحـد : الله أكبر .. الله أكبر ..

ولعل القرآن حين جعل الصلاة من أوصاف المتقين فقال :

« الٓمٓ * ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ »(٤)

أراد أن يبين السر فى هذه التقوى التى هيمنت على سلوك المجتمع المسلم أفرادا وجماعات فبـدأ فى كل حركة وسـكون .. مع القريب والبعيد .. مع العدو والصديق .. فى بيته وعمله .. فى تعامله الدولى ونظام مجتمعه الداخلى .. بدأ فى كل هذا نورانيا رحيما عادلا مراقبا لله .. ناظرا الى خالقه .. شاعرا باطلاعه عليه .. والسر فى هـذا بعد الايمان بالله هو اقامة الصلاة .. واختيـار القرآن لكلمة « الاقامة » وبصيغة الجمع « يقيمون » له مغزاه ومعناه فى تربية القرآن : فان الاقامة

---

(٤) البقرة ٢/١ـ٣

هى الاعتدال والمداومة : اعتدال فى الأداء « منكم من يصلى الصلاة كاملة ومنكم من يصلى النصف والثلث والربع والخمس حتى يبلغ العشر [٥] » .. « صل فاتك لم تصل » [٦] ومداومة على هذا الأداء حتى ترسخ صورة القيم التى يريد القرآن أن يبثها فى كيان المجتمع عن طريق هذه الفريضة .. وصيغة الجمع « يقيمون » برهان على صورة التجمع والتعاون والتناسق بين هؤلاء الأطهار فى اقرار الصلاة . ورفع شعارها فى كل مكان قال تعالى :

« ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ » [٧]

وفى احساسهم بقيمتها وما يمكن أن تصنعه للاسلام وكيف يبدو بها المجتمع المسلم فى شكله الفريد ومنظره الرائع : منظر الجباه التى تخشع لله ويرتفع من فوق مآذنها وفى وسط أماكنها العامة أشرف لفظ ، وأكرم نداء يحمل عزة الايمان ورفعتها فوق الشهوات والأطماع .. فوق كل ما على الأرض ويعلن على الملأ فى تأكيد واصرار « الله أكبر .. الله أكبر » .

وباقامتها على هذه الصورة تخترق أشعة الهداية حواجز الشهوات التى كبلت أهل الشرك والضلال ، فاذا بهم ينسابون أفواجا يعلنون حبهم لهذا الدين ويندفعون حاملين رايته ــ مخلصين لدعوته ..

وفى اقامة الصلاة برهان على صدق الايمان .. وعلى تقوى الله ..

---

(٥) رواه الجماعة

(٦) النسائى باسناد حسن

(٧) الحج ٤١/٢٢

وعلى ما يتمتع به صاحبها من بره بعهده وقيامه على الحق واخلاصه لله قال تعالى :

« لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْاخِرِ وَٱلْمَلَٰئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّينَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّائِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَاءِ وَٱلضَّرَّاءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُوْلَٰئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ » (٨)

وقال تعالى :

« قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ * ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ) » (٩)

والتمسك بالكتاب وتحمل مسئولية الاصلاح كلها سمات بارزة للمجتمع الذى يقيم الصلاة قال تعالى :

« وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ » (١٠)

(٨) البقرة ١٧٧/٢

(٩) المؤمنون ١/٢٣ ، ٢

(١٠) الاعراف ١٧٠/٧

والفحشاء والمنكر أسوأ ما يتصف بهما فرد أو مجتمع •• ومهما ادعى أصحاب الدراسات الأخلاقية والمذاهب الاجتماعية من أن دراستهم ومذاهبهم يمكن أن تقضى على أسباب الفواحش والمنكرات وتعيد للأخلاق الكريمة بهاءها ورونقها مهما حاولوا فلن يستطيعوا الا اذا أعلنوا انضمامهم للواء المنهج الالهى •• وهذه هى الصلاة منهج متناسق لتربية الفرد والمجتمع يصل بهما الى قمة السمو الأخلاقى ، ويعمق فى حس مجتمع الاسلام وشعوره كراهته لكل الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولكافة ما تنكره الأذواق العالية والنفوس المستقيمة وما يتنافى مع التعاليم الالهية والعرف الذى استقر بناؤه على أساس من دينه وعقيدته •• يقول القرآن :

« ٱتْلُ مَا أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ » (١١)

وكيف لا تحول الصلاة بين المؤمنين والوقوع فى أسر الشهوات والمؤمن ينتقل فى يومه من صلاة الى صلاة : تبدأ أولاها مع موكب الضوء الهادىء فى السحر وتنتهى الرحلة آخر اليوم بصلاة العشاء •• الأولى توقظه والأخيرة تسلمه الى خالقه وبين هاتين يحيا الانسان مندفعا فى دروب الحياة ، وكلما ضل الطريق أتت احدى الفرائض فذكرته — ان كان قد نسى — وأعادت اليه الأمان والراحة وغسلت عنه ذنوبه ومساوئه فعاد تقيا طاهرا •• وواصل رحلة الحياة فى يمن ويسر لا يهلع ولا يجزع اذا

---

(١١) العنكبوت ٢٩/٤٥

مسه الضر ولا يمنع خيره وعطاءه اذا ما وسع الله عليه لأن صلاته وثقت صلته بالله ، فأضحى بما عند الله أوثق مما فى يده قال تعالى :

« إِنَّ ٱلْإِنْسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعاً * إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعاً * إِلاَّ ٱلْمُصَلِّينَ * ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ » (١٢)

يتعلم من صلاته كيف ينكر ذاته ويرتفع عن شهواته ويروض نفسه على تسليمها المطلق لربها ..

ومجتمع تربى على ذلك لا يدانيه أحد فى أخلاقه كما لم يقاربه فى شيء مما ملك من أسباب القوة الايمانية من قبل ..

يقول الاستاذ / مصطفى صادق الرافعى .. « وما الاسلام فى جملته الا هذا المبدأ : مبدأ انكار الذات واسلامها طائعة على المنشط والمكره لفروضها وواجباتها ، وكلما نكصت الى منزعها الحيوانى أسلمها صاحبها الى وازعها الالهى ، وهو أبدا يروضها على هذه الحركة مادام حيا فينتزعها كل يوم من أوهام دنياها ليضعها بين يدى حقيقتها الالهية ويروضها على ذلك كل يوم وليلة خمس مرات مسماة فى اللغة خمس صلوات لا يكون الاسلام اسلاما بغيرها ، فلا غزو أن كانت الصلاة بهذا المعنى كما وضحها النبى صلى الله عليه وسلم هى عماد الاسلام بين ساعات وساعات فى كل مطلع شمس من حياة المسلم صلاة ، أى اسلام للنفس الى الارادة الاجتماعية الشاملة القائمة على الطاعة للغرض الالهى .. وانكار لمعانيها الذاتية الفانية التى هى مادة الشر فى الأرض .. واقرارها لحظات فى حيز

(١٢) المعارج ٧٠/١٩ ــ ٢٣

الخير المحض البعيد عن الدنيا وشهواتها وآثامها ومنكراتها ، ومعنى ذلك كله تحقيق المسلم لوجود روحه اذا كانت أعمـال الدنيا فى جملتها طرقا تشتت فيها الأرواح وتتبعثر حتى تضل روح الأخ عن روح أخيه فتتنكرها ولا تعرفها[١٣] » .

وعلى موائد الله وضيافته يفد المؤمنون الى مسـاجدهم فى تلك الصورة الجليلة الخاشعة : صفوفا متراصة ينسون ـ وهم فى موقفهم هذا ـ جنسياتهم وأحسابهم ومراكزهم الدنيوية .. ويجمع بينهم الرباط الواحد الذى لا يهن ولا يضعف : رباط الايمان بالله وحـده ـ ويوحد بينهم الاتجاه الواحد .. ويقف الغنى بجانب الفقير بل ربما تقدم الفقير على الغنى فى الصف والمكان لأن المكان فى بيت الله لمن سبق .. فتعلم بذلك المجتمع الذى رباه الاسلام صفات جليلة رسخت فى النفس فأعطتها هذه القوة وهذا الثبات : فالتواضـع والاعتراف للناس بكرامتهم وحقوقهم واشعار الجميع بأنهم قد تساووا فى حضرة ربهم .. الصـوت الخافت المطمئن .. التسامح والرضا والحرص على مصلحة الجماعة وترابطها .. كل ذلك وأكثر من ذلك مما تخلق به المؤمنون ..

ومن هنا كانت صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة لا تستطيع الأمة أن تصر على عدم اقامتها والا أثمت وخرجت عن طاعة الله .. ومع الصلاة اليومية صلاة الجمعة ومن اسـمها نعرف انها لا تصح الا فى جماعة .. وفى العام اجتماعان بل مؤتمران هامان لأهل البلدة وذلك فى صلاة عيدى الفطر والأضحى، وفيهما يصل الخلق الاسلامى الى قمته : فتبدو المودة والمحبة والرحمة ـ والأخذ بيد الضعيف ليقوى

---

(١٣) اركان الاسلام الخمسة ص ٧٢ د . يحيى الدرديرى نقلا عن مقال تحت عنوان :نبى الاسلام المثل الأعلى للانسانية بقلم مصطفى صادق الرافعى جريدة الاهرام ٥ يوليو ١٩٣٣ م

والفقير البائس ليحس بالسعادة ـ فاذا يوم العيد بسمة على كل الشفاه وفرحة فى كل القلوب « وكان اجتماع الناس خمس مرات فى المسجد للصلاة له أثر كبير فى رفع مستواهم الأدبى والأخلاقى .. وضلع عظيم فى تشييد صرح عظمتهم ومجدهم فالصغير يقلد الكبير والعالم يرشد الجاهل والغنى يواسى الفقير والكل يسعى لمرضاة الله .. وقد قيل : ان للأخلاق تأثيرا فى جميع أطوار الحياة فأخو الفضائل يرفع من حوله وأخو الرذائل يحط من فضائلهم وينتقص من أخلاقهم غير شاعر .. قال بعضهم : ان فردا صالحا محبا للخير خير من مائة بل من ألف ممن لا خلاق لهم[١٤] » .

لا عجب بعد هذا أن تكون الصلاة زادا لكل الأجيال يوصى بها الله عيسى عليه السلام :

« وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا » [١٥]

ويأمر بها اسماعيل قومه قال تعالى :

« وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا * وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا » [١٦]

---

(١٤) اركان الاسلام الخمسة وأثرها فى حياة الافراد والجماعات ص ٨٢

(١٥) مريم ٣١/١٩

(١٦) مريم ٥٤/١٩ ، ٥٥

ويوحى الله لموسى أن يأمر بها بنى اسرائيل لتكون من أسباب القوة التى يواجهون بها ظلم فرعون وكيده قال تعالى :

« وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً وَٱجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ » (١٧)

وهى أيضا من الميثاق والعهد الذى أخذه الله على قوم موسى فنقضوه فضربت عليهم الذلة والمسكنة قال تعالى :

« وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِالْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ » (١٨)

وهذا ابراهيم عليه السلام يأخذ ابنه اسماعيل وزوجته هاجر لتلك الصحراء الموحشة فى مكة تنفيذا لأمر ربه وذلك لتقيم هذه الأسرة حول بيت الله المحرم شعائر الصلاة والنسك قال سبحانه :

« رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِنْ ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْئِدَةً

---

(١٧) يونس ١٠/٨٧

(١٨) البقرة ٢/٨٣

مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنْ ٱلثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ » (١٩)

•• ويتوجه الى ربه أن يجعله وذريته من الذين رفعوا منارة العبادة وأعلوا راية الايمان فى كل مكان وزمان :

« رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ » (١٩)

ويستجيب الله دعاءه فيجعل ذريته دعاة خير ومقيمى الصلاة قال تعالى :

« وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُوا لَنَا عَٰبِدِينَ » (٢٠)

وتلك الصلاة هى التى دفعت شعيبا عليه السلام أن يواجه فساد قومه وضلالهم اذ قالوا ما حكى الله عنهم :

« يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ » (٢١)

---

(١٩) ابراهيم ١٤/٣٧ ، ٤٠

(٢٠) الأنبياء ٢١/٧٣

(٢١) هود ١١/٨٧

وهكذا أمر بها الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم قال تعالى :

« أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً » (٢٢)

.. يؤديها قدوة للمؤمنين ويأمر بها أهله قال تعالى :

« وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقاً نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ » (٢٣)

ويأمر بها المؤمنين كما قال له ربه :

« قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنْفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ » (٢٤)

وهكذا وردت الانسانية بأجيالها المؤمنة حياض الصلاة فسعدت وارتقت .. وأصبحت الصلاة علامة الايمان بالغيب قال تعالى :

« إِنَّمَا تُنْذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ » (٢٥)

---

(٢٢) الاسراء ١٢/٧٨

(٢٣) طه ٢٠/١٣٢

(٢٤) ابراهيم ١٤/٣١

(٢٥) فاطر ٣٥/١٨

والاخلاص لله قال تعالى :

« مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ » (٢٦)

والاستجابة لنداء الله كما قال ربنا :

« وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ » (٢٧)

كما هى دليل العلم بالله والخشية منه والتأثر بكتابه قال تعالى :

« إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ » (٢٨)

كما أصبحت زادا وقوة تمد صاحبها بالصبر عند الشدائد والثبات فى مجال دعوة الحق قال تعالى :

« وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ » (٢٩)

وقال :

« وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ » (٣٠)

---

(٢٦) البينة ٩٨/٥
(٢٧) الشورى ٤٢/٣٨
(٢٨) فاطر ٣٥/٢٩
(٢٩) الرعد ١٣/٢٢
(٣٠) الحج ٢٢/٣٥

وقال :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ »(٣١)

وقال :

« وَٱسْتَعِينُوا بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ »(٣٢)

وبها يستحق الانسان أخوة المؤمنين قال تعالى :

« فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ الزَّكَوٰةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِى ٱلدِّينِ »(٣٣)

واذا كان للصلاة تلك المنزلة فقد جعل القرآن تركها وسيلة للانحطاط الخلقى والوقوع فى أسر الشهوات قال تعالى :

« فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا(٣٤) » *

كما جعل تركها دليل التكذيب بيوم الدين قال تعالى :

« أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ * فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ * وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ * فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ *

---

(٣١) البقرة ١٥٣/٢

(٣٢) البقرة ٤٥/٢

(٣٣) التوبة ١١/٩

(٣٤) مريم ٥٩/١٩

ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ * وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ » (٣٥).

ولقد أدى التكذيب بيوم الدين كما ترى الى الغلظة والأنانية ، والشح الذى تجلى فى معاملة اليتيم .. تلك المعاملة الجافة السيئة ، وفى التخلى عن حث المجتمع على معاونة المحتاجين ، وفى ترك الصلاة وفى منع الخير عن الناس .. كذلك كان تركها سببا للخلود فى النار قال تعالى :

« كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ * إِلَّآ أَصْحَـٰبَ ٱلْيَمِينِ * فِى جَنَّـٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ * عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ * مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ * حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ » (٣٦).

ولعلنا ندرك بعد هذا الترغيب والترهيب فى الصلاة أن القرآن ما أفاض فيها وجعلها ركنا أساسيا فى دين الله الا لما تحمله من قوة التأثير فى مجتمع الاسلام وما تغرسه من صفات نبيلة طاهرة .. فهى المدرسة الربانية التى تربى فيها المسلمون فكان لهم هذا الخلق الفريد النابع من صلتهم الوثيقة الممتدة مع ترنيمات صلواتهم عبر الأجيال والقرون .

---

(٣٥) سورة الماعون ١٠٧

(٣٦) المدثر ٧٤/٣٨ ـ ٤٧

٣ ـ الزكاة .. وتطهيرها للنفس :

وهذه هى الزكاة التى فرضها الله : جزء من منهج القرآن فى تربية المجتمع ، انها تطهير للقلوب من أمراض الشح والبخل ، ولن نذهب بعيدا لنبين كيف كانت الزكاة ومازالت من أقوى العناصر فى تهذيب السلوك الانسانى ، فان اسمها دليل على مايمكن أن تقدمه لوسائل التربية الالهية من خير ..

فالتزكية : هى السمو والرفعة .. سمو فى النفس ورفعة عن الشهوات .. ومن أجل هذا فرضت الزكاة قال تعالى :

« خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ »(٣٧) .

يقول البيضاوى : « وتزكيهم بها : أى تنمى بها حسناتهم وترفعهم الى منازل المخلصين(٣٨) » .

والاخلاص ــ أسمى أخلاق النفس البشرية وهو الذى أشار العلامة البيضاوى اليه وأنه نتيجة اخراج الزكاة ــ وثيق الصلة بتزكية النفس التى من أجلها بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم قال تعالى :

« لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ »(٣٩) .

---

(٣٧) التوبة ١٠٣/٩

(٣٨) أنوار التنزيل وأسرار التأويل جـ١ ص ٣٥٨ للبيضاوى

(٣٩) آل عمران ١٦٤/٣

وتلك التزكية مهمة المرسلين جميعا فهذا موسى عليه السلام يقول لفرعون :

« هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ »(٤٠)

وهى طريق الفلاح والفوز قال تعالى :

« قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا »(٤١)

لهذا تجب مجاهدة النفس حتى تعتدل على الطريق قال تعالى :

« وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ »(٤٢)

والمال قطعة من النفس وجزء من حياة الانسان بل هو مقدم على فلذات الأكباد قال تعالى :

« ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا »(٤٣).

وقال :

« إِنَّمَا أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ »(٤٤).

---

(٤٠) النازعات ١٨/٧٩

(٤١) الشمس ٩/٩١ ، ١٠

(٤٢) فاطر ١٨/٣٥

(٤٣) الكهف ٤٦/١٧

(٤٤) التغابن ١٥/٦٤

ومقدم على النفس قال تعالى :

« إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَٰهَدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ » (٤٥) .

وقال :

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ » (٤٦) .

وقال :

« ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ » (٤٧) .

وقال :

« لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ جَٰهَدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُولَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ » (٤٧)

---

(٤٥) الحجرات ٤٩/١٥

(٤٦) الصف ٦١/١١

(٤٧) التوبة ٩/٨٨

ولهذه المكانة التى فصلتها الآيات القرآنية لقيمة المال ومدى حب الانسان له كان اخراجه تطهيرا للنفس من هذا الحب الذى يطغى ويردى. ودليل قوة أخلاقية وعظمة نفسية استمدت عظمتها وقوتها من فهمها لوظيفة المال فى الحياة ومن ايمانها العميق بتعاليم ربها الذى ساق لها الخير .. قال تعالى فى شأن أبى بكر الصديق رضى الله عنه :

« وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى * ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ » (٤٨)

فهو قد أنفق ما أنفق واشترى من العبيد ما استطاع ليحررهم من رق العبودية .. فعل كل هذا ابتغاء مرضاة الله فبرهن بذلك على طهارة نفسه وعلو همته وما رسخ فى أعماقه من أخلاق طاهرة تجردت من كل غرض دنيوى ولم يبق لها مطلب سوى الله .

والقرآن حين يربى المجتمع على هذا التجرد من حب المال يرسم خطة محكمة تحاصر النفس من كل جوانبها فاذا بها سخية لينة كريمة معطية .. تدفع وتبذل بكل ما تستطيع فى السر والعلن لا تخشى من ذى العرش اقلالا ..

.. وأول هذه الخطة هو بيان مصدر المال .. من أين جاء للانسان؟ والمشاهدة خير دليل ، يقنع .. لأنها الواقع الملموس : هذه البذرة التى توضع فى الأرض وتسقى بماء السماء .. من الذى أنبتها وتعهدها بالعناية والرعاية حتى استوت على سوقها وآتت أكلها ؟ ومن الذى أنزل لها المياه فكانت الأنهار ؟ انه الاله القادر وراء كل هذا .. يصرفه ويدبره قال تعالى :

---

(٤٨) الليل ٩٢/١٨ ، ١٩

« أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ * لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ * ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ » (٤٩)

وهذه السماء : من الذى رفعها بغير عمد ومن الذى زينها بالكواكب •• ؟ والأرض : من الذى خلقها وأودع فيها كنوزها •• هل هو الانسان ؟؟ لا •• انما هو الله وحده قال تعالى :

« أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ * وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ * وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ * وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ * رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ » (٥٠)

---

(٤٩) الواقعة ٥٦/٦٣ــ٧٠ •

(٥٠) ق ٥٠/٦ــ١١

وقال سبحانه :

« خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيم * هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ » (٥١)

والانسان : من الذى خلقه وسواه ؟ انه الله رب العالمين ، قـــال تعالى :

« وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِين * ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ » (٥٢)

واذن فالانسان وما حوله ومن حوله ملك لله وحده قال تعالى :

« لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ » *

---

(٥١) لقمان ٣١/١٠ ، ١١

(٥٢) المؤمنون ٢٣/١٢ ــ ١٤ (يراجع دلائل التوحيد فى الباب الاول)

والله به عليم :

قال تعالى :

« هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ »

فلا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء •• وكيف تخفى عليه وهو الذى خلقها بقدرته وحركها بمشيئته ؟؟ قال تعالى :

« هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ »

نعم هذا الملك اليه وحده فاليه يرجع الأمر وحده قال تعالى :

« لَّهُ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ »

انه قدير وعليم :

« يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ » (٥٣) .

وبعد هذا البيان الرائع الذى كشف عن وجه الحقيقة ورد الأمر والقدرة والعلم كله لرب العزة جل جلاله تأتى وظيفة الانسان وصلته بهذه المخلوقات •• فيبين لنا منهج القرآن أن هذه الكائنات مسخرة بأمر الله لنا قال تعالى :

---

(٥٣) الحديد ٥٧/٢ ـ ٦

« ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ * وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ » (٥٤)

وقال :

« أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً » (٥٥)

وقال :

« وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن

---

(٥٤) ابراهيم ١٤/٣٢ ـ ٣٤

(٥٥) لقمان ٣١/٢٠

يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ » (٥٦)

وقال سبحانه :

« ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » (٥٧)

هذا الكون كله هبة من الله للانسان .. ألا ما أجل هذا التكريم وهذا العطاء ..

الانسان هذا المخلوق الضعيف يختاره ربه ليكون خليفة فى الأرض؟؟ انه تكليف شاق وأمانة ضخمة ومسئولية خطيرة يتحملها الانسان ولابد من الأداء .. قال تعالى :

« إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً » (٥٨)

---

(٥٦) الحج ٢٢/٣٦ ، ٣٧

(٥٧) الجاثية ٤٥/١٢ ، ١٣

(٥٨) الاحزاب ٣٣/٧٢

ووظيفته •• وظيفة الخليفة كما عبر القرآن •• ومع أنه •• خليفة•• فهو مثاب على حسن استخلافه وأمانته •• فضلا من الله وكرما ••

ونعود الى المال •• فنراه جزءا من هذه القضية •• نعم هو نتيجة كسب العبد وعمله ولكنه ملك لله : يعطيه من يشاء ويمنعه من يشاء ــ ليس للذكاء أو الغباء أو القوة أو الضعف دخل فى ذلك قال تعالى :

« ٱللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ » (٥٩)

وقال :

« لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ » (٥٩)

وقال :

« أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » (٦٠)

وهكذا يثق الانسان فى فضل الله وعطائه ويؤدى حق الله فيما بين يديه •• فهو لا يدفع تفضلا وانما يعطى حقا لأصحابه :

قال تعالى :

« وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ » (٦١)

---

(٥٩) الشورى ٤٢/ ١٩ ، ١٢
(٦٠) الروم ٣٠/٣٧
(٦١) الذاريات ٥١/١٩

•• يعطى وهو يؤمن بهذه المبادىء السامية وتحوطه الأخلاق العالية دون من على الآخذ أو أذى له ، قال تعالى :

« قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ * يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ » (٦٢)

•• وعندما يصل القرآن الى تلك الدرجة فى تثبيت هـذه المعانى يوجه البشرية ويأمرها أن تثوب للايمان وتنفق مما أفاض الله عليها :

« ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ » (٦٣)

فهو انفاق من مال الله فى سبيل الله •• وما أجمله من منهج •• ما استطاعت ولن تستطيع مناهج البشر أن تصل الى ما وصل اليه •• لأنه تربية الاله العظيم لمن خلقهم •• وهل بعد أن يحاصر النفس البشرية ويودع فيها دعائم الايمان بالله وحده ويعرفها أن الكون كله ملك له •• ثم يكرم الانسان هذا التكريم ويناديه هذا النداء ويرفعه الى درجة المقرض لله والمعطى لربه فيقول :

« مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ » (٦٤)

---

(٦٢) البقرة ٢/٢٦٢ ، ٢٦٣

(٦٣) الحديد ٥٧/٧

(٦٤) الحديد ٥٧/١١

•• هل بعد هذا منهج يمكن أن يقوم سلوك الانسان فيعتدل به الى وجهة الحق والخير فاذا المنفق فى سبيل الله كريم النفس سخى اليد رحيم القلب مطمئن البال •• واثقا أن اعطاءه لله •• والله الذى أعطى من قبل وسوف يزيده فى العطاء من بعد ••

•• ومن هنا ندرك كيف كانت الزكاة وسيلة من وسائل تطهير النفس •• وطهارة النفس وتزكيتها أعلى خلق يمكن أن تتخلق به الانسانية •• وما أحوجها الى مثل هذه الطهارة وتلك التزكية فذلك وحده سبيل سعادتها وانقاذها من وهدة الشقاء والحيرة والضلال ••

٤ ـ الصوم : منهج أخلاقى :

تمر الأيام وتتوالى الشهور وفى كل يوم يرحل المجتمع المسلم بكل أفراده ـ الى ربه خمس مرات فى لحظات تشرق بالدعاء والضراعة ، وتتطهر باللقاء الذى لا يحجبه شىء ، فترتفع الأرواح الى الآفاق محلقة فى معارج الأخلاق السامية ، والصفات النبيلة •• ومع تكرار هذه الرحلات تتحول الى عادة ـ ربما ـ يرحل فيها المسلم الى بارئه فلا يحس لذة الرحلة وسعادة اللقاء ••

ويأتى شهر عظيم من بين أشهر العام يستوقف الركب السائر ليزوده بالعطاء ويشعره بلذة الأنس والقرب من الله ـ انه شهر رمضان : الواحة التى يفد اليها المؤمنون فيرون فيها خضرة الايمان ، ونماء المعرفة وأنهار التقى والطهر ، وأشجار المحبة والاخاء فيفيئون الى الظلال الوارفة ، ويستنشقون عطر الرضا والسكينة ويعودون الى ركب الحياة المضطرب يصلحون اعوجاجه ،ويقومون اضطرابه ويتولون هم قيادته ، فيعيدون له الاستقرار ، ويذهبون عنه الخوف والقلق ••

وحق للسماء أن تحتفل بهذا الشهر، وللأرض أن تتزين من أجله ، وللاله العظيم أن يجعل منه عيدا يمتد مع أيام شهر رمضان ولياليه : فانه ذكرى الخلوة المحمدية والتحنث فى غار حراء ، والبحث عن الحقيقة أيام أن كانت مفاسد الجاهلية تضغط على أعصاب محمد بن عبد الله فلا يجد لذلك حلا الا أن يبتعد عن مكة وأهلها هناك فى قمة الجبل يغوص فى أعماق الوجود عله يهتدى الى الحق الضائع فيطمئن اليه القلب وتركن اليه النفس .. وفى لحظة من هذا الشهر انطلقت الشرارة الأولى لثورة الحق على الباطل ونزل المدد الالهى لينقذ الانسانية الحائرة والقافلة الضالة .. واختارت السماء محمدا العابد المتبتل فى مغارة بالصحراء ليحمل المشعل وليكون السراج المنير .. قال تعالى :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا » (٦٥)

واذا كانت الأمم تحتفل بأعياد انتصاراتها على الظلم والطغيان وتجعل من يوم ثوراتها فرصة لشرح مبادئها وتربية أبنائها فان شهر رمضان أحق بذلك : لأنه ثورة الحرية على العبودية، والتقدم على التخلف، والتوحيد على الشرك ، والرفعة على الضعة ، والقوة على الصغار والهوان، والهدى على الضلال ..

« شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ » (٦٦)

---

(٦٥) الاحزاب ٣٣/٤٥ ، ٤٦

(٦٦) البقرة ٢/١٨٥

ولا عجب بعد هذا أن يكون شهر القرآن فرصة يتربى فيها المؤمن على أخلاق القرآن ويعمق فيها المنهج القرآنى رسالة الاصلاح الانسانى فى أغوار النفس ، وخلايا المجتمع ، فيأتى ختام الشهر اعلانا لهـــذه المبادىء وتلك القيم ويصبح فجر أول يوم من شوال عيدا تبدو فيه نعمة الاسلام والايمان ، وتعبق الحياة بأريج الاخاء ، والمودة ، وصلة الرحم وبر الوالدين ، والعطف على البائسين .. وتنعم الدنيا بما صنعه هــذا الشهر فى مجتمع الاسلام حيث تعلم المسلمون فى مدرسة الايمان أسمى ما يطلبه الانسان سموا فى الفكرة ، ونقاءا فى السريرة ، وطهرا فى السلوك، ورفعة فى المعاملة ، ونزاهة فى القول والعمل ..

وهذه الأخلاق التى نبتت فى حقل الايمان هطلت عليها قطــرات الغيث القرآنى من سماء الأفق الالهى فامتدت جذورها وبسقت أغصانها وآتت أكلها كل حين باذن ربها ..

هذه أول ليلة من رمضان ــ وفيها المجتمع المسلم ، مازال عـــلى عاداته يأكل ويشرب ويستمتع دون قيود أو حدود حتى يتبين له الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ــ دخل فى تجربة مع نفسه يروضها على الطاعة ويعودها على حسن الخلق ويصب عليها من بحر المـــراقبة الدائمة لحظات يومه وساعاته .. فهو مع صخب الحياة وعجيجها .. وفى سكون بيته ومع أهله .. وفى خفقة قلبه أمام شهوة عارضة ومتعة زائلة يذكر أنه صائم ..

فلا يصح له أن يخون نفسه ويخون مبادئه لأنه مراقب : عين الله اليه ناظرة ، ويده له محركة ، ومن هنا يتعلم كيف يعيش للاله الحق: يخاف عقابه ويرجو رحمته .. وما تزال أيام رمضان تتوالى والمسلم يجـــرب نفسه : هل تتقى ربها ؟ هل تغفل عنه ؟ وفى كل يوم يشتد أزره وتقــوى

صلته ، وتتوثق بين العبد وخالقه عرى الاخلاص ويحقق منهج القـرآن أسمى خلق فرض من أجله الصيام ونودى له المؤمنون ..

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » (٦٧) .

يقول الشيخ شلتوت رحمه الله « وليست التقوى هو ذلكم اللون الشاحب ، أو الصوت الخافت أو الرقبة المنحنية ولا هى الهمهمة بكلمات تعرف التسبيح والتهليل ولا الهذرمة بآيات تقرأ وتتلى وانما التقوى ذات عنصر سلبى يمنع من فعل الشر للنفس وللغير .. ولهذه التقوى التى لا يعرف القرآن سواها فرض الله الصوم وجعله مددا للايمان ، وبها كان الصـوم عنصرا قويا من عناصر تكوين المجتمع فى نظـر الاسـلام ومنهجه (٦٨) » ..

وهذه أمم الأرض والشهوات قد سرت فى أوصالها سريان النار فى الهشيم ، ولم تستطع بكل ما تملك من فلسفات ومنظمات أن تعيدللمجتمع الانسانى ما يجب ان يتصف به من الأخلاق الفاضلة .. وتطلع فلاسفة العالم فرأوا أن تهذيب النفس ورياضتها هو الطريق الحقيقى لتحقيق هذا الأمل .. يقول صموئيل سميلز « لو قام بيننا مستبد طاغية يسلبنا أموالنا ويأمرنا بتعاطى مادة تحط من قدرنا وتنتزع صفات الانسانية من نفوسنا حتى نصير أشبه بالبهائم ثم يقضى على راحة بيوتنا ويبذر فينا بـذور المرض والموت العاجل لأصبحنا وكلنا ـ جماعات ساخطة تعقـد .. ومظاهرات ضخمة تنظم وخطباء موفوهون للحرية ينتصرون .. وللخلاص مما ألم بهم من الظلم يطلبون .. مع أن هذا الحاكم المستبد مقيم بيننا لا تقوى عليه الجنود ، ولا تسقط جبروته الأصوات ، ونحن بالاذعان

---

(٦٧) البقرة ٢/١٨٣

(٦٨) منهج القرآن فى بناء المجتمع للشيخ محمود شلتوت ص ١٣٢

لسلطانه والنزول على حكمه راضون ، ذلك هو : سلطان الشهوات •• ألا لا سبيل الى انزال هذا الطاغية عن عرش جبروته الا بالوسائل الأدبية أى بتهذيب النفس ورياضتها ومراعاة حرمتها وضبطها •• وكل وسيلة غير هذه للخلاص من استبداد الشهوات عديمة الجدوى وليس تهذيب القوانين ، ولا تحسين طرق الانتخاب ، ولا اصلاح الحكومات ، ولا التعليم المدرسى ، برافعة من أخلاق قوم ينهمكون فى الملاهى بمحض رغبتهم •• والانهماك فى الملاهى غير الشريفة يدعو لا محالة الى نقص السعادة الحقة لأنه يقضى على الآداب — ويضعف الهمم ، ويذهب برجولة الأفراد وصحتهم ، وسلامة الأمم وعظمتها [٦٩] » ••

وأمل هذا الفيلسوف وأمل الانسانية جمعاء تحققه فريضة الصوم احدى شعائر الاسلام وتتمكن فى يسر من صناعة هذا الانسان السوى فى سلوكه وفكره وقوله وفعله وتقدمه للبشرية نقيا طاهرا فيصبح احدى لبنات البناء الاجتماعى الذى يكون مجتمع الايمان والاسلام •• يقول الشيخ محمد عبده : « الصوم يعد نفوس الصائمين لتقوى الله تعالى ، ويظهر ذلك من وجوه كثيرة أعظمها شأنا وأنصعها برهانا وأعظمها أثرا وأعلاها خطرا انه أمر موكول الى نفس الصائم لا رقيب عليه فيه الا الله تعالى ، وسر بين العبد وربه لا يشرف عليه أحد غيره سبحانه ، فاذا ترك الانسان شهواته ولذاته التى تعرض له فى عامة الأوقات لمجرد الامتثال لأمر ربه والخضوع لارشاد دينه مدة شهر كامل فى السنة ملاحظا عند عروض كل رغيبة له من أكل نفيس وشراب عذب وفاكهة يانعة وغير ذلك أنه لولا اطلاع الله تعالى عليه ومراقبته له لما صبر عن تناولها وهو فى أشد التوق لها لا جرم أنه يحصل له من تكرار هذه الملاحظة المصاحبة للعمل ملكة المراقبة لله والحياء منه سبحانه وتعالى أن يراه حيث نهاه •• وفى

---

(٦٩) الأخلاق : لصمول سميلز تعريب الأستاذ / محمد صادق حسين • ص ٢٣٦/٢٣٥

هذه المراقبة من كمال الايمان بالله تعالى والاستغراق فى تعظيمه وتقديسه، أكبر معد للنفوس ومؤهل لها لسعادة الآخرة وكما تؤهل هـذه المراقبة النفوس المتحلية بها لسعادة الآخرة تؤهلها لسعادة الدنيا أيضا •• انظر هل يقدم من تلابس هذه المراقبة قلبه على غش الناس ومخادعتهم ؟ هل يسهل عليه أن يراه الله آكلا لأموالهم بالباطل ؟ هل يحتال على الله تعالى فى منع الزكاة وهدم هذا الركن الركين من أركان دينه ؟ هل يحتال على أكل الربا ؟ كلا •• ان صاحب هذه المراقبة لا يسترسل فى المعاصى اذ لا يطول أمد غفلته عن الله تعالى واذا نسى وألم بشىء منها يكون سريع التذكر قريب الفىء والرجوع بالتوبة الصحيحة • قال تعالى :

« إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ » (٧٠)

٥ ـ الحج •• والتربية الاخلاقية :

الصلاة والزكاة والصيام تلك فرائض الاسلام وشعائره التى جعلها الله أشعة هدى •• ومناهج تقويم وتهذيب •• ووسائل تدريب عملى على حسن الصلة بين الانسان وخالقه وبين الانسان وأخيه الانسان ••

وهذه فريضة الحج جماع ذلك كله : فيها الرجوع بالصلاة الى حقيقتها الطاهرة النقية والى مكانها الذى نبتت فيه وانبثقت من جواره•• حيث القوم الذين رفعوا منارتها للعالمين :

« رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ » (٧١)

---

(٧٠) الاعراف ٢٠١/٧ ـ اركان الاسلام الخمسة واثرها فى حياة الافراد والجماعات ص ١١٦

(٧١) ابراهيم ٣٧/١٤

وفى الحج تعويد على البذل والسخاء بما يقدمه الحاج من هدى لفقراء البيت وما ينفقه من ماله فى سبيل الله .. وفيه الصيام ..

قال تعالى :

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ »[٧٢]

وقال :

« وَأَتِمُّوا ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ »[٧٣].

---

(٧٢) المائدة ٥/٩٥

(٧٣) البقرة ٢/١٩٦

واذن فنحن أمام فريضة جمعت مبادىء التربية كلها وهى كفيلة بما تحمله من معانى الخير والطهر أن تعيد للانسان انسانيته فيعود الى دياره كما خلقه الله ، نقاء فى الفطرة واشراقا فى السريرة ، واخلاصا يملأ عليه حياته ويدفعه الى بذل نفسه وماله فى سبيل اسعاد أمته واخوانه .. قال صلى الله عليه وسلم : « من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه[٧٤] »

وهذه أول خطوات الطريق تبين ما يصنعه « الحج » فى المجتمعات: فالاستعداد للسفر .. ومفارقة المال والولد والأهل ، وتحمل المشاق .. ذلك كله .. انما يحركه ايمان بالله الذى أمر وثقة فى فضله الذى لا يتخلف .. وليس بعد الايمان بالله والاعتقاد فى الدار الآخرة مثير لفعل الخير والابتعاد عن الشر والتمسك بالأخلاق الكريمة ..

وفى السفر : تذكير للانسان أنه لابد مرتحل من دار الى دار لابد أن يتزود لرحلته الطويلة بأكرم زاد يصل بصاحبه الى نهاية السفر حيث يلتقى مع خالقه ..

قال تعالى :

« ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ » [٧٥] .

---

(٧٤) متفق عليه

(٧٥) سورة البقرة ١٩٧/٢

ومفارقة المال والتضحية والانفاق منه فى سبيل الله تحرير للانسان من عبادة المال وفى ذلك أمان للنفس وللبشر فان حب المال يطمس بصيرة الانسان فلا يرى الخير أبدا ويحيا معذب القلب شارد الفكر . فلا يشبع من مال مهما بلغ .. فاذا ما تحرر من الارتباط بهذا المال شعر بالسعادة تملأ حياته ، والاستقرار يحيط به .. وما تنافست الأمم ، وقامت بينها المعارك الدامية وما اعتدى الأقوياء على الضعفاء ، الا من أجل المال وجمعه والاستئثار به .. ويوم ان ترتفع المجتمعات بحسها فلا تكون مستعبدة للمال فتجعله وسيلة لا غاية .. وسيلة لتحقيق السعادة للمحرومين والبائسين فى أنحاء الأرض فان السلام الذى تحاوله سوف تجده بين يديها .. وهذا مجتمع الاسلام الأول الذى رفع لواء الحرية والعدالة وجعل من المال سندا لحماية الحق استطاع أن يعطى العالم اطمئنانه وراحته وأن يسكب فى نفس الحائرين من بحار الرضا كئوسا مترعة عادوا بعدها اخوة أحبابا ، وأنصارا لدين الحق وأمثلة للانسان الذى صنعه منهج القرآن ..

ومفارقة الأهل والولد والعشيرة جهاد للنفس ورياضة لها تتعلم بها كيف تمضى فى سبيل ربها .. قال تعالى :

« قُلْ إِن كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ » (٧٦)

---

(٧٦) سورة التوبة ٢٤/٩

وها هو ذا المسلم قد خرج فى شهر حرام الى بلد حرام وعند ميقاته خلع ملابسه ولبس ملابس الاحرام وتساوى فى مظهره مع اخوانه •• فشعر بالوحدة الجامعة ، وتحرر من آثار المظاهر الكاذبة والتفاخر الممقوت •• وهذا الشعور بالزمان والمكان واللباس وأنه كله يحرم فيه الاعتداء والظلم والتنافس على أعراض الحياة والاقتراب من الشهوات تربية لم يصل اليها منهج بشرى على الاطلاق ••

«ومنهج التربية بتحريم الزمان والمكان شرع الهى قديم أقره الاسلام وربط بين المؤمنين الأولين والمؤمنين الآخرين وهو فى واقعه لأهل العصر الواحد فرصة تهيىء لهم ــ لو آمنوا به ونزلوا على مقتضاه واتبعوا شرع الله فيه ــ حسن التفاهم والعمل على قطع أسباب الخلاف والتخاصم ، وعلى واقرار الأمن والسلام هو بمثابة هدنة الهية يتدبر الناس فيها شئونهم فيعرفون مهمتهم فى الحياة من حسن التعمير واسعاد البشرية على أسس من المحبة والتعاون وبذلك يكفون عن العدوان وعن الجشع المثير للحروب، القاضى على الهناءة والاطمئنان ، المفسد لخلافة الانسان فى الأرض [٧٧]» •

وما ان يبدو شعاع مكة ويقترب وفد الحجيج من بيت الله الحرام حتى تثور الأشجان وتهطل العبرات وتفوح رائحة الذكرى العطرة ويتلاشى الزمان والمكان •• وتصفو الروح وتشف فترى رسولها أمامها ومعه رهطه الطيب واصحابه الأبرار •• هنا صلى ، وهنا أوذى ، وهنا دعا الى ربه، ومن هنا هاجر، والى هنا جاء فاتحا مطهرا للبيت من دنس الشرك وأقذار الجاهلية •• وترى ابراهيم وابتلاء الله له بترك ولده اسماعيل فى هذا المكان الموحش القفر واختبار الله له بذبح ولده ••

---

(٧٧) الاسلام عقيدة وشريعة للشيخ شلتوت ص ١٣٨

كما قال :

« يَـٰبُنَيَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَـٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ » (٧٨)

وتلمحه وهو يرفع القواعد من البيت مع هذا الابن المبارك وما زال نداؤهما يتجاوب صداه فى أرجاء الأرض وهما يتقربان بهذا العمل العظيم الى الله ويرفعان أول بيت وضع للناس ..

قال تعالى :

« وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ » (٧٩)

وفى عبير تلك الذكريات التى لا يتسع المقام لعرضها .. ومع الجو الذى ملأه الطهر فى الظاهر والباطن فشعر فيه الطير والشجر بالأمن

---

(٧٨) الصافات ١٠٢/٣٧

(٧٩) البقرة ١٢٧/٢ — ١٢٩

والسلام فضلا عن الانسان .. فى هذا المقام العظيم يتربى مجتمع الاسلام: يطوف ويسعى ويقف بعرفات وينحر الهدى ويرمى الجمرات .. وفى كل همسة ولمسة ومع كل خفقة قلب يشد بكلتى يديه علـى حبل الله المتين ويتعلم كيف يصنع الخير عن حب وايمان ..

« ان ذهاب عشرات الآلاف من مسلمى العالم على اختلاف بلادهم وأجناسهم وألوانهم ولغاتهم الى مكة لأداء فريضة الحج له أثر بـالغ فى تربية النفس وذلك باحتمال مشقة السفر ووعث الطريق فى سـبيل تحقيق المبدأ وهو رياضة الوجدان على طاعة الرحمن .. اجتماع الألوف المؤلفة من مختلف الأجناس البشرية الاسلامية من بقاع الكرة الأرضـية بين فقير مقل وغنى كبير الثراء .. الأبيض والأسود والأصفر والأسمر وعالم وجاهل وأمير ورفيع وصغير ووضيع فى صعيد واحد بلباس واحد فى وقت واحد تنفيذا لأمر الله الواحد وطلبا لغفرانه ومرضاته من أكبر الأسباب فى تحقيق المساواة (٨٠) » ..

وانه للقاء مبارك فى جوار بيت مبارك :

قال تعالى :

« إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ * فِيهِ ءَايَٰتٌ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ ءَامِناً » (٨١).

---

(٨٠) أركان الاسلام الخمسة وأثرها فى حياة الأفراد والجمـاعات للدكتور / يحيى احمد الدرديرى ص ٣

(٨١) آل عمران ٣/٩٦ ، ٩٧ .

تجتمع فيه عناصر القوة والرحمة وتبدو فيه حقيقة الاسلام جلية واضحة ويرى المؤمنون قيمة « المنافع » التى ندبهم الله لشهودها من يوم أن أمر الله ابراهيم عليه السلام فقال :

« وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ » (٨٢)

يقول الشيخ شلتوت تعليقا على هذه الآية « واذا عرفنا أن كلمة « منافع لهم » لا تعنى فى هذا المقام خصوص المنافع الروحية التى يحققها أداء الأفراد لمناسكهم وانما تعنى كل ما ينفع المسلمين أفراد وجماعات .. روحيا وماديا .. ومعنويا وأخرويا عرفنا الأثر العظيم الذى يجب أن يحصل عليه المسلمون فى بناء مجتمعهم من عبادة الحج ولا ريب أن أول ما ينفعهم باعتبارهم أمة واحدة ذات عقيدة واحدة وتشريع واحد وكيان واحد هو ما يحقق لهم عمليا وحدتهم ويسمو بمجتمعهم ويجعله فى مكانة تعلو به عن مواقع الأطماع ومساقط التيارات التى تمزق كتلتهم وتمكن الأعداء منهم (٨٣) » ..

هذه أمة الاسلام التى صنعها القرآن بدت فى هذا المظهر المهيب الخاشع : نداؤها واحد .. لبيك اللهم لبيك .. لبيك لا شريك لك لبيك ان الحمد والنعمة والملك لك لا شريك لك .. هاهى ذا تنتقل بين ربوع تلك البقاع الطاهرة مؤدية شعائر الحج حتى انصهر أفرادها فى بوتقة الايمان وأعيد تشكيلهم من جديد فشعر كل مسلم أنه فرد فى أمة يدعو بدعائها ويفرح لفرحها ويتألم لألمها .. يوقر الكبير ، ويرحم الصغير

---

(٨٢) الحج ٢٢/٢٧ ، ٢٨ .

(٨٣) منهج القرآن فى بناء المجتمع للشيخ شلتوت ص ١٣٠ .

ويعطف على المسكين ، ويواسى المحروم ، ويساعد الضعيف ، ويتخلق بأخلاق الله .. وليس بعد التخلق بالأخلاق الربانية منزلة تسعد بهـــا البشرية مثل هذه المنزلة ..

وهكذا يتعلم المسلم : كيف تكون وحدانية الله وكيف تؤدى الصلاة وكيف يطبق الاسلام : عقيدة وشريعة .. علما وعملا حتى اذا مارجع الى دياره عاد داعيا الى دين الله فاقها لأحكامه ..

فهل يستطيع منهج بشرى أن يصنع أمة كتلك الأمة التى لبت نداء الله ووقفت بعرفات وعظمت شعائر الله .. قال تعالى :

« وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ » (٨٤)

وهل تتمكن أى فلسفة أن تغرس هذه الأخلاق العالية فى نفوس البشر كما تغرسها فريضة الحج ؟ ألا ان الحق واضح لا لبس فيه ولا عوج ولكن أكثر الناس لا يعلمون ..

٦ ـ العبادات : هدف .. ووسيلة :

فى محراب الكون يقف المؤمن خاشعا مرتلا آيات التقديس والاجلال يرى ربه مع النسمات العذبة .. والشمس المشرقة والقمر المضىء .. ومع ركب البشر المتحرك .. وفى الأرض المبسوطة والسماء المرفوعة ــ وفى قطرات الماء ورائحة الأزهار واختلاف الثمار وتقلب الليل والنهـــار .. يرى ربه مع الأنفاس التى تتردد والقلب الذى يخفق والعين التى تبصر .. يحس به فى كل شىء ومع كل شىء .. وليس بعد هذا الخشوع عبادة .. فانها الرباط الوثيق الذى يشد أوتار القلب ــ دائما ــ الى الله ويعرف

---

(٨٤) الحج ٢٢/٣٢ .

الانسان أن الحياة لا تقاس ببطن مملوء ، وأموال تملأ الخزائن ، وأجسام عراض وألسنه حداد •• وانما قيمتها فى أشواق الروح وانفعالاتها بمظاهر هذا الوجود ، والوصول من ذلك الى الاحساس بخالق هذا كله وما يمكن أن يتصف به من صفات الكمال ••

ومن هنا يصبح البشر عبيدا لله : تخشع قلوبهم وتلين جلودهم أمام عظمة بارئهم وخالقهم فيتحقق الغرض الأسمى من وجودهم على ظهر هذه الأرض ••

قال تعالى :

« وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ * إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ » (٨٥).

وهذا المعنى العظيم للعبودية الذى جاء به المنهج القرآنى فربى به أعظم أمة وصنع به خير الرجال — وحتى يحدث الامتزاج الكامل بين داخل الانسان وخارجه بين الحبل الذى يربطه بالله والحبل الذى يربطه بالناس — جعل الله للانسان « محطات » يلقى فيها رحاله ويصلح نفسه ويراجع حسابه ليبدأ الرحلة من جديد • وهكذا الى أن يصل الى آخر الرحلة هناك عند ربه فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ••

وتلك « المحطات » هى ما عرف فى الاسلام بالعبادات لصلتها الوثيقة الخالصة بالله مما جعل جانب المعاملة فيها بالنسبة للخلائق غير ملحوظ •• وكانت المعاملات هى الجانب الذى يقابل العبادات •• وبين

---

(٨٥) الذاريات ٥١/٥٦ — ٥٨ .

العبادات والمعاملات تكون الأخلاق هي الروح المعبرة والنور الذي يكسب الحياة جمالها ورونقها وهي التجسيد الحي للشحنة الالهية التي امتلأ بها حس المؤمن ووجدانه فخرج الى مجال الواقع العملي للحياة فكان هذا الانسان الذي تخلق بأخلاق الله ..

والعبادات والمعاملات وما بينهما من أخلاق كلها عبادة لأنها تنفيذ للارادة الالهية وتحقيق للغرض الذي خلق من أجله آدم وبنوه .. وكلها بذلك معاملة : لأن المعاملة هي محك الاختبار لما استفاده المرء من مناهج التربية السماوية .. ولهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « أيما رجل تدين دينا وهو مجمع ألا يوفيه اياه لقى الله سارقا[٨٦] » وقال : « أيما رجل تزوج امرأة ينوى ألا يعطيها من صداقها شيئا مات يوم يموت وهو زان . وأى رجل اشترى من رجل بيعا ينوى ألا يعطيه من ثمنه شيئا مات يوم يموت وهو خائن .. والخائن فى النار [٨٧] » ..

ولقد مر بنا ما فى شعائر العبادة من قوة تستطيع أن تنقل الانسان الى المستوى الرفيع وأن تخطو به الى عالم المثل والقيم العالية مما يفوق ما تصوره أصحاب المدن الفاضلة والمذاهب الأخلاقية لأن الذي وضع خطة تلك التربية هو الاله الحكيم العليم بالنفوس وخباياها وكيف تساس وتستغل سجاياها فترتفع الى أقصى طاقتها الربانية ، وتحرر من طينهـا وعفونتها وخبثها وأرضها وتحلق مدفوعة بالنفحة الالهية التى أودعها الله فيها الى العظمة الانسانية والأخلاق الفاضلة العالية .. فالصلاة والزكاة والصيام والحج « مدد للايمان بالله تغذيه وتنميه وسبيل قوى تنفذ منه أشعة الهدى والنور الى قلب المؤمن فيريه الخير خيرا فيعمله لنفسه ولغيره

---

(٨٦) رواه ابن ماجه والبيهقى .

(٨٧) رواه الطبرانى فى الكبير .

وتريه الشر شرا فيعصم منه نفسه وغيره وبهذا يكون مصدر خير وتقع لا شر فيه ولا ضرر (٨٨) ..

وهذه الشعائر وان كانت مددا للايمان فانها هدف مقصود لا يمكن الاستغناء عنه لأنها امتثال لأمر الله .. قال تعالى :

« أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ » (٨٩)

وقال تعالى :

« حَـٰفِظُوا عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ » (٩٠)

وقال تعالى :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » *

وقال :

« فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ » (٩١)

---

(٨٨) منهج القرآن فى بناء المجتمع للشيخ شلتوت ص ١٢٩ .

(٨٩) الاسراء ٧٨/١٧ .

(٩٠) البقرة ٢٣٨/٢ .

(٩١) البقرة ١٨٣/٢ ، ١٨٥ .

وقال تعالى :

وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » (٩٢)

وقال :

« وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً » (٩٣)

وهى هدف مقصود وفى نفس الوقت خطة محكمة ودواء ناجع لأمراض المجتمعات وفساد القلوب وخبث النفوس •• وهذا كتاب الله ينطق بما فيها من أسرار وما لها من حكم بالغات : فالصلاة تشد الانسان ــ أبدا ــ الى ربه فلا يقترب من فاحشة ولا يقترف منكرا ••

قال تعالى :

« ٱتْلُ مَا أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَاءِ وَٱلْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ » (٩٤)

والصيام منهج أخلاقى يعلم التقوى •• والزكاة تزكية للنفس وتطهير لها من الشح والبخل •• قال تعالى :

« خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ » (٩٥)

---

(٩٢) النور ٥٦/٢٤ .

(٩٣) آل عمران ٩٧/١٣ .

(٩٤) العنكبوت ٤٥/٢٩ .

(٩٥) التوبة ١٠٣/٩ .

وقال تعالى :

« وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ »(٩٦)

لكن قد يبدو بعض الناس فى زى الرهبان الصـــالحين والأتقياء العارفين ومع هذا المظهر فهم لم يؤدوا فى حياتهم فريضة من فرائض الله ، أو شعيرة من شعائر العبادة بل وربما خرجوا من جملة المسلمين فكانوا من المنكرين للاله أو المشركين به .. وربما انخدع بعض المتحذلقين بذلك فادعوا ان الهدف الذى سعى اليه القرآن من دعوته لالتزام ما افترض الله من عبادات قد تحقق .. وتحقق من أقرب طريق دون جهد يبذل فى صلاة أو صيام ودون انفاق من مال فى زكاة أو حج .. فلنترك هـــذه العبادات ولنهجر تعاليم الله ولننزع تعاليم السماء من حياة الناس فـان الغرض الذى سعت اليه قد أصبح واقعا ملموسا ..

وهذه دعوى باطلة وفهم خاطىء سقيم . فان العبادات التى شرعها الله اذا أديت على وجهها الصحيح كما أراد الله لها أن تكون وجهت صاحبها وارتقت به الى منازل الخلق المحمود .. والخلق الذى ينبع منها يختلف عن غيره من الأخلاق المدعاة : لأن طهارة المنبع ونورانية الأصل تجعل لأخلاق الاسلام عمقها وتأثيرها فى الحياة .. وأخلاق تقوم على الايمان بالله والثقة فى فضله لا تدانيها أخلاق زائفة مقصدها المنفعة الخاصة فاذا لم تتحقق تلك المنفعة انقلب هذا الانسان الهادىء الوديع ذئبا ضـاريا ووحشا مفترسا وثعبانا ماكرا يضرب بالقيم الانسانية عرض الحائط ويهلك

---

(٩٦) الحج ٢٢/٢٧ ، ٢٨ .

الحرث والنسل وينشر الفساد فى الأرض ابتغاء عرض زائل ومكسب ضئيل [٩٧] ..

واذن فالاستغناء عن شعائر العبادة غير ممكن لأنها هدف فى ذاتها وواجب الهى لابد من أدائه جعلها الله منهج تربية وتقويم يعتدل بها سلوك الانسان فى حياته ويبتعد عن مواطن الزلل والسوء فاذا لم تؤد غرضها فليس لعيب فى الدواء وانما العيب فى المريض الذى لم يلتزم أوامر الطبيب الذى أرشده الى طريقة تعاطى الدواء ..

واذا لم يتحقق هدفها فلن يكون الحل أن نتركها ونرفضها ونبحث عن سواها لأن سواها هو السم القاتل والوباء الفتاك .. ولم لا يكون كذلك وهو دواء يقطع الصلة بين العبد وخالقه وليس بعد هذا بلاء .. وليس بعد قطع تلك الصلة أمل فى تهذيب النفس واعتدال السلوك واصلاح الأخلاق لأن القلب المظلم لا يمكن أن ينير للناس الطريق والنفس الموبوءة لا تستطيع أن تقدم لغيرها العلاج .. فلابد من العبادات نأخذها هدفا فى ذاتها ونؤديها كما جاء بها كتاب الله الخالق ونجعلها وسيلة لاصلاح الحياة .. ولن تصلح الحياة ولن تعتدل الأخلاق الا بهذا المنهج الالهى العظيم .

---

(٩٧) انظر : اخلاق ـ واخلاق فى هذا الباب « الفصل الأول فقرة « ٣ »

الفصل الثالث

أخلاق الاسلام
وكيف غرسها فى النفوس ؟؟

١ ــ الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم

٢ ــ بين الترغيب •• والترهيب

٣ ــ البيئة

٤ ــ الطفولة

٥ ــ احياء انسانية الانسان

أخلاق الاسلام ..

وكيف غرسها فى النفوس

١ - الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم :

كلما راعنا هذا الانتقال الذى أحدثه منهج القرآن فى أخلاق البشر بما لم تعهده الانسانية من قبل فى تاريخها الطويل تساءلنا عن السر فى ذلك فلعل الاهتداء اليه يتيح لنا فرصة العودة الى هذا المنهج فتعود لنا قيادة العالم الحائر فنرشده الى طريق الله ونحرره من الأوهام والضلال .

وكم فشل فلاسفة ومفكرون تخيلوا مناهج للتربية وخططوا مدنا فاضلة فبقيت مناهجهم ومدنهم خيالا هائما وتصورا عقليا لم يتحول الى واقع ابدا .. وحين أنزل الله كتابه لم يرد أن يكون نظرية تحفظ ، وانما أراد أن يكون سلوكا يترجم فى واقع الحياة فاختار - من بين الناس - محمدا صلى الله عليه وسلم ليكون السراج المنير والمثل الأعلى والقدوة العظمى للانسانية .. اختاره عن علم كما قال سبحانه :

« ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ » (١)

واختاره بعد أن رباه وأدبه .. « أدبنى ربى فأحسن تأديبى (٢)» .

وهذه حياته مشرقة مضيئة لا يخفى منها شيء وذلك حتى يكون الاقتداء به على أتم وجه وأكمله - يقول العالم الانجليزى باسورث سميث من بعض ما أورده السيد / سليمان الندوى فى كتابه الرسالة المحمدية .. ترى الشمس هاهنا مشرقة بارزة بيضاء تنير أشعتها كل شيء وتصل الى

---

(١) الأنعام ٦/١٢٤ .

(٢) رواه ابن السمعانى فى أدب الاسلام عن ابن مسعود .

كل شيء ولا شك أن فى الوجود شخصيات لا تعلم عنها شيئا ولا تتبين حقيقتها أبدا أو تبقى منها أمور مجهولة .. بيد أن التاريخ الخارجى لمحمد صلى الله عليه وسلم نعلم جميع تفاصيله من نشأته الى شبابه .. وعلاقته بالناس وروابطه ، وعاداته ونعلم أول تفكيره وتطوره وارتقاءه التدريجى ثم نزول الوحى العظيم عليه .. ونعلم تاريخه الداخلى بعد ظهور دعوته واعلان رسالته ، وان عندنا القرآن لا مثيل له فى حقيقته وفى كونه محفوظا مصونا .. (*) » ..

وهذا الرسول العظيم الذى لم يغادر أصحابه صغيرة أو كبيرة أو حركة أو سكونا فى حياته الا سجلوها ، وكان فى بيته تسع من أمهات المؤمنين يروين دقائق معاشرته : فى نومه وسهره وعبادته ، فى أقواله وأفعاله . هذا الرسول الكريم كان آية من آيات الله ، وطاقة هائلة عجيبة دفعت برسالة القرآن عبر الأجيال والقرون الى أن يلقى الناس ربهم .. فقد كان صلى الله عليه وسلم قرآنا نابضا حيا متحركا ، وكان — كما تروى السيدة عائشة رضى الله عنها وقد سئلت عن خلقه فقالت : « كان خلقه القرآن يرضى برضاه ويسخط بسخطه (٣) » ..

فكنت تراه فى كل شيء وكأنه متخصص فيه .. ان نظرت الى عبادته وجدته رجل عبادة لا يطاوله فيها أحد يسهر الليل مناجيا ربه ناصبا قدميه الى أن تفطرتا وحين تسأله عائشة : يارسول الله : قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فيقول ياعائشة : « أفلا أحب أن أكون عبدا شكورا (٤) » وانه ليتزود بهذا الزاد الروحى ليكون عدته فى تبليغ رسالته كما قال تعالى :

(*) الرسالة المحمدية للسيد / سليمان الندوى ص ٨٣ .

(٣) رواه البخارى ومسلم والترمذى وأبو داود عن عائشة .

(٤) متفق عليه — واللفظ للبخارى .

« يَاأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ * قُمِ ٱلَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً * نِّصْفَهُ أَوِ ٱنْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلاً * إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً » (٥)

واذا جاهد وحمل السلاح ، قلت انه رجل حرب وجلاد تكفى قيادته للجنود الغازية فى سبيل الله أن تشغل عشرات القواد .. يخوض المعارك فى سبيل الله بقوة وبسالة لا يدانيه فى ذلك أحد .. عن على رضى الله عنه قال : انما كنا اذا حمى البأس واشتد واحمرت الحدق اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم،فما يكون أحد أقرب الى العدو منه ، ولقد رأيتنى يوم بدر ونحن نلوذ بالنبى صلى الله عليه وسلم وهو أقربنا الى العدو وكان من أشد الناس بأسا (٦) ..

وسأل رجل البراء قال : أفررتم يوم حنين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يفر ـ لقد رأيته على بغلته البيضاء وأبو سفيان ـ يقصد ابا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ـ آخذ بلجامها والنبى صلى الله عليه وسلم يقول : «أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب (٧) .. » ..

وفى حياته الزوجية مسئوليات أسرة ضخمة تشغل عددا من الرجال: تسع نسوة فى بيته يعدل بينهن ويعاملهن أكرم معاملة عرفتها البشرية فعن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم : يخيط ثوبه ويخصف نعله ويرفع دلوه ويحلب شاته ويخدم نفسه ويقم البيت

---

(٥) المزمل ٧٣/١ ـ ٥ .
(٦)الشفاء ج ١ ص ٦٧ .
(٧) رواه الطبرانى عن أبى سعيد .

ويعقل البعير ويعلف ناضحه[٨] ويأكل مع الخادم ويعجن معها ويحمل بضاعته من السوق[٩] ..

وعنها قالت : خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم أبدن فقال للناس تقدموا فتقدموا ثم قال تعالى حتى أسابقك فسابقته فسبقته فسكت حتى حملت اللحم وبدنت وسمنت خرجت معه فى بعض أسفاره فقال للناس تقدموا ثم قال : تعالى أسابقك فسبقنى فجعل يضحك ويقول هذه بتلك[١٠] وفى مودته لاخوانه وأصحابه لا يبارى : يعود مرضاهم ويواسى محتاجهم ويداعب صبيانهم ويعطف على بائسهم وكأنه متفرغ لهذه الحياة الاجتماعية ليس له من شاغل سواها ..

« جاءت امرأة الى النبى صلى الله عليه وسلم يقال لها أم أيمن فقالت: يارسول الله ان زوجى يدعوك قال : ومن هو أهو الذى بعينه بياض ؟ فقالت : لا .. والله .. فقال صلى الله عليه وسلم : ما من أحد الا بعينه بياض[١١] » ..

وعن أنس رضى الله عنه قال : كان غلام يهودى يخدم النبى صلى الله عليه وسلم فمرض فأتاه النبى صلى الله عليه وسلم يعوده ، فقعد عند رأسه فقال له : أسلم فنظر الى أبيه وهو عنده فقال له : أطع أبا القاسم فأسلم فخرج النبى صلى الله عليه وسلم من عنده وهو يقول : الحمد لله الذى أنقذه من النار[١٢] » .

---

(٨) الناضح : البعير يستقى عليه .

(٩) المواهب جـ ٤ ص ٢٧ .

(١٠) رواه البخارى .

(١١) رواه البخارى .

(١٢) رواه البخارى .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم دخل على أعرابى يعوده وكان اذا دخل على من يعوده قال : «لا بأس .. طهور ان شاء الله »[١٣] .. وانك لتراه سائرا يتدفق حيوية ونشاطا كأكمل الناس صحة وعافية : يسلم على الناس بجميع يده وفى حرارة وقوة — يرضى من كل نفسه فيعرف أصحابه فى وجهه السرور ويغضب فيبدو الغضب على وجهه ويدر عرقه من جبهته — وهكذا كل أمر تراه قد وصل فيه الى حد الكمال الانسانى ولهذا صدق فيه قول الحق تبارك وتعالى :

« وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ »[١٤] .

الا أن هذا النور الساطع بشر كسائر البشر، يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ، لم يصل الى هذه المنازل العالية ليبقى صورة أسطورية خيالية لا تتحقق فى واقع الناس ولا يتمكن أحد أن يقتدى بها وانما هو البحر الزاخر يأخذ كل منه بقدر طاقته :

قال تعالى :

لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيراً »[١٥] .

يقول السيد / سليمان الندى فى كتابه الرسالة المحمدية : « اذا كنت غنيا مثريا فاقتد بالرسول صلى الله عليه وسلم عندما كان تاجرا يسير بسلعته بين الحجاز والشام وحين ملك خزائن البحرين ..

---

(١٣) رواه البخارى .

(١٤) القلم ٦٨/٤ .

(١٥) الأحزاب ٢١/٤٣ .

واذا كنت فقيرا معدما فلتكن لك أسوة به وهو محصور فى شعب أبى طالب ، وحين قدم الى المدينة مهاجرا اليها من وطنه وهو لا يحمل من حطام الدنيا شيئا ..

واذا كنت ملكا فاقتد بسنته وأعماله حين ملك أمر العرب وغلب على آفاقهم ودان لطاعته عظماؤهم وذوو أحلامهم ..

وان كنت رعية ضعيفا فلك فى رسول الله أسوة حسنة أيام كان محكوما بمكة فى نظام المشركين ..

وان كنت فاتحا غالبا فلك من حياته نصيب أيام ظفره بعدوه فى بدر وحنين ومكة ..

وان كنت منهزما ـ لا قدر الله ذلك ـ فاعتبر به فى يوم أحد وهو بين أصحابه القتلى ورفاقه المثخنين بالجراح .. وان كنت معلما فانظر اليه وهو يعلم أصحابه فى صفة المسجد ..

وان كنت تلميذا متعلما فتصور مقعده بين يدى الروح الأمين جاثيا مسترشدا ..

وان كنت واعظا ناصحا ومرشدا أمينا فاستمع اليه وهو يعظ الناس على أعواد المسجد النبوى ..

وان أردت أن تقيم الحق وتصدع بالمعروف وأنت لا ناصر لك ولا معين فانظر اليه وهو ضعيف بمكة لا ناصر ينصره ولا معين يعينه ومع ذلك فهو يدعو الى الحق ويعلن به ..

وان هزمت عدوك وخضدت شوكته وقهرت عناده فظهر الحق على يدك وزهق الباطل واستتب لك الأمر ـ فانظر الى النبى صلى الله عليه وسلم يوم دخل مكة وفتحها .. وان أردت أن تصلح أمورك وتقوم على ضياعك فانظر اليه صلى الله عليه وسلم وقد ملك ضياع بنى النضير وخيبر وفدك : كيف دبر أمورها وأصلح شئونها وفوضها الى من أحسن القيام عليها ..

وان كنت يتيما فانظر الى فلذة كبد آمنة وزوجها عبد الله وقد توفيا وابنهما صغير رضيع ..

وان كنت صغير السن فانظر الى ذلك الوليد العظيم حين أرضعته مرضعته الحنون حليمة السعدية .. وان كنت شابا ناشئا فاقرأ سيرة راعى الغنم بمكة ..

وان كنت تاجرا مسافرا بالبضائع فلاحظ شئون سيد القافلة التى قصدت بصرى ..

وان كنت قاضيا أو حكما فانظر الى الحكم الذى قصد الكعبة قبل بزوغ الشمس ليضع الحجر الأسود فى محله، وقد كان رؤساء مكة يقتتلون ثم ارجع البصر اليه مرة أخرى وهو فى فناء مسجد المدينة يقضى بين الناس بالعدل يستوى عنده منهم الفقير المعدم والغنى المثرى .

وان كنت زوجا فاقرأ السيرة الطاهرة والحياة النزيهة لزوج خديجة وعائشة ..

وان كنت أبا لأولاد فتعلم ما كان عليه والد فاطمه الزهراء وجد الحسن والحسين ..

وأيا ما كنت •• وفى أى شأن كان شأنك فانك مهما أصبحت أو أمسيت •• وعلى أية حال بت أو أضحيت فلك فى حياة محمد صلى الله عليه وسلم هداية حسنة ، وقدوة صالحة تضيء لك بنورها دياجى الحياة ويتجلى لك بضوءها ظلام العيش [١٦] » ••

وهذا المثل الرفيع الذى تمثل فيه كتاب الله وهديه شع نورا فى القلوب فارتبطت به ، وأحبته من كل نفسها ، وضحت بما تملك فداء لرسالته مما يبين أثر القدوة الحسنة فى النفوس وكيف كانت دعامة قوية فى تربية المجتمع على مبادىء الاسلام :

هذا سعد بن الربيع أحد هؤلاء المقتدين بالرسول الكريم والمحبين له يقول زيد بن ثابت رضى الله عنه •• فيه •• « بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد أطلب سعد بن الربيع فقال لى : ان رأيته فأقرئه منى السلام وقل له يقول لك رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف تجدك؟ قال : فجعلت أطوف بين القتلى فأتيته وهو بآخر رمق وفيه سبعون ضربة ما بين طعنة رمح ، وضربة سيف ورمية سهم فقلت : ياسعد ان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ عليك السلام ويقول لك أخبرنى كيف تجدك ؟ فقال : وعلى رسول الله صلى الله عليه وسلم السلام قل له يارسول الله أجد ريح الجنة •• وقل لقومى الأنصار : لا عذر لكم عند الله ان خلص الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيكم عين تطرف وفاضت نفسه من وقته [١٧] » ••

وهذا سعد بن معاذ يقول قبل بدر لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن نفسه وعن الأنصار : صل من شئت واقطع حبل من شئت وخذ من

---

(١٦) الرسالة المحمدية للسيد / سليمان الندوى ص ٩٣ — ٩٥ .

(١٧) زاد المعاد جـ ٢ ص ٩٦ .

أموالنا ما شئت واعطنا ما شئت وما أخذت منا كان أحب الينا مما تركته وما أمرت فيه من أمرنا فأمرنا تبع لأمرك فوالله لئن سرت حتى تبلغ البرك من غمدان لنسيرن معك والله لئن استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك (١٨) » ..

وهذه أم حبيبة ابنة أبى سفيان بن حرب وقد جاء والدها الى المدينة وهو على الكفر ودخل عليها فى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله طوته عنه ! فقال : يا بنية ما أدرى أرغبت بى عن هذا الفراش أم رغبت به عنى : قالت : بل هو فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنت رجل مشرك نجس (١٩) بل ان هذا الحب الذى استولى على القلوب دفعها أن تبذل فوق طاقتها حين رأت من رسولها خير قدوة للوجود .. هذا عمرو بن الجموح أعرج شديد العرج وله أربعة بنون شباب يغزون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا غزا يأبى الا أن يتوجه الى أحد فيقول له بنوه : ان الله قد جعل لك رخصة فلو قعدت ونحن نكفيك وقد وضع الله عنك الجهاد .. فيذهب عمرو الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يشكو اليه أمر أبنائه ويقول : ان بنى هؤلاء يمنعوننى أن أخرج معك ووالله انى لأرجو أن أستشهد فأطأ بعرجتى هذه فى الجنة فيقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ أما أنت فقد وضع الله عنك الجهاد وقال لبنيه : وما عليكم أن تدعوه لعل الله عز وجل أن يرزقه الشهادة ، فخرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ فقتل يوم أحد شهيدا (٢٠) ..

---

(١٨) زاد المعاد جـ ٢ ص ٨٦ .
(١٩) ابن هشام جـ ١ ص ٢٦٥ .
(٢٠) زاد المعاد جـ ٢ ص ٩٦ .

أمثلة لما تصنعه القدوة الحسنة — لو أردنا ان تتنسم عبيرها ونستعيد ذكرياتها لاحتاج الأمر منا الى صفحات ،وهذه كتب السير والتراجم شاهدة بما أحدثه هذا التيار النورانى الالهى الذى انبعث من البشير النذير والسراج المنير فى أمة كادت أن تموت فأحياها رسول الله بروح القرآن فاذا هى تبعث من جديد تنفض غبار الزمن وتصنع الحياة والأحياء على خير زاد وأجمل طريق وأروع مسلك . وصدق قول الله فى رسوله الحبيب :

«هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ» (٢١) .

ولقد زكاهم هذا الرسول وطهر أخلاقهم وسلوكهم وعقائدهم ورفعهم من الوهدة الهابطة والضياع القاتل الى القمة العالية فاذا بالأمة الأمية رائدة وقائدة تفيض حكمة نابعة من الكتاب الخالد الذى شربت كئوسه من هذا الذى بعث من نفسها فأحياها وقد كانوا من قبل فى ضلال مبين .. وليس بعد الضلال والعماية والجهالة خلق هابط يوصف به الانسان وليس بعد الطهر والتزكية والرفعة والحكمة والعلم خلق رفيع يتشرف به البشر وهذا ما صنعته القدوة الفريدة التى تمثلت فى رسول الله صلى الله عليه وسلم .. وكانت هذه القدوة أول الطريق فى منهج التربية القرآنية لغرس الأخلاق الفاضلة وتهذيب السلوك المعوج .. ولهذا أمر الله المؤمنين باتباع الرسول وطاعته وجعل هذا علامة الحب لله فقال :

---

(٢١) الجمعة ٦٢/٢ .

« قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * قُلْ أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ »[٢٢].

كما جعلها سبيل الفلاح وطريق الهداية فقال :

« فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ * قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ »[٢٣].

وعاتب الله الذين تعرضوا لدعوة الناس الى الخير حين كانوا مثلا سيئا لقومهم فقال لبنى اسرائيل :

« أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ »[٢٤].

---

(٢٢) آل عمران ٣/٣١ ، ٣٢ .

(٢٣) الأعراف ٧/١٥٧ ، ١٥٨ .

(٢٤) البقرة ٢/٤٤ .

وجعل من أكبر الكبائر أن يقول الانسان مالا يفعل لأنه بذلك يكون مثلا سيئا وقدوة فاسدة للناس :

قال تعالى :

« يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَالاَ تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ ٱللهِ أَن تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ »(٢٥) .

ولا عجب ان ينجح الاسلام فى تربيته ، وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الى الله بفعله قبل قوله ويعلم الناس بسلوكه ونهجه فى الحياة قبل أن ينطق لسانه : اشتهر بين أهله بالأمانة حتى لقبوه بالأمين وبالبعد عن الفواحش حتى انه أراد أن يسمر مع شباب مكة ــ وذلك قبل أن يوحى اليه ــ فما ان أتى حتى ضرب الله عليه النوم فما أيقظه الا مس الشمس .. وعاش بعد الرسالة على الكفاف حتى نام على حصير قد أثر فى جنبه الشريف وكان يمر الهلال ثم الهلال ثم الهلال ثلاثة أهلة فى شهرين وما يوقد فى بيته نار ، وقد عرضت عليه الجبال أن تكون ذهبا فأبى ..

ومع ايذاء قومه وحربهم اياه كان يقول : اللهم اهد قومى فانهم لا يعلمون ..

وحين أمكنه الله من رقابهم وفتح مكة سألهم فى مودة : ما تظنون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : خيرا .. أخ كريم وابن أخ كريم .. قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء ..

---

(٢٥) الصف ٦١/٢ ، ٤ .

وهكذا لا تجد خصلة من خصال الخير الا وقد تمثلت فيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فكان بهذا دالا على ربه فى صدق واخلاص .. وبهذا استطاع أن ينفذ الى القلوب فيقودها الى ماشاء الله لها من الرفعة والكرامة ..

وما زال تاريخه المشرق الذى سجله أصحابه ، وجمعه الافذاذ من العلماء موضع القدوة والتأسى ، كما هو زاد لكل من أراد زادا . ومنهج لصناعة الانسان واعادة تشكيله من جديد ..

٣ ـ بين الترغيب .. والترهيب :

رسول الله صلى الله عليه وسلم قدوة الانسانية ومرشدها الى ربها بحركته وسمته وفعله .. لكن القدوة الصالحة قد لا ترتقى اليها بعض النفوس فتظل غافلة جاهلة لا تتأدب بأدب ولا تنتهى عن منكر ..

فهل من محرك يثير هذه النفوس الراكدة ويدفعها الى التخلق بأجمل الصفات :

هنا تأتى الموعظة التى تطرق القلب وتشد رغائب الانسان وترتقى به الى أعلى منزلة وتهديه الى الخير وتبين له مزاياه .. وتقرع مشاعره وتضعه فى موقف الخوف والرهبة وتصهره بكل ألوان التعذيب والتضييق والتنكيل وتذكره بما ينتظره فى يوم آت قريب اذا ما وقع فى الشر وأصر عليه .. فتتطابق القدوة بما ترسمه فى شخص القائد من الالتزام بالخير والبعد عن الشر وما يبدو عليه من شارات الهداية والنور مع التربية بالمواعظ والتذكير واستثارة العزائم ودفعها بالخوف والرجاء ، وبالقدوة والموعظة يتربى الانسان على الأخلاق الفاضلة .

وكتاب الله حافل بهذا اللون من التربية كما قال منزله :

« وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ »[٢٦] .

وكما قال :

« وَذِكْرَىٰ لِأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ »[٢٧] .

والرسول مأمور بهذا التذكير .. قال تعالى :

« وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ »[٢٨] .

وقال تعالى :

« فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ »[٢٩] .

لذلك لا تجد خلقا حميدا الا وحث عليه القرآن ولا تلقى خلقا سيئا الا نهى عنه .. وفى كل ذلك لا ينسى قاعدته الكبرى التى أقام عليها كل أوامره ونواهيه ألا وهى الايمان بالله واليوم الآخر .. وبين الجنات والخلود والأمان والرضاوالسلام والنعيم المقيم ..والنار الموقدة والعذاب والهوان والشقاء فى الدنيا والتعاسة فى الآخرة .. بين هذا وذاك يضرب القرآن على أوتار القلب المشدودة من هنا بالخوف ومن هناك بالرجاء فتصدر عنها أنغام متناسقة ليس فيها نغمة نشاز انما هو الاحكام فى كل تصرف والارتباط بكل خير والابتعاد عن كل شر ..

---

(٢٦) آل عمران ١٣٨/٤ .

(٢٧) غافر ٥٤/٤٠ .

(٢٨) الذاريات ٥٥/٥١ .

(٢٩) الغاشية ٢١/٨٨ .

هذا خلق السخاء : ينبع من داخل النفس حين فجر القرآن ينابيع اليقين والثقة فى فضل الله وحرر الانسان من ربقة المال .. ولذا جادت اليد بالعطاء سرا وجهرا لا تخاف الا الله وحده :

« إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا * إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً »(٣٠).

انظر لتربية القرآن وهو يربى النفس على هذا الخلق ويضعها بين الخوف والرجاء فيصور الانفاق الخالص لوجه الله بهذه الصورة النامية:

« مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَٱللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ »(٣١).

ولم لا ينميه الله وهو قد جعله قرضا له فقال :

« إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا ٱللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ »(٣٢).

ومع هذا النماء والبركة مغفرة للذنوب وأمان فى الحاضر وثقة فى المستقبل فلا هم ولا خوف ولا حزن للأسخياء المنفقين قال تعالى :

---

(٣٠) الانسان ٩/٧٦ ، ١٠ .

(٣١) البقرة ٢/٢٦١ .

(٣٢) الحديد ١٨/٥٧ .

« ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » (٣٣) .

وهل يخاف أو يحزن من يتاجر مع الله ‥ وما أكرمها من تجارة ‥ ان الفضل والخير والربح الوفير ‥ والمساكن العالية فى جنات عدن ‥ والنصر المبين ‥ والعزة والسيادة لأمثال هؤلاء ، قال تعالى :

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ * وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ » (٣٤) .

وهذه تجارة رابحة حقا قال تعالى :

« إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ * لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ » (٣٥) .

---

(٣٣) البقرة ٢٧٤/٢ .
(٣٤) الصف ١٠/٦١ — ١٣ .
(٣٥) فاطر ٢٩/٣٥ ، ٣٠ .

وهذا السخاء الذى غرسه القرآن مبرأ من شهوات النفس وتعاليها وتفاخرها انما هو الاحساس بالأخوة الانسانية وتكاليفها وما تفرضه على الجماعة الاسلامية من أخذ القوى بيد الضعيف ووقوف القادر بجانب المحتاج العاجز .. فان تسرب الى هذه النفس التى يربيها القرآن هوى من رياء أبطل هذا الانفاق .. وكتاب الله يصور ذلك بصورة فذة مستثيرا ايمان المؤمنين وما يستلزمه هذا الايمان من الاخلاص فيقول :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَـٰتِكُمْ بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَالَّذِى يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْاخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ » *

ويعرض الوجه الآخر للانفاق الصحيح فى هذا المثل فيقول :

« وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ٱبْتِغَاءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » (٣٦).

وفرق شاسع بين الحجر الذى لا ينبت ولا يتحرك ولا يستفيد منه أحد ، والتربة الخصبة النامية المخضرة ذات الجنات الوارفات ، فيها الخير

(٣٦) البقرة ٢/٢٦٤ ــ ٢٦٦ .

وفيها النماء وفيها الحياة .. وهى صورة مشرقة تدفع الانسان الى بذل ما ملكت يداه ، بل بذل روحه فى سبيل الله ..

بل ان القرآن يصور هوى النفس بتلك الصورة المفزعة .. فهوى النفس الذى يفسد على الانسان عمله وما بذل فيه لا يفترق عن الاعصار العاصف الذى يأتى على مازرع الانسان فلا يبقى له أثرا .. فماذا يكون شعور الانسان اذا رأى جنته التى جمعت كل الثمر وأصبحت له ولأولاده الضعفاء قوتا ورزقا وهو قد بلغ به الكبر أقصاه ولكن تلك الجنة قد هلكت ؟ انه هوى النفس الذى يبطل ثواب الانسان ، ويتركه للندم والحسرة يقول القرآن :

« أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ »(٣٦) .

ومع هذا الترغيب يكون التخويف من الصفة المقابلة للسخاء تأكيدا للسخاء وحثا عليه .. والصفة المقابلة له هى : « البخل » وهو من أخطر أمراض النفوس لذلك يتعهده القرآن بأدويته الناجعة حتى يبرأ القلب من أذاه ..

وأول سؤال للبخلاء فى تربية القرآن : لم تبخل ؟ هل خوف من المستقبل ؟ أم خوف على المال ؟ أم حب فى كنزه ؟ خشية الفقر لا ينجيك

---

(٣٦) البقرة ٢٦٦/٢

منها بخلك ، فكم من مقل فقير أغناه الله ، وكم من غنى واسع الثراء أفقره الله ؟ والحياة شاهدة بذلك قال تعالى :

« أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ »[٣٧] .

حرصك على مابين يديك وشحك بالعطاء حبا لهذا المال جهل لا يتناسب مع الواقع ـ فنظرةالى الدابة الضعيفة وكيف يسوق‌الله اليها رزقها كفيلة أن تدرك الى الصواب لو اعتبرت ، قال تعالى :

« وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ »[٣٨] .

والمال الذى كنزته وبال عليك اذا لم تؤد حق الله فيه انك ستكوى بما جمعت وستعذب به العذاب الأليم ..

قال تعالى :

« وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ »[٣٩] .

---

(٣٧) الروم ٣٠/٣٧ .

(٣٨) العنكبوت ٢٩/٦٠ .

(٣٩) التوبة ٩/٣٣ ، ٣٤ .

وأنت فى الواقع مرزوق ولست رازقا ومحتاج ولست مانحا قال تعالى :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ »(٤٠) .

وبخلك عائد عليك قال عز وجل :

« هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا أَمْثَـٰلَكُم »(٤١) .

وقال تعالى :

وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَـٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ »(٤٢) .

وبعد .. فهذا مثال لخلق واحد من أخلاق القرآن وهو السخاء .. رأينا كيف عالجه هذا المنهج الربانى بطريق الترغيب فيما عند الله من حسن

---

(٤٠) فاطر ٣٥/١٥ .

(٤١) آخر « محمد » ٤٧/٣٨ .

(٤٢) آل عمران ٣/١٨٠ .

الجزاء ، والترهيب فيما ينتظر البخلاء من سوء المصير وذلك بعد تصفية النفس وتطهيرها من حرصها وشحها ، قال تعالى :

« وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ » (٤٣)

ومثال آخر من أخلاق القرآن .. الشجاعة ..

ولقد استطاع القرآن ــ بمنهجه ــ أن يربى أجيالا من المؤمنين اندفعت الى ساحات القتال طوعا لا كرها .. ليس فيهم الا من يود أن يتشرف بلقاء الموت ويوارى جسده فى تراب المعركة ويكفن فى ثياب الجهاد ويحظى بالشهادة فى سبيل الله .. حتى زلزلوا معاقل الظلم فى أنحاء الأرض فهوت تحت أقدامهم شاهدة بما فيهم من بسالة وقوة فاقت ما عرفته الدنيا كلها من صور البطولات ..

كيف تربت هذه النفوس ؟ وكيف غرس القرآن فى أعماقها هـذا الخلق المتين الذى تمكن به من حماية الحق ونصرة الضعاف ونشر الأمان لكل الناس ؟؟ ..

لقد وضع النفس بين الخوف والرجاء .. وبين الرغبة والرهبة .. وأخذ يسائلها ويقررها حتى خلصها من ضعفها وعجزها وجبنها .. ثـم ربطها بحبله القوى وعصمها من الانحراف والميل مع الهوى ..

الموت ! غاية كل حى قال تعالى :

« كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ ٱلْمَوْتِ » (٤٤)

---

(٤٣) الحشر ٥٩/٩ ، التغابن ٦٤/١٦ كما يـــراجع فقرة : الزكاة وتطهيرها للنفس فى هذا الباب .

(٤٤) آل عمران ٣/١٨٥ ، الأنبياء ٢١/٣٥ .

لا مهرب منه مهما كانت وسائل النجاة قال تعالى :

« أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ »(٤٥)

لا يرتبط بصحة أو مرض أو كبر فى السن أو صغر فيه قال تعالى :

«وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ ٱللهِ كِتَٰباً مُّؤَجَّلاً»(٤٦)

وقال :

« وَمِنكُمْ مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا »(٤٧)

وقال :

« وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللهُ نَفْساً إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا وَٱللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ »(٤٨)

واذن : فلم يحيا الانسان جبانا ؟؟

ما يدافع عنه أهل الايمان مصدر قوة وعزة وما يقاتل من أجله الكافرون باطل وطغيان وظلم :

---

(٤٥) النساء ٧٨/٤ .

(٤٦) آل عمران ١٤٥/٣ .

(٤٧) الحج ٥/٢٢ .

(٤٨) المنافقون ١١/٦٣ .

قال تعالى :

«ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ فَقَـٰتِلُوٓا أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَـٰنِ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَـٰنِ كَانَ ضَعِيفًا »(٤٩)

فالباطل مهما عظم صغير ومهين أمام صولة الحق وبطشه :

« قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ »(٥٠)

وتحت راية الحق تحلو التضحية ويلذ الموت ..

واذا كانت نفس الانسان تحن الى الخلود لأنه من غرائزها المكنونة وكان التعلق بالخلد سببا جعل آدم ينسى عهده مع ربه حين أغواه الشيطان وحرك فيه هذه الغريزة : غريزة حب البقاء فقال له ماحكى الله عنه :

« هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ »(٥١)

فان القرآن استغل هذه الغريزة ووجهها الى الزود عن حياض الحق وجعل الموت فى سبيل الله طريق الخلود قال تعالى :

« وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَـٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ »(٥٢)

---

(٤٩) النساء ٤/٧٦ .
(٥٠) التوبة ٩/١٤ ، ١٥ .
(٥١) طه ٢٠/١٢٠ .
(٥٢) البقرة ٢/١٥٤ .

وقال :

« وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ »(٥٣)

والصفقة الرابحة بيع لحم وشحم تأكله الأرض والديدان بجنة عرضها السموات والأرض قال تعالى :

« إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ »(٥٤)

وقال :

« فَلْيُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَن يُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا »(٥٥)

---

(٥٣) آل عمران ٣/١٦٩ ، ١٧٠ .
(٥٤) التوبة ٩/١١١ .
(٥٥) النساء ٤/٧٤ .

ومع الرحمة والرضوان والنعيم المقيم والخلود الأبدي والفوز العظيم .. ومع الهداية واصلاح البال وتلك الظلال الوارفة يحيا المجاهدون قال تعالى :

« ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ * يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ * خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ » (٥٦)

وقال :

« وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ * سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ * وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِن تَنصُرُوا ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ » (٥٧)

ومع هذا الترغيب الذي يثير شوق القلوب الى بذل الغالي والنفيس يكون الترهيب من الجبن والقعود عن الجهاد : اذ ان القعود ليس وسيلة النجاة قال تعالى :

« ٱلَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَٱدْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ » (٥٨)

---

(٥٦) التوبة ٩/٢٠ – ٢٢ .
(٥٧) محمد ٤٧/٤ – ٧ .
(٥٨) آل عمران ٣/١٦٨ .

والتخلي عن الجهاد فسوق وعصيان يستحق التهديد الشديد ؟

قال تعالى :

«قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ» (٥٩)

والأمة التى لا تهب للدفاع عن دين الله لا تستحق الحياة لأنها أمة ميتة ولابد أن تزول .. هكذا خاطب القرآن الأمة التى كلفت بنصرة دين الله يوم أن كان هذا الدين نبتة غضة طرية وهكذا يخاطب أتباع هذا الدين فى كل زمان ومكان فيقول :

«يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ * إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ» (٦٠)

---

(٥٩) التوبة ٩/٢٤ .

(٦٠) التوبة ٩/٣٨ ، ٣٩

وغضب الله وعذابه جزاء وفاقا لمن فر من المعركة ولم يثبت فى موطن اللقاء قال تعالى :

«يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ * وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ »(٦١)

فهل بعد هذا التهديد كله يركن مؤمن الى الراحة ويرضى بالتخلف عن ركب المجاهدين ؟ قال تعالى :

« لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا * دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا »(٦٢)

وهل بعد حياة النعيم والخلود والرضوان فى الآخرة .. واصلاح البال والعزة والسيادة فى الدنيا يبقى للانسان مطلب ؟ ..

---

(٦١) الأنفال ٨/١٥ ، ١٦ .

(٦٢) النساء ٤/٩٥ ، ٩٦ .

وهكذا استطاع القرآن عن طريق الترغيب والترهيب أن يستولى على الغرائز البشرية ويوجهها الى ما تأمله ويبتعد بها عما تخاف منه وأن يغرس فيها خلق الشجاعة وغيره من الأخلاق الكريمة الفاضلة ..

ولو شئنا أن نعرض ما فى القرآن من أخلاق كالرحمة والعفو وكظم الغيظ والحب والكره .. والصبر والتوكل واليقين والتقوى والاخلاص والتواضع .. لطال بنا الحديث .. لكن يكفينا من كل هذا أن نعرف أن الترغيب والترهيب مع القدوة الحسنة من وسائل التربية التى استطاع بها القرآن أن يخرج خير أمة فى تاريخ البشرية فما أعظم أخلاق القرآن فانها أخلاق سماوية .. وما أكرم منهجه لأنه منهج ربانى ..

٣ ـ البيئة :

الانسان ضعيف .. هكذا خلقه الله قال تعالى :

« وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا »(٦٣)

لا يثبت أمام الاغراء فسرعان ما ينسى عهده مع ربه .. ولا ينجو من هذا الا طائفة قليلة من الناس هى التى تربت على تقوى الله الا أنها مع هذا لا تنجو من مس الشيطان وكيده وان كانت تتذكر سريعا فتعود الى الله قال تعالى :

« إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ »(٦٤)

---

(٦٣) النساء ٢٨/٤ .

(٦٤) الأعراف ٢٠١/٧ .

ومع شدة حرصها فقد تقع فى الفاحشة ولكنها تؤوب الى ربها قال تعالى :

« وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ * وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ »(٦٥)

فهل هذا الانسان الضعيف فى ارادته وعزيمته كما قال تعالى :

« وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْماً »(٦٦)

تكفيه القدوة التى تمثلت فى رسول الله صلى الله عليه وسلم وتربيه الموعظة بما تحمل من ترغيب وترهيب ؟ ..

---

(٦٥) آل عمران ٣/١٣٣ ـ ١٣٦ .

(٦٦) طه ٢٠/١١٥ .

ان أرسطو بعد الجهد المضنى الذى أقامه بكتابه « الأخـلاق » يختتم صفحاته بعبارات تنم عن الأسف فيقول : « لـــو كانت الكتب والخطب وحدها تكفى لردنـا أخيارا لكانت مطلب الناس الناس جميعا •• ان كل ما فى وسع المبادىء أن تحققه فى هذا الصدد هو ــ لسوء الحظ ــ أن تشد عزم فتيان كرام على الثبات فى طلب الخير وترد القلب الشريف بفطرته صديقا للفضيلة وفيا بعهدها •• (٦٧) » ••

فكيف عالج المنهج القرآني هذا الضعف وشد عزم أتباعه عـلى الثبات فى طلب الخير وجعلهم أصدقاء للفضيلة أوفياء بعهدها وحقق حلم الفلاسفة فى ايجاد هذا الانسان الخير بفطرته ؟؟

انه مع تقديره لما تصنعه القدوة والموعظة لم يغفل أثر البيئة ومـا تتركه فى النفس من انطباعات وانفعالات • انها المدرسة الحقيقية التى يأخذ عنها الانسان عاداته وتقاليده ، وان البيئة الفاسدة تدعو الى الفساد وتجر الى الهلاك وان الانسان ــ لضعفه ــ يندر أن يقاوم عوامل الفتنة والاغراء ومن الصعب تكليفه بالاعتدال والمجتمع الذى يعيش فيه ماخور فسق وحانة فجور •• لذلك أراد المنهج القرآنى •• وهـو يربى خـير أمـة أخرجت للناس •• أن توجد البيئة المناسبة لاخراج هذه الأمة وأن ييسر لها الطريق ويذلل لها عقباته ، ولم يفرض عليها ما فرض من حدود الا بعد أن أصلح لها ما حولها وسد عليها أبواب الشهوات •• وهذه البيئة التى انشأها القرآن •• والتى تمثلت فى المجتمع الاسلامى الأول هى الهـواء النقى الذى يستنشق المسلم فيه عبير الحياة ، فيحس بالنشوة والارتياح فهو حيثما سار وأينما نظر لا يجد الا دوافع الطهر ودواعى العفة ••

---

(٦٧) الفلسفة الأخلاقية فى الفكر الاسـلامى د. أحمد صبحى ص ١٩٦ .

هذه جريمة الزنى .. مثلا .. لا تشيع الا حيث يوجد الانحلال، وتتدهور القيم والمبادىء ، وتنطلق الشهوات من عقالها ، لتحطم ماأقرته الرسالات السماوية من حرمة الأعراض ، وسلامة الانسانية . وحفظ كيان الانسان أن ينزل الى مرتبة الحيوان ..

والقرآن حين أشرق بضيائه على هذا العالم ووجد فيه التبذل والخنا ، ورأى فيه الاختلاط المزرى ، والعورات المكشوفة ، والأجسام العارية . والفواحش المباحة . لم يرد أن يكلف المؤمنين شططا ، ويقيم عليهم حد هذه الجريمة الا بعد أن خلق لهم الجو المناسب ، ولم يترك بابا للشر الا أحكم قفله ، ولم يعد أمام كل فرد فى هذا المجتمع الا التزام هذا الطريق ، فان حاد عنه فقد هلك واستحق ما ينزل به من عقاب :

فقد أمر المؤمنات بأن يسترن أجسادهن حتى لا تكون مثار شهوة وفتنة ، وحتى يحمى المؤمنة من قالة السوء ونظرات المنافقين فقال :

«يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً» (٦٨)

وأمر المؤمنين والمؤمنات جميعا بغض أبصارهم وحفظ فروجهم ولكنه حمى عورات المؤمنات ان تتبذل ، وتبدو أجسادهن لغير من يحل لهن ، حفظا للمؤمنين وحثا لهم على التزام طريق الله فقال :

« قُلْ لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا

---

(٦٨) الأحزاب ٥٩/٣٣ .

فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ * وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » (٦٩)

ويسر طريق الاستمتاع الحلال للشباب فلم يجعل المهر ثمنا للمرأة انما هو عنوان الرغبة فى الزواج قال تعالى :

« وَءَاتُوا ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا » (٧٠)

---

(٦٩) النور ٢٤/٣٠ ، ٣١ .

(٧٠) النساء ٤/٤ .

ومن لم يستطع الزواج بالمرة فليس عليه جناح ان يبتى بملك اليمين

قال تعالى :

« وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَاتٍ وَلاَ مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ » (٧١)

فاذا طلب القرآن من المؤمنين أن يلتزموا العفة بقوله :

« وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِ » (٧٢)

وجدوا طريقها أمامهم سهلا ميسرا ..

---

(٧١) النساء ٢٥/٤ .

(٧٢) النور ٣٣/٢٤ .

وإذا قال :

« ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ »(٧٣)

فهو قدساير الفطرة البشرية وقدر حاجتها وعذرها وحماها قبل ان يقيم عليها هذا الحد قال تعالى :

« يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً * يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفاً »(٧٤)

ولهذا حين نهى عن هذه الجريمة فى وصاياه الجامعة قال :

« وَلَا تَقْرَبُوا ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ »(٧٥)

فلم يجعلها فاحشة واحدة انما جعلها « فواحش » وذلك لأنها لا تقع الا بعد مقدمات ومثيرات ـ كل منها فاحشة : فالنظرات والضحكات

---

(٧٣) النور ٢/٢٤ .

(٧٤) النساء ٢٦/٤ ـ ٢٨ .

(٧٥) الأنعام ١٥١/٦ .

والهمسات واللمسات والاختلاط والعرى ، والتهتك والخلاعة والزينة التى بدلت خلق الله والهاب المشاعر بسياط الشهوات كلها مغريات بالفتن وداعية الى مواقعة المحظور .. والاقتراب .. مجرد الاقتراب .. منهى عنه ، وذلك لعلم الله الذى خلق الانسان .. وهو أعلم بمن خلق .. أن هذا الانسان ضعيف واقترابه من مقدمات الجريمة شباك يقع فيها وقل أن ينجو .. وهو نهى عن الاقتراب من الفواحش كلها ما ظهر منها ومابطن والتزام لطريق الجادة وابتعاد عن كل اسباب الفتنة ودواعيها ..

فهل هذا الوسط الطاهر العفيف يدع فرصة لمسلم لينحرف ؟ .. وهذا ما اراده منهج القرآن حين غرس القيم العالية والأخلاق الرفيعة فى النفوس فجعل للمسلم قدوة فى رسوله وقدوة فى المجتمع الذى يحيا فيه كذلك ، فهو حين يرى أسوة طاهرة ومجتمعا نظيفا طاهرا ومن وراء ذلك كله ايمان بالله يقام عليه بناء عظيم من الترغيب فى متاع الدنيا والآخرة وترهيب من عذاب الله ومقته وغضبه .. يستوى الانسان بشرا مستقيما لا انحراف فيه ..

وحين أدرك أعداء الله ما فى الانسان من ضعف أرادوا أن يدمروا الانسانية ليستولوا عليها فأشعلوا نار الشهوات وألهبوها بالمثيرات — وزيفوا الحقائق باسم الحضارة والمدنية ، وصارت كلمة « الرجعية » سلاحا يشهر فى وجه كل من دعا لاخماد تلك النيران المشتعلة ، واندفعت المجتمعات فى أنحاء الأرض فى طريق الانحلال تروى ظمأها من متع الجنس ولن ترتوى أبدا ..

ولا نجاة للانسان الا اذا عاد لمنهج القرآن وخلق البيئة الصالحة التى تنبت فيها الأخلاق الطاهرة الكريمة ..

٤ ــ الطفولة :

والقرآن الذى ربى القلوب وربطها بمصدر القدوة وتعهدها بالترغيب والترهيب وأنشأ لها البيئة المناسبة لم يغفل أهمية العادة فى حياة الانسان فان من شب على شىء شاب عليه .. وقد يلقى صاحب الخلق السيىء من نفسه شدة وعسرا اذا ما أراد لها أن تستقيم .. وما عاق دعوات الاصلاح شىء كما عاقها عادات المجتمعات وتمسكها بما ورثته عن الآباء والأجداد قال تعالى :

« وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ * قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓا إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِ كَٰفِرُونَ »(٧٦)

وقال :

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ * وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ »(٧٧)

---

(٧٦) الزخرف ٤٣/٢٣ ، ٢٤ .

(٧٧) البقرة ٢/١٧٠ ، ١٧١ .

لهذا كانت خطة التربية القرآنية لتغرس غرسها المبارك أن تتعهد أبناء المجتمع منذ نعومة أظفارهم بالتهذيب والتقويم حتى ينطبع فى وجداناتهم أخلاقيات القرآن وتشع من نفوسهم أنوار الايمان كما يشع الضوء الوهاج على الشمس المشرقة : يقول أحمد أمين فى كتاب الأخلاق : « قوة الحكم الأخلاقى ترقى برقى الانسان فهو يولد وعنده جرثومة الحكم الأخلاقى تولد معه حسب قانون الوراثة ثم ينشأ فى أسرته فيراهم يمدحون أشياء ويذمون أخرى ويكافئون على أعمال ويعاقبون على أخرى فينمو عنده الحكم الأخلاقى بذلك ويتبع أسرته فى مدحها وقيمها ويستحسن من الأشياء ما مدح عليه ويستهجن ما ذم من أجله (٧٨) » ..

والقرآن يستغل ما ركب فى الانسان من حبه لأبنائه مما يجعله يدفع عنهم كل أذى ويتمنى لهم كل خير ونفع .. وليس بعد النار وعذابها وبال يدفع المرء اليه أبناءه .. أنظر الى القرآن وهو يذكر المؤمن بايمانه ويناشده أن ينقذ نفسه وولده وأهله من هذه النيران فيقول :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَـٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ » (٧٩)

ويبين طريق هذه الوقاية فيقول :

« وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ » (٨٠)

---

(٧٨) الأخلاق : لأحمد أمين ص ٣٠ .
(٧٩) التحريم ٦٦/٦ .
(٨٠) طه ٢٠/١٣٢ .

ولعلنا نلمس فى هذا التوجيه الالهى كيف جعل مهمة رب الأسرة أن يأمر أهله بالصلاة وأن يكون قدوة صالحة لهم وأن يواظب عليها ويؤديها كما أمر الله •• أما الرزق وطلبه •• أما السعى الذى يلهى عن دين الله طمعا فى اسعاد الأولاد وتوفير الحياة المستقرة لهم فهذا جهل منه لأن السعادة والأمان فى الايمان الذى يقدمه زادا لأبنائه لا فى ما يوفره لهم من الأموال والمتاع ثم ان المال والرزق فضل من الله فكيف يجود بهما الانسان على غيره « نحن نرزقك » فهو مرزوق وليس رازقا فيجب أن يعلم أن العاقبة الحميدة والنهاية السعيدة لعباد الله المتقين •• نعم مهمة الأب أن يسعى ويكد ويجتهد ليحصل على قوته وقوت أولاده لكن يجب ألا يكون هذا ملهاة تشغله عن انقاذ أولاده من عوامل الفتن فيتركهم دون دين قويم وتربية صالحة رشيدة •• ومنهج الصلاة الذى أمر الله به أولياء الأمور أقوى مناهج التربية وأفضلها وهو الغذاء الروحى الذى يختلط بالحس والمشاعر •• فالطفل يفتح عينيه فيرى أباه وأمه واخوته وأخواته وأهله ذاكرين الله واقفين بين يديه فتنطبع هذه الصورة فى ذهنه ويشب عليها يقول الدكتور محمد عبد الله دراز رحمه الله : « الفطر المرنة القابلة للتطور والترقى يجب أن يعتمد فى تربيتها على ما ينطوى فيها من الصفات الكريمة والمشاعر النبيلة وأن يبدأ فى تغذيتها منذ نعومة أظفارها بالغذاء الأدبى المعنوى اللائق بانسانيتها [٨١] » ••

ولهذا أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نأمر أولادنا بالصلاة لسبع وأن نضربهم عليها لعشر •• فعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مروا أولادكم

---

(٨١) فى الدين والأخلاق والقومية للدكتور محمد عبد الله دراز ص ٢٥ .

بالصلاة وهم أبناء سبع سنين واضربوهم عليها وهم أبناء عشر وفرقوا بينهم فى المضاجع [٨٢] » ..

والصلاة التى يربى عليها المسلم بنيه وأهله تعرفهم كيف تكون تلك الصلاة منهجا متكاملا ينتهى به المسلم عن الفحشاء والمنكر .. كما تعلمهم كيف تكون مبادىء الاسلام وكيف ترفع دعائمه وتقام شعائره وأن ما بين أيديهم من هذه الذخيرة الحية التى تبعث الأحاسيس الميتة وتحيى الأمم من العدم لا تعادلها مبادىء ولا قيم ولا مناهج فيشب الطفل عزيزا قويا كريما واثقا مما معه من الحق وما عند غيره من الباطل .. ومثل هذه الشخصيات الفذة تحتاج الى قوة تعتصم بها حتى لا يغريها ضغط الباطل ولا تفرط فيما فى يدها أمام عتوه وجبروته وانتفاخه .. ولعل هذا بعض ما يفهم من التعبير بالمضارع الدال على التجدد والاستمرار وتأكيد الفعل بالنون واقترانه « بلا » الناهية واختيار أسلوب القصر وذلك فى وصية الأنبياء لأبنائهم : اذ يقول تعالى :

« وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ * أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ » [٨٣]

---

(٨٢) حديث حسن رواه أبو داود باسناد حسن .

(٨٣) البقرة ٢/١٣٢ ، ١٣٣ .

واذا كانت هذه وسيلة التربية القويمة للأبناء كما انتهجها الأنبياء بتوجيه من الله فانها شعار التوجيه الالهى دائما للأمة المؤمنة قال تعالى :

«يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ * وَٱعْتَصِمُوا بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا »(٨٤)

وتكرار هذه العبارة : « ولا تموتن الا وأنتم مسلمون » فى وصايا الحق جل جلالة دلالة على ما يلقاه المؤمن من مشقات وما يفرضه عليه من مجاهدات ليحيا على الاسلام ..

والطفولة التى تربت على الاسلام منهجا وقولا وعملا وقدوة فى البيت والشارع ودور العلم فى معاملاتها وفى مجتمعها هى وسيلة الأمة لتخريج جيل قوى فى أخلاقه نبيل فى قيمه .. رفيع فى مبادئه .. سام فى تفكيره .. وهذا أمل غال يحتاج الى يقظة الفكر وترنو اليه الأمم المتطلعة الى الرقى والتى ترى فى أبنائها لبنات اذا صلحت أقيم عليها أقوى بناء وأجمله ..

ولهذا عرف المسلمون أن تحفيظ القرآن لأبنائهم من الوسائل التى تعين على تقويتهم واعتدال سلوكهم فكان هذا مطلبهم : فالطفل المسلم لابد أن يحفظ قدرا من القرآن الكريم وكثيرون كانوا يحفظونه كله وأولئك هم الذين حفظوا تواتر القرآن وكان لهم حفظه كما قال تعالى :

« إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَـٰفِظُونَ(٨٥) »

---

(٨٤) آل عمران ٣/١٠٢ ، ١٠٣ .

(٨٥) الحجر ١٥/٩ .

ويرى الشيخ محمد أبو زهرة : « أن الطفل فى هذه المرحلة يجب أن يعلم فرائض الاسلام الدينية والخلقية ويحفظ طائفة كبيرة من السنة النبوية التى تتعلق بمعاملة الناس بعضهم مع بعض وبما يتحلى به المؤمن من خلق كريم ، ومع هذه التربية المعنوية يربى على الرماية والسباحة واستعمال السلاح وركوب الخيل وبعبارة عامة يربى على ما يقوى جسمه وخلقه وعقله ودينه وبهذا تتجه التربية الأولى تربية نواح ثلاث : الناحية الدينية والناحية اللسانية والعقلية والاجتماعية والناحية الثالثة هى الناحية البدنية والعسكرية وبذلك تجتمع فى الغلام منذ نعومة أظفاره دين قوى وعقل قوى وارادة قوية وجسم قوى وتكون بها كل المعانى الانسانية قوية متناسقة غير متنافرة [٨٦] » ..

وبعد .. فهذه هى الوسائل التى استطاع بها القرآن خلق جيل قوى يرتاد الطريق حين يرى أسوة صالحة متمثلة فيما عرفه من سيرة رسوله وفيما يرى من حوله فيعرف من أول أمره معنى المبادىء القوية التى تضفى قوة وعزة على من تمسك بها ، وليس بعد هذا النجاح الهائل الذى حققه القرآن نجاح يمكن أن تغرس به الأخلاق الفاضلة فى نفوس الناشئة من الجيل الجديد .

٥ ـ احياء انسانية الانسان :

هذا الجيل العظيم الذى أقر دعائم الأخلاق الالهية ظاهرة فريدة فى نوعها جديرة بالتأمل والبحث .. اذ أن الاسلام حين أشرق بضيائه على ربوع مكة ومن بعدها شع سناه فى أرجاء الأرض وجد أقواما عاشوا فترة طويلة من عمر الزمن تحت وطأة الجاهلية وأثقالها وتعودوا على ما رسمته من نظم للحياة فألفوها ومرنوا عليها .. ربوا عليها أطفالا

---

(٨٦) تنظيم الاسلام للمجتمع للشيخ محمد أبو زهرة ص ١٨١ .

وعاشوا معها رجالا وشيوخا ..لكنهم على حداء القرآن وندائه تغيروا وتبدلوا وكان لهم تلك المنزلة الرفيعة فى اقرار أسمى خلق عرفته البشرية فكيف حدث هذا ؟

أطفال المسلمين الذين نشأوا على الاسلام ودربوا عليه حين يلتزمون بالمنهج القرآنى ويشبون على الأخلاق الاسلامية لا غرابة فى ذلك .. لكن وجه الغرابة فى هؤلاء الذين تغيروا فيما يشبه المعجزة .. فكيف تغيروا ؟

لعل شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يحمله بين يديه من ترغيب وترهيب .. ولعل البيئة الصالحة التى أنشأها الاسلام ورسم معالمها وحى الله الذى تعهد تلك البيئة بتربيته على امتداد ثلاث وعشرين سنة الى أن قال :

« الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً »(٨٧)

وقال :

« وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ »(٨٨)

لعل هذه القدوة الصالحة والبيئة الطاهرة قد أثرت فى أخلاق القوم فنقلتها تلك النقلة البعيدة ..

---

(٨٧) المائدة ٥/٣ .

(٨٨) البقرة ٢/٢٨١ .

لكن مع هذا بقى رعيل عظيم فى صفاته وأخلاقه نبت وسط الأشواك والدموع والفساد الذى بسط أرديته على وجه الأرض فغابت فى ظلمات الشرك ، والجهل ، والكفر بنعمة الله .. نبت هذا الرعيل مع مطلع فجر الوحى وتجسمت فيه صفات الصبر واليقين والتضحية والثقة فى النفس والكرامة الانسانية وتحمل من صنوف العذاب ألوانا ، وما استطاعت قوى الأرض وجبروت الكفر أن يجعل واحدا من هذا الرعيل يتحول عن مبدئه ويتنازل عن ايمانه ، انما كانت تكوى أجسادهم ، وتعذب أجسامهم بل تفيض أرواحهم وهم كالجبال الرواسى لا تميد ولا تضجر .. انما استعذبوا العذاب فى سبيل الله وأحسوا لذة الطاعة والفداء وتقربوا بكل هذا الى اله عرفوه فوحدوه ولم يعبدوا بعده شيئا أبدا .

ومرة أخرى كيف صنعت تربية القرآن هذا الصنف الممتاز من البشر ؟ وكيف نبت فى جو الفساد المعتم القاتم ؟

خلق الله الانسان وفيه استعداد للخير والشر وزوده بالاحساسات والآلات التى يتمكن من استخدامها فى البناء والتعمير كما يتمكن من استخدامها فى الهدم والتخريب .. وتلك القوى الضخمة التى جعلها الله للانسان ليكون خليفة فى الأرض وبها امتاز على سائر المخلوقات تحتاج الى قيادة : فان الخير رفعة والشر ضعة .. والانسان يميل الى الراحة والكسل واللهو والعبث لأنه سهل لا تكليف فيه ، ولا يحب البذل والفداء لأنهما مسئولية وتضحية ، ومن هنا كان النجاح صعبا والرسوب سهلا ، فالأول جهاد ، والثانى قعود وعجز .. والقيادة الرشيدة التى يمسك بها العقل الرشيد تغلب الخير على الشر ، والبذل والعمل على الراحة والكسل ، والنجاح على الرسوب لأن فى الأول منها سعادة وفى الثانى تعاسة وشقاء ..

وهذا هو القرآن يسأل موبخا ومنكرا : لم لا يستعمل الانسان ما أعطاه الله من وسائل يستطيع بها أن يسلك سبيل الخير فى اجتياز مايعترضه من عقبات حتى يصل الى قمة السمو البشرى فيقول :

« أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ * فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ * ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِٱلْمَرْحَمَةِ * أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ »(٨٩)

واذن فالخير يحول دونه عقبة وعقبات ، وهو شاق على النفوس والانسان الذى أراد أن يتخطى العقبة الكئود وموقف الحساب العسير ، والنار الموقدة فلابد له من المجاهدة ولابد له أن يعطى ، وان يتحرر من رق الشهوات ، ويشعر بحاجات المحرومين والبائسين .. وبهذه المجاهدة وهذا التحرر يكون الانسان قد استعمل ما وهبه الله من ملكات وقدرات فيما خلقت من أجله وبهذا وحده تقاس انسانية الانسان والا كان كما قال الحق جل جلاله :

« لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَٰٓئِكَ كَالْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ(٩٠) »

---

(٨٩) سورة البلد ٩٠/٨ — ١٨ .
(٩٠) الأعراف ٧/١٧٩ .

وكما قال :

« أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً » (٩١)

ولأجل أن يصنع القرآن هذا الصنف الممتاز الراقى فى آدميته عمد مباشرة الى هذه الانسانية الكامنة فأحياها والى هذا الخير الدافق فى النفوس فأيقظه فاستوى الانسان بشرا مفطورا على الخير صبورا على المحن ، رحيما بالخلق ، مقداما ، جوادا ..

هذه سورة «الانسان» مثال لهذه التربية : اذ هى تبين أن الله قد خلق الانسان سميعا بصيرا مستعدا للخير والشر اما شاكرا واما كفورا : وهذا الاستعداد المزود بامكانيات الاختيار ابتلاء من الله واختبار لانتصار النور على الظلام والخير على الشر والشكر على الكفران والجحود .. وهنا تتقدم التربية الالهية لتهز الكيان الانسانى وتربطه بالله وحده وتعرض على حسه صورة للعذاب وللنعيم .. الأولى قاتمة مرعبة ، والثانية مشرقة مضيئة .. الأولى ــ بما تحمل من هذا الفزع ــ تقضى على نوازع الشر اذ يقول فيها الحق :

« إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلاً وَأَغْلَالاً وَسَعِيراً » (٩٢)

ومن يطيق استعداد الله وترصده ؟ وأى نفس بشرية تحتمل السلاسل والأغلال والسعير ؟ .. أما الصورة الثانية فهى المتجلية فى هؤلاء الأبرار الأوفياء الذين استحقوا أن يفيض القرآن فى وصف ما هم فيه من نعيم

---

(٩١) الفرقان ٢٥/٤٤ .

(٩٢) سورة الانسان ٧٦/٤ .

مقيم يشوق المرء الى تلك النعمة الرحيمة التى تجلى فيها رضوان الله وكرمه وعطاؤه .

وفى وسط النعيم ومع الكأس والظلال .. والحرير والأرائك والقطوف الدانية والولدان المخلدة والملك الكبير ، والثياب الفاخرة .. ومع التكريم العظيم حين يسقيهم ربهم شرابا طهورا .. مع هذا كله بيان لأسباب النعمة كلها ، والرضا كله ودفع بالانسان أن يتعلق بما اتصف به هؤلاء ليظفر بما ظفروا به ويسعد كما سعدوا .. فهم ما استحقوا هذا الا بعد أن وصلوا الى قمة الرقى الانسانى وتجردوا الى الله وخشعت قلوبهم له ، وخافوا يوم الحساب العسير فهم القائلون :

« إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُوراً * إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً »(٩٣)

وهم وصلوا الى هذا بعد أن صبروا على كيد النفس والشيطان وانتصروا على كل أنواع المغريات فأوفوا بعهدهم من الله وثبتوا على ايمانهم وتحملوا تكاليف العهد ومسئولياته . فحرموا أنفسهم الراحة الجسمانية لينعموا بالراحة الأبدية ..

وبالخوف من الله والصبر فى كل شىء .. قال تعالى :

« فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً * وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً * مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلَا زَمْهَرِيراً * وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ

(٩٣) سورة الانسان ٧٦/٩ ، ١٠ .

ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً * وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَاْ * قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا * وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً * عَيْناً فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُوراً * وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً * عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُوراً » (٩٤)

واذا كانت هذه « لقطة » من سورة الانسان تبينا فيها منهج القرآن فى صناعة هذا النوع الانسانى الفريد من الناس وكانت هـــذه اللقطة « قريبة من أسلوب القرآن فى الترغيب والترهيب » فسورة الانســان مثال رائع لطريقة القرآن فى احياء انسانية الانسان وربطه بالكون وخالقه ومع روعتها فلن ننسى القاعدة الكبرى التى أرسى القرآن دعائمها فلما استقرت فى القلوب حولتها وفتحت بصائرها على الكون بما فيه ومن فيه فشعر الانسان بانسانيته وأحس أنه جزء من هذا الوجود المربوب لرب واحد والعابد لمعبود واحد .. هذه القاعدة الضخمة هى : الايمان بالله ربا مدبرا والها خالقا وسيدا مبدعا .. ومع الايمان بالله ايمان بمـا وراء ذلك من اليوم الآخر والملائكة والكتب والرسل والقدر خيره وشره وارتباط وثيق بالسابقين واللاحقين .

---

(٩٤) الآيات من سورة الانسان ٧٦/٢١ ـ ٢٢ .

وانها لمعان جديدة على أسماع البشر وان كانت قديمة قـــدم الحياة .. وما ان عرضـها رسول الله صلى الله عليه وسلم على الفطر المستقيمة حتى استجابت للنداء .. وبتلك الاستجابة – التى وضعت بذرة الايمان فى النفس – اتسعت مدارك الانسان وامتد أفقه وخرج من حدود الحيوانية والبهيمية وضيق النفوس والصدور الى سعة الانسانية ويسرها وامتداد الحياة وآفاقها .. ورأى بهذا الايمان فرقا شاسعا بين ما كان فيه وما يستمتع به من رحابة الفكر واتساع الكون ... وارتبط حسا وعقلا وادراكا – بالدنيا والآخرة والغائب والشاهد وما يرى وما لا يرى ..

وبهذا الايمان الذى ثبتت أركانه واستقرت جوانبه اســتطاع القرآن أن يغير أخلاق القوم وأن يشدهم الى التحلى بكريم الخصـال وأخذ يشير اليهم الى مظاهر القدرة فى السماء والأرض والانسان والحيوان والبحار والأنهار والنجوم والكواكب وفى كل أمر يقول لهم :

« ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ » (٩٥)

وما ان أحيا كتاب الله هذا الانسان ونفخ فيه من روحه حتى عاد الى فطرته وانتصر على ضعفه واستوى قويا يدافع عوامل الغواية والفساد من حوله . ويترفع عليها ويأباها فى نفسه وفى أهله ويقاومها بكل ما يستطيع .. وليس من السهل على انسان أحياه الله ودبت فيه روح القرآن أن تنتصر عليه قوة فى الأرض أو أن يؤثر فى أعصابه ووجدانه طاغوت من طواغيت الكفر قال تعالى :

« أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى

---

(٩٥) الأنعام ١٠٢/٦ وانظر : وجود الله ووحدانيته فى الباب الأول وما بعدها .

بِهِ فِى النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ »(٩٦)

وبعد ..

فهذه أهم الوسائل التى أخذ بها المنهج القرآنى لغرس أخلاقه فى النفوس وبدأت بالرسول الطاهر الكريم : قدوة الانسانية ورائدها الى الخير .. وتعهدت النفوس بالترغيب والترهيب ، وخلقت البيئة المناسبة التى أتاحت للأفراد التخلق بهذه الصفات .. كما تعهدت الطفولة الناشئة فدربتها وخرجت منها جيلا قادرا قويما ــ وعمدت الى انسانية الانسان فأيقظتها وحركتها ــ وأشرق الكيان الانسانى بنور هذا القرآن فتغيروتبدل وتقدم الحياة والأحياء وهو أشرف مخلوق وأكرم انسان فغمر الكون بالأخلاق الفاضلة والتعاليم السامية والرحمة الشاملة ..

« هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ »(٩٧)

---

(٩٦) الأنعام ١٢٢/٦ .

(٩٧) الزمر ٩/٣٩ .

الباب الثالث

القرآن .. والبناء الاجتماعى

مدخـل :

الفصل الأول :

نظام الأسرة

الفصل الثانى :

التكافل الاجتماعى

الفصل الثالث :

المعاملات المالية

الفصل الرابع :

الحرية

الفصل الخامس :

المساواة

الفصل السادس :

نظام الحكم



« مدخـــل »

الشخصية الايمانية التى رباها القرآن وتولاها بمنهجه ومازال بها حتى غرس فى تربتها عقيدة راسخة فى الله لا تميد فاتصل العابد بالمعبود وشعر الانسان أنه جزء لا ينفصل من هذا الكون الذى يعيش فيه وأن مدبر هذا الكون هو أيضا الذى يدبر أمره ويشرع له فى حياته وما عليه الا أن يتلقى شريعة الله فى نفسه وأهله ومجتمعه بالقبول والرضا والاصرار على التنفيذ والاعتقاد فى سمو مصدرها ، وشرف مقصدها ، واحاطتها بكل أسرار النفوس واصلاحها لكل مجتمع مهما تغير الزمان وتبدلت الأيام .

وعلى هذه العقيدة يقيم منهج القرآن بناء أخلاقيا يتمثل فى طهارة القلوب من كل أدران الحقد والحسد وسوء النية ويتمثل فى طهارة الألسنة من الفحش فى القول ، والجهر بالسوء ، والغيبة ، والنميمة ، ويبدو مظهره فى طهارة الصلة التى ربطت بين المسلم وكل من يلقاه . فالأمانة ، والصدق ، والتسامح ، والكرم ، والنجدة ، والشهامة ، والمروءة ، والاحساس الرقيق الرحيم بحاجة الناس وضعفهم ، وكثير من الأخلاق التى تمكن القرآن أن يغرسها فى النفوس نبعت من أشرف منبع وأطهره : نبعت من ايمان بالله يرجى ثوابه ويخشى عقابه : يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ..

ومثل هذا الانسان الذى تناولناه فى الباب الأول والثانى ورأينا كيف تربى عقائديا وخلقيا هو اللبنة الصالحة التى تكون منها وبها البناء الاجتماعى الذى بدأ فى صورة مجتمع الاسلام وفى صورته الختامية بعد ان استقرت أحكامه وانتظمت حياته وتمت عليه نعمة ربه قال تعالى :

« الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً » (١)

واذا كنا فى هذا الباب بحاجة الى دراسة هذا البناء العظيم فى وضعه المستقرة بعد أن أصبح مجتمعا له صفاته المميزة فانا بذلك نرى لونا جديدا وفريدا كذلك فى الطريقة التى أخرج بها كتاب الله هـذا المجتمع الى الوجود لكنا فى هذه الدراسة لا نستطيع أن نغفل العقيدة والأخلاق فهما خطان متلازمان يرتبط كلاهما بالآخر ويسريان فى كل صـورة يقيمها القرآن لمجتمعه صغرت أم كبرت •• وسواء فى المجتمع الصغير فى الأسرة أم المجتمع الكبير فى الأمة فكلاهما جزء لا ينفصل عن جميع مظاهر أى بناء اجتماعى باعتبار أن الانسان الذى تمثلت فيه العقيدة والأخـلاق جزء لا ينفصل من أمته •• ولعل هذا يبدو واضـحا فى تناولنا لهـذا المجتمع حين نرى تخطيط القرآن له ، وفى كل خطة يرسمها يربط خيطها بالايمان بالله ، ويحيطها بسياج متين من الأخلاق •

واذا كان مفهوم البناء الاجتماعى عند علماء الاجتماع « يتضمن مبدأين أساسيين ومتكاملين : الأول هو مبـدأ الاستمرار فى الـزمن ويصدق ذلك على الجماعات وعلى العـلاقات الاجتماعيـة التى تؤلف البناء الاجتماعى ، فالجماعات الكبيرة التى تحتفظ لعدة أجيال بكيانها وبهيكلها العام ونظام تقسيماتها الداخلية ونمط علاقاتها بعضها ببعض تعتبر وحدات بنائية فى نظر كل علماء الاجتماع ، والأنثربولوجيا بغير استثناء ، وذلك بعكس الزمر الاجتماعية المؤقتة أو السريعة الزوال التى يتفق معظم العلماء على اخراجها من البنـاء الاجتماعى وبالمثـل تعتبر العلاقات الدائمة التى تقوم بين هذه الجماعات علاقات بنائية وتعبر عن

---

(١) سورة المائدة ٣/٥ •

مواقف بنائية ، والمبدأ الثانى هو أن العلاقات الثابتة المستمرة التى تقوم بالضرورة بين الجماعات المتماسكة التى ينقسم اليها المجتمع تتخذ شكل أنساق ونظم تلعب دورا هاما فى الحياة الاجتماعية أو يقول آخر تؤدى وظيفة اجتماعية معينة كما هو شأن علاقات القرابة والعلاقات السياسية والعلاقات الاقتصادية وهذا معناه أن الدراسات البنائية لا يمكن أن تقف عند حد الاهتمام بالظواهر الاجتماعية من حيث هى كذلك وانما لابد لها من أن تدرس النظم والأنساق التى تتألف بدورها من ظواهر وعلاقات مشخصة ملموسة[٢] .

نعم اذا كان هذا مفهوم البناء الاجتماعى فان الصورة التى نقدمها من كتاب الله سوف تتناول عدة جوانب هامة ، تبدأ بالأسرة باعتبارها تنظيما اجتماعيا يقام عليه نظام الأمة كله . وهى المحضن الرئيسى للأجيال الناشئة ، والخلية الأولى فى البناء الاجتماعى ، كما نرى ألوان التكافل وشمولها للنشاط الانسانى ، وكيف ربط منهج القرآن المجتمع بأقوى رباط وأقدسه ، ولن نغفل جانب المعاملات لما لها من أثر ملموس فى حياة الأمم ... ثم بناء الكيان الانسانى كله على الحرية والمساواة ... وأخيرا ضمانات التنفيذ لتلك التشريعات الخالدة فى حكم اسلامى وحكومة قوية ... وهنا ندرس نظام الحكم فى منهج كتاب الله ونلمس دقة هذا التنظيم الذى صاغته يد القدرة الالهية فبدأ هذا المجتمع فى صورته المشرقة الفذة ، يواجه الحياة ليوجهها الى ما تصبو اليه ، من سعادة ورفعة ... ولذلك لابد من دراسة علاقة المجتمع الاسلامى بغيره من المجتمعات ونظرا لأهمية هذا الموضوع أفردناه بباب مستقل يلى هذا الباب .

---

(٢) البناء الاجتماعى ـ مدخل لدراسة المجتمع ج ١ ـ د. احمد أبو زيد .

أما هنا فلن تخرج عن الخطة الرشيدة لبناء المجتمع الاسلامى فى صلات أفراده الاجتماعية واقامتها على آسس متينة من العقيدة واحاطتها بالأخلاق الفاضلة مما جعل هذه العلاقات نابضة بالحياة مشرقة بضياء القرآن وجعل هذا المجتمع يبدو فى عظمته وسموه حيا متحركا ، والعالم من حوله ميت ينتظر من يبث فيه روح الله :

قال تعالى :

« مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ »[٣] .

---

(٣) سورة هود ٢٤/١١ .

الفصل الأول

نظام الأسرة

١ ــ أساس البناء

٢ ــ الزواج رحمة

٣ ــ الزواج ميثاق وعهد

٤ ــ عشرة خالدة

٥ ــ دعائم السعادة

٦ ــ تباغض موهوم

٧ ــ النشوز ..

٨ ــ الطلاق ..

٩ ــ تعدد الزوجات

(أ) الحرائر

(ب) ملك اليمين والرقيق

١٠ ــ الأصول والفروع



نظام الأسرة

١ ـ اساس البناء :

كتاب الله الخالد يفيض شرحا وتفصيلا .. وهداية فى كل شأن له علاقة بالأسرة ويقيمها على الوضوح الكامل حتى لا يدع مكانا فيها للتصدع .. ولا يترك ثغرة يمكن أن ينفذ منها أحد لهدم هذا الأساس .

ومثل هذا الاسهاب فى بيان أمور الأسرة دليل على أهمية هذا الكيان ووضعه فى المكان اللائق به ، وذلك أنه أساس البناء الاجتماعى كله فاذا ما تطرق اليه الخلل والوهن هوى البناء وضاعت معالمه ، « ان البيت هو المؤسسة التى تدرب فيها كل سلالة أخلافها وتعدهم لتحمل تبعات التمدن الانسانى العظيمة بغاية من الحب والمواساة والتودد والنصح .. فهذه المؤسسة لا تهيىء الأفراد لبقاء التمدن البشرى ونموه فحسب ــ بل هى مؤسسة يود أهلها من صميم قلوبهم وأعماق صدورهم أن يخلفهم من هو خير منهم وأصلح شأنا وأقوم سبيلا .. فالحقيقة التى لا تنكر على هذا الوجه : أن البيت هو جذر التمدن البشرى وأصله وأنه يتوقف على صحة هذا الجذر وقوته صحة التمدن البشرى نفسه وقوته ومن ثم نرى أول ما يهتم به الاسلام ويعتنى به من وسائل الاجتماع انما هو أن يقيم مؤسسة البيت ويقرها على أصح الأسس وأقومها [١] .

وأول ما نلمسه فى منهج القرآن هو غرس الشعور بما للزوجة من منزلة : فهى قطعة من نفس الرجل وجزء لا ينفصل عن تكوينه .

---

(١) نظام الحياة فى الاسلام : لأبى الأعلى المودودى ص ٤٥ ، ٤٦ .

واذا كان القرآن ــ وهو يربى الانسانية ــ يذكرها بأنها ــ بكل أفرادها ــ تعود فى حقيقتها الى أصل واحد ، ونفس واحدة .. وأنها ما تكاثرت واختلفت شعوبا وقبائل لتتعادى وتتناكر وانما لتتعارف وتتآخى ، فانه أراد أن يربط بين الذكر والأنثى برباط التجاذب والتلاقى، والاحساس فى هذا التلاقى بالعودة الى جزء انفصل عن الآخر فترة ثم رجع اليه فى شوق وحنين .. ولعل هذا بعض ما يفهم من افتتاح سورة النساء بهذا البيان :

قال تعالى :

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا » (٢)

.. وسورة النساء ــ كما يبدو من عنوانها وما اشتملت عليه من أحكام هامة فى التشريع الاجتماعى لنظام الأسرة ــ حين تبدأ هذه البداية تؤكد لنا سر خلود الأسرة الاسلامية وأن العلاقة بين أفرادها « ليست صفقة تجارية بين شريكين فى المعيشة ، ولا ضرورة لاسكات صيحات الجسد ، والاستراحة من غوايته الشيطانية ، ولا تسويغ الشهوة بمسوغ الشريعة ، ولا هى علاقة عدمها خير من وجودها اذا تأتى للرجل أو للمرأة أن يستغنيا عنها(٣) » . ولكنها قبل هذا وبعده علاقة انسانية جديرة بالاحترام والتقديس فهى علاقة بين الزوج والزوجة وبين الزوجين والأبناء

---

(٢) سورة النساء ٤/١ .
(٣) الفلسفة القرآنية ــ للعقاد ص ٦٨ ، ٦٩ .

وبين هؤلاء جميعا والأبوين .. الا أنها مع هذه العلاقات المتعددة التى تشكل حجر الأساس فى البناء الاجتماعى وتشمل الزوجين والأبناء والآباء تبدأ فى حقيقتها باجتماع رجل وامرأة فى حياة واحدة ذات هدف مشترك : هو اثراء الحياة بمزيد من الحب والنسل الصالح ..

٢ ـ الزواج رحمة :

.. ولقد جعل القرآن الزواج آية من آيات الله بما أودع فيه من سر المودة والرحمة والهدوء والاستقرار .. وخير ما يعبر عن تلك المعانى قول الله سبحانه ،

« وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » [٤] *

« والسكن » كلمة لها جرس خاص توحى بما تحتاج اليه النفس من الراحة والاطمئنان .. « فلا زواج بغير مودة ورحمة ولا حكمة للزواج ان لم يكن ملاذا يأوى اليه الزوجان معا الى سكن يلقيان عنده أعباء الصراع العنيف فى الحياة الخارجة الى حين وخير الزواج ما استطاع أن يدبر للانسان كهفا أمينا يثوب اليه كلما ألجأته المكاسب والشواغل الى ظلاله وانه ليعيش من الدنيا فى جحيم موصول العذاب ان لم يكن له فيها ذلك الكهف الأمين وذلك الملجأ الحصين .. ومن قديم الزمن هيأت الأمومة طبيعة المرأة لتدبير ذلك السكن وتزويده بزاد المودة والرحمة[٥] ... » ولن ترى أبلغ من تعبير القرآن اذ يقول :

---

(٤) سورة الروم ٢١/٣٠ .

(٥) حقائق الاسلام وأباطيل خصومه ـ للعقاد ص ١٧١ ، ١٧٢ .

« هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ »[٦].

وليس بعد أن يصير كل منهما سترا للآخر يحميه من تقلبات الدهر ويدفع عنه كل سوء .. وبه يتزين الانسان ويبدو أمام المجتمع فى مظهره الحسن الجميل .. ليس بعد هذا رحمة يمكن أن يطلبها انسان فى الحياة ..

والمجتمع الذى ينظر الى الزواج نظرة احتقار وازدراء مجتمع مختل .. والفرد الذى يرى فى الزواج ضياعا وحملا ثقيلا وأن ما فيه من متاع لا يعدو متعة الجسد وهذه يمكن الحصول عليها من طريق سهل لا تكليف فيه .. هذا الفرد فى فطرته عوج وفى طبعه انحراف ، ولن يستقيم لانسان أمر ولن يستقر لأمة نظام وفوضى الجنس تصرف شبابها عن الزواج وتهدم عش الأمان والسعادة وتعده سجنا رهيبا فيه الشقاء والعذاب ..

وكيف تستقيم الحياة بغير الزواج « والعلاقة بين الرجل والمرأة بغير الزواج لا تنتج نسلا واذا أنتجت نسلا لا تنتجه قويا صالحا للالف الاجتماعى الذى يجعل من الأسرة لبنة فى بناء المجتمع .. وان التجربة العملية أثبتت أن الولد الذى يعيش بين أبويه يكون أقوى جسما وعاطفة من الأطفال الذين ينشأون فى الملاجىء[٧] » ..

.. فالنوع الانسانى ليس مجرد سلالة تتكاثر كما يتكاثر الحيوان والطيور وسائر الأجناس انما هو نوع له رسالة : هى الخلافة فى الأرض .. ومن ثم كانت العناية بتربيته حتى يؤدى تلك الوظيفة الجليلة ..

---

(٦) سورة البقرة ٢/١٨٧ .

(٧) تنظيم الاسلام للمجتمع للشيخ محمد ابو زهرة ص ٦٦ .

والزواج الذى أراده الاسلام رحمة بالانسان فردا وأمة .. فهو استقرار .. وتراحم وصلة بين القلوب .. والانسان الذى يجد هذه المعانى فى حياته يعتبر الزواج رحمة وينمو عنده احساس بالواجب والمسئولية وتتسع نفسه لألوان من العواطف والقيم لم تكن لتوجد لولا هذه الصلة .. وأمة تجد عند أبنائها مثل هذا الرصيد الضخم وترى فى أسرها أحضانا أمينة تربى أجيالها على الحب والرحمة وتهيئهم للحياة الاجتماعية السليمة أمة يجب عليها أن تيسر لشبابها سبل الزواج والعفة لأنه لها رحمة أيضا ..

يقول العقاد : « ومن ثم يراد الزواج ــ فضلا عن بقاء النوع ــ لتهذيب النفس الانسانية واستزادة ثروتها من الرحم والرحمة ومن العطف والمودة ومن مساجلة الشعور بين الجنسين بما ركب فيهما من تنوع الاحساس وتنوع العاطفة وتنوع القدرة على الحب والايناس .. ولهذا كان اجتيار الزوجات مقصورا على النساء اللائى يوجدن المودة عن طريق العشرة الزوجية دون غيرها .. فلا زواج بين رجل وامرأة تتصل المودة بينه وبينها من طريق القرابة ومحارم الأسرة .. وكل النساء المحرمات فى الزواج من هذا القبيل ..

« حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن

تَجْمَعُوا بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ ٱللهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً » [٨].

فالغرض من شمول هؤلاء النساء جميعا بالتحريم ظاهر وهو زيادة ثروة الانسان من العطف والمودة وتعويده أن يعرف ألوانا من الشعور غير شعور الذكور والاناث فى عالم الحيوان .. وكل هؤلاء القريبات أو أشباه القريبات قد جعلت المودة بينهن وبين أقربائهن من الرجال فلا موجب لخلطها بالمودة التى تنشأ من العلاقة الجنسية ولا لتعريضها للجفاء الذى يعرض أحيانا بين الأزواج والزوجات[٩] » ..

٣ ـ الزواج ميثاق وعهد :

ولهذه المنزلة الرفيعة التى جعلت الزواج فى نظام الأسرة أساسا للبناء الاجتماعى واعتبرته رحمة تشمل الفرد والمجتمع جاء وحى الله يؤكد تلك الصلة ويربطها برباط قوى متين . فجعلها صلة ميثاق وعهد تأبى النفوس التى يناديها ربها بالايمان أن تنقض هذا الميثاق لأنه ليس ميثاقا سهلا وعهدا يقبل الرجوع بل هو ميثاق غليظ .. ولم لا يكون كذلك وليس بعد أن يفضى الرجل الى المرأة وتفضى اليه تلاق للقلوب وكشف للمستور ؟ .

وهذا بعض ما يفهم من قول الله تعالى :

« وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً[١٠] » .

---

(٨) سورة النساء ٢٣/٤ .

(٩) الفلسفة القرآنية ـ للعقاد ص ٦٩ ، ٧٠

(١٠) سورة النساء ٢١/٤

« فهو استفهام انكارى لمن يحاول أن يأخذ شيئا من المهر بعد أن أفضى لزوجته وأفضت اليه « وأخذن منكم ميثاقا غليظا » •• وفى ترك الفعل ــ أفضى •• هكذا دون ذكر متعلقه ما يبين قدر هـذا العهد : فالكلمة الحانية والنظرة الهادئة واللمسة الرقيقة والعتاب الرقيق والتشاور فى مواجهة الأيام وتدبير المعاش واطلاع كل واحد على ما لا يجوز أن يطلع عليه أب أو أم ، والمباشرة الحلال ، ولذة الأنس المتبادلة ، كـل ذلك وأكثر من ذلك افضاء •• فهو ميثاق ، وميثاق غليظ عند الله وفى واقع الحياة •• يقول الزمخشرى : « والميثاق الغليظ : حق الصـحبة والمضاجعة كأنه قيل : وأخذ الله به منكم ميثاقا غليظـا : أى بافضـاء بعضكم الى بعض ووصفه بالغلظ ، لقوته وعظمه فقد قالوا : صـحبة عشرين يوما قرابة •• فكيف بما يجـرى بين الزوجين من الاتحـاد والامتزاج[١١] » ؟؟ .

وهذه ليست صحبة عشرين يوما أو عشرين سنة انما هى صحبة العمر •• وفى كل لحظاتها تجديد عهد وأخذ لميثاق •• ولو رجعنا الى هدى القرآن نرى على ضوئه مدى قوة هذا الميثاق وصـلته بما بين الزوجين لوجدنا أن القرآن لا يعبر بهـذا اللفظ الا فى الأمور الجليلة ذات الصلة بالعقيدة أو ما اتصل بها قال تعالى :

« وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا[١٢] » .

---

(١١) تفسير الكشاف ــ للزمخشرى جـ١ ص ٣٨٨

(١٢) سورة البقرة ٢/٨٣ .

وقال :

« وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ »[(١٣)]

وفى العهد الذى أخذه الله على الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وينصروه يقول :

« وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ »[(١٤)]

•• وعهد التوحيد وتقريره بين أجيال الانسانية عهد وميثاق أخذه الله على كل الرسل :

« وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا[(١٥)] » .

---

(١٣) سورة آل عمران ١٨٧/٣ .

(١٤) سورة آل عمران ٨١/٣

(١٥) سورة الاحزاب ٧/٣٣ .

ونقض هذا الميثـاق من الأمم كفر بالله يستحق الطرد والابعاد : يقول الله فى بنى اسرائيل :

« وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا ٱلْبَابَ سُجَّداً وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقاً غَلِيظاً * فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً » (١٦).

ويقول فى الكفار جميعا الذين يفسدون فى الأرض :

« وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَٰقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ » (١٧).

أما الوفاء بهذا العهد الالهى فهو أول صفة للمؤمنين المهتدين يقول القرآن :

« أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا ٱلْأَلْبَٰبِ * ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ * وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ

---

(١٦) سورة النساء ٤/١٥٤ ، ١٥٥

(١٧) سورة الرعد ١٣/٢٥

ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ * وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ »[١٨].

الى غير ذلك من الآيات التى تبين أن هذا الميثاق لا يكون الا فى المسائل الهامة ذات الصلة الوثيقة بالله ورسله ..

فاذا ما قال الله للأزواج ان هذا العقد ميثاق غليظ خشعت قلوبهم وعلموا أن هذا أمر خطير لا يقوم على نقضه الا كل جاحد لنعمة الله ، لا يرعى حقوق ربه ولا يعرف لها مقامها الرفيع ..

يقول الشيخ شلتوت : « واذا كان المتتبع لكلمة « ميثاق » ومواضعها التى وردت فيها لا يكاد يجدها تأخذ مكانتها فى التعبير القرآنى الا حيث يأمر الله بعبادته وتوحيده والأخذ بشرائعه وأحكامه فانه يستطيع ــ وقد جاءت فى شأن الزواج ــ أن يدرك عن طريق قريب المكانة السامية التى وضع الله الزواج فيها وجعله فى التعبير عنه صنوا للايمان بالله وشرائعه وأحكامه[١٩] » .

---

(١٨) سورة الرعد ١٣/١٩ ــ ٢١ .

(١٩) الاسلام عقيدة وشريعة للشيخ محمود شلتوت ص ١٥٩ .

٤ ـ عشرة خالدة :

•• وهذا لون آخر من منهج القرآن فى تكوين الأسرة ونظامها لم تصل اليه حضارة أرضية الى يومنا هذا .

•• وهذا اللون يتشكل من عقيدة المؤمنين فى الله واليوم الآخر وأن الحياة طريق واحدة ذات مرحلتين ، أولى : على ظهر الأرض يؤدى فيها المجتمع المؤمن وظيفة الاستخلاف فى الأرض ثم ينتقل بعد الموت الى المرحلة الأخرى وهى مرحلة الخلود الأبدى الأزلى اما فى الجنة أو فى النار ••

وعقيدة البعث والحساب وما فى هذه المرحلة الثانية من المواقف هى مفترق الطرق بين الايمان والكفر كما هى أول دليل على هداية المهتدين قال تعالى :

« ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ * وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ » [٢٠] .

وصلة الرجل بامرأته تنبع من هذا المعين الطاهر فهى ليست صلة أيام أو سنين يقضيانها على هذه الأرض ولكنها عشرة خالدة باقية تمتد مع خطوات الطريق كله وتواكبه فى أولاه وأخراه وتتصل هذه العلاقة

---

(٢٠) سورة البقرة ٢/٢ ـ ٥ .

فى الآخرة كما كانت متصلة فى الدنيا وان كان الحق تبارك وتعالى ينفى عن الزوجة فى الآخرة ما يعرض لها من حيض ونفاس وسوء طبع •• ويجتمع لدى المؤمن زوجاته من الحور العين وزوجته أو زوجاته من نساء الدنيا •• ولكن يجب أن ندرك أنها صلات مبرأة من الأحقاد والضغائن كما هو شأن أهل الجنة جميعا •

قال تعالى :

« وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ »[٢١].

يقول القرآن فى نعيم المؤمنين فى الجنة :

« كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ »[٢٢].

ويقول :

«مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ»[٢٣].

ويقول :

« وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ»[٢٤].

---

(٢١) سورة الحجر ٤٧/١٥ •
(٢٢) سورة الدخان ٥٤/٤٤ •
(٢٣) سورة الطور ٢٠/٥٢ •
(٢٤) سورة البقرة ٢٥/٢ •

•• والمراد بتطهير الأزواج : « أن طهرن مما يختص بالنساء من الحيض والاستحاضة وما لا يختص بهن من الأقذار والأدناس ويجوز لمجيئه مطلقا أن يدخل تحته الطهر من دنس الطباع وطبع الأخلاق الذى عليه نساء الدنيا مما يكتسبن بأنفسهن ومما يأخذنه من أعراق السوء والمناصب الرديئة والمناشيء المفسدة ومن سائر عيوبهن ومثالبهن وخبثهن وكيدهن (٢٥) .

« وذكر عبد الرازق قال أخبرنى الثورى عن ابن أبى نجيح عن مجاهد : « مطهرة » قال : لا يبلن ولا يتغوطن ولا يلدن ولا يحضن ولا يمنين ولا يبصقن (٢٦) » .

وفى تفسير الجلالين : « ولهم فيها أزواج » من الحور العين وغيرها •• « مطهرة من الحيض وكل قذر (٢٧) » . وفى هذا النعيم وتلك الحياة الخالدة يقول القرآن أيضا :

« لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ » (٢٨) .

وينادى المؤمنين :

« يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ *

---

(٢٥) تفسير الكشاف ــ للزمخشرى جـ ١ ص ٢٠٣ .

(٢٦) تفسير القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ص ٢٠٧ .

(٢٧) تفسير الجلالين ــ بهامش تفسير البيضاوى جـ ١ ص ٣٦ .

(٢٨) سورة آل عمران ١٥/٣ .

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ * ٱدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ» (٢٩) .

« وهن الزوجات المؤمنات (٣٠) » .

« يقول عمار بن ياسر رضى الله عنهما فى شأن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها : والله انى لأعلم أنها زوجته فى الدنيـا والآخرة » ذكره البخارى (٣١) .

ويبين الله نعمة هذا الخلود فيقول :

« إِنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَـٰكِهُونَ * هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَـٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ * لَهُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ * سَلَـٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ » (٣٢) .

واذا كانت صلة الايمان قد جمعت هؤلاء فى الجنة فان صلة الكفر بالله قد قرنت بين الكفار وأزواجهم فى الجحيم قال تعالى :

« ٱحْشُرُوا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ * مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ » (٣٣) .

---

(٢٩) سورة الزخرف ٤٣/٦٨ ــ ٧٠ .

(٣٠) الفتوحات الالهية : للعلامة الجمل على الجلالين ص ٩٤ ج ٢ تفسير البيضاوى على الجلالين ص ٢٩٥ ج ٢ .

(٣١) تفسير القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ص ٢٠٦ .

(٣٢) سورة يس ٣٦/٥٧ ــ ٦١ .

(٣٣) سورة الصافات ٣٧/٢٢ ، ٢٣ .

والمقصود بأزواجهم كما قال النسفى ، أشباههم وقرناؤهم من الشياطين أو نساؤهم الكافرات(٣٤) .

لكن يرجح الرأى الثانى : أن الله حين عرض نعيم المؤمنين ليغيظ به الكافرين فى نفس سياق الآيات من السورة قال :

« وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ * كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ » (٣٥).

فحين يتوجه النداء الى المؤمنين بأن يدخلوا الجنة مع أزواجهم المؤمنات تكون حسرة الكافرين حين يؤمرون بأن يحشروا هم وأزواجهم فى النار وهى صورة متقابلة لها مدلولها وايحاؤها فى سياق آيات القرآن الكريم حين يعرض صور الثواب والعقاب .

وهذه الحياة الممتدة تحيط بالأسرة وتجمعها هناك فى الآخرة فاذا بالآباء والأبناء والزوجات قد شملهم هذا النعيم وامتدت صلاتهم أبد الآبدين قال تعالى :

« جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ » (٣٦)

---

(٣٤) تفسير النسفى ج ٤ ص ١٩ .

(٣٥) سورة الصافات ٣٧/٤٨ ، ٤٩ .

(٣٦) سورة الرعد ١٣/٢٣ ، ٢٤ .

وها هم أولاء حملة العرش يستغفرون للذين آمنوا وينادون المولى جل جلاله قائلين :

« رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَٱتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ » (٣٧) .

وعطف الله يشمل كل أفراد الأسرة فيرفع المقصر الى منزلة المؤمن الكامل اكراما لرابطة الايمان التى جمعتهم فى الدنيا ولا ينبغى أن يتباعدوا فى الآخرة .. قال تعالى :

« مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ * وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ ٱمْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ » (٣٨) .

---

(٣٧) سورة غافر ٤٠/٧ ــ ٩ .

(٣٨) سورة الطور ٥٢/٢٠ ، ٢١

قال الزمخشرى : « والذين آمنـــوا معطوف على حور عين أى قرناهم بالحور والذين آمنوا أى بالرفقاء والجلســـاء منهم كقــوله : « اخوانا على سرر متقابلين » فيتمتعون تارة بملاعبة الحور العين وتارة بمؤانسة الاخوان(٣٩) » .

وفى القرطبى : « وعن ابن عباس : ان كان الآباء أرفع درجة رفع الله الأبناء الى الآباء وان كان الأبناء أرفع درجة رفع الله الآباء الى الأبناء فالآباء داخلون فى اسم الذرية كقوله تعالى : وآية لهم آنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون .. وعن ابن عباس أيضا يرفعه الى النبى صلى الله عليه وسلم قال : اذا دخل أهل الجنة الجنة سأل أحدهم عن أبويه وعن زوجته وولده فيقال : انهم لم يدركوا ما أدركت .. فيقول : يارب انى عملت لى ولهم فيؤمر بالحاقهم(٤٠) » .

ورفعة كل الى درجة الآخر تفضل من الله على عباده كما قال تعالى: « وما ألتناهم من عملهم من شىء » . أى « وما نقضناهم من عملهم من شىء بهذا الالحاق فانه كما يحتمل أن يكون بنقص مرتبة الآباء باعطاء الأبناء بعض مثوبتهم يحتمل أن يكون بالتفضل عليهم وهو اللائق بكمال لطفه(٤١) » .

وليس بعد هذه الصلة الوثيقة التى ترتبط مع الزمن فى بدايتـــه وقبل بدايته وبعد نهايته الى الخلود الأبدى يمكن أن تكون هناك صلة أوثق منها تجمع بين الناس .. فهى عشرة خالدة بدأت باسم الله وسارت على هذا الدرب ، فكان الأبناء نتيجة لقاء طاهر حلال بين زوجين بدآه

---

(٢٩) الفتوحات الالهية للعلامة الجمل ج ٤ ص ٢١٥ .
(٤٠) الفتوحات الالهية للعلامة الجمل ج ٤ ص ٢١٦ .
(٤١) تفسير البيضاوى : انوار التنزيل وأسرار التأويل ج ٢ ص ٣٣٨

باسم الله أيضا وذهبت هذه الأسرة بعد أن عبرت القنطرة الفاصلة بين الدنيا والآخرة فاذا بها تتلاقى عند هذا الاله الذى عاشت من أجله وتحركت باسمه وأدت حياتها على هدى من نوره ووحيه : تتلاقى فى ود وصفاء يغمرها النعيم الالهى والكرم الربانى ، وما أقوى هذه العلاقة وما أعظمها من صلات لا تقرب ساحتها ما اخترع البشر من وسائل اللقاء والمحبة والصداقة : فصلاتهم مرتبطة بالأرض وهى تراب وبالدنيا وهى فانية زائلة ، لكن الصلات التى جعلها هدى الله بين أفراد الأسر باقية خالدة لأنها متصلة بالله وحده .. وفرق بين الفانى والباقى وبين الأرض والسماء وبين هدى الله وتفاهات العقول وعجزها .

٥ ـ دعائم السعادة :

هذه الأسرة التى جعلها منهج القرآن أساس البناء ، وأقامها على دعائم الرحمة والسكن النفسى ، ووثق العلاقة بين أفرادها بميثاق وعهد لا ينفصمان بل كانت هذه الصلات أبدية أزلية تمتد مع الحياة بكل مراحلها فى الأولى والآخرة .. مثل هذه الأسرة الجديرة بكل هذا الاهتمام لم تترك لأهواء النفوس وعواصف الأغراض .. ولم تقم العلاقة فيها على التطوع القائم على الفهم لمدى عمق تلك الصلات فحسب ، انما أرسى لها القرآن ــ بجانب هذا الفهم ــ دعائم ثابتة واضحة المعالم وحدد لكل طرف فيها ما له وما عليه من حقوق وواجبات وضمن للجميع حياة آمنة مستقرة استردت المرأة بهذه الضمانات والحقوق المرعية ما سلبته المجتمعات المنحرفة منها من حق الحياة الانسانية الكريمة اللائقة بها باعتبارها بنت وأم وزوجة وعضو من أهم أعضاء المجتمع ، يكون نصف المجتمع الانسانى على امتداده واتساعه ان لم يزد عليه .

.. وأول خطوات الطريق تبدأ من « الخطبة » .

وهي في نظر الاسلام قائمة على اقتناع كل بمــا لدى الآخر من مواهب خلقية وجمالية واجتماعية •• والمزايا الخلقية والاجتماعية يمكن معرفتها عن طريق الاستقصاء لمثل هذه الأحوال •• أما المزايا الجمالية : فان رؤية كل للآخر عامل هام في دوام المحبة ولهذا قال صلى الله عليــه وسلم للمغيرة بن شعبة لما خطب فتاة : « •• هــل نظرت اليها ؟ قال : لا فقال له عليه السلام : انظر اليها فانه أحرى أن يؤدم بينكما[٤٢] » •

••• والنظرة الى المخطوبة حد وسط بين الافراط في الجمود وحجب الفتاة أن يرى منها من أراد الزواج بها ما يرغبه فيها وأن تراه هي حتى تكون على بينة من أمرها • وبين التفريط في الاختلاء والخروج للأماكن الخاصة والعامة دون رقيب مما يؤدي الى كوارث اجتماعية ومساويء خلقية كلها نتيجة الانحراف عن هدى الله وهدى رسوله عليه السلام ••

والخطبة تقوم على المبادىء الاسلامية في محافظتها على الروابط الانسانية فلا تجوز خطبة الرجل على أخيه في الايمان •• « لا يخطب أحدكم على خطبة أخيه[٤٣] » كما لا يجوز خطبة المعتدة ففي ذلك اثارة للعداوة بين الناس •• وربما راجعها زوجها •• ولن تجــد دينا يحفظ الود ويقوم على الوفاء كالاسلام •• لهذا لا يجوز خطبة المعتدة لوفاة زوجها تصريحا • أما التعــريض بذلك فجائز •• وفرق بين التصريح والتعريض •• قال تعالى :

« وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ

---

(٤٢) سبل السلام جـ ٣ ص ١١٣ والحديث رواه الترمذي والنسائي
(٤٣) رواه أحمد والبخاري والنسائي .

وَلَـٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَـٰبُ أَجَلَهُ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ » [٤٤].

•• ومع الاقتناع يكون الاقدام على الزواج ، ويبدأ بالعقد الذى لا اكراه فيه ولا اجبار انما أساسه رضا الطرفين •• وان كان الله قد علم أن الفتاة فى سنها المبكر ربما لا تحسن الاختيار فجعل لها وليا ترجع اليه فى الرأى الا أن هـذا الولى ليس له اجبـارها على الزواج بمن لا ترغب •• روى البخارى : أن فتاة قد جاءت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : ان أبى زوجنى من ابن أخيه ليرفع خسيسته فجعل صلى الله عليه وسلم الأمر اليها فقالت : قد أجزت ما صنع أبى ولكن أردت أن أعلم النساء أن ليس للآباء من الأمر شىء » •

يقول الدكتور عبد الرحمن الصـابونى رئيس قسـم الشريعـة الاسلامية بجامعة حلب : « على أننا نرى مع هذا ضرورة استئذان الولى جمعا بين الأدلة فقد ورد عنه عليه السلام : « أيما امرأة أنكحت نفسها بغير اذن وليها فنكاحها باطل » •• هذا فضلا عما نشـاهده اليـوم من استقلال بعض الفتيات بتزويج أنفسهن وما ينتج عن هذا من نتائج سيئة تعود على الولى والأسرة والمجتمع بالندم والخسران والضرر[٤٥] » •

---

(٤٤) سورة البقرة ٢/٢٣٥ •

(٤٥) نظام الأسرة وحلّ مشكلاتها فى ضوء الاسلام للدكتور عبدالرحمن الصابونى ص ٣٢ •

ويرى الشيخ محمد أبو زهرة ، « أن ليس للزوجة أن تنفرد باختيار الزوج الا اذا أراد الولى مضايقتها وكان الزوج كفئا •• وقد قرر أبو حنيفة : أن المرأة لها أن تنفرد باختيار الزوج وأن تزوج نفسها من غير رضا وليها مادامت بالغة عاقلة[٤٦] » •

وهذا العقد الذى يتم بالايجاب والقبول وبحضور شاهدين وليس فيه توقيت : فما خلق عقد الزواج ليكون مؤقتا ، ولا شرط فاسد ، فأساس العقد يجب أن يكون قويا •• هذا العقد المؤبد المؤكد يسن اعلانه فى المجتمع وبه يتم ميلاد أسرة جديدة تترسم خطا الوحى الالهى الذى جمع كل دعائم سعادة الأسرة فى عبارة واحدة فقال :

« وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ »[٤٧]

فلها حق المهر وهو « منحة تقدير تحفظ حياءها وخفرها يتقدم بها الزوج معبرا عن تقديره اياها ورغبته فى اتمام الزواج بها وقد حثت الشريعة على يسره وعدم المغالاة فيه •• وبه تنشرح الصدور وتقوى الألفة وتطيب الحياة[٤٨] » • قال تعالى :

« وَءَاتُوا ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَّرِيئًا »[٤٩] .

---

(٤٦) تنظيم الاسلام للمجتمع للشيخ محمد ابو زهرة ص ٨٩ .

(٤٧) سورة البقرة ٢٢٨/٢ .

(٤٨) الاسلام عقيدة وشريعة للشيخ محمود شلتوت ص ١٦٧ .

(٤٩) سورة النساء ٤/٤ .

وهذا المهر دين فى ذمة الزوج للزوجة ، لها أن تمتنع عن الانتقال الى بيت الزوجية حتى يقدم لها معجل الصداق •• فان طلقها قبل الدخول والخلوة الصحيحة ولم يسم مهرا وجبت لها متعة لا ارهاق فيها ولا عنت ، فهى على قدر الوسع قال تعالى :

« لَاجُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعاً بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ * وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَافَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْيَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَاتَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ »(٥٠) .

ونظام الاسلام فى هذا ليس له مثيل فهو يخلق من الفشل نجاحا ، ولا يجعل الزواج الذى اعترته مشاكل الحياة فلم يتم وسيلة للعداوة والبغضاء ، انما يسكب عليه رحيقا من المودة والصلة ويلزم الزوج بمتعة أو جزء من المهر اعلانا للأسى والأسف من جانبه •• ولا يدع الزوجة أو وليها دون التذكير بالله وتقواه ، ويندبهما للعفو والاحسان عما لزم الزوج من هذا الحق •• وهو ــ بلا شك ــ عفو القادر المتسامح لا تنازل المكره المضطر الذى أصيب فى عرضه وشرفه •• ويذكر الجميع بالفضل الذى تبقى آثاره : « ولا تنسوا الفضل بينكم » •• ومع هذا

(٥٠) سورة البقرة ٢/٢٣٦ ، ٢٣٧ .

التذكير ارهاب للقلوب عساها أن تخشع منه فتخلص فى اخائها ومودتها « ان الله بما تعملون بصير » . فهو المطلع على السرائر ، يحاسبها عما قدمت وأخرت .

واذا كان حق المهر مؤكدا لها فان الحق الذى لا شبهة فيه أيضا هو : الانفاق عليها واعاشتها وتوفير الحياة المستقرة لها من مسكن ومأكل وملبس .. أما أموالها وممتلكاتها الخاصة فليس لأحد سلطان عليها فى ذلك ، انما لها مطلق الحرية فيما تحت يدها وعلى زوجها توفير متطلباتها وحمايتها والانفاق على أولاده منها .. بل بالغ القرآن فى الزام الرجل بكل نفقة فجعل ارضاع الأم لولدها تطوعا منها لا فرضا عليها .. ومن حقها أن تتقاضى عليه أجرا أو يبحث الأب عن مرضعة لولده قال تعالى :

« وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ »[٥١] .

(٥١) سورة البقرة ٢/٢٣٣ .

وقال جل شأنه :

« وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ * لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا » (٥٢) .

وهذه الآيات وان كانت فى سياق أحكام الطلاق وما يجب للزوجة من رعاية وحماية وأن الزوجة فى ظروفه مصانة مكرمة •• كما هى دائما مصونة مكرمة ــ لا تتحمل نفقة ولد لا ينسب اليها انما ينسب لأبيه ومن واجب هذا الأب الانفاق عليه وعليها فى أثناء الحمل والرضاعة •• لكن هذا التشريع الخالد فريد فى منهجه وما كانت المرأة فى عصر من عصورها تنطلع الى مثل هذا الحق أو قريب منه لولا كفالة الاسلام لكل هذه الحقوق ••

يقول الامام محمد عبده : « هذه الدرجة التى رفع النساء اليها لم يرفعهن اليها دين سابق ولا شريعة من الشرائع بل لم تصل اليها أمة من الأمم قبل الاسلام ولا بعده •• وهذه الأمم الأوربية التى كان من تقدمها فى الحضارة والمدنية أن بالغت فى احترام النساء وتكريمهن ، وعنيت بتربيتهن وتعليمهن الفنون والعلوم ، ولا تزال المرأة فيها دون

---

(٥٢) سورة الطلاق ٦٥/٦ ، ٧ .

هذه الدرجة التى رفعها الاسلام اليها ، ولا تزال قوانين بعضها تمنع المرأة من حق التصرف فى مالها دون اذن زوجها ، ذلكم الحق الذى منحته الشريعة الاسلامية للمرأة من نحو ثلاثة عشر قرنا ونصف قرن ، فلم تبح للرجل أن يأكل من مالها — فضلا عن تملكه والتصرف فيه ، الا اذا كان عن طيب نفس منها « فان طبن لكم عن شىء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا » . وقد كان النساء فى أوربا منذ خمسين سنة بمنزلة الأرقاء فى كل شىء كما كن فى عهد الجاهلية عند العرب أو أسوأ حالا .. الى أن قال : وقد صار هؤلاء الأفرنج الذين قصرت مدنيتهم — ولا أقول دينهم الذى جاء به المسيح — عن شريعتنا فى اعلاء شأن النساء — يفخرون علينا بل يرموننا بالهمجية فى معاملة النساء ويزعم الجاهلون منهم بالاسلام ان ما نحن عليه هو أثر ديننا(٥٣) ... ومع كل هذه الحقوق فلها حق العدل : لا يظلمها ولا يجور عليها انما يعاشرها بالمعروف — واذا كان فى عصمته غيرها وجب عليه أن يسوى بينها وبين غيرها فى البيت والنفقة ، وهو العدل المطالب به من أراد التزوج بأكثر من واحدة وفيه يقول الله تعالى :

« وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ » (٥٤).

---

(٥٣) نقلا عن كتاب الشيخ شلتوت : الاسلام عقيدة وشريعة ص ١٦٧

(٥٤) سورة النساء ٤/٣ .

أما الميل القلبى فلا يمتلكه انسان ولا شىء فيه لــكن بشرط ألا يظهر فى سلوك الزوج فيظلم من لا يميل اليها قال تعالى :

« وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً » (٥٥).

أما الزوج الذى ألزمه وحى الله بكل هذا فله على زوجته « حق الطاعة فلا تخرج من بيته الا باذنه ، ولا تتصرف فى ماله الا باذنه ، وللزوج حق قيادة الأسرة وتوجيهها قال تعالى :

« ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ » (٥٦).

وليس هذا لضعف او انتقاص فى جنس النساء وانما هو التساوى العادل « والتسوية بين الحقوق والواجبات هى العدل الذى فرضــته الفلسفة القرآنية للمرأة وهو وضع المرأة فى موضعها الصحيح من الطبيعة ومن المجتمع ومن الحياة الفردية(٥٧) » ..

وتلك القوامة التى جعلها الله للرجال مشروطة بشرطين : التفضيل فى المواهب والاستعدادات ، والانفاق على الزوجة .. « فالقوامة التى فرضها الاسلام للرجال على النساء هى ــ اذن قيادة يجب أن تتوافر فيها

---

(٥٥) سورة النساء ١٢٩/٤ .

(٥٦) سورة النساء ٣٤/٤ .

(٥٧) الفلسفة القرآنية للعقاد ص ٥٠ .

ما يتوافر فى كل قيادة رشيدة • فالقائد يجب أن يكون أفضل من فى الجماعة التى يقودها وأن يكون أهلا للمسئولية عن قيادتها •• وعلي ذلك يجب أن تتوافر فى قوامة الرجل على المرأة الشروط الآتية :

١ ــ أن يبلغ مبلغ الرجال سنا وادراكا •

٢ ــ أن تتوافر له صفة الفضل أو التفضيل •• فالرجل الفاسد أو المجرم المطارد أو فاقد الحرية لا قوامة له على المرأة الصالحة •

٣ ــ أن يقوم بواجبه فى الانفاق على من يعوله من النساء[٥٨] ••

ومع أن الله قد جعل للرجل حق قيادة الأسرة فانه لم يجعلها قيادة مستبدة انما أقامها على التشاور والتراضى • وعند التنازع لابد من حسم الموقف بكلمة من القائد حتى لا يتهدم البناء •• « فالأسرة المسلمة لا تعرف الاستبداد بالرأى ولا الظلم فى المعاملة ولا الطاعة العمياء بل هناك حقوق وواجبات ، اذ لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق بل الطاعة للشرع فطاعة الزوجة لزوجها ليست لشخصه بل للأوامر والقواعد والنظم التى بموجبها تم عقد الزواج •• وطاعة الزوج ليست من قبيل المن أو العطف بل من قبيل القيام بالواجب [٥٩] » ••

وبهذه الحقوق المتبادلة تقام الأسرة على دعائم قوية وينطلق الزوجان لأداء مهمتهما فى الحياة دون حواجز أو قيود الا ما أقره منهج القرآن من آداب ومبادىء يلتزم بهما مجتمع الاسلام وفى حدود ذلك يكون سلوك الناس العام والخاص وتستطيع الزوجة فى ضوء الاسلام أن

---

(٥٨) حقوق المراة فى التشريع الاسلامى والدولى والمقارن لحسنى نصار المفتش بوزارة العدل ص ١١٣ .

(٥٩) نظام الأسرة وحل مشكلاتها فى ضوء الاسلام للدكتور عبدالرحمن الصابونى ص ٣٦ .

تباشر حقوقها السياسية والاجتماعية والاقتصادية مادامت قد خرجت محتشمة ساترة لجسدها لا تبدو منه عورة ..

ومادام القرآن قد أباح لها أهلية التصرف وندبها الى مادعا اليه الرجال من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والدعوة الى الخير والمشاركة فى الأعمال الصالحة وحضور الجماعات ومجالس العلم وأعطاها أجرها على كل هذا كاملا دون نقص فلا شيء عليها اذا أدت حق زوجها ومجتمعها وتراضى الزوجان على ذلك وانتظمت حياتهما واستقرت أحوالهما .. « وليس من ريب فى أن التعاليم القرآنية والنبوية تهيىء لأولى الأمر فى الدولة وسيلة عقيدية لتنظيم الأمر وجعله فى دائرة الحق والمنطق والآداب من جهة ، ولضمانة تمتع المرأة بحريتها وحقوقها وتعليمها ومشاركتها فى مختلف الشئون السياسية والاجتماعية فى النطاق المرسوم من جهة ، ومواجهة وصد التيارات الغربية الجارفة الهدامة التى تهدد المجتمع الاسلامى من جهة [٦٠] » ..

٦ ـ تباغض موهوم :

ومع هذا البيان الجلى الواضح الذى أرسى به القرآن دعائم الحياة السعيدة للأسرة . فان الأيام وأحداثها ومشاكلها قد تكون سببا فى تنافر ود القلوب ــ وقد يرى الرجل من امرأته ما يغضبه وما لا يستريح اليه من تصرفات وقد يلمس فيها تنكرا وجحودا لكل ما قدم لها من خير ..

وفى الحديث : « أريت النار فاذا أكثر أهلها النساء يكفرن .. قيل : أيكفرن بالله ؟ قال : لا .. يكفرن العشير ويكفرن الاحسان ،

---

(٦٠) المرأة فى القرآن والسنة ومركزها فى الدولة والمجتمع وحقوقها الزوجية المتنوعة وواجباتها وحقوقها وآدابها لمحمد عزة دروزة ص ٢٦٥ .

لو أحسنت الى احداهن الدهر ثم رأت منك شيئا قالت ما رأيت منك خيرا قط .. (٦١) » ..

وأشد ما يثير سخط الانسان أن يرى نكرانا لمعروف صنعه ، وأن يشعر بأن الزوجة التى بذل لها حياته لا تعترف له بجميل .. وأن ترى الزوجة فى زوجها مثل هذا النكران بعد أن أعطته نفسها ، وبذلت له حياتها ، وقامت على تربية أولاده وخدمته خير قيام ، وهو جاحد لهـذا الخير ..

وهنا تتعرض الأسرة لعواصف البغض والكراهة وينفث الشـيطان سمومه ليصل الى مأربه ، ويفصم هذا الرباط المقدس .

فعن جابر رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ان ابليس يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة يجىء أحدهم فيقول : فعلت كذا وكذا فيقول ، ما صنعت شيئا ثم يجىء أحدهم فيقول : ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته فيدنيه منه ويقول: نعم أنت .. فيلتزمه .. (٦٢) » ..

لكن منهج القرآن لا يدع الشيطان يهدم هذا البناء .. فتوجه الى هذه الخواطر التى أثارت الزوجين فاستلها وانتزعها وسكب فى القلوب برد الأمان والسعادة فشكك فى هذه النزعات وعدها من وساوس الشيطان ولفت الأنظار الى طريق الاصلاح وهو العشرة الحسنة بما فيها من الكلمة الطيبة والمودة الحانية والعفو والتسامح وذكر الانسان بقصور علمـه عما فيه صلاحه وخيره .. وكثيرا ما توهم امرؤ أن هذا العمل خير كله

---

(٦١) رواه البخارى .

(٦٢) رواه مسلم .

فاذا به شر كله .. أو أن ما وقع فيه من شر يحز فى نفسه ويحزنها فاذا به باب للخير والسعادة يقول القرآن فى ذلك :

« وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ ٱللهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً » (٦٣).

أمر بالمعاشرة الطيبة التى يقرها العرف النابع من الكرامة الانسانية المكون من هداية الله لعباده ، ثم تشكيك فيما يتسرب الى القلب من بواعث الكراهة والبغض .. فان كرهتموهن .. ثم علة بالخير الكثير على مكافحة تلك البواعث التى تحاول بنزعات الخواطر النادرة أن تنفذ الى القلوب المتحابة فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا(٦٤)

بل ان الانسان فى جملته لا يخلو من الخير ولا يتجرد من كل الصفات الجميلة فاذا أساء انسان فى صاحبه تصرف لا يرتضيه ، وجانب لا يستريح له فلينظر الى كثير من الجوانب المتزنة والأفعال الحميدة وبهذه النظرة الواسعة يشعر الزوجان بالرضا ، ويسكن أحدهما للآخر دافعا ما انتابه من أوهام الشيطان وهواجس النفس .. يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يفرك « لا يكره » مؤمن مؤمنة ان كره منها خلقا رضى منها آخر .. (٦٥)

٧ ـ النشوز :

لكن هذه الكراهة المكبوتة والتى يضطرم أوارها داخل مشاعر الانسان لا تلبث أن تشتعل نارا مهلكة ، وبراكين مدمرة تنسف بناء الأسرة

---

(٦٣) سورة النساء ١٩/٤ .

(٦٤) الاسلام عقيدة وشريعة للشيخ شلتوت ص ١٧٤ .

(٦٥) رواه مسلم .

وتقوضه من الأساس •• فاذا بالهدوء والسكون ثورة وتمرد وعصيان •• « ترى الزوجة غاضبة ثائرة لا تطيع أمرا ولا يقر لها قرار ، وترى الزوج كارها لا يستريح لزوجته ولا يؤدى لها حق الله عليه •• وهو ما سماه القرآن بالنشوز •• ولم يدعه حتى وصف له العلاج الناجع والخطة الرشيدة لمحاصرته والقضاء على أسبابه وبواعثه •• يقول القرآن فى نشوز الزوجة وعلاجه :

« ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيراً * وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَماً مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَا إِصْلَٰحاً يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً » (٦٦) .

وفى نشوز الزوج يقول :

« وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً وَٱلصُّلْحُ

---

(٦٦) سورة النساء ٤/٣٤ ، ٣٥ .

خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً » (٦٧) .

فالزوجة الصالحة مطيعة حافظة لمغيب زوجها فى نفسها وماله ، أما التى يبدو منها عوارض التمرد والعصيان فان الزوج يوجه اليها النصح، ويذكرها بحق الله عليها ، ويبين لها ما فى عصيانها من خطر يهدد حياتهما وحياة أولادهما ، وما يترتب على ذلك من العواقب الوخيمة .. فان لم يجد الوعظ فالهجر فى المضاجع ، وهو عقوبة نفسية تتأدب بها المرأةوليست عقوبة جسدية تحرمها من لذة الجسد بضعة أيام أو بضعة أسابيع ، والا لكانت عقوبة للرجل أيضا .. وهى درس قاس يصيب المرأة فى الصميم : « لأن أبلغ العقوبات هى العقوبة التى تمس الانسان فى غروره وتشككه فى صميم كيانه ، فى المزية التى يعتز بها ويحسبها مناط وجوده وتكوينه ، والمرأة تعلم أنها ضعيفة الى جانب الرجل ولكنها لا تأسى لذلك ما علمت أنها فاتنة له ، وأنها غالبة بفتنتها ، وقادرة على تعويض ضعفها بما تبعثه فيه من شوق اليها ورغبة فيها ..ولن يبطل العصيان بشىء كما يبطل باحساس العاصى غاية ضعفه وغاية قوة من يعصيه(٦٨) » ..

فان لم يفلح الوعظ والهجر فليس الا الضرب . « فانه هو الذى يصلحها له ويحملها على توفية حقه .. والضرب فى هذه الآية هو ضرب الأدب المبرح وهو الذى لا يكسر عظما ولا يشين جارحة كاللكزة ونحوها فان المقصود منه الصلاح لا غير فلا جرم اذا أدى الى الهـــلاك وجب الضمان(٦٩) » ..

---

(٦٧) سورة النساء ١٢٨/٤ .
(٦٨) الفلسفة القرآنية للعقاد ص ٧٤ ، ٧٥ .
(٦٩) تفسير القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ص ١٧٤٢ .

قال الشوكانى : « فان اكتفى بالتهديد ونحوه كان أفضل ومهما أمكن الوصول الى الغرض بالايهام لا يعدل الى الفعل لما فى وقوع ذلك من النفرة المضادة لحسن المعاشرة المطلوبة فى الزوجة الا اذا كان فى أمر يتعلق بمعصية الله .. (٧٠) .. »

والاكتفاء بالتهديد أفضل لأنه من أخلاق الكرماء وفى ذلك يقول الرسول عليه السلام : منفرا من الضرب : « يعمد أحدكم فيجلد امرأته جلد العبد فلعله يضاجعها من آخر يومه .. (٧١) » ..

ومع هذا فان الضرب الذى أباحه القرآن لا يتنافى مع المودة والرحمة : « ولم ينفهما فيما هو أمس الأمور بالمودة والرحمة وهو تربية البنين وتربية المتعلمين .. وتخويل رب الأسرة حق التأديب بدل من أحوال كثيرة كلها غير صالح وكلها غير معقول فى شئون القوامة البيتية : فاما أن يكون لرب الأسرة هذا الحق فى معظم الشئون البيتية واما أن يستغنى عن التأديب فى الأسرة ، أو يوكل التأديب فيها الى دور الشرطة والقضاء فى كل كبيرة وصغيرة تعرض للزوجين على الرضا والغضب والجهر والنجوى .. هذا أو يكون التأديب المسموح به ان ينصرم حبل الزواج وأن ينهدم بناء البيوت على من فيها من الآباء والأمهات والبنين(٧٢) » .. فاذا اشتد النزاع واتسعت هوة الخلاف ولم ينفع وعظ ولا هجر ولا ضرب وفشلت كل الأساليب وقاربت الأسرة الهوة الخطرة . ووهى حبل المودة أصبح من واجب المجتمع أن يتدخل ليحول بين سقوط هذا الحجر من بنائه الاجتماعى . ويتحمل هذا الواجب الحاكم الذى اختارته الأمة

---

(٧٠) نيل الأوطار جـ ٦ ص ١٣٣ .

(٧١) متفق عليه ..

(٧٢) حقائق الاسلام وأباطيل خصومه للعقاد ص ١٧٣ .

فينتدب لذلك حكما من أهل الزوج ، وحكما من أهلها فى محاولة لاصلاح ما فسد .. قال تعالى :

« فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُمَا » [٧٣] .

قال البيضاوى : فابعثوا أيها الحكام متى اشتبه عليكم حالهما لتبيين الأمر أو اصلاح ذات البين رجلا وسطا يصلح للحكومة والاصلاح من أهله وآخر من أهلها فان الأقارب أعرف ببواطن الأحوال وأطلب للصلاح [٧٤] ..

قال سعيد بن جبير : الحكم : أن يعظها أولا فان قبلت والا هجرها فان هى قبلت والا ضربها فان هى قبلت والا بعث الحاكم حكما من أهله وحكما من أهلها فينظران ممن الضرر وعند ذلك يكون الخلع[٧٥] ..

ولم يدع القرآن وسيلة الا وسلكها للمحافظة على هذا الرباط : فرأى أن النشوز كما قد يكون من جانب الزوجة قد يكون من جانب الزوج أيضا .. بأن يقل محادثتها ـ ومؤانستها وذلك لبعض الأسباب من طعن فى سن أو دمامة أو شىء فى خلق أو خلق أو ملال وطموح عين الى أخرى أو غير ذلك [٧٦] ..

---

(٧٣) سورة النساء ٤/٣٥ .

(٧٤) تفسير البيضاوى . انوار التنزيل وأسرار التأويل جـ ١ ص ١٨٦ .

(٧٥) تفسير القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ص ١٧٤٥ .

(٧٦) تفسير الكشاف للزمخشرى ص ٤٢٧ .

وربما أدى هـذا الى تشريد الأسرة وهدمها ، لذلك دعا الزوجة للتنـازل عن بعض حقها فى المبيت أو النفقة فقال :

« وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً »(٧٧) .

والصلح خـير من الفرقة فان التمادى على الخـلاف والشحناء والمباغضة هى قواعد الشر وقد قال عليه السلام فى البغضة : « انها الحالقة يعنى حالقة الدين لا حالقة الشعر(٧٨) » ..

ولعلنا نلمس دعوة القرآن للاحسان والتقوى فى مثل هذا الأمر .. وأولى الناس بالاحسان زوجة رضيت أن تتنازل عن حقها . وأحق الناس محافظة على مشاعرها امرأة ضعيفة لم تجد بدا من ترك مالها على زوجها . فتقوى الله وخشيته تدفعان الى مراعاة كل ذلك .. فان الله كان بمـا تعملون خبيرا .. وهو ختام للآية يحمل ترهيبا شديدا للأزواج الناشزين ولهذا رأى المالكية أن القاضى اذا عرض عليه الأمر وعظ الزوج أولا فان لم يفد أمرها بهجره فان لم يفد ضربه وقالوا فى الزوج انه يسجن(٧٩) » .

---

(٧٧) سورة النساء ١٣٨/٤ .

(٧٨) تفسير القرطبى ص ١٩٧٦ .

(٧٩) نظام الأسرة وحل مشكلاتها نقلا عن حاشية الدسـوقى جـ ٢ ص ٤٠٢ .

٨ ـ الطــلاق :

الا أن التشريع الخالد وجد أن القلوب التي تنافر ودها قلما تنتظم لها حياة أو ينمو فى ظلها غصن رطيب •• واجتماع مثل هذه القلوب فى فراش واحد يؤدى الى انحرافات خطيرة تهدد البناء الاجتماعى فى أساسه واذن فليس هناك الا وقف هذه العلاقة مدة من الزمن يراجع فيها كل منهما نفسه وبعدها تستأنف حياة جديدة يسودها الصفاء والوئام •• وهذا ما يعرف بالطلاق •• وهو علاج ناجع « شرع لدفع الضرر عــن الزوجين اذا استحال أو صعبت المعيشة المشتركة بينهما بحيث يصبح الفراق لازما وضرورة ونعيما [٨٠] » ••

وهذا العلاج لا يؤدى نتيجته المرجوة الا اذا تعاطاه المجتمع بالصورة التى أرشد اليها رب العزة سبحانه •• وهذه الصورة هى ما شرعه فيه من تقييده بعدد معين بعد أن كان عند العرب وغيرهم لا حد له : فــلا يتجاوز تطليقتين متفرقتين أما الثالثة فلا تحل بعدها الزوجة الا أن تتزوج غيره قال تعالى :

« ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَٰنٍ »

وقال :

« فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ » [٨١] .

---

(٨٠) نظام الأسرة وحل مشكلاتها فى ضوء الاسلام ص ٩٤ .

(٨١) سورة البقرة ٢/٢٢٨ ، ٢٢٩ .

والطلاق مقيد أيضا بالزمن فلا طلاق فى الحيض .. وبالوصف : فلا يطلقها فى طهر جامعها فيه . قال تعالى :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ » (٨٢) .

ومع هذه الحقيقة التى تجعل الرجل يقوم على حل عقدة الزواج وهو واع لكل ما يترتب على ذلك من نتائج .. قدر القرآن مالعامل الزمن من أثر فى تهدئة النفوس وما لرؤية كل من الزوجين لصاحبه من دوافع المراجعة والاعتذار .. لذلك جعل قضاء مدة العدة وهى غالبا ثلاثة أشهر فى منزل الزوجية لا خارجها ..

فقال :

« لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا » (٨٣) .

فاذا ما انتهت العدة ولم يراجع الزوج زوجته دل هذا على أن العداء مستحكم ولا حيلة فى الرجوع والا كان الامساك مضارة وعدوانا ولهذا نبه القرآن على ما فى هذا الامساك من ظلم الزوج لنفسه ولزوجته وما فيه من اعتداء على حدود الله وشريعته فقال :

« وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ

---

(٨٢) سورة الطلاق ١/٦٥ .

(٨٣) سورة الطلاق ١/٦٥ .

بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لِّتَعْتَدُواْ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُواْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُواً وَٱذْكُرُوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » (٨٤) .

فاذا ما تم الطلاق عن اقتناع كامل بوجوب انتهاء الحياة الزوجية بقى الود والمعروف والاحسان روابط تحيط بالمجتمع المسلم ولزم الزوج دفع ما عليه من مؤخر الصداق .. كما يدفع تعويضا ماليا سماه القرآن بالمتعة ..

« وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَٰعاً بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ » (٨٥) .

ولزمه الانفاق على الزوجة فى أثناء الحمل . وأجر الرضاع اذا أرضعت طفلها :

«وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ» (٨٦) .

---

(٨٤) سورة البقرة ٢٣١/٢ .
(٨٥) سورة البقرة ٢٣٦/٢ .
(٨٦) سورة الطلاق ٦/٦٥ .

وهذا هو التسريح بالمعروف الذى أمر به كتاب الله اذ قال :

« فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْفَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ »(٨٧) .

فهو فراق تأخذ فيه الزوجة حقها كاملا محاطة بالعناية والرعاية دون تجريح أو اساءة حتى لا يكون الطلاق معول هدم ينشر العداوة بين الأسر ويفكك أواصر المجتمع •

ومن حق الزوجة أن تجعل عصمة الزواج بيدها •• وأن تشترط هذا فى أثناء العقد ، ولها أيضا أن تطلب فسخ العقد اذا أبى زوجها تطليقها مضارة وتضييقا •• وهو ما يعرف بالخلع فتفتدى نفسها بما أخذته منه من مال قال تعالى :

« وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَن يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ »(٨٨)

وهذا هو الطريق الذى جعله هدى الله منهجا يقوم به مجتمع الاسلام اذ جعل الطلاق حيلة من لا حيلة له وعده من أبغض الحلال الى الله ولعن

---

(٨٧) سورة الطلاق ٢/٦٥ .

(٨٨) سورة البقرة ٢٢٩/٢ .

الله كل ذواق مطلاق وكل مزواج مطلاق •• وجعله بعد أن استنفد كل وسائل العلاج والاصلاح بين الزوجين •• وحتى بعد أن وقع لم يجعله نهاية للحياة الزوجية انما اعتبره مؤقتا موقوتا بزمن ، ووضع له من الشروط وسن له من طرق الترغيب فى الرجوع عنه وازالة أسـبابه ما يجعله فى أضيق الحدود •• ولم يجعله للزوج وحده يتحكم فى زوجته انما جعل لها هذا ان اشترطته •• وأقر لها نظام المخالعة حتى لا تنطوى القلوب على البغضاء والعداء ••

والطلاق بهذه الصفة علاج لأمراض المجتمعات وميزة للشريعـة الاسلامية يقول بنتام فى أصول الشرائع ساخرا من حظر الطلاق : « ان القانون يتدخل بين المتعاقدين فى الزواج حال التعاقد ويقول لهما : أنتما تقترنان لتكونا سعداء فلتعلما أنكما تدخلان سجنا سيحكم عليكما بابه وتصم الآذان دونكما وان علا منكما الصياح واشتد بكما الألم ولن أسمح بخروجكما ولو تقاتلتما بسلاح العداة والبغضاء ••

لو وضـع قانون للنهى عن فض الشركات ورفع الوصايا وعزل الوكيل ومفارقة الرفيق لصاح الناس أجمعون : انها نهاية الظلم ، والزوج رفيق ووصى ووكيل وشريك ـ وفوق كل هؤلاء ومـع ذلك حكمت قوانين أكثر البلاد المتمدينة بأن الزواج أبدى •• ان أقبح الأمور عدم انحلال ذلك الاتفاق ، لأن الأمر بعدم الخروج من حالة أمر بعدم الدخول فيها [٨٩] » ••

---

(٨٩) الفكر الاسلامى والتطور لفتحى عثمان ص ١٨١ ، ١٨٢ .

٩ ـ تعدد الزوجات :

(أ) الحرائر :

لا يستطيع باحث أن يعرض نظام الأسرة فى الاسلام دون أن يبين عظمة منهج هذا الدين فى مسألة التعدد وهو من المسائل التى يوجه اليها الحاقدون سهامهم يحسبون أنهم أخذوا على دين الله مأخذا يهزون به ثقة المؤمنين به فى مبادئهم وقرآنهم .. وما درى هؤلاء ان التعدد الذى أباحه الاسلام لم يصل اليه فى سمو مقصده وتقديره لكل دوافع الانسانية وحاجتها منهج سابق أو لاحق .. فلم يكن للزواج حدود فى الشرائع الوضعية ولا فى الشرائع الدينية قبل الاسلام ولو كان فيها ما يعتبر شريعة واقعية مقدرة لأحواله وضروراته عند المقارنة بينهما وبين الشريعة الاسلامية [٩٠] .. فقد أخرج مالك فى الموطأ والنسائى والدار قطنى فى سننهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لغيلان بن أمية الثقفى وقد أسلم وتحته عشر نسوة : « اختر منهن أربعا وفارق سائرهن » وفى كتاب أبى داود عن الحارث بن قيس قال : أسلمت وعندى ثمان نسوة فذكرت ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم فقال : اختر منهن أربعا .. [٩١] ..

« وكان تعدد الزوجات مباحا فى الأديان الكتابية ولم يحرم ــ حين حرم ــ اكبارا للمرأة وتنزيها لها عن قبول المشاركة فى زوجها بل كانت الفكرة الأولى فى تحريمه : أن المرأة شر يكتفى منه بأقل ما يستطاع [٩٢] » وحين جاء الاسلام ورأى ما عليه العالم كله من استكثار الرجال من النساء دون حد أو قيد أراد أمرا وسطا يلبى به حاجات الانسانية ودواعيها الى التعدد ويحفظ به للمرأة حقها وعفتها فأباح التعدد لأربع واشترط لذلك

---

(٩٠) حقائق الاسلام وأباطيل خصومه ــ للعقاد ص ١٧٦ .

(٩١) تفسير القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ص ١٥٨٧ .

(٩٢) الفلسفة القرآنية للعقاد ص ٦٠ .

القدرة على العدل بينهن فيما يمكن العدل فيه من القسم فى المبيت والنفقة ونحو ذلك ..

قال تعالى :

« وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ » (٩٣).

أى ان الاكتفاء بواحدة أقرب الى العدل وأبعد عن الجور فيما يسلكه الزوج من حق العدل بين زوجاته وهو أيضا بعد عن كثرة العيال ـ كما فسره الشافعى رضى الله عنه « لأن من كثر عياله لزمه أن يعولهم وفى ذلك ما يصعب عليه المحافظة على حدود الشرع وكسب الحلال والرزق الطيب (٩٤) » .. واذا كان هذا العدل فى مقدور الزوج فان الميل القلبى غير مستطاع قال تعالى :

« وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ » (٩٥).

والزوج غير مكلف بالعدل فيه لأنه خارج عن ارادة الانسان لكن بشرط ألا يظهر عن الميل سلوك يؤدى الى الاضرار بالزوجة فتبقى كالمعلقة فلا هى متزوجة ولا هى مطلقة ..

---

(٩٣) سورة النساء ٣/٤ .
(٩٤) تفسير الكشاف للزمخشرى ص ٣٧٦ .
(٩٥) سورة النساء ١٢٩/٤ .

وفى هذا الميل اللارادى يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « اللهم هذا قسمى فيما أملك فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك[٩٦] » .

وما نحن بحاجة الى برهان بعد أن تبين العالم عمق النظرة الاسلامية فى اباحة التعدد . اذ ماذا يصنع رجل أصيبت زوجته بمرض يمنعه من الاتصال بها أو بعقم حرمه نعمة الولد ؟؟ وماذا تصنع أمة زادت فيها نسبة النساء على الرجال أو فقدت فى حروبها كثيرا من شبابها فبقيت نساؤها دون عائل ؟؟

« انه ان أغلق باب التعدد وأحكم اغلاقه بالمنع المطلق اقتحم الرجال الذين يصعب عليهم ذلك المنع أبواب الفسق .. لقد حرم الأوربيون تعدد الزوجات ولكنهم فتحوا لأنفسهم باب الحرام على مصراعيه[٩٧] » .

والمجتمع الذى أنشأه منهج القرآن يغلق باب الحرام بكل شدة وييسر للناس طريق العفة والمعاشرة الحلال .. وماذا يضير امرأة ترضى أن تتزوج رجلا تعلم أن له أخرى ؟ وماذا يجبر الأولى أن تمكث فى بيت تأتى له أخرى الا اذا علمت كل منهما أن المشاركة فى رجل خير من حياة التأيم والبوار .. قال لوبون : « ان تعدد الزوجات المشروع عن الشرقيين أحسن من تعدد الزوجات الريائى عند الأوربيين وما يتبعه من مواكب أولاد غير شرعيين[٩٨] » .

---

(٩٦) يراجع دعائم السعادة فقرة ٥ ص ٢١٢ والحديث رواه الخمسة الا أحمد وصححه ابن حبان والحاكم .

(٩٧) الفكر الاسلامى والتطور لفتحى عثمان ص ١٨٤ .

(٩٨) أحكام الأسرة فى الاسلام د. محمد سلام مدكور ص ١٦٨ .

ومع إساءة البعض لهذا الحق وما يتبعه من أضرار اجتماعية وذلك كما يقول الامام محمد عبده : « ان الضرر ينتقل من كل ضرة الى ولدها والى والده والى سائر أقاربه فهى تغرى بينهم العداوة والبغضاء ولو شئت تفصيل الزرايا والمصائب المتولدة من تعدد الزوجات لأتيت بما تقشعر به جلود المؤمنين ـ فمنها السرقة والزنى والكذب والخيانة والتزوير •• بل منها القتل[٩٩] مع هذا فلا يمكن اغلاق باب التعدد وخاصة أن نسبة من يعدد نادرة وقليلة ولا يلجأ اليها الا مضطر ومثل هذا المضطر ، حتى ولو كان الغرض من زواجه اشباع نهمه الجنسى لا يمكن قفل الباب فى وجهه حتى لا يلجأ الى الحرام ••

واذن فالحل انما يكون برفع المستوى العلمى والثقافى والمعيشى فتقل نسبة المعددين أو تنعدم لا أن تفتح باب الشهوات الجامحة والعشيقات كما فعلت أمم منحرفة عن هدى الله •• « وهكذا كانت شريعة القرآن مطابقة لحقيقة الزواج فى معانيه الانسانية ومعانيه النوعية والاجتماعية فاستحسنت الاكتفاء بالزوجة الواحدة ولكنها جعلته فضيلة يختارها الزوجان ولم تفرضها عليهما بغير فضل يرجع الى الزوج أو الزوجة ، وأباحت تعدد الزوجات مع اشتراط العدل لمن استطاعه وحسبت للدواعى النوعية والاجتماعية التى تبيح تعدد الزوجات فى بعض الأحوال كل ما ينبغى أن تحسبه شريعة تسوى بين أبناء البشر فى دنياهم هذه التى تتطلب المثل الأعلى ولا تصل اليه فى كل حين[١٠٠] » ••

(ب) ملك اليمين •• والرقيق :

واذا كان الاسلام قد أقفل باب الفوضى فى تعدد النساء وحدد العدد الذى يكون فى عصمة الرجل بأربع واشترط له القدرة على الانفاق

---

(٩٩) الفكر الاسلامى والتطور فتحى عثمان ص ١٩٢ •

(١٠٠) الفلسفة القرآنية ـ للعقاد ص ٧٢ •

والعدل بينهن وسما بمركز المرأة وأصلح لها شأنها ولم يتركها للضياع ..
فان هذا الدين أضاف اشراقة جديدة فى تاريخ التشريع الانسانى
لا يمكن لباحث يتعرض لموضوع تعدد الزوجات أن يمر دون أن يبين ماذا
يستطيع منهج آخر أن يقدم للمرأة بعد الذى قدمه لها الاسلام .. ذلك
هو اباحة التعدد دون قيد فى جانب الاماء وملك اليمين : ذلك أن الاماء
كانت تعامل ــ شأن الرقيق قبل الاسلام ــ كأنها قطعة تباع لسيدها ليس
لها ما للانسان من حق الحياة التى تليق بالبشر .. ولما كان الغالب فى
امتلاك الاماء هو : تمتع السيد بما ملكت يمنه فان الاسلام أراد أن يصيب
هدفين فى وقت واحد :

الأول : هو رفع منزلة ملك اليمين والرقيق الى مرتبة تقرب من
مرتبة الزوجات ،فان بقيت مملوكة عاشت محاطة بعناية سيدها وتقديره
وليست كما مهملا ومتاعا ضائعا لا يساوى شيئا .

والهدف الثانى ، هو فتح باب جديد فى تاريخ تحرير الانسان
وايصاد باب ضخم من أبواب العبودية يقذف كل يوم فى مجرى الرق
مئات من العبيد والاماء بما ينتج عن اتصال السادة بامائهم .. لكن
الاسلام أبى الا أن تحرر مثل هذه الأمة التى حملت من سيدها فهى
« أم ولد » لا يجوز بيعها ولا هبتها ولا يتصرف فيها الورثة بعد موت
أبيهم أو مورثهم .. انما تكتسب الحرية بذلك .

وجاءت آيات القرآن تبيح وتشجع الزواج من الاماء قال تعالى :
« فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فان خفتم ألا تعدلوا
فواحدة أو ما ملكت أيمانكم » ..

ومع اقامة علاقة الزواج بين السيد وامائه والذى يفتح باب الحرية
لقطاع ضخم من الرقيق فهناك مراعاة فطرة هذا النوع من النساء وتلبية
رغباتهن والا أصبحن مصدر انحلال خلقى ينشر الفاحشة فى أرجاء

المجتمع ولهذا أباح القرآن التزوج بهن اذا لم يستطع الرجال الأحرار الزواج بالحرائر ..

وانما كن فى المرتبة التالية للحرائر ، لأن الولد يتبع أمه فى الرق والحرية .. والأمة لا تستقر على حال لأنها حائرة بين زوجها وسيدها . ومع ذلك فالزواج بها أهون جرما من الوقوع فى الفاحشة .. والفضل انما يعود الى الايمان لا الى الرق والحرية .. قال تعالى :

« وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ المُحْصَنَٰتِ المُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ مِن فَتَيَٰتِكُمُ المُؤْمِنَٰتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَٰتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » (١٠١) .

وقال :

« وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ » (١٠٢)

---

(١٠١) سورة النساء ٤/٢٥ .
(١٠٢) سورة النور ٢٤/٣٢ .

« فالله قد أمر جماعة المسلمين فى هذه الآية أن يهتموا بتزويج من كان فى مجتمعهم بدون نكاح من الرجال والنساء الأحرار ومن وجـدوا فيهم الصلاح من عبادهم وامائهم •• [١٠٢] •• »

وهكذا تقوم الأسرة الاسلامية على مبادىء العفة والطهارة وتبقى خالدة على امتداد الحياة الأولى والآخرة وما يشوبها من نزعات الشيطان ووساوسه له علاجه •• فان انفصل هـذا الرباط بالطلاق انفصـل بالمعروف وبعد فشل كل محاولة للاصلاح •• والأسرة الاسلامية تسـعد بزوجة واحدة لرجل يقوم بأمرها فان دفعته ظروف خارجة عن ارادته وأراد زيادة عن واحدة وتأكد من عدله بين نسائه لبى الدين رغبته ، ولم يقف فى طريقه ، حتى لا ينحرف سلوكه فيعيش على الخنا والفجور كالمجتمعات التى حرمت التعدد ، وأباحت الخليلات والعشيقات واعترفت بـأولاد السفاح •• ويخطو كتاب الله خطوة واسعة وهو يؤصل للأسرة المسلمة باباحة التعدد دون قيد من ملك اليمين والرقيق ، فان كانت المعاشرة بين السيد وما ملكت يمينه فالحرية هى المقصد الأسمى لتلك المعاشرة •• وان كانت لغير السيد فقد لبينا نداء الفطرة لهذا الجنس من النسـاء وكثيرا ما يعمل الزوج الذى تزوج بأمته على شرائها وتحريرها اذا ماوجد انشغال زوجته بسيدها •• فنصل بذلك ــ أيضا ــ الى الحرية •

فهى مسايرة للطبيعة البشرية ودعوة الى تحرير الرقاب كما سيأتى بيانه حين نتحدث عن الحرية والمساواة فى الفقرات القادمة من هـذا الباب ••

---

(١٠٣) تفسير سورة النور ــ أبو الأعلى المودودى ص ١٧٨ .

١٠ ـ الأصول .. والفروع :

الأسرة الانسانية هى حقل التربية القرآنية : اذ يشعر الفرد الذى رباه القرآن أنه جزء من هذا الكيان الواسع الشامل وهو لذلك مأمور بأن يتقى ربه فى هذه الأسرة ..

« يَـٰٓأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ . . » (١٠٤) .

ولهذا يعطى المؤمن لاخوته فى الانسانية أكثر مما يأخذ ويبذل نفسه وماله من أجل اسعادهم .. حتى ما تشنه قوى الايمان على جيوش الكفر من حروب انما هى فى واقعها برهان عملى على حب المؤمن للانسانية وحمايته لها وسعيه لهدم معاقل الظلم التى تحجب النور عن البشر ..

ومع هذا الحقل الواسع الذى تعمل فيه تربية القرآن فهناك الشجرة النامية وسط هذا الحقل والتى تتكون من الأصول والفروع .. فيكون مع الزوج وزوجته ثمرة هذا الزواج من الأبناء والحفدة ومعه كذلك الآباء والأجداد والأعمام والأخوال والعمات والخالات .. ولكل عضو من هؤلاء حقوق وواجبات تتفاوت مراتبها بمقدار قرب الشخص وبعده عن قريبه .. وبهذه الحقوق المتبادلة يقيم القرآن بناء المجتمع على أقوى الأسس وأعظمها شأنا فى تاريخ الانسانية ويحيطها بنور الايمان الذى لا يخبو ضياؤه ولا يضيع سناه ..

فما فرضه الأبناء من حق الطاعة والاحسان لوالديهم يصل فى نظر القرآن الى درجة قصوى من التعظيم والتقديس تلى العبودية لله سبحانه

---

(١٠٤) النساء ٤/١ .

فطاعة الله وطاعة الوالدين أمران مقترنان لا يفترقان . الله سبحانه الموجد الحقيقى والوالدان هما سبب الايجاد الظاهرى لذلك يقول القرآن :

« وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا . . » (١٠٥) .

ويقول :

« قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا » (١٠٦) .

وهذه الطاعة هى نص الميثاق الذى أخـذه الله على بنى اسرائيل اذ يقول :

« وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا . . » (١٠٧) .

ويبين دوافع هذا الاحسان فيقول فى سورة الأحقاف :

« وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَٰلُهُ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا » (١٠٨) .

---

(١٠٥) الاسراء ٢٣/١٧ .

(١٠٦) الأنعام ١٥١/٦ .

(١٠٧) البقرة ٨٣/٢ .

(١٠٨) الأحقاف ١٥/٤٦ .

وقريب من ذلك قوله تعالى فى سورة لقمان :

« ووَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ» (١٠٩)

ويحدد فى وضوح ما يجب على الأبناء أن يعاملوا به الآباء فيقول :

« إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيراً » (١١٠) .

أما الآباء فهم مدفوعون بفطرتهم الى حماية الأبناء والبربهم •• لكن هذه الفطرة كثيرا ما تنحرف عن طبيعتها نتيجة اعتقاد فاسد ووهم باطل كما عرف فى عرب الجاهلية من قتلهم لأولادهم وما أنبأ به التاريخ عن الرومان واليهود وكيف كان يعتبر الابن ملكا لوالديه يتصرف فيه كيف يشاء دون عقاب ••

فجاء كتاب الله يصلح هذه الفطرة الملتوية فيقول :

«قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ» (١١١)

---

(١٠٩) لقمان ١٤/٣١ .

(١١٠) سورة الاسراء ٢٣/١٧ ، ٢٤ .

(١١١) سورة الأنعام ١٤٠/٦ .

وينهى عن هذا القتل فيقول :

« وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا »(١١٢) .

وفى عهد المبايعة بين الرسول والمؤمنات وصية بالابتعاد عن هـذا الجرم الشنيع يقول القرآن :

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ »(١١٣) .

وقد تنحرف هـذه الفطرة فيجرفها تيار الحب للأولاد فتفتن بهم وتنسى ربها وخالقها وهنا يكون تحذير القرآن :

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ »(١١٤) .

وقال :

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟

(١١٢) سورة الاسراء ١٧/ ٣١ .
(١١٣) سورة الممتحنة ٦٠/ ١٢ .
(١١٤) سورة المنافقون ٦٣/ ٩ .

فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ »(١١٥).

ولقد بينت الدراسات الفقهية ما للأبناء على الآباء من حق الرضاعة والحضانة والولاية على النفس والولاية على المال بما لا يتسع المجال لذكره وكل ما يعنينا فى العلاقة بين الآباء والأبناء انما هو بيان ما فى هذه العلاقة القوية من أثر فعال فى اقامة بناء المجتمع الصالح المتواد المتراحم المترابط بأوثق رباط وهى علاقة تقوم على « الاحسان من جانب وعدم الافتتان من جانب آخر وهذا هو الطريق الأمثل الى التكافؤ والتعادل فى صلة الأولاد بالوالدين والوالدين بالأولاد وتلك سنة القرآن فى كل جوانب الحياة الانسانية(١١٦) ».

أما باقى أفرع الشجرة الأسرية وأصولها فلها حق الصلة والتواد والثقة اذا احتاج القريب اليها لأن أقارب الانسان حمايته وعشيرته وجيرانه وأهله تتصل مصالحه بهم مباشرة ولن تتيسر هذه المصالح والمنافع المتبادلة والقلوب متباغضة ، والنفوس متنافرة ، لهذا كان للأقارب والأرحام حق الانتفاع المادى بما يتركه لهم من ميراث فيشعرون أن ما يجمعه ليس شيئا خاصا به وحده انما هو للجميع على حسب درجة قربتهم منه قال تعالى :

« وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ»(١١٧)

---

(١١٥) سورة التغابن ١٤/٦٤ ، ١٥ .

(١١٦) الاسلام فى حياة المسلم للدكتور محمد البهى ص ٧١ .

(١١٧) سورة الأحزاب ٦/٣٣ .

وحدد كتاب الله من يستحق الميراث ومن لا يستحق من أقارب الشخص . وفى حياة الانسان اتبع القرآن منهاجا خاصا فى صلة القربى فجعلهم فى الدرجة الأولى من الذين يستحقون الاحسان لا لأنهم فقراء أو مساكين ولكن لأنهم قربى اذ يقول :

«وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ» (١١٨) .

والوفاء والبر الذى يتصف به المؤمنون من علاماته بعد الايمان بالله ايتاء ذى القربى حقهم :

« لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ » (١١٩) .

والعدل والاحسان وايتاء ذى القربى أمور ثلاثة يقوم عليها بناء المجتمع الصالح ولذلك يأمر الله بها فيقول :

« إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَانِ وَإِيتَآءِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » (١٢٠) .

---

(١١٨) سورة النساء ٣٦/٤ .
(١١٩) سورة البقرة ١٧٧/٢ .
(١٢٠) سورة النحل ٩٠/١٦ .

ومن أراد الفلاح فعليه بصلة الأقارب فذلك دليل الاخلاص يقول القرآن :

«فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ» (١٢١) .

وحين يسأل الرسول عليه السلام عن وجوه الانفاق فى الخيريين أن أول عمل من أعمال الخير بعد بر الوالدين هو بر الأقربين ـ يقول القرآن :

« يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ » (١٢٢) .

بل ان من أراد أن يوصى فأولى من تجب لهم هـذه الوصـية الوالدان والأقربون قال تعالى :

« كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ » (١٢٣) .

---

(١٢١) سورة الروم ٣٠/٣٨ .

(١٢٢) سورة البقرة ٢/٢١٥ .

(١٢٣) سورة البقرة ٢/١٨٠ .

قال ابن المنذر : « أجمع كل من يحفظ عنه من أهل العلم على أن الوصية للوالدين الذين لا يرثان والأقرباء الذين لا يرثون جائزة .. وقال مالك والشافعى وأبو حنيفة وأصحابهم والأوزاعى وأحمد بن حنبل من أوصى لغير قرابة وترك قرابة محتاجين فبئسما صنع .. وهو معنى ما روى عن عمر وعائشة وهو قول ابن عباس »(١٢٤) قال تعالى :

« وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا »(١٢٥) .

فهم أول من يعطون من التركة قال ابن عباس : « أمر الله المؤمنين عند قسمة مواريثهم أن يصلوا أرحامهم ويتاماهم ومساكينهم من الوصية .. فان لم تكن لهم وصية وصل لهم من الميراث .. قال النحاس: وهذا أحسن ما قيل فى الآية أن يكون على الندب والترغيب فى فعل الخير والشكر لله عز وجل(١٢٦) » .

.. وهذه المودة تزيد على ما عرف من أثر الصدقات فى اصلاح المجتمع لأنها بالنسبة للقريب : صدقة وصلة تتوثق بها عرى المحبة بين الفرد وأهله وتسرى الحياة فى أصول الشجرة وفروعها فتورق وتنمو تعاونا وتوثقا وترابطا يثرى الحياة بألوان من العمل الصالح الذى يدفع عجلة الحياة الى التقدم واليسر والرخاء ويعطيها ألوانا من المتع الروحية والراحة النفسية التى تغمر المجتمع بظلال من السعادة والطمأنينة والرضا.. روى النسائى والترمذى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «الصدقة على المسكين صدقة وهى على ذى الرحم ثنتان : صدقة وصلة..» وهكذا

---

(١٢٤) تفسير القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ص ٦٤٠ ، ٦٤١ .
(١٢٥) سورة النساء ٤/٨ .
(١٢٦) تفسير القرطبى ص ١٨١٩ .

« أراد القرآن فيما أوحى به فى منهج السلوك والمعاملة بين أفراد الأسرة بعضهم مع بعض أن يجنبهم الانحراف والقلق والنزاع •• أراد أن يوفق وأن يلائم بينهم فى اتجاههم فى الحياة وفى نفعهم بالحياة أراد أن تكون الأسرة قوية صاحبة عزة وسيادة على نفسها وعلى غيرها •• طريق الضعف واضح وهو طريق الخصومة والأنانية •• وطريق القوة واضـح وهو طريق الانسجام والمشاركة والمعاونة ومنهج القرآن للأسرة هــو طريق القوة •• طريق النجاح والأمل فى الحياة[١٢٧] » •

---

(١٢٧) الاسلام فى حياة المسلم د. محمد البهى ص ٧٦ •

الفصل الثانى

التكافل الاجتماعى

١ ـ منابع التكافل وآفاقه

٢ ـ ألوان التكافل .. وضماناته

أولا : التكافل الأدبى

ثانيا : التكافل السياسى

ثالثا : التكافل الدفاعى

رابعا : التكافل الجنائى

خامسا : التكافل الأخلاقى

سادسا : التكافل الاقتصادى

سابعا : التكافل العبادى

ثامنا : التكافل العلمى

تاسعا : التكافل الحضارى

عاشرا : التكافل العائلى

الحادى عشر : التكافل المعيشى

التكافل الاجتماعى

٢ ـ منابع التكافل .. وآفاقه :

حين أشرق ضياء القرآن على هذا العالم وجد فيه ما رأينا من تقاطع وتدابر وعصبيات تقوم على رابطة الدم والنسب .. ووجد كل قوم قد تحزبوا تحت شعار مزيف موهوم من اللون ، أو الأرض أو الجنس مما أدى الى التعاسة والشقاء .. وبدل أن يكون اختلاف الناس فى ألوانهم وأوطانهم ولغاتهم وأممهم وسيلة للتعارف وتبادل المصالح ، وتلوين الحياة بألوان شتى تتعاون كلها من أجل هدف واحد هو اسعاد الانسانية انقلب هذا التمايز الى انقسام خطير أدى الى التطاحن والتنازع والضياع ..

ولهذا أراد القرآن ـ وهو يبنى المجتمع ـ أن يجنب الانسانية هذا الشقاء وذلك التمزق : فحرر الانسان من كل هذه العصبيات وتلك التفاهات وأبى عليه أن يستعبد لأرض أو للون أو لجنس ، لأن الانسان صاحب عقل وادراك يسمو بهما على سائر المخلوقات وما يربطه بغيره يجب أن يقوم على الفكر الواحد والشعور الواحد ..

« فكرة الانسانية » هى التى تربط الانسان بأخيه الانسان مهما تباعدت الديار واختلفت الآراء ـ وعلى هذه الفكرة تقوم دعائم السلام العالمى والصلات الانسانية الرحيمة ..

« وأخوة الايمان » هى الفكرة التى يحتضنها مجتمع الاسلام فتعطيه مقومات الشخصية الاجتماعية المستقلة التى تجعله رائد البشر الى طريق الله بعيدا عن أمراض النفوس وأهوائها ..

والقرآن يقدم هذه الفكرة طاهرة نقية ويرتفع بها الى أفقها المشرق فيجعل الايمان بالله أسمى عقيدة ينضوى تحت لوائها البشر جميعا فاذا بها عميقة أصيلة ممتـــدة مع الزمن تحيط بالأولين والآخرين واذا بكل من حمل راية الايمان ينادى ربه :

« رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ »(١)

واذا بها أخوة تفوق أخوة النسب والدم والعصبية حتى أنستهم ما بينهم فى الجاهلية من تارات وعداوات وقتل ولم يبق الا التناصر والتآلف والمحبة والاخاء .. وهذا ما ذكره القرآن من حال المؤمنين اذ قال :

« وَٱعْتَصِمُوا بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَٱذْكُرُوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ »(٢)

وهم حزب واحد ، صاحب فكر واحد ، يناصر من سالم جماعتهم ويعادى من اعتدى على ايمانهم ودينهم ولو كان المعتدى أبا أو أخـــا

---

(١) سورة الحشر ٥٩/١٠ .

(٢) سورة آل عمران ٣/١٠٣ .

أو عما أو خالا .. فقد قطع عداء الكفر للايمان ما بين الفريقين من صلات الدم .. قال تعالى :

« لَّا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ »(٣)

وهؤلاء هم الأنصار والمهاجرون مثل فذ فى تاريخ عمق هـــذه الأخوة التى جعلها المنهج القرآنى نظام حياة بها توارثوا وتحابوا وتناصروا ومن نبعها فاض خير الأنصار على اخوتهم المهاجرين وبقيت شهادة الحق لهم على فخار وشرف اذ قال تبارك وتعالى :

« وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ »(٤)

---

(٣) سورة المجادلة ٥٨/٢٢ .

(٤) سورة الحشر ٥٩/٩ .

وبقيت راية الايمان خفاقة يستظل بها كل من تشرف بالامتثال لتعاليم الله ودان بالفكرة التى ارتضاها مجتمع المؤمنين .. قال تعالى فى المشركين :

« فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَنُفَصِّلُ ٱلْآيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ »(٥)

وهذه الحقيقة : حقيقة الاخاء فى الله يعبر عنها منهج القرآن فى كلمة واحدة فيقول :

« إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ »(٦) .

« وقد عبر عن المتخاصمين منهم بالأخوين اشعارا بأن من شأن العلاقة التى أساسها الايمان ألا تنفصم ، وألا تخرج بحال عن علاقة الأخ بأخيه والرفيق برفيقه والمشارك لمشاركه فى الحياة ، وأن النزاع الذى يحدثه هو شيء طارىء مصيره الى الزوال(٧) » ..

وبهذه الأخوة التى اشتملت على التراحم والتعاطف والاحساس بما للأخ على أخيه من واجبات ، خاض الاسلام معركة الحياة فانتصر على ما فيها من بؤس وشقاء يصيب بعض أفراد المجتمع فيعيش هؤلاء على الحرمان ويبدون علامة تقاطع وتظالم فى المجتمع الذى ينتسبون اليه .. أما أمة القرآن فقد بدا المسلم فيها أخا للمسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا

---

(٥) سورة التوبة ١١/٩ .

(٦) سورة الحجرات ١٠/٤٩ .

(٧) الاسلام فى حياة المسلم د. محمد البهى ص ٢٨٥ .

يسلمه •• فالكل متعاون متكافل متضامن فى السراء والضراء فى الداخل والخارج وهم جميعا كما عبر رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا[٨] » •• و « كالجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى[٩] » ••

بل ان المؤمن لا يكون مؤمنا حقا الا اذا شعر بحاجة أخيه وعمل على اسعاده كما يعمل على اسعاد نفسه •• يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه[١٠] ».

ومن هذه المنابع الطاهرة التى تستمد نقاءها وطهرها من مصدر الخير كله وهو الله خالق كل شىء •• ورب كل شىء تسرى روح الحياة فى أعضاء المجتمع فيتحرك باذن الله الى الغايات التى أراد الله تحقيقها من بنى الانسان ••

وهل بعد نبع الأخوة فى الله والتراحم والمودة والشعور الذى يسيطر على كيان الانسان وحسه فيذوب روحا وفكرا وعاطفة فى أخيه المؤمن •• هل بعد هذا نبع ترتوى منه الانسانية فتسعد وترقى ؟؟

ان التكافل القائم على تلك المبادىء والمثل ذو آفاق رحيبة لا يقتصر على توفير الغذاء والكساء للمحرومين من الغذاء والكساء وانما يتسع لألوان لم تعرفها البشرية الا فى ظل رسالات السماء ولم تستمتع بها الا فى رحاب رسالة القرآن على وجه الخصوص •• « فان تقرير الاخاء بين اثنين هو تقرير للتكافل والتضامن بينهما فى المشاعر والأحاسيس وفى المطالب والحاجيات وفى المنازل والكرامات •• أترى الأخ يحرص على طعام أخيه

---

(٨) رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى .

(٩) رواه البخارى فى الأدب المفرد ورواه مسلم واحمد .

(١٠) رواه البخارى ومسلم واحمد والترمذى وغيرهم .

الجائع وكساء أخيه العريان وسقاء أخيه العطشان فحسب أم هو يحرص على حياته وحريته وثقافته وكرامته ومكانته الاجتماعية أيضا ؟؟ ألا تراه يحزن لحزنه ولو كان هذا الأخ طاعما كاسيا ؟؟ ألا تراه يضطرب لمستقبله وحاضره ولو كان هذا الأخ مستقرا ثاويا .. [١١] .. »

٢ ـ **ألوان التكافل .. وضماناته :**

وعلى ضوء الهدى الالهى ترى ألوان هذا التكافل تلك التى احتلت فى البناء الاجتماعى منزلة رفيعة فأعطت أصدق صورة للمجتمع المثالى صاحب الرسالات والمبادىء وحامل لواء الحق للعالمين .. ولن نستطيع الاحاطة بكل هذه الجوانب .. فكل لون منها يحتاج الى دراسة مستفيضة وبحث خاص ولكنا نشير الى أهم هذه الألوان وضمانات تنفيذ كل لون منها حتى يؤدى ما هدف اليه من اسعاد المجتمع الانسانى ورفعته ..

اولا ـ التكافل الأدبى :

وهو احساس كل فرد نحو اخوته فى الانسانية واخوته فى الدين بما يخالط مشاعرهم فيفرح لفرحهم ويأسى لمصابهم ويتمنى لهم الخير ويكره الشر أن ينزل بهم .. وهذا التكافل يبدأ من تكافل الفرد مع ذاته يتولاها بالاصلاح والتهذيب ويؤدبها بآداب الدين ..

قال تعالى :

« قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا » [١٢]

وقال :

«فَأَمَّا مَن طَغَىٰ *وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا *فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ

---

(١١) اشتراكية الاسلام د. مصطفى السباعى ص ١٠٩ .

(١٢) سورة الشمس ٩١/٩ ، ١٠ .

ٱلْمَأْوَىٰ * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ * فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ » (١٣)

فكأن الانسان له فى ذاته ذاتان : آمرة قوامة على التقصير ، وذات تقبل وتندفع للخير وبهذا الانسجام بين الفـرد وذاته يفيض وجـدانه حبا للناس وحرصا على ما ينفعهم ويشيع هذا الشعور الرفيق بين أفراد المجتمع فيجاوب كل منهم للآخر فى صدق وود واخاء ..

ثانيا ـ التكافل السياسى :

وهو تحمل كل شخص لتبعة الحكم وتوجيه السياسة العامةللدولة وذلك بالمشاركة فى الرأى وابداء المشورة وقد يكون هذا التكافل عن طريق نواب يختارهم الشعب لابداء الرأى وتوجيه سياسة الحكم أو عن طريق المشاركة الفعلية والتجاوب الواقعى بين الحاكم والمحكوم .. اذ ليست الأمة ملكا لأحد بعينه وانما هى لواء يستظل به الجميع فلا استبداد برأى ولا اعتداد بمنصب انما يقوم مجتمع الاسلام على العدل والشورى والمساواة الكاملة بين الحاكم والمحكوم .. والمسلمون كما قال صلى الله عليه وسلم : « تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم(١٤) » .. « ومن هنا أجمع الفقهاء على انه اذا أجار مسلم رجلا حربيا وأعطاه الأمان ... فقد أصبح هذا الأمان محترما تلزم به الدولة مهما كان المجير عالما أو جاهلا قويا أم ضعيفا رجـلا أم امرأة الا اذا اقضتت مصلحة الدولة خلاف ذلك(١٥) » ..

---

(١٣) سور ةالنازعات ٣٧/٧٩ ـ ٤١ .

(١٤) رواه أبو داود وغيره .

(١٥) اشتراكية الاسلام د. مصطفى السباعى ص ١١٣ .

ثالثا ـ التكافل الدفاعى :

وهو مشاركة كل قادر فى وجوب الدفاع والحماية لأرض الاسلام ـ وهذا تكافل من أجل المحافظة على بقاء الجماعة الاسلامية ووجودها وان كان من الواضح ان القتال فى الاسلام انما يكون فى سبيل الله وحده قال تعالى :

« وَقَاتِلُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ »(١٦)

« ومعنى قوله : فى سبيل الله : هنا تلك الغاية التى اجتمعت من أجلها جماعة المؤمنين فأصبحت مميزة بها وهى غاية الايمان بالله والعمل المثمر فى الحياة لا من الوجهة المادية فقط ولكن من الوجهة النفسية والروحية قبل ذلك ..

ولم تكن جماعة المؤمنين جماعة الا عند اجتماعها على هذه الأهداف اذ بدون هذه الأهداف هم أفراد عاديون .. هم أفراد متفرقون يتبعون سبلا شتى واذن « سبيل الله » هو شعار جماعتهم واذن : بقاء جماعتهم رهن هذا الشعار فاذا لم يقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونهم ليصدوهم عن سبيله ذهب معنى الجماعة من نفوسهم وفى علاقة بعضهم ببعض .. (١٧) .. »

---

(١٦) سورة البقرة ٢/١٩٠ .

(١٧) الاسلام فى حياة المسلم د. البهى ص ٢٧٩ .

ولهذا دعا القرآن المؤمنين الى النفير العام على أية حال فقال :

« ٱنْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَٰهِدُوا بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ » (١٨)

فهب المسلمون يبيعون أنفسهم وأموالهم فى سبيل دينهم وعقيدتهم حتى رأينا هؤلاء الذين فاضت أعينهم من الدمع حزنا حين لم يجدوا الوسيلة التى تعينهم على الجهاد قال تعالى :

« لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلاَ عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلاَ عَلَى ٱلَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَٱللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَلاَ عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَناً أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ » (١٩)

فهذه الجيوش التى انطلقت غازية فى الشرق والغرب تكافلت وتعاونت وتضامنت فى وجوب الدفاع عن هذا الدين وحماية المستضعفين فى أنحاء الأرض واسقاط معاقل الظلم فى كل مكان تنفيذا لأمر الله القائل :

«فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ

---

(١٨) سورة التوبة ٩/٤١ .

(١٩) سورة التوبة ٩/٩١ ، ٩٢ .

نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً * وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَانِ »(٢٠)

وبهذا التكافل الدفاعى حفظت الجماعة الاسلامية كيانها وأثبتت وجودها وحققت غايتها ونشرت رسالتها فدان بها أهل الأرض ولم يخل مكان من أذان يرتفع كل صلاة وجباه ساجدة لله وألسنة ذاكرة وقلوب تعرف الله رب العالمين ..

رابعا ــ التكافل الجنائى :

وهو مسئولية الجماعة متضامنة عما يقع فيها من جرائم فالقاتل عمدا يقتل الا أن يعفو أولياء القتيل ، والقاتل خطأ يدفع الدية قال تعالى :

«وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلاَّ خَطَئًا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً »(٢١)

---

(٢٠) سورة النساء ٤/٧٤ ، ٧٥ .

(٢١) سورة النساء ٤/٩٢ .

والدية التى تجب على من عفا عنه أولياء القتيل أو على من قتل خطأ لا يتحملها وحده وانما تتضامن معه عاقلته وهم أهله وأقاربه .. هذا اذا ما عرف القاتل والا اختار أولياء الدم من مكان القتل خمسين رجلا يقسمون أنهم لا يعرفون القاتل ولا يؤونه عندهم وتحملوا دية المقتول متضامنين وهذا ما يعرف « بالقسامة » فان عجز دفعها بيت المال « وفى الزام بيت المال بالدية عند العجز معنى واضح من معانى التكافل وتحمل آثار الجرائم لأن بيت المال هو خزانة الشعب ففى الزامه بدفع الدية تحميل لكل فرد فى الأمة آثار تلك الجناية [٢٢] .. »

وضمانا لهذا النوع من التكافل شرع الاسلام الحدود لكبح جماح المجرمين وحفظ الأمن فى أرجاء الأرض وجعل المجتمع المسلم كله متضامنا فى اقامتها ينوب عنه فى تنفيذها حاكمه .. فمن حرم انسانا حق الحياة حرم حق الحياة قال تعالى :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَـٰنٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُولِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » [٢٣]

---

(٢٢) اشتراكية الاسلام د. مصطفى السباعى ص ١١٤ .

(٢٣) سورة البقرة ٢/١٧٨ ، ١٧٩ .

ومن اعتدى على عرض أقيم عليه حد الزنى : الرجم للمحصن والجلد لغير المحصن قال تعالى :

« ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ» (٢٤)

ومن اعتدى على شرف بالتجريح والقذف ضرب ثمانين جلدة وسقطت شهادته كما قال تعالى :

« وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ * إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ » (٢٥)

ومن اعتدى على أموال الناس بالسرقة قطعت يده قال تعالى :

« وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا أَيْدِيَهُمَا جَزَآءً بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » (٢٦)

---

(٢٤) سورة النور ٢٤/٢ ، ٣ .
(٢٥) سورة النور ٢٤/٤ ، ٥ .
(٢٦) سورة المائدة ٥/٣٨ .

ومن شرب خمرا ضرب أربعون جلدة ومن اعتدى على الأمن العام وقطع الطريق عوقب عقوبة الخارجين على الدولة كما قال تعالى :

« إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ »(٢٧)

وترك بعد هذه الحدود لولى الأمر حق التعزير يقرره على حسب الظروف والمناسبات ويقرر نوع العقوبة التى تليق بالجريمة من سجن أو ضرب أو تأنيب ..

وبهذا التكافل الجنائى يشيع الأمان والسلام فى ربوع أمة الاسلام ..

خامسا ـ التكافل الأخلاقى :

ويقصد به حراسة المبادىء الأخلاقية النابعة من عقيدة المؤمنين وتحمل كل فرد فى الأمة لمسئولية أى انحراف .. فالمجتمع الاسلامى فى مجموعه قوة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر .. وليس معنى الحرية : أن تفعل ما تشاء دون حدود أو قيود وانما ذلك مشروط فيه عدم إيذاء الغير أو الاعتداء على نظام حياة الجماعة .. فان فعل أحد ذلك تكاتف المجتمع

---

(٢٧) سورة المائدة ٥/٣٣ ، ٣٤ .

وتعاون فى القضاء على هذا الاعتداء حتى يظل مجرى الحياة هادئا يسير الى غايته المنشودة التى أرادها له الله .. قال تعالى :

« وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ »[٢٨]

« فقد آمنوا مشتركين فيما آمنوا به من مثل وقيم فى هذه الحياة ، وشأن الاشتراك فى الايمان بأهداف واحدة عليا أن يجعل الاخــلاص والنصرة والرفعــة بين المشتركين جميعــا فى علاقة بعضهم ببعض أمرا لازما[٢٩] » .

وهذا التكافل رسالة كل جماعة اسلامية يمكنها الله فى الارض قال تعالى :

« ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ »[٣٠]

وفى سبيل تكافل المجتمع فى هذه المعانى يخوف الله كل من اعتزل الناس واهتم بأمر نفسه ولم يحض غيره على البر والرحمة قال تعالى :

« خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ

---

(٢٨) سورة التوبة ٩/٧١ .
(٢٩) الاسلام فى حياة المسلم د. البهى ص ٢٨٢ .
(٣٠) سورة الحج ٢٢/٤١ .

ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَٱسْلُكُوهُ * إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ ٱلْعَظِيمِ * وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ »(٣١)

وقال :

« أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ * فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ * وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ »(٣٢)

وقال :

« كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ * وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ »(٣٣)

والسكوت عن المنكر يؤدى الى بوار المجتمعات وهـلاكها قال تعالى :

« وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيراً »(٣٤)

وأمة يشيع فيها الفساد فلا تأخذ على يد مرتكبيه تستحق هـذا التدمير قال تعالى :

---

(٣١) سورة الحاقة ٣٠/٦٩ ـ ٣٤ .

(٣٢) سورة الماعون ١/١٠٧ ـ ٣ .

(٣٣) الفجر ١٨/٨٩ ، ١٩ .

(٣٤) سورة الاسراء ١٦/١٧ .

« وَٱتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ »(٣٥)

واذا كان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر قاعدة أصيلة فى منهج التربية القرآنية يقوم عليها مجتمع الاسلام برسالته ويحفظ بها بقاءه فانها لا تقتصر على الدعوة الى التمسك بالأخلاق الكريمة من رحمة وكرم وسخاء وعطف ولين وتسامح وانما تتسع هذه الدعوة لتحيط بكل أركان الشريعة وآدابها ، والجماعة الاسلامية متكافلة متضامنة فى الحث على ذلك والتذكير به ، والوقوف صفا واحدا فى وجه المنكر تنهى عنه وتسد سبله ومنافذه قال تعالى :

« وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ »(٣٦)

وهذا ما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان(٣٧) » ..

سادسا ــ التكافل الاقتصادى :

وذلك بالتعاون الصادق فى المحافظة على اقتصاد الأمة سليما يؤدى دوره الطبيعى فى خدمة الحياة فانفاق الفرد له حدوده : فلا اسراف ولا تقتير ، كما قال عز وجل :

---

(٣٥) سورة الأنفال ٢٥/٨ .

(٣٦) سورة آل عمران ١٠٤/٣

(٣٧) رواه مسلم والترمذى والنسائى وغيرهم .

« وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً »(٣٨)

ولا يحق له أن يمنع حق الفقراء وأرباب الحاجات قال تعالى فى صفة المؤمنين الصادقين :

« وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ »(٣٩)

كما لا يجوز للمجتمع ان يفرط فى ماله ويعطيه للسفهاء والمجانين، قال تعالى :

« وَلَا تُؤْتُوا ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰماً وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفاً »(٤٠)

وفى خطاب الأمة بهذا النهى « لا تؤتوا » وفى اضافة الأموال اليها دلالة على أن المال فى واقعه انما هو وسيلة وليس غاية وهو أمانة ووديعة فى يد الفرد يستخدمه فيما أحل الله وشرع فان انحرف عن المنهج الاسلامى كان من حق المجتمع أن يسلب منه هذا المال ويتولى الانفاق على المنحرف الى أن تثبت استقامته ويعود الى رشده .. والمجتمع كله مسئول عما يقع فيه من غش واحتكار وتلاعب بالأسعار مما يهز اقتصاد الأمة ويؤدى الى ضياعها ..

---

(٣٨) سورة الاسراء ٢٩/١٧ .

(٣٩) سورة المعارج ٢٤/٧٠ ، ٢٥ .

(٤٠) سورة النساء ٥/٤ .

قال تعالى :

« وَلَا تَأْكُلُوٓا أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ » (٤١)

وكأن الصلة بين أكل أموال الناس بالباطل وقتل النفس أكيدة ظاهرة كما ترى فان الأولى سبب لهلاك المجتمع وضعفه وانهياره وموته ..

قال تعالى :

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوٓا أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلَا تَقْتُلُوٓا أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا » (٤٢)

والصفة بين أكل أموال الناس بالباطل وقتل النفس أكيدة ظاهرة فان أكل أموال الناس بالباطل سبب هام فى اهلاك المجتمعات وضعفها وانهيارها وموتها .. والواقع والمشاهدة خير دليل على ذلك .

وفى هذا التكافل أوجب على المجتمع الاسلامى أن يوفر ما يحتاج اليه من صناعات وتجارات وأوجه النشاط المختلفة التى تخدم كل منها ناحية خاصة من نواحى الاقتصاد ..

وكلما جد جديد فى أنحاء العالم وكان المجتمع الاسلامى بحاجة اليه وجب على المجتمع أن يختار من بين أبنائه طائفة تتخصص فيه فلا يخلو من زراعة وصناعة وتجارة وتعليم وطب وهندسة وغير ذلك مما يتكاتف

---

(٤١) سورة البقرة ١٨٨/٢ .
(٤٢) سورة النساء ٢٩/٤ .

فيه الناس ويتعاونون حتى لا يحتاج المجتمع الاســـلامى الى غيره من المجتمعات مما يجر عليه الشقاء ويتيح الفرصة ليد غريبة تكشف أسراره وتقوض بنيانه وتعمل على احتلاله وامتصاص خيراته .

سابعا ـ التكافل العبادى :

فالعبادات فى الاسلام سمة بارزة من سمات المجتمع المسلم ومنهج القرآن يوجب تكافل الجماعة الاسلامية فى أداء هذه العبادات واظهار شعائرها .. فكم اجتذبت أصوات المؤذنين وصفوف الخاشعين فى الصلاة قلوبا تفتحت لهذه النداءات الرطبة العذبة والوجوه المشرقة المستغرقة فى مناجاة الله .. ولذلك كان الأذان للصلاة واقامة صلاة الجماعة فى الأوقات الخمسة وتعاون المجتمع فى تجهيز الميت وتكفينه والصلاة عليه ودفنه .. كل ذلك من فروض الكفاية التى لو تركها المجتمع أثم كله ..

وربما نستطيع أن نفهم هذا من تعبير القرآن عن الصلاة وهو يطالب بها المسلمين ويجعلها صلة لازمة وعملا أكيدا من صفات جماعتهم وأعمالها العظيمة وذلك اذ يقول : أقيموا الصلاة : بدل أن يقول صلوا .. فان صيغة الجمع ولفظ الاقامة لهما دلالتهما الخاصة وهى تكافل المؤمنين جميعا فى اقامة شعائرها حتى يبدو المسلمون فى صورة المجتمع المسلم المعتز بما لديه من مبادىء الأخلاق والسمو الروحى ولن يكون هذا بالاستخفاء عن الناس وأداء تلك الشعائر فرادى وانما لابد من الاعلان والجهر حتى يسرى تيار هذا الاشعاع الروحى فى القلوب ..

وهذه الصورة من تكافل المجتمع الاسلامى وتعاونه فى أداء العبادات والفروض الكفائية هو ما يعرف بالتكافل العبادى ..

ثامنا ــ التكافل العلمى :

يرى المنهج القرآنى أن الانسان دون علم لا يساوى شيئا ولا يعتبر انسانا .. سئل عبد الرحمن بن المبارك : من الناس ؟ فقال : هم العلماء .. قال الغزالى رحمه الله فى شرح ذلك : « لم يجعل غير العالم من الناس لأن الخاصية التى يتميز بها الناس عن سائر البهائم هو العلم فالانسان انسان بما هو شريف لأجله وليس ذلك بقوة شخصه فان الجمل أقوى منه ولا بعظمه فان الفيل أعظم منه ولا بشجاعته فان السبع أشجع منه ولا بأكله فان الثور أوسع بطنا منه ولا ليجامع فان أخس العصافير أقوى على السفاد منه .. بل لم يخلق الا للعلم .. »(٤٣) ولهذا أوجب على العالم أن يعلم الجاهل وعلى الجاهل أن يتعلم من العالم فقد خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فأثنى على طوائف من المسلمين خيرا ثم قال : ما بال أقوام لا يفقهون جيرانهم ولا يعلمونهم ولا يعظونهم ولا ينهونهم . وما بال أقوام لا يتعلمون من جيرانهم ولا يتفقهون ولا يتعظون ؟ والله ليعلمن قوم جيرانهم ويفقهونهم ويعظونهم ويأمرونهم وينهونهم وليتعلمن قوم من جيرانهم ويتعظون أو لأعاجلنهم بالعقوبة ..(٤٤) وقد هدد القرآن من كتم علمه عن الناس تهديدا خطيرا فقال :

« إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ * إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ »(٤٥)

---

(٤٣) احياء علوم الدين للغزالى ٨٩/١ .

(٤٤) أخرجه الطبرانى فى الكبير ونقله الحافظ المندرى فى الترغيب والترهيب جـ ٣ ص ١٢٢ .

(٤٥) سورة البقرة ١٥٩/٢ ، ١٦٠ .

قال القرطبي رحمه الله « أخبر الله تعالى أن الذى يكتم ما أنزل من البينات والهدى ملعون . واختلفوا من المراد بذلك ؟ قيل : أحبار اليهود ورهبان النصارى الذين كتموا أمر محمد صلى الله عليه وسلم وقد كتم اليهود أمر الرجم وقيل ، المراد من كتم الحق فهى عامة فى كل من كتم علما من دين الله يحتاج الى بثه وذلك مفسر فى قوله صلى الله عليه وسلم : من سئل عن علم يعلمه فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار . رواه أبو هريرة وعمرو بن العاص أخرجه بن ماجه »(٤٦) .

فاذا كان من حق أى مجتمع أن يسمى نفسه « بالمجتمع المثقف » فمجتمع الاسلام أول من يطلق عليه هذا الوصف وذلك لتكافل أفراده جميعا فى القيام بواجب العلم وازالة آثار الجهل وانبعاث هذا التكافل كما هو شأن كل ألوان التكافل — من عقيدة راسخة ثابتة لا ترضى بالجهل وتعتبره هلاكا وضياعا :

قال تعالى :

« قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا ٱلْأَلْبَـٰبِ »(٤٧)

ويحتل العلم قمة الانسانية ومصادر الخير ففى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « العالم والمتعلم شريكان فى الأجر ولا خير فى سائر الناس .. »(٤٨) وعن على رضى الله عنه : « الناس ثلاث : فعالم ربانى ومتعلم على سبيل نجاة والباقى : همج رعاع أتباع كل ناعق »(٤٩) .

---

(٤٦) تفسير القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ص ٥٦٥ .
(٤٧) سورة الزمر ٣٩/٩ .
(٤٨) جامع بيان العلم لابن عبد البر ١/٣٤ .
(٤٩) جامع بيان العلم لابن عبد البر ١/٣٦

ومثل هذا اللون من التكافل يحتم على أمة الاسلام تيسير سبل العلم لكل طالب وتشـــجيع أهل العلم وحث الجهلة على التعلم واتاحة الفرصة لكل متفوق ، وتكاتف أفراد المجتمع فيما بينهم على ازالة آثار الأمية والجهل .. هـــذا اللون هو مايعرف فى منهج التربية القرآنية : بالتكافل العلمى ..

تاسعا ــ التكافل الحضارى :

وهذا التكافل يجمع الألوان السابقة ويزيد عليها أشياء كثيرة اذ يشمل كل عمل فيه صلاح للأمة ورفعتها ويتطلب تعاونا انسانيا بناء فى الدعوة الى الخير واقرار دعائمه وتعاونا انسانيا بناء فى الابتعاد عن الشر وسد منافذه قال تعالى :

« وَتَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ »(٥٠)

قال الماوردى : « ندب الله سبحانه الى التعاون بالبر وقرنه بالتقوى له لأن فى التقوى ارضاء الله تعالى وفى البر رضا الناس ومن جمع بين رضا الله تعالى ورضا الناس فقد تمت سعادته وعمت نعمته »(٥١) .

يقول الأستاذ محمد الخضر حسين : « يتناول التعـاون على البر والتقوى المؤازرة فى كل عمل ينتج عنه الخير سواء كان القائم به فردا أو جماعة وسواء كان الخير عائدا الى فرد أو أمة ، ولا فرق فى أصـل طلب التعاون بين أن يكون الخير من مصـــالح الدنيا التى أذنت الشريعة باقامتها ، أو أن يكون من وسائل السعادة فى الأخرى ، ويدخل فى الاثم

---

(٥٠) سورة المائدة ٥/٢ .

(٥١) تفسير القرطبى ص ٢٠٤٤ .

والعدوان كل عمل يعطل شريعة من شرائع الدين أو يعود على النفس أو العرض أو العقل أو النسب أو المال بالفساد(٥٢) .

وحين يطلب المنهج القرآنى من المؤمنين التعاون على البر والتقوى فانما يريد تعاونهم من أجل تحقيق مبادىء هذا الدين فى واقع الحياة فإن البر الذى ورد فى كتاب الله تناول أشياء كثيرة : فقد جاء بمعنى حسن المعاملة وطيب العشرة ومكارم الأخلاق . قال تعالى على لسان عيسى عليه السلام :

« وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيًّا »(٥٣)

وجاء بمعنى الانفاق فى سبيل الله ، قال تعالى :

« لَن تَنَالُوا ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ »(٥٤)

وجاء جامعاً للعقيدة والأخلاق والعبادات ، قال تعالى :

« لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّينَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَابْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ »(٥٥)

---

(٥٢) الاسلام والتعاون للأستاذ عبد المنعم حماده ص ٣٦ .
(٥٣) سورة مريم ٣٢/١٩ .
(٥٤) آل عمران ٩٢/٣ .
(٥٥) سورة البقرة ١٧٧/٢ .

والتقوى كلمة جامعة أيضا قريبة من معنى البر ، بل ان البر هو أحد معانيها ... من مدلولاتها كذلك الوفاء بالعهد كما ترى فى قوله تعالى :

« فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ » (٥٦)

وهى التى تدعو أصحابها الى الجهاد بالمال والنفس . قال تعالى :

« لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ » (٥٧)

ومن معانى التقوى خشية الله وانابة القلب قال تعالى :

« وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ * هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ * مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ » (٥٨)

والابتعاد عن الظالمين وعدم توليهم والركون اليهم سمات لأهل التقوى ، قال تعالى :

« وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ » (٥٩)

---

(٥٦) سورة التوبة ٩/٤ .

(٥٧) سورة التوبة ٩/٤٤ .

(٥٨) سورة : ق ٥٠/٣١ – ٣٣ .

(٥٩) سورة الجاثية ٤٥/١٩ .

ومن معانيها العفو والتسامح قال تعالى :

« وَسَارِعُوٓا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ »(٦٠)

ومن معانيها العدل وترك الظلم قال تعالى :

« وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا ٱعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ »(٦١)

ومثل هذه القيم والتعاليم أساس الحضارة الاسلامية كما هى أساس كل حضارة تعمل على توفير الأمان والسلام للانسان وهى ميزة انفردت بها حضارة الاسلام عما سواها ان أمكن أن نسمى التقدم فى الصناعة والزراعة والتجارة دون هدايات السماء حضارة والأجدر أن نعتبرها تدميرا للانسانية لاتجد فيها مايسعدها الا أن تحلق بقيم القرآن وتعاليمه .. تلك القيم التى طلب الله سبحانه من المؤمنين بما لديهم من المقومات الايمانية أن يتعاونوا متكاتفين فى سبيل اقرارها فقال :

« وَتَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ »(٦٢)

---

(٦٠) سورة آل عمران ٣/١٣٣ ، ١٣٤ .

(٦١) سورة المائدة ٥/٨ .

(٦٢) سورة المائدة ٥/٢ .

عاشرا ـ التكافل العائلى :

والاسلام يعتبر الانسان جزءا من أسرة قريبة تتكون من أصـوله وفروعه ، فما هو جزء من الانسانية العامة وأخ للمؤمنين فاذا اجتمعت وفروعه ، كما هو جزء من الانسانية العامة وأخ من حق الاسلام عليه أن يربطه بأسرته وعائلته التى تجمعت فيها كل هذه المعانى وأوجب على الجميع حق التكافل والتناصر(٦٣) .. وتبدو صورة هذا التكافل فيمـا شرعه الاسلام من التوارث بين الأقارب اذ قال :

« يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ

---

(٦٣) انظر : الاصول والفروع : فى نظام الأسرة ص ٢٣٤ .

ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ فَإِن كَانُوٓا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ ، وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ »(٦٤)

وقال تعالى :

« يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ »(٦٥) .

هذا التوارث الذى استقر بقول الله تعالى :

« وَأُو۟لُوا ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا »(٦٦)

---

(٦٤) سورة النساء ٤/١١ ، ١٢ .
(٦٥) سورة النساء ٤/١٧٦ .
(٦٦) سورة الأحزاب ٣٣/٦ .

وفصلته الآيات هذا التفصيل المحكم الدقيق يؤدى الى تفتيت الثروة. ويبين مقدار نظرة الاسلام الى المال وهو كذلك مبدأ هام من مبادىء التكافل العائلى كما هو عدل الهى بين الجهد والجزاء : فان الولد الذى ورث عن أبيه أخلاقه وخلقه ونسبه من حقه أن يرث مما تركته أصوله نصيبه فيما جمعوه من ثروات .. كما أن الأصول التى ورثت فروعها ما ورثتهم من عوامل نفسية وجسمانية تفرض عليهم أوضاعا معينة فى حياتهم .. من حق هذه الأصول أن ترث ماتركه الفرع من متاع ..

كما يبدو فى هذا اللون من التكافل أنه تكافل بين الجيل والأجيال السابقة واللاحقة وامتداد للحياة ودفع بها فى طريق الانتاج الصالح فان الوالد الذى يعمل وهو يشعر أن ثمرة عمله لأبنائه وحفدته ، وهم وجوده الذى لا ينقطع سوف يبذل كل ما يستطيع وفى هذا رفعة له ولأمته .

وهذا مثال للتكافل العائلى بين الآباء والأبناء فى قصة موسى مع عبد من عباد الله وقد أتيا على أهل قرية فاستطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه هذا العبد الصالح فقال له موسى لو شئت لاتخذت عليه أجرا .. فبين له وجه الحقيقة فقال : مانقرؤه فى سورة الكهف :

« وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا »(٦٧)

---

(٦٧) سورة الكهف ١٨/٨٢ .

فانتفع الولدان بصلاح الوالد وورثا ما خلفه لهما من مال وصلاح ..

كما نرى من تشريعات هذا التكافل العائلى ماحمله الاسلام لعاقلة القاتل واشتراكهم فى دفعها وما فرضه العرف والدين من مشاركة الأقربين فى سرائهم وضرائهم مشاركة فعلية واعطائهم من التركات اذا لم يكونوا من الوارثين الى غير ذلك من صور تكافل أفراد العائلة وتضامنهم فى كل نواحى الحياة ..

الحادى عشر ــ التكافل المعيشى :

وهو ما يرتبط بحياة الناس ومعيشتهم من طعــــام وغذاء وكساء ومسكن وحاجات اجتماعية لايستغنى عنها انسان فى حياته ومعيشته ..

والقرآن ــ وهو يبنى مجتمعه ــ يرى أن التكافل المعيشى واجب لا يمكن للمجتمع المسلم أن يتخلى عنه : « ففى الحديث : أيما أهل عرصة أصبح فيهم امرؤ جائعا فقد برئت منهم ذمة الله تعالى .. »(٦٨)

وهذا اللون من التكافل هو ما أطلق عليــــه ــ خطأ ــ التكافل الاجتماعى والواقع أنه لون من ألوانه .. به تكمل صـــورة التكافل الاجتماعى ويكون بذلك شاملا لكل حاجات المجتمع الأدبية والسياســية والدفاعية والجنائية والاقتصادية والأخلاقية والعبادية والحضارية والمعيشية وينفرد مجتمع الاسلام بهذا التكافل العام الشامل فى تاريخ الانسانية دون أن يسبقه أو يلحق به فى تشريعه من أجل البناء الاجتماعى تشريع على الاطلاق ..

---

(٦٨) المسند للامام احمد بن حنبل نشر الأستاذ احمد شاكر حديث رقم ٤٨٨٠ .

تشريعات التكافل المعيشى :

وهى تشريعات محكمة واضحة لاتدع جانبا من جوانب المجتمع يسقط ويتداعى انما تبحث عن مواطن الخلل والعجز والحاجة فتسد هذه الحاجات وتفرض من الموارد مايكفل أداء هذا الحق لأصحابه وتبين المصارف والموارد فى دقة واعجاز .. ويؤدى التكافل المعيشى دوره فى خدمة المجتمع ويتضافر مع باقى ألوان التكافل فى سبيل توفير حياة كريمة تليق بالانسان الذى استخلفه الله فى الأرض .. والمستحقون لهذا التكافل نوعان :

١ ـ نوع يتميز بالعجز عن الكسب عجزا كليا أو جزئيا كالفقراء والمساكين والمكفوفين والمقعدين والشيوخ والمشردين واللقطاء واليتامى والأسرى ..

٢ ـ ونوع لا يتصف بالعجز ولكنه يحتاج الى المساعدات المالية .

ولهذين النوعين وضعت التشريعات الآتية :

١ ـ تشريع المساعدة : وهو يشمل المدين والغارم والقاتل خطأ وابن السبيل .

٢ ـ تشريع الاعفاف : وهو تيسير وسائل الزواج لكل من أراد العفة قال تعالى :

« وَأَنكِحُوا ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ » (٦٩)

---

(٦٩) سورة النور ٣٢/٢٤ .

٣ ــ تشريع الماعون : قال تعالى :

« فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ * وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ »(٧٠)

قال ابن كثير فى تفسير هذه الآية : أى لا أحسنوا عبادة ربهم ولا أحسنوا الى خلقه حتى ولا باعارة ماينتفع ويستعان به مع بقاء عينه ورجوعه اليهم وعن مجاهد قال : الزكاة وكذا روى عن على وابن عمر وبه يقول كثير من التابعين وقال عكرمة رأس الماعون : زكاة المال وأدناه المنخل والدلو والابرة وهذا الذى قاله عكرمة حسن فانه يشمل الأقوال كلها وترجع كلها الى شىء واحد وهو أى : منع الماعون ــ ترك المعاونة بمال ومنفعة(٧١)

٤ ــ تشريع المشاركة : وذلك فى المواسم الزراعية وجنى الثمار والفواكه قال تعالى :

« كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ »(٧٢)

قال مجاهد فى هذه الآية :

اذا حصدت فحضرك المساكين فاطرح لهم من السنبل واذا جذذت فألق لهم من الشماريخ واذا درسته وذريته فاطرح لهم منه واذا عرفت كيله فأخرج منه زكاته(٧٣) .

وقد تقدم فى التكافل العائلى ماجعله الله للأقارب وغيرهم من الفقراء والمساكين اذا حضروا توزيع التركة قال ابن عباس : أمر الله المؤمنين عند

---

(٧٠) سورة الماعون ١٠٧/٤ ــ ٧ .
(٧١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٥٥٥ ، ٥٥٦ .
(٧٢)سورة الأنعام ١٤١/٦ .
(٧٣) تفسير القرطبى ص ٢٥٣٦ .

قسمة مواريثهم أن يصلوا أرحامهم ويتاماهم ومساكينهم من الوصـــية فان لم تكن وصل لهم من الميراث(٧٤) .

٥ ــ تشريع الضيافة : وهو اكرام الضيف وتقديم وسائل الراحة له قال صلى الله عليه وسلم : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه : جائزته يوم وليلة والضيافة ثلاثة أيام وما بعد ذلك فهو صدقة ولا يحل أن يثوى عنده « يقيم » حتى يحرجه(٧٥) .

٦ ــ تشريع الجوار : وهو احساس الجار بحاجة جاره والاحسان اليه قال تعالى :

« وَٱعْبُدُوا ٱللهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰناً وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَاكِين وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَامَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ »(٧٦)

وكلمة الاحسان . كلمة جامعة تشمل التكافل المادى وغيره .. قال صلى الله عليه وسلم : « ما آمن بى من بات شبعان وجاره الى جانبه طاو « جائع »(٧٧) .

---

(٧٤) تفسير القرطبى ص ١٦١٩ .

(٧٥) رواه البخارى ومسلم وغيرهم .

(٧٦) سورة النساء ٣٦/٤ .

(٧٧) اشتراكية الاسلام نقلا عن الاختيار شرح المختار ١٢٩/٣ .

.. وهذه تشريعات أخرى للتكافل فى حالات نادرة وطارئة .. لكن التشريع الالهى الصالح لكل زمان ومكان لا يفوته شيء ولو كان حدوثه نادرا .. وذلك :

١ ـ كتشريعات الاسعاف : وهو اسعاف من أشرف على الهلاك من جوع أو عطش أو مرض أو حلت بهم كارثة مفاجئة من فيضانات وزلازل وحرائق قال صلى الله عليه وسلم : « من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة »(٧٨) .

٢ ـ تشريعات الطوارىء : وذلك اذا تعرضت البلاد لخطر هجوم العدو ولم يكن فى خزانة الدولة ما يكفى تجهيز المقاتلين والانفاق عليهم فمن حق الدولة أن تأخذ من أموال الناس بقدر ما يندفع به الخطر ، ودفع جزء يسير من المال أهون من اغارة المعتدى على البلاد وضـــياعهم لكل أموالهم قال تعالى :

« ٱنفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَٰهِدُوا بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ »(٧٩) .

كما يجوز فرض هذا القانون اذا ما تعرضت الأمة للثورات الداخلية من أهل الشر ، قال تعالى :

« إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَاداً أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ ٱلْأَرْضِ »(٨٠) .

---

(٧٨) رواه مسلم .
(٧٩) سورة التوبة ٩/٤١ .
(٨٠) سورة المائدة ٥/٣٣ .

قال الغزالى رحمـــه الله : اذا خلت الأيدى « أيدى الجنود » من الأموال ولم يكن فى مال المصالح « أى خزينة الدولة » مايفى بخراجات العسكر « أى نفقات الجيش » وخيف من ذلك دخول العدو بلاد الاسلام أو ثوران الفتنة من قبل أهل الشر « أى حدوث الفتنة الداخلية » جاز للامام أن يوظف على الأغنياء « أى يفرض » مقدار كفاية الجند لأنا نعلم أنه اذا تعارض شران أو ضرران قصد الشرع دفع أشد الضررين وأعظم الشرين وما يؤديه كل واحد منهم « الأغنياء » قليل بالاضافة الى ما يخاطر به من نفسه وماله لو خلت خطة الاسلام أى « البلاد » عن ذى شـــوكة « أى الجيش » بحفظ نظام الأمور وقطع مادة الشرور وما يشهد لهذا أن لولى الطفل عمارة القنوات « قنوات الأرض الخاصة بالطفل » واخراج أجرة الطبيب وثمن الأدوية « أى العائدة للطفل » وكل ذلك تنجيز خسران لتوقع ما هو أكثر منه[٨١] .

٣ ــ تشريعات الاعانات العائلية : والاسلام بقدر حاجة الناس فلا يبخس أحدا حقه ولا يساوى بين من يعول أسرة كبيرة ومن يعيش عزبا وحده ولهذا أعطى المتزوج أكثر مما أعطى العزب وصاحب الأولاد أكثر من غيره « فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أتاه فى قسمه من يومه فأعطى الآهل حظين وأعطى العزب حظا واحدا[٨٢] وكان عمر يفرض لكل مولود عطاء يزاد الى عطاء أبيه (مائة درهم) كلما نما الولد زاد العطاء وقد جرى عليه من بعد عثمان وعلى والخلفاء من بعدهم »[٨٣] .

---

(٨١) اشتراكية الاسلام د. مصطفى الســباعى نقلا عن المستصفى للغزالى جـ ١ ص ٣٠٣ ، ٣٠٤ .

(٨٢) الأموال لأبى عبيدة ص ٣٠٨ .

(٨٣) اشتراكية الاسلام د. مصطفى الســباعى ص ١٢٥ نقلا عن الأموال لأبى عبيد ص ٢٣٧ .

وبذلك يتقرر مبدأ الاعانات العائلية على قدر حاجة الرجل وما يلزمه من نفقات وهذه الحقوق ليست من باب النوافل والتطوع فقط وليست متروكة لاحساس الفرد بحاجة مجتمعه الى أن يتكافل ويتعاون معه انما هي حق « مفروض » .

صحيح أن القرآن فى تربيته حين يسن للناس شريعة لا يلجأ فى تنفيذها الى قوة الارهاب انما يتجه مباشرة الى داخل الانسان فيحــــرك فيه مشاعره ويستولى على قلبه ويدفعه فى شوق وحب الى الامتثال ، ومع ذلك لا يغفل جانب العقوبة لمن لا يؤدى ما وجب عليه .. ولهذا فاضت تعاليم الدين بالمفروض والمسنون .. بالواجب والتطوع وأدت فى كلتــا الحالتين دورا هاما فى تربية المجتمع المسلم واسعاده ..

والتشريع الالهى حين يحدد المصارف والحالات التى تســـتحق العون والمساعدة يهيىء لها الموارد التى تكفيها حتى لا تبقى هذه الحالات أملا وحلما يداعب الخيال دون أن يكون لها واقع ملموس يتغير به نظام المجتمع ويعيش مستقرا آمنا .. وتلك الموارد تتلخص فيما يأتى :

١ ــ الزكاة :

فريضة المسلمين الخالدة التى تجمع بين العبادة والمساعدة للمجتمع . وقد سبق أن بينا ما فيها من أوجه التربية الخلقية للنفوس البشرية وهنا تبدو فريضة الزكاة بابا من أهم أبواب تمويل التكافل الاجتماعى ..

وقد فرضها المولى سبحانه بنسب قليلة فى أموال الناس وان كانت حصيلتها من مجموع هذه النسب عظيمة فقد جعلها ــ مثلا ــ فى الأموال النقدية وعروض التجارة بنسبة ٢½٪ وفى المواشى بنسبة قريبة من ذلك وفى الزروع والثمار نصف العشر للتى يبذل فيها مجهود وتسقى بالآلــة،

والعشر للتى لا تسقى بالآلات بشرط أن تصل فى ذلك الى نصاب الزكاة وقد أوضح القرآن من تصرف اليه هذه الزكاة فقال :

« إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » (٨٤) .

٢ ـ زكاة الفطر :

وهى تجب على الرجل وعلى كل من تلزمه نفقته من زوجه وولده وخادمه وفى الحديث : فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم زكاة الفطر من رمضان صاعا من تمر أو صاعا من شعير على العبد والحر والذكر والأنثى والصغير والكبير من المسلمين (٨٥) ..

٣ ـ الركاز :

وهو ما يوجد فى باطن الأرض وأعماق البحار من معادن ونقود ـ وفيه الخمس كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « فى الركاز الخمس »(٨٦) .

٤ ـ الغنائم والفىء :

والأولى ما حصل عليه المسلمون من الكفار بقتال .. والفىء : ما حصلوا عليه دون قتال . قال تعالى :

« وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ

---

(٨٤) سورة التوبة ٩/٦٠ .

(٨٥) رواه البخارى ومسلم وغيرهما .

(٨٦) رواه ابن ماجه عن ابن عباس .. ورواه الطبرانى فى الكبير والأوسط عن جابر وعن ابن مسعود .

وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ »(٨٧)
وقال :

« مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ »(٨٨)

٥ ـ الوصية :

فى ثلث ما يمتلك الانسان وأكثر من الثلث اذا أجاز الورثة ذلك .. ولا وصية لوارث كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان الله قد أعطى كل ذى حق حقه فلا وصية لوارث .. »(٨٩) ..

ووهى باب من أبواب الخير يجرى بعد وفاة صاحبه يصل بها المؤمن أهله وأقاربه الذين لا يرثون يسعد به فقراء المسلمين ومساكينهم .. والقرآن يجعلها قبل توزيع التركة فيقول بعد أن حدد نصيب كل صاحب فرض :

« مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ »(٩٠)

ويؤكد أن الوصية حق على المتقين فيقول :

« كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ

(٨٧) سورة الأنفال ٤١/٨ .
(٨٨) سورة الحشر ٧/٥٩ .
(٨٩) أخرجه الترمذى وقال هذا حديث حسن صحيح .
(٩٠) سورة النساء ١١/٤ ، ١٢ .

خَيْراً ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ » (٩١)

٦ ـ الوقف :

وقد أدى هذا المورد دورا بارزا فى حياة المجتمع المسلم وشمل أوجه الحياة جميعها ووصل الى الغاية التى ترجوها الانسانية ..

وهو نوعان : وقف من أجل أقارب الواقف وذريته بشرط أن ينتهى الى جهة خير لا ينقطع عند انقراض الذرية ووقف خيرى : لجهة من جهات الخير كالمساجد والمدارس والأيتام والعجزة والمستشفيات والمجاهدين فى سبيل الله ..

٧ ـ النفقـــات :

للأصول والفروع ، ولهم حق الطعام والكساء والمسكن والخدمة والتعليم والتزويج وغيرها من الحاجات الاجتماعية ..

٨ ـ النذور :

فمن نذر لله نذرا وجب عليه وفاؤه لأن هـذا من صـفات الأبرار الذين ..

« يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً » (٩٢)

والذين استجابوا لأمر الله حين دعاهم لذلك فقال تعالى :

« وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ » (٩٣)

---

(٩١) سورة البقرة ٢/١٨٠ .
(٩٢) سورة الانسان ٧٦/٧ .
(٩٣) سورة الحج ٢٢/٢٩ .

وحين رغبهم فى الانفاق وخوفهم من الشح والبخل فانه ظلم وما للظالمين من شفيع فقال :

« وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ »(٩٤)

٩ ـ الأضاحى :

قال تعالى :

« فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ »(٩٥)

نزلت فى صلاة عيد الأضحى ونحر الأضاحى فى العيد وفى الحديث « يا أيها الناس على كل أهل بيت فى كل عام أضحية »(٩٦) ..

١٠ ـ الكفارات :

وهذه ـ أيضا ـ تضيف الى حصيلة التكافل الشىء الكثير وقد جعلها الله فى أمور كثيرة ..

فمنها : الحلف بالله والرجوع عما حلف عليه قال تعالى :

« لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا

(٩٤) سورة البقرة ٢٧١/٢ .
(٩٥) سورة الكوثر ٢/١٠٨ .
(٩٦) رواه احمد وابو داود والنسائى .

حَلَفْتُمْ وَٱحْفَظُوٓا أَيْمَـٰنَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ »(٩٧)

ومنها قتل المحرم للصيد قال تعالى :

«يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تَقْتُلُوا ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّداً فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْياً بَـٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّـٰرَةٌ طَعَامُ مَسَـٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَاماً لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ »(٩٨)

وفى كثير من مخالفات الحج ومنها ما ذكره الله بقوله :

« وَأَتِمُّوا ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ وَلاَ تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ »(٩٩)

---

(٩٧) سورة المائدة ٥/٨٩ .
(٩٨) سورة المائدة ٥/٩٥ .
(٩٩) سورة البقرة ٢/١٩٦ .

والذى لا يطيق الصوم فى رمضان عليه كفارة ، قال تعالى :

« وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ »(١٠٠)

وكفارة الظهار كما قال تعالى :

«وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً »(١٠١)

١١ ــ الخزانة العامة :

وفيها يتجمع من أصناف الأموال الكثير .. يتجمع فيها الزكاة وخمس الغنائم والمعادن .. وخراج الأراضى .. وجزية الرءوس وتركة من لا وارث له .. وهى بذلك تكفى حاجات الدولة كلها ولا تقتصر على المحتاجين للتكافل الاجتماعى لأنها تشمل المشروعات العامة فى البناء والتعمير وتسد حاجات الدولة من رواتب للموظفين والعاملين الى غير ذلك مما تحتاج اليه أمة فى حياتها تقنينا وتنظيما ورخاء ويسرا ..

١٢ ــ الكفاية :

وهى قفزة فى تاريخ التشريع يسبق بها منهج القرآن كل مناهج الاصلاح مهما بلغت مرونتها وعظمتها .. اذ أن تشريع الكفاية يتيح لولى

(١٠٠) سورة البقرة ٢/١٠٤ .

(١٠١) سورة المجادلة ٥٨/٣ ، ٤ .

الأمر حرية الحركة من أجل المحافظة على حياة الفقراء والمحتاجين ضمانا لاستقرارهم وسدا لاحتياجاتهم المادية والأدبية ..

فاذا لم تكف الموارد السابقة للقيام بهذا الواجب جاز للحاكم أن يفرض ماشاء من قوانين حتى يتمكن من كفاية المستحقين للتكافل الاجتماعى .. روى أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ومن كان له فضل من زاد فليعد به على من لا زاد له .. قال أبو سعيد : فذكر رسول الله من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا فى فضل [١٠٢] ..

وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه : لو استقبلت من أمرى ما استبدرت لأخذت فضول أموال الأغنياء فقسمتها على فقراء المهاجرين [١٠٣] وعن على رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان الله فرض على أغنياء المسلمين فى أموالهم بالقدر الذى يسع فقراءهم ، ولم يجهد الفقراء اذا جاعوا وعروا الا بما يصنع أغنياؤهم ألا وان الله يحاسبهم حسابا شديدا ويعذبهم عذابا أليما [١٠٤] ..

قال ابن حزم : « وفرض على الأغنياء من أهل كل بلد أن يقوموا بفقرائهم ، ويجبرهم السلطان على ذلك ان لم تقم الزكوات بهم ولا فى سائر أموال المسلمين بهم فيقام لهم بما يأكلون من القوت الذى لابد منه ومن اللباس للشتاء والصيف بمثل ذلك وبسكن يكنهم من المطر والشمس

---

(١٠٢) رواه مسلم .

(١٠٣) رواه ابن حزم فى المحلى جـ ٦ ص ١٥٨ وقال : هذا اسناد فى غاية الصحة والجلالة .

(١٠٤) المحلى لابن حزم جـ٦ ص ١٥٨ .

وعيون المارة[١٠٥] وقد سبق فى تشريع الطوارىء والاسعاف ما أتاحه التشريع من حق التدخل لحماية المنكوبين والمعوذين وحماية بلاد الاسلام ان يعتدى عليها آثم باغ ..

وبهذه التشريعات المحكمة يصل التكافل المعيشى الى المستوى اللائق بحياة الانسان .. وبهذه الألوان المتعددة للتكافل يتبين لنا عظمة منهج القرآن فى تربية المجتمع واقامته على العدالة والتعاون والاحساس الذى يدفعه أمل فى ثواب الله وخوف من عقابه ونظرة واقعية الى متع الحياة ووظيفة الانسان فى تلك الحياة ..

---

(١٠٥) المحلى لابن حزم جـ ٦ ص ١٦ .

الفصل الثالث

المعاملات المالية

١ ـ صلة الدين بالمعاملات المالية

٢ ـ المال :

(أ) مكانته

(ب) تحصيله

(ج) تنميته

(د) انفاقــه

٣ ـ البيع ـ والشراء

٤ ـ مكانة المعلملات من الحياة



المعاملات المالية

١ ـ صلة الدين بالمعاملات :

الانسان اجتماعى بطبعه ـ هكذا خلقه الله ـ يحتاج الى الغذاء والكساء والمأوى وهى حاجات أساسية تتحكم فيه فيضطر من أجلها الى السعى وتحصيل الرزق والتعامل مع اخوته من بنى جنسه ـ ونظرا لما ركب فى البشر من حب الحياة ـ لأن حب الحياة هو الخلود ـ يحاول الناس الازدياد من المال وجمعه من كل طريق فيكون التنافس والتسابق ويكون المكر والدهاء .. ولابد من عاصم يحمى الضعيف من كيد القوى ويحفظ العاجز من أهل الدهاء والحيلة ... وليس هناك من عاصم الا دين الله يربى النفوس ويروضها ويرغبها ويخوفها ويهديها الى الخير ويدلها على طريق الله الواضح المستقيم ..

وهذا الترابط بين الدين والمعاملات قديم قدم الانسان .. وبدونه يحيا الناس كالوحوش فى الآكام بل ربما حفظ الوحش لفصيلته حق الحماية والنصرة ، لكن البشر يدفعهم طمع وحرص وشراهة فاذا بالعهود ممزقة الأوصال .. والأخوة الانسانية أمل يداعب النفوس ليس لها برهان من الواقع ..

ولهذا كانت الوصية الأولى من الله لآدم وبنيه حين هبط هو وحواء من الجنة :

« فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ »[1]

---

(١) سورة طه ٢٠/١٢٣ ، ١٢٤ .

وهذه الهداية الالهية تحيط بالمنهج العام للحياة فى اعتقاداته وأخلاقه ومعاملاته .. الا أن المعاملات هى المحك الرئيسى الذى تبدو فيه قوة العقيدة فى الله وعظمة الأخلاق المنبثقة من هذا الايمان ..

وهذه الصلة بين الدين والمعاملات نلمسها قديما فى دعوة نبى الله شعيب عليه السلام : وذلك أن قومه فهموا أنه لا صلة بين الدين والدنيا وأن المعاملات أمور تنظمها المجتمعات بالطريقة التى تحلو لها وما الدين الا صلة روحية بين العبد وربه وليس هنالك ما يدعو الى ارتباط هـــذا بذاك قال تعالى :

« قَالُوا يَـٰشُعَيْبُ أَصَلَـٰوتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُاْ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ »(٢)

ولكنه يبين لهم الصلة الوثيقة بين الدنيا والآخرة .. بين معاملة الخالق ومعاملة المخلوق فيقول :

« يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجاً »(٣)

---

(٢) سورة هود ١١/٨٧ ..

(٣) سورة الأعراف ٧/٨٥ ، ٨٦ ..

وتوجز سورة العنكبوت هذه الحقيقة وما حل بقوم شعيب حين كذبوه فى ذلك فتقول :

« وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَٱرْجُوا ٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ »(٤).

وقصة شعيب التى تكررت فى أكثر من موضع من كتاب الله مثال للصلة الأكيدة بين المعاملة والايمان بالله .. وما حل بقوم شعيب عبرة لكل أمة تجعل حياتها فى جانب ومعرفتها بالله فى جانب .

لذلك اعتنى القرآن فى وصاياه بمثل هذه الصلة فتجده فى وصايا سورة الاسراء التى تبدأ بالوصية الأولى :

« وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّآ إِيَّاهُ » *

نجد قول الله تعالى :

« وَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً »(٥).

وفى الوصايا العشر فى سورة الأنعام قوله تعالى : « قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا » .. ثم أمر بعدالة المعاملة لارتباطها بالتوحيد المطلق لله : اذ يقول :

---

(٤) سورة العنكبوت ٣٦/٢٩ ، ٣٧ .

(٥) سورة الاسراء ٣٥/١٧ .

« وَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلا وُسْعَهَا »(٦) .

وفى سورة « الرحمن » بعد أن بين آثار الرحمن سبحانه الشاهدة بوحدانيته وقدرته يقول :

« وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ * أَلاَّ تَطْغَوْا فِى ٱلْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلاَ تُخْسِرُوا ٱلْمِيزَانَ»(٧) .

وسورة « المطففين » وما فيها من تخويف شديد لمن ساءت معاملته للناس دليل على الصلة المتينة بين المعاملة والدين وذلك اذ يقول :

« وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ * أَلاَ يَظُنُّ أُوْلَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ »(٨) .

واذا كان هذا الوعيد لمن أنقص حبات من كيل أو دراهم من وزن فان مدلوله أكبر وأعظم : اذ يشمل جوانب الحياة كلها وما فيها من معاملات وتطفيف الكيل والانتقاص من الوزن دليل على مرض النفس وحاجتها الى العلاج ودليل على سوء الطوية والاجتراء على حدود الله ومن يجترىء على

---

(٦) سورة الأنعام ١٥٢/٦ .

(٧) سورة الرحمن ٧/٥٥ ـ ٩ .

(٨) سورة المطففين ١/٨٣ ـ ٦ .

مثل هذا يجره الى ما هو أعظم منه فيعتدى على حرمات الله .. واذن فلا انفصال بين واقع الحياة ومعاملات البشر اليومية وبين كتاب الله والمجتمع الذى أنشأه القرآن انشاء بعيدا كل البعد عن ملامح مجتمعـات الأرض قديمها وحديثها التى فصلت بين عقيدتها وحياتها ، فقد أقام لأتباعه طريقا راشدا فى حياتهم وصلاتهم ومعاملاتهم كما حدد الصلة بين الخلق والخالق ولم يكن أمام دين الله غير هذا المنهج فى الحياة لأنه يصنع للانسانية مجتمعا فريدا متميزا عن المجتمعات الجاهلية بأوضارها وأوزارها وعاداتها وتقاليدها وهذا شأن رسالات السماء التى جاءت تقيم مجتمعات جديدة مطهرة من مفاسد البشر ومهتدية بهداية الله ..

فهذا موسى عليه السلام « يقود شعبا بغير دولة الى أرض يقيمون فيها حكما غير الحكم الذى خضعوا له فى موطنهم الذى تركوه من أرض الدولة المصرية فلم تكن رسالته رسالة عقيدة وحسب ولم يكن قيام العقيدة ميسورا بغير قيام القانون ..

وجاء السيد المسيح مؤيدا لشرائع العهد القديم ولم يجىء مبطـلا لها أو معطلا لأحكامها جاء متمما للناموس ولم يجىء هادما للناموس[٩] » .

قال تعالى :

« وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ »

---

(٩) حقائق الاسلام وأباطيل خصومه : للعقاد ص ١١٢ ، ١١٣ .

وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ » (١٠) .

واذا كانت هذه منزلة المعاملات من دين الله وكانت وثيقة الصلة بعقيدة المؤمنين وأخلاقهم فان المنهج الذى انتهجه القرآن لم يدع أمرا يختص بالمعاملة الا وأوضحه وأرسى قواعده وأقام بناءه الاجتماعى على هذا الأساس المتين ..

٢ ـ المال :

(أ) مكانته :

المال عصب الحياة وزينتها .. قدمه الله على الأولاد ولهم من الحب الفطرى فى نفوس الآباء ما لهم .. فقال :

« ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا » (١١) .

قال العلامة أبو السعود : « وتقديم المال على البنين مع كونهم أعز منه كما فى قوله تعالى :

« أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا » *

وقوله تعالى :

« وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ » *

---

(١٠) سورة المائدة ٤٦/٦ ، ٤٧ .

(١١) سورة الكهف ٤٦/١٨ .

وغير ذلك من الآيات الكريمة لعراقته فيما نيط به من الزينة والامداد وغير ذلك وعمومه بالنسبة الى الأفراد والأوقات فانه زينة وممد لكل واحد من الآباء والبنين فى كل وقت وحين ، وأما البنون فزينتهم وامدادهم انما يكون بالنسبة الى من بلغ مبلغ الأبوة .. ولأن المال مناط لبقاء النفس والبنين لبقاء النوع .. ولأن الحاجة اليه أمس من الحاجة اليهم ولأنه أقدم منهم فى الوجود ولأنه زينة بدونهم من غير عكس فان من له بنون بلا مال فهو فى ضيق حال ونكال[١٢] » ..

لهذا كان فتنة لا ينجو منها الا من عصم الله .. قال تعالى :

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ * وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ »[١٣] .

وقال تعالى :

« إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ * فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ »[١٤] .

ونادى المؤمنين :

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ »[١٥] .

---

(١٢) تفسير أبى السعود : ارشاد العقل السليم الى مزايا القرآن الكريم جـ ٣ ص ٢٥٣ .
(١٣) سورة الأنفال ٨/٢٧ ، ٢٨ .
(١٤) سورة التغابن ٦٤/١٥ ، ١٦ .
(١٥) سورة المنافقون ٦٣/٩ .

وما فتن قارون الا ماله اذ قال لقومه حين نصحوه :

« إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ » (١٦)

وما فسق المترفون وفجروا واعتدوا على حقوق الناس الا لأن المال أغواهم وأغراهم فكان لهم العذاب والدمار والهلاك ..

ولهذه المكانة الخطيرة والمنزلة الرفيعة للأموال وأثرها فى حياة الأفراد ومستقبل الجماعات يقرر القرآن أن المال ابتداء ملك لله يستخلفه فيه من يشاء من عباده :

قال تعالى :

« لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ » (١٧)

وقال تعالى :

« ءَامِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ » (١٨) *

« وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ » (١٨)

---

(١٦) سورة القصص ٧٨/٢٨ .

(١٧) سورة الشورى ١٢/٤٢ .

(١٨) سورة الحديد ٧/٥٧ ، ١٠ .

وبهذه القاعدة يستقر فى حس المؤمن أن ما بين يديه ملك لربه وما هو الا مستخلف فى انفاقه حسبما أمر به ربه ..

ومعنى أن الملك كله لله أنه حق الناس جميعا لا يمتلك أحد منه شيئا الا بتمليك الشارع له ، ولذا جاء فى بعض التعريفات للملكية : « ان الملك حكم شرعى مقدر فى العين أو المنفعة يقتضى تمكين من يضاف اليه من انتفاعه بالشىء وأخذ العوض عنه .. وهذا المعنى هو أن الملكية لا تثبت الا باثبات الشارع وتقريره أمر متفق عليه بين فقهاء الاسلام لأن الحقوق كلها ــ ومنها حق الملكية ــ لا تثبت الا باثبات الشارع لها وتقريره لأسبابها ..

فالحق ليس ناشئا عن طبائع الأشياء ولكنه ناشىء عن اذن الشارع وجعله السبب منتجا لسببه شرعا(١٩) » .

وليس فى هذا تثبيط للهمم ولا الغاء لنوازع الفطرة وحبها للامتلاك . فديننا دين الفطرة يسايرها ويلبى رغباتها ويرتفع بها عن الرغبات المهلكة والآمال الخادعة لكنه يدل الانسان على الطريق ويدفع المجتمعات الى الانتاج والسعى .. ولو شاء أن يجعلنا كالملائكة لا تحتاج الى طعام أو شراب لفعل ولكنه ربط الحياة بالعمل .. فلا كسب بلا عمل ولا يستحق الاستخلاف عن الله ولا ينال شرف التمليك الالهى الا من بذل وضحى وكافح وكابد الحياة ..

قال تعالى :

« فَٱمْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ »(٢٠)

---

(١٩) الفكر الاسلامى والتطور لفتحى عثمان ص ٢٨ .

(٢٠) سورة الملك ١٥/٦٧ .

واذا أمر القرآن بالسعى الى الصلاة وترك العمل بعض الوقت فقال :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ »(٢١) .

وما أجمل تربية القرآن لمجتمعه وهو يجعل السعى فى الأرض والعمل الدءوب من أجل الرزق ابتغاء من فضل الله ويمزج بين عمل الجـوارح وخلجات الصدور فيطلب ممن يعمل ألا ينسى ذكر الله ، فذلك هو الفلاح المتجدد والنجاح فى الدنيا والآخرة .. ومع الوجنات التى تتصبب عرقـا والقلوب التى تفيض خشوعا فى محراب الله يحيا مجتمع الاسلام فى عزة وسيادة ورفعة .. من عمله الموصول دائما بالله يفيض المال بين يديه فـلا يفتتن به ولا يستعبد له ، لكنه يضعه حيث وضعه الله : يجعله وسيلة لا غاية وسيلة يسعد بها الانسان نفسه وأهله ومجتمعه .. لا غاية تضيع مـن أجلها قيم الحق والعدل والخير وتنسى مبادىء الأخلاق الكريمة ..

(ب) تحصيله :

ولا يدع كتاب الله بابا للعمل الا وفتحه أمام المسـلم : فتح له باب الصناعة ودله على ما فيها من مصادر القوة وذلك وهو يحدثنا عن داود وسليمان عليهما السلام :

---

(٢١) سورة الجمعة ٦٢/٩ ، ١٠ .

فيقول :

« وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً يَاجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ * أَنِ ٱعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ وَٱعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَلِسُلَيْمَانَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ * يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ ٱعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ » (٢٢)

ولقد بلغ سليمان عليه السلام فى صناعة البناء شأوا بعيدا سبق به حضارة اليمن وبلقيس فغاب عنها أن ما تراه أمامها ليس لجـة ماء كما توهمت انما هو فن الصناعة ورقيها :

قال تعالى :

« قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ » (٢٣)

---

(٢٢) سورة سبأ ٣٤/١٠ — ١٣ .
(٢٣) سورة النمل ٢٧/٤٤ .

وحين يحدثنا القرآن عن رسل الله وما معهم من هدايات يرشد الى الوسيلة التى ينتصر بها ما معهم من حق وذلك عن طريق القوة المادية التى تحمى هذا الحق من اعتداء أهل الباطل •• فنراه يجمع فى آية واحدة بين ارسال الرسل وانزال الكتب وانزال الحديد فيقول :

« لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ » (٢٤)

وكان التعبير « بأنزلنا » فى الكتاب والميزان والحديد دليل على مابين الحق والقوة التى تزود عنه من قوة الصلة ووثاقة الرباط ••

وكيف ينتفع المسلمون بالحديد وما فيه من بأس شديد اذا لم يصلوا بصناعته الى قمة التقدم فيحمون حقهم ودينهم ؟

وكيف يستفيدون من هذا الحديد وما فيه من منافع للناس تيسر حياتهم فى أسفارهم ومعاشهم اذا لم يرتقوا بالصناعات الأخرى الى أوج الحضارة والازدهار ؟ وهى حضارة تقوم على معرفة الله القوى العزيز وعلى احقاق هدايات السماء واقرار العدل بالميزان الذي لا يضل ، والحكم الالهى الذى لا يزيغ ••

وفى باب الصناعة ترى الكثير : ترى صناعة اللؤلؤ والمرجان من البحار ••

« يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ » (٢٥)

---

(٢٤) سورة الحديد ٢٥/٥٧ .
(٢٥) سورة الرحمن ٢٢/٥٥ .

والانتفاع بما فى البحار والأنهار من ثروات تراه حين تقرأ قول الله تعالى :

« وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ »(٢٦).

وباب التجارة : أحد الأبواب التى يسرها المولى الكريم ودل عليها وهو يمتن على عباده بتسخير الفلك والأنهار والبحار فيقول :

« وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ »(٢٧).

ويقول تعالى :

« وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ »(٢٨).

ولا يستفيد من هذا التسخير الا من عرف البحار والأنهار وطرق التجارة ومسالكها .. وهذه قريش ألفت التجارة وأقامت عليها حياتها ومن هنا طالبها الله بشكر هذه النعمة وذلك بعبادة رب البيت فقال :

---

(٢٦) سورة فاطر ١٢/٣٥ .
(٢٧) سورة ابراهيم ٣٢/١٤ .
(٢٨) سورة النحل ١٤/١٦ .

« لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ * إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ * ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ »(٢٩).

كما أن القرآن يلفت النظر الى الجنات المفروشات والنخيل والزرع والحب والنبات فيقول :

« وَهُوَ ٱلَّذِى أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِباً وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنْظُرُوٓا إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ »(٣٠)

ويقول :

« وَهُوَ ٱلَّذِى أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ »(٣١)

---

(٢٩) سورة قريش ١٠٦ .

(٣٠) سورة الأنعام ٦/٩٩ .

(٣١) سورة الأنعام ٦/١٤١ .

ويقول :

« هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَـٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » (٣٢)

ويقول تعالى :

« وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَـٰوِرَٰتٌ وَجَنَّـٰتٌ مِّنْ أَعْنَـٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ » (٣٣)

ويقول تعالى :

« فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِ * أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا * وَحَدَآئِقَ غُلْبًا * وَفَـٰكِهَةً وَأَبًّا * مَّتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَـٰمِكُمْ » (٣٤)

---

(٣٢) سورة النحل ١٦/١٠ ، ١١ .

(٣٣) سورة الرعد ١٣/٤ .

(٣٤) سورة عبس ٨٠/٢٤ — ٣٢ .

وكثير من آيات الكتاب الكريم تذكر لنا أنواع الخير المبثوثة فى أرض الله والتى تحتاج فى زراعتها واستنباتها وتعهدها الى قوة الادراك وحسن الرعاية وتمام العلم بفنون الزراعة وخواص التربة والمحاصيل ..

ومع هذه الدعوة الواضحة للعمل والانتاج بكل أنواعه وأشكاله فاننا لا نعتبر كتاب الله مرجعا صناعيا أو تجاريا أو زراعيا انما هى آيات يسوقها المولى سبحانه يلفت بها الأنظار الى مظاهر قدرته وابداعه ليقيم صرح الايمان على أساس من الاقتناع العقلى الذى لا يضل ولا يزيغ فيكون شكر المنعم على جميل عطائه وفيض احسانه نابعا من وجدان المؤمنين بما لخالقهم ورازقهم من صفات الكمال والجلال كما نستطيع أن ندرك — أيضا — من هذه الآيات ما فيها من هدى لأمة الاسلام ، وارشاد الى أن كمال الاستخلاف عن الله لا يكون الا باكتشاف أسباب القوة والسيطرة على مصادر الثروة والانتفاع بكل ما فى الكون قال تعالى :

« وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِن بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ * إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ » (٣٥)

وليست الصناعة والزراعة والتجارة هى طرق الحصول على المال وحدها فقد يأتى المال عن طريق الجهاد فى سبيل الله أو العمل بأجر للآخرين أو ما شابه ذلك .. وقد يأتى عن طريق الهبة أو الوصية ولا يهب الانسان أو يوصى عادة الا لمن كان جديرا بذلك لصداقته أو قرابته .. وقد يكون المرء مستحقا للمال لأنه من الأنواع التى فرض الله لها نصيبا من الصدقات والاعانات .. كذلك يأتى المال عن طريق الميراث جريا على سياسة القرآن

---

(٣٥) سورة الأنبياء ٢١/١٠٥ ، ١٠٦ .

فى تفتيت الثروة وانتقالها بعد موت الانسان الى ورثته فى نظام معروف ومفصل دون ظلم أو جور ..

(ج) تنميته :

هذا المال الذى أصبح بين يدى الانسان قابل للزيادة والتنمية بالطرق المشروعة فان حاد عنها كان ماله حراما يستحق عليه أشد العقاب .. ينمو المال ويزيد بالكسب الحلال والمعاملة الشريفة القائمة على رعاية المصلحة وتحقيق العدالة للجميع والمبنية على المودة والرحمة .. وما منع الاسلام قط معاملة بين الناس تنفعهم وتخلو من الضرر بهم والذين على فريق منهم وأساس التحريم كله فى الاسلام أن يكون فى العمل المحرم ضرر أو اجحاف أو حطة فى العقل أو الخلق .. (٣٦) ..

لذلك **حرم الغش** اعتبر من غش خارجا عن جماعة المسلمين : « من غشنا فليس منا .. (٣٧) .. » وذلك لأنه قوض بناء الاخلاص والتقوى والاخاء التى يقوم عليها مجتمع الاسلام وتنبثق منها علاقات أفراده ..

« ان من غش فى رطل من الرطب أو من اللحم أو غش فى متر من القماش عن طريق تقديم الخبيث باسم الطيب والردىء باسم الجيد أو عن طريق انتقاص الكيل أو الميزان لابد أن يكون نزاعا فى نفسه الى انقاص الحقوق أيا كانت وكيفما كانت .. وان انتقاص الحقوق اساس كبير لزعزعة الثقة فى المجتمع وسبيل الى قطع الصلات واثارة الأحقاد والبغضاء بين الناس ولذلك ينتشر الفساد فى الأرض وتضيع المصالح(٣٨) » .

---

(٣٦) حقائق الاسلام وأباطيل خصومه : للعقاد ص ١١٦ .

(٣٧) رواه أصحاب السنن .

(٣٨) الاسلام عقيدة وشريعة للشيخ شلتوت ص ٢٨٠ .

والرشوة :

أحـد أوجـه تنمية المـال عن طريق اسـتغلال حاجات النـاس أو اعطاء الحق لمن لا يستحق .. وهى من أكل اموال الناس بالباطـل : « وما وجدت فى المجتمع الا أفسدت موازينه واذا فسدت الموازين اضطرب أمره ولذا قال تعالى : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالاثم وأنتم تعلمون[٣٩] » ..

والاحتكار :

تضييق على الناس ، واعنات لهم وهدم لقاعدة التنافس الشريف فى التجارة ، وقد يكون ذلك عن طريق شراء السلعة من السوق والتحكم فى سعرها ، أو تخفيض السعر مضارة فى تاجر ناشىء ليخلو الطريق أمام المحتكر فيفرض ماشاء له هواه على الناس من أسعار : .. وفى كلتـا الحالتين يبتعد أمثال هؤلاء عن ركب جماعة المؤمنين ليكونوا أداة قسر تلهب ظهر المجتمع وتستغله أسوأ استغلال لذلك قال صلى الله عليه وسلم: « من احتكر طعاما أربعين يوما فقد برىء من الله وبرىء الله منه[٤٠] » .

وكل كسـب فيه اضرار بالفرد أو المجتمع هو من الوسائل غـير المشروعة لتنمية المال .. فالاتجار فى الأعراض عن طريق البغاء واثـارة الشهوات واتتهاز ضعف الانسان ودفعه الى ارتكاب الفاحشـة .. والاتجار فى العقول عن طريق المخدرات والخمور وما أشبههما كل ذلك وسائل غير نظيفة ولهذا حرمها الاسلام ..

---

(٣٩) تنظيم الاسلام للمجتمع للشيخ محمد أبو زهرة ص ١٧ ، والآية من سورة البقرة ١٨٨/٢ .

(٤٠) حديث رقم ٤٨٨٠ مسند الامام أحمد شرح الأستاذ أحمد شاكر .

والربا :

أحد الأبواب التى يفيض بها المال دون جهد أو عمل •• والقرآن يشن عليه هجوما عنيفا فيوصد كل أبوابه ولا يدع ثغرة ينفذ منها من أراد التعامل به الا اذا خلع المرابي عن نفسه رداء الايمان وأصر على ارتكاب المحرم وجاهر الله بالعداء فاستحق اعلان الحرب عليه من الله ورسوله ••

ولقد تناول الباحثون فى القديم والحديث موضوع الربا بالشرح والبيان وأفاضوا فيه بما لا يترك زيادة لمستزيد وذلك لأن التعامل الدولى والاقتصاد العالمى يقوم فى بنائه على المعاملات الربوية •• وكأن العالم فى شرقه وغربه يصر على عصيان الله ومخالفة أمره •• وربما كان للأمم التى لا تدين بالاسلام بعض العذر فى اقامة اقتصادها وحياتها على مثل هذا التعامل •• لكن الأمة التى يرتفع فيها لواء الاسلام ماعذرها وما حجتها ؟ ••

والأمم التى لا تدين بالاسلام لها بعض العذر لا العذر كله لأن الربا محرم فى كل الشرائع لم تقره ديانة ولم يعترف به مصلح : « حرم الربا تحريما باتا فى الكتب المنسوبة الى موسى عليه السلام فجاء فى الأصحاح الثانى والعشرين من سفر الخروج : ان أقرضت فضة الفقير الذى عندك فلا تكن له كالمرابى » وجاء فى الأصحاح الثالث والعشرين من سفر التثنية : لا تقرض اخاك ربا : ربا فضة أو ربا طعام أو ربا شيء مما يقرض بربا » وفيه أيضا « للاجنبى تقرض بربا ولكن لأخيك لا تقرض بربا لكى يباركك الرب الهك فى كل ما تمتد اليه يدك[٤١] » ••

---

(٤١) هذا النص يبين كذب الكتب المنسوبة الى موسى عليه السلام وكيف حرف اليهود الكتب المنزلة لتوافق أهواءهم .. فما كان لموسى أن يقر ظلما واعتداء .. وما كان لشريعته أن تبيح العدالة للاسرائيليين =

واتفقت الكنائس جميعا على تحريم الربا واشتد « لوثر » فى هذا التحريم حتى وضع رسالته عن التجارة والربا وحرم فيها كثيرا من البيوع الربوية [٤٢] الا أن فساد حملة لواء المسيحية ، وسوء استغلالهم للدين واتخاذه وسيله للارهاب والتخلف ، وجمعهم الأموال من حلال أو حرام ويقظة أوربا وثورتها على هذا الضلال .. كل هذا جعلها ترفض الدين جملة وتعزله عن حياتها وتخطط بتفكيرها منهجا يلائمها .. ولما لم يكن الدين هو الحاكم والمهيمن على كل تصرف فان النتيجة الطبيعية لذلك هى الانحراف ..

وهو انحراف خطير شمل جوانب الحياة كلها وفى مقدمتها المعاملات المالية وساد التعامل بالربا وفرض المرابون سلطانهم على العالم كله .. وانجرف المسلمون مع هذا التيار الزاحف فكانت الديون وما تحمله من فوائد ربوية هى المخلب القوى الذى أسقط الأمم الاسلامية فى براثن الاستعمار .. ولم تتخلص منه الا بعد أن قدمت من أبنائها وشبابها وقوتها كل غال ونفيس .. وأفاقت لتحلق بركب التطور العلمى لكنها تحتاج الى مجهود شاق وعمل دائب يشيد فى أساسه على وحى من تراثها وقيمها التى انبثقت من هدايات السماء فتصل الى مقدمة هذا الركب المتطور تحميه وتنقذه من الهوة السحيقة التى يتردى فيها ، وتقوده الى

= وتحرمها على سائر الشعوب .. قال تعالى فى بيان كذب هؤلاء وافترائهم على الله : « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون » (البقرة ٧٩/٢) ويقول : « ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأمين سبيل ويقولون على أن الكذب وهم يعلمون وأن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون » (آل عمران ٧٥/٣ ، ٧٨) .

(٤٢) حقائق الاسلام وأباطيل خصومه للعقاد ص ١١٧ ، ١١٨ .

الحضارة بمفهومها الواضح المستقيم .. حضارة الانسان الذى كرمه الله وأعلى قدره ..

أما العالم الاسلامى فلا عذر له أبدا فى أن يبنى حياته على هـذا التعامل : فكتابه العظيم يأمره أمرا لا هوادة فيه بترك الربا يقول تعالى :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰا۟ إِنْ كُنْتُم مُّؤْمِنِينَ * » .

ويهدده تهديدا خطيرا فيقول :

« فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ » (٤٣)

ويناديه بنداء الايمان ويذكره بتقوى الله ويخوفه النار التى أعدها للكافرين ، وكيف يرضى مؤمن أن يكون مع الكافرين ؟ فيقول :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا ٱلرِّبَوٰا۟ أَضْعَافًا مُّضَـٰعَفَةً وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَٱتَّقُوا ٱلنَّارَ ٱلَّتِى أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ * وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » (٤٤)

وفى قوله تعالى « أضعافا مضاعفة » بيان لبشاعة ما كانوا يصنعون وليس قليل الربا جائزا فالربا « كله حرام لم يقل بحله أحد .. والقرآن اذ يتحدث عن كثير من المحرمات يضع الربا فى مقدمتها ويوجه اليـــه

---

(٤٣) سورة البقرة ٢٧٨/٢ ، ٢٧٩ .

(٤٤) سورة آل عمران ١٣٠/٣ ــ ١٣٢ .

حملة ضخمة وذلك لما فيه من ظلم واجحاف بحقوق المجتمع ولما فيه من جشع وقسوة وامتصاص لدماء الناس وحين يعرضه القرآن يضعه بين أمرين هامين : بين الانفاق فى سبيل الله وما فيه من سخاء النفس واستقرار المجتمعات وما فى الانفاق من أجر عند الله واسعاد للنفس بانتفاء الخوف والحزن عنها فى الدنيا والآخرة :

قال تعالى :

« ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » (٤٥)

وبين التعامل الصحيح القائم على الشعور بحاجة الآخرين وتقدير ظروفهم قال سبحانه :

« وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ »

وترغيب فى وعد الله و ثوابه وتخويف من هول المرجع والحساب حين تبحث كل نفس عن رصيدها من العمل الصالح ..

كما قال عز وجل :

« وَٱتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » (٤٥)

---

(٤٥) سورة البقرة ٢/٢٧٤ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ .

ومع هذا الشعور الجميل بيان دقيق واعجاز محكم لا يصل اليه الا كتاب الله وهو يمزج بين الدراسات المالية والأسلوب القرآنى والدعوة الى الايمان والمحافظة على القيم والأخلاق .. بيان مفصل يحفظ الحقوق فلا تضيع وذلك وهو يدعو الى كتابة الدين قل أو كثر ويبين شرط الكاتب ومن يملى عليه وكيفية الاشهاد وواجب الشهود ومتى يجوز ترك كتابة الدين وأخذ الرهن ضمانا للحقوق وكل هذا مع تقوى الله والاحساس باطلاعه سبحانه على خلجات الصدور وذلك حتى ينبثق التعامل بين الناس من داخل النفس لا من خارجها .. فالتحايل على القوانين مشهور ومن لا يزعه ايمانه لا يرده عن غيه قانون مفروض الا أن يجد له أساسا فى أعماق النفس يحميه وينفذه .. وهذا ما صنعه منهج القرآن .. قال تعالى فى بيان هذه المعاملات :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟ وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ

صَغِيراً أَوْ كَبِيراً إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَـٰدَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِباً فَرِهَـٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَـٰنَتَهُ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا ٱلشَّهَـٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ ءَاثِمٌ قَلْبُهُ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ » (٤٥)

بين الانفاق الكريم والمعاملة الصحيحة يحدثنا القرآن عن الربا باعتباره وسيلة لزيادة الثروات فيبدو هذا الربا كالحا شاحبا لا معنى له وتبدو المفارقة عظيمة بينه وبين الانفاق فى سبيل الله وبينه وبين المعاملة الكريمة للبشر ، ويظهر من يتعامل بالربا كمن به مس من الشيطان :

قال تعالى :

« ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ» (٤٦)

---

(٤٥) سورة البقرة ٢/٢٨٢ ، ٢٨٣ .
(٤٦) سورة البقرة ٢/٢٧٥ .

والمفسرون على أن القيام انما هو يوم البعث ولكن أسلوب الآيات لا يمنع وقوع هذا فى الحياة الدنيا فآكل الربا لا يستقر له قرار ، ولا يشبع من مال وهو دائما خائف نهم .. مصاب بسعار الجشع والطمع وانتهاز الفرص ..

ولعل حال المجتمعات التى تقوم فيها مؤسسات الربا المالية تضيف تأكيدا لذلك .. فرغم جريان نهر الأموال فى أيديهم من أنحاء العالم الا أن القلق والخوف سيطر على هذه المجتمعات ، ولم ينفعها ما تعاطت من خمور ومخدرات وما اصطنعته لنفسها من وسائل اشباع الشهوات وما أثارته من فوضى جنسية ودعارة علنية .. كل هذا لتنتصر على قلقها وخوفها لكن دون جدوى ، فكان الانتحار واللصوصية والخروج على قيم المجتمع علامات خطر فى تلك الأمم التى أصابها مس من الشيطان.

ومن أجل هذا الفساد : أحل الله البيع وحرم الربا .. فمن التزم ذلك نجا ومن انحرف استحق عذاب الله ..

قال تعالى :

« فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ » (٤٧)

وليعلم الأفراد ولتعلم المجتمعات أن الربا نذير خطر لأن الله يمحقه ويهلك أصحابه فالتعامل به كفر بنعمة الله الذى جعل المال وسيلة تيسير لا تعسير تقضى به المصالح ولا تستغل به الحاجات .. والتعامل به اثم كبير ، أما الصدقات فانها زيادة فى المال ونور فى القلب واشراق فى الحياة وكشف الكرب وتيسير فى الطريق ..

(٤٧) سورة البقرة ٢٧٦/٢ .

قال تعالى :

« يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ » (*)

وقال تعالى :

« وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ » (٤٨)

وقد كان يكفى الشعوب التى تدين بالاسلام أن يقول لها قرآنها وأحل الله البيع وحرم الربا .. لترفض هذا التعامل من حياتها الا أن التيار الآسن جرفها ، وكان يكفيها لترفضه ما جره عليها من فقد حريتها واستعمار بلادها وما أصابها بسببه من نكبات وويلات الا أنها تناست كل هذا وتغلغل الربا فى حسها ووجدانها وأصابها ما أصاب العالم من شقاء تمزق ..

ونظرة الى الواقع ترينا أن تطبيق المعاملات الصحيحة والغاء النظام الربوى من أساسه لن يضرنا فى شىء فلن تغلق المصارف والشركات ودور النقد انما سيلغى نظام الفائدة فقط فان المال لا يلد المال .. وتستطيع الدولة أن تتحمل نفقات هذه المصارف كما تتحمل غيرها وهى نفقات سهلة : « فان جملة الفوائد التى أخذتها البنوك فى سنة ١٩٥٦ فى الاقليم

(*) سورة البقرة ٢٧٦/٢

(٤٨) سورة الروم ٣٩/٣٠ .

المصرى ١٥ مليون جنيه وكان دخلنا القومى ١٣٥٠ مليون جنيه » لكنها برغم قلتها « لا تمثل الا ثمن الانتظار وثمن التبلد ثم انها فريضة على المقترض : فالمقترض الذى يريد أن يقرن عمله ببعض موارد الطبيعة يلتزم برد الأصل ورد الثمرة سواء أربح أو لم يربح » « والفكرة فى الغاء الفائدة هى رفع السدود عن الدم الذى يجرى فى الشرايين لأن النقود فى حد ذاتها لا تشبع حاجة • والربا تركز فى النقود فالفوائد التى تضعها المصارف الخاصة ـ مجبرة ـ لتغطى مصروفاتها هى تماما كالضريبة الدخولية التى كانت تفرضها بعض الامارات فى القرون الوسطى والتى فرضها (اسماعيل صدقى) فى فترة على التنقل بين مديرية ومديرية هذه كلها حواجز تضر بنشاط الاقتصاد القومى وما يعود على البلد من دورة النقد وتنشيط الحركة الاقتصادية فى صورة مكرر استعمال الدخل وفى صورة ربح يعود على رأس المال وأجر يعود على صاحب العمل وضريبة تعود على الدولة يفوق اضعافا ال ١٥ مليون جنيه التى سيفقدها المجتمع (٤٩) » ••

يقول ابو الأعلى المودودى أمير الجماعة الاسلامية بباكستان فى دراسته القيمة التى تضمنها كتابه « الربا » لا شك أن الدين من حاجات الحياة الانسانية يحتاج اليه الأفراد فى حاجاتهم الشخصية ويكثر عليه الطلب دائما فى التجارة والصناعة والزراعة وغيرها من الشئون الاقتصادية كما أن المؤسسات الاجتماعية وفيها الحكومة نفسها تكون دائما فى حاجة شديدة اليه ولكن من الخطأ القول بأن حصول الدين بغير ربا أمر مستحيل لأن الأمر لم يؤل الى هذا الوضع السيىء الذى لا يحصل فيه الدين بغير

---

(٤٩) من محاضرة الدكتور عيسى عبده ابراهيم فى ندوة لواء الاسلام بملحقاتها عن الربا فى ٢٩ نوفمبر ١٩٦٠ فى عددها الحادى عشر السنة الرابعة عشرة عدد رجب ١٣٨٠ هـ .

ربا للأفراد ولا للأمم الا لأنكم أبحتم الربا بموجب القانون — حرموه أولا وتبنوا مع الاقتصاد ذلك النظام الذى قد جاء به الاسلام للاخلاق تجدوا كيف ينهال القرض بكل سهولة وبكل كثرة للحاجات الشخصية والاجتماعية بدون الربا بل وكيف تنهال العطايا والمنح على الأفراد والأمم من كل جانب وقد برهن الاسلام على ذلك فعلا .. فقد ظل المجتمع الاسلامى لقرون عديدة يسير شئون اقتصاده على أحسن ما يتصور من الطريق بدون ربا وما جاء عليه قبل هذا العصر الربوى النجس حين من الدهر يكون قد مات فيه رجل مسلم ثم بقى بدون كفن ولا دفن لأن وارثه مانال بالقرض بدون ربا أو تكون صناعة المسلمين وتجارتهم وزراعتهم قد باءت بالخسارة والبوار لا لشيء الا أنه ثبت ان حصول القرض الحسن حسب حاجاتهم التجارية والصناعية والزراعية مستحيل أن تكون الحكومات الاسلامية مانالت الأموال لمشاريع كانت تنويها للمصلحة العامة أو للانفاق فى الجهاد ولا لشيء الا لأن الأمة مارضيت أن تقرضها بدون شيء من الربا .. فاذن لا تحتاج دعواكم هذه — أى أن القرض الحسن شيء مستحيل لا يمكن تحققه والعمل به وأنه لا يمكن أن يقوم بناء الاقراض والاستقراض الا على أساس الربا فقط — الى رد منطقى فاننا قد أثبتنا خطأه بتعاملنا الاجتماعى الى عدة قرون متوالية[٥٠] » .

هذه أهم الوسائل التى وقف المنهج القرآنى فى طريقها وجعلها وسائل دنيئة وخسيسة فى تنمية الأموال وزيادة الثروات .. وحرمها لأنها تتنافى مع مبادئه ونظرته الى وظيفة الانسان وصلته بالمجتمع الذى يعيش فيه ..

---

(٥٠) الربا — لأبى الأعلى المودودى ص ٣٨ ، ٣٩ .

(د) انفــاقه :

الانسان ليس حرا فى ماله ينفقه كيف يشاء لأنه فى جمعه للمــال وتنميته وانفاقه يتعامل مع مجتمع له حق فى هذا المال فان أداه المرء كان جديرا باستخلاف الله ، وان منعه وجعله أداة ظلم ووسيلة ارهاب وانحرف عن غايته سلب هذا الشرف وحرم ذلك الخير ..

فليس من حقه أن يكنزه لأنه يعطل وظيفته ولذلك ورد التهــديد الخطير لمن فعل ذلك قال تعالى :

« وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ *يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ » (٥١)

قال ابن عباس والسدى : نزلت فى مانعى الزكاة من المسلمين وذلك أنه لما ذكر قبح طريقة الأحبار والرهبان فى الحرص على أخذ الأمــوال بالباطل حذر المسلمين من ذلك وذكر وعيد من جمع المال ومنع حقــوق الله منه .. (٥٢) ..

و ليس للانسان أن يبعثر الأموال كيفما شاء له هواه ــ فذلك هو الاسراف الذى يفسد الحياة ويهلك المجتمعات وينذر بالخطر ولذلك شن القرآن حملته على الاسراف والمسرفين والمترفين فجعلهم اخوان الشياطين

---

(٥١) سورة التوبة ٩/٣٤ ، ٣٥ .

(٥٢) حاشية الجمل : الفتوحات الالهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية جـ ٢ ص ٢٧٩ ، ٢٨٠ .

قال تعالى :

« إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا » (٥٣)

وجعلهم دعاة التخلف والتبلد والجهالة والداعين الى القعـــود عن الجهاد فقال :

« وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ * رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ » (٥٤)

والمترفون عبدة التقاليد ، والمعاندون لكل دعوات الاصلاح ..

قال تعالى :

« وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ * قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ * فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ » (٥٥)

---

(٥٣) سورة الاسراء ٢٧/١٧ .

(٥٤) سورة التوبة ٨٦/٩ ، ٨٧ .

(٥٥) سورة الزخرف ٢٣/٤٣ ــ ٢٥ .

وهم لا يكتفون بحرمان أنفسهم من هدايات الله انما يضلون غيرهم ويصرفونهم عن الحق ..

قال تعالى :

« وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ ٱلْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَـٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ * وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ » (٥٦)

وبالمال الذى يجرى بين أيدى المترفين يشيعون الفساد فى الأرض ويوجهون الحياة كما يريدون فيستحقون التدمير .. وهو تدمير يهلكهم ويهلك معهم أممهم التى رضيت بوجودهم وفسوقهم ..

قال تعالى :

« وَإِذَآ أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَـٰهَا تَدْمِيرًا » (٥٧)

وهذا شأن كل من ظلم وفجر واتخذ المال للمتع الرخيصة والمآرب الدنيئة ..

قال تعالى :

« وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ * فَلَمَّآ أَحَسُّوا بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ *

---

(٥٦) سورة المؤمنون ٢٣/٣٣ ــ ٣٤ .
(٥٧) سورة الاسراء ١٧/١٦ .

لَا تَرْكُضُوا وَٱرْجِعُوٓا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ * قَالُوا يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ * فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيداً خَٰمِدِينَ » (٥٨)

والتقتير والبخل والشح هى الوجه المقابل للاسراف والترف ، ومن أجل هذا حاربها القرآن أيضا لأنه يريد أمرا وسطا وانفاقا معتدلا ..

قال تعالى :

« وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً » (٥٩)

وهذا الانفاق المعتدل من صفات عباد الرحمن كما قال سبحانه :

« وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَاماً » (٦٠)

والفلاح لمن وقاه الله شح نفسه ..

قال تعالى :

« وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ » (٦١)

---

(٥٨) سورة الأنبياء ٢١/١١ ــ ١٥ .

(٥٩) سورة الاسراء ١٧/٢٩ .

(٦٠) سورة الفرقان ٢٥/٦٧ .

(٦١) سورة الحشر ٥٩/٩ ، التغابن ٦٤/١٦ .

ولا يجوز أن يحرم مؤمن نفسه عن المتاع الحلال .

قال تعالى :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ * وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ »(٦٢)

« قال علماؤنا رحمة الله عليهم : فى هذه الآية وما شابهها والأحاديث الواردة فى معناها رد على غلاة المتزهدين وعلى أهل البطالة المتصوفين اذ كل فريق منهم قد عدل عن طريقه وحاد عن تحقيقه .. قال الطبرى : لا يجوز لأحد من المسلمين تحريم شىء مما أحل الله لعباده المؤمنين على نفسه من طيبات المطاعم والملابس والمناكح اذا خاف على نفسه باحلال ذلك بها بعض العنت والمشقة ولذلك رد النبى صلى الله عليه وسلم التبتل على ابن مظعون فثبت أنه لا فضل فى ترك شىء مما أحله الله لعباده وأن الفضل والبر انما هو فى فعل ما ندب عباده اليه وعمل به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسنة لأمته واتبعه على منهاجه الأئمة الراشدون اذ كان خير الهدى هدى نبينا صلى الله عليه وسلم فاذا كان كذلك تبين خطأ من آثر لباس الشعر والصوف على لباس القطن والكتان اذا قدر على لباس ذلك من حله وآثر أكل الخشن من الطعام وترك اللحم وغيره حذرا من عارض الحاجة الى النساء .. (٦٣) » ..

وهذا التمتع بنعم الله هو ما يسأل القرآن عن من حرمه بعد أن أحله الله .. يسأل عنه فى لهجة انكارية ويبين انه حلال خالص فيقول :

---

(٦٢) سورة المائدة ٥/٨٧ ، ٨٨ .

(٣٦) تفسير القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ص ٢٢٥٩ .

« قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ » (٦٤)

ولهذا جعل للفقراء والمساكين حقا فى الزكاة وقد قال الفقهاء بأن المسكين هو من يزيد انفاقه على دخله وأن الفقير هو من يملك ما دون نصاب الزكاة •• وذلك حتى تتوافر لهؤلاء حياة انسانية كريمة ••

أما دعوة القرآن للزهد وترك الدنيا فانما ذلك لاخراج حبها من القلب والتحرر من فتنتها وزينتها حتى لا تتحكم فى حس المؤمن ووجدانه وحتى لا يسيطر حب المال على ما وهب الله للانسان من رصيد الايمان فينقلب وحشا ضاريا لا يبالى جمع المال من حلال أو حرام ولا يفىء الى معاملة رحيمة ومنهج مستقيم •• والا فقد كان الكثيرون من صحابة رسول الله ومن بعدهم من الصالحين على جانب عظيم من الثراء فما منعهم هذا أن يكونوا فى مقدمة المنفقين والباذلين والمضحين بما ملكت أيديهم فى سبيل الله •• والأمثلة على ذلك كثيرة مشهورة ••

---

(٦٤) سورة الأعراف ٣٢/٧ ، ٣٣ .

٣ ـ البيع والشراء :

هذه مكانة المال ووسائل تحصيله وطرق تنميته وانفاقه كما رسمها المنهج القرآنى وصلة كل هذا بالمعاملات المالية وبقى أن نعرف أبرز مظهر للتعامل المالى وذلك هو البيع والشراء ..

والأساس الذى يقوم عليه البيع والشراء هو الاساس الرئيسى الذى تقوم عليه حياة المجتمع المسلم كلها من الوفاء بالعهود وحفظ المواثيق وأداء الحقوق وأن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ..

« ان الجفاف طبيعة القانون وشئون التشريع تكاد تكون شيئا مقابلا لشئون الروح وأعمال القلوب وحركات العواطف لكنك اذا تتبعت أسلوب الاسلام فى علاجه لما يدور بين الناس من معاملات وجدته يرقى بها وينفث فيها من طبيعته السماوية فاذا هى تستحيل من نصوص صلبة خشنة الى وصايا أدنى ما تكون الى شرائع الأخلاق ومناهج الأدب »(٦٥)

وأول خطوة على الطريق هو النية الصادقة لمن باع أو اشترى فى قضاء مصالح الناس وتسهيل حياتهم فبهذه النية ينال أجرى الدنيا والآخرة، وبها يبتعد عن مزالق الخطر .. فلا يخون ولا يحلف باطلا ليزيد فى سلعته فعن عبد الله بن أوفى رضى الله عنه : أن رجلا أقام سلعة وهو فى السوق فحلف بالله : « لقد أعطى بها مالم يعط ليوقع فيها رجلا من المسلمين فنزلت: ان الذين يشترون بعهد الله وايمانهم ثمنا قليلا أولئك لا خلاق لهم فى الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب اليم »(٦٦) وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم: اليمين الكاذبة منفقة للسلعة ممحقة للبركة (٦٧) ..

---

(٦٥) هذا ديننا للشيخ محمد الغزالى ص ٢١٩ .
(٦٦) رواه البخارى .
(٦٧) متفق عليه .

ولا يغش فى بيعه فقد مر النبى صلى الله عليه وسلم برجل يبيع طعاما فسأله كيف يبيع ؟ فأخبره •• فأوحى اليه : ان أدخل يدك فيه فأدخل يده فاذا هو مبلول فقال صلى الله عليه وسلم : ليس منا من غش [٦٨] •• وفى رواية مسلم فقال : ما هذا ياصاحب الطعام ؟ قال : أصابته السماء يارسول الله قال : أفلا جعلته فوق الطعام كى يراه الناس ؟ ثم قال : من غش فليس منا ••

وهذه النية الصادقة تدفعه أن يصدق صاحبه ويبين له مافى سلعته من عيوب لأن ذلك وسيلة القربى من الله وزيادة الفضل والخير فيما باع أو اشترى : عن حكيم بن حزام رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : البيعان بالخيار مالم يتفرقا فان صدقا وبينا بورك لهما فى بيعهما وان كذبا وكتما محقت بركة بيعهما [٦٩] ••

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : قال تعالى : أنا ثالث الشريكين مالم يخن احدهما صاحبه فان خانه خرجت من بينهما [٧٠] ••

وكيف يكذب المؤمن فى معاملته ويظلم أخاه ويحتكر قوته ويعامله معاملة الوحوش الضارية لفرائسها فيتحين الفرص للكسب غير الشريف؟ والقرآن والرسول المبلغ لهذا القرآن ــ وهو يقيم ذلك المجتمع ــ قضى على كل هذا الفساد وجعل من فعل ذلك خائنا لأخوانه ودينه دعى للايمان ••

---

(٦٨) رواه أبو داوود .

(٦٩) رواه البخارى .

(٧٠) رواه أبو داود .

أخرج الترمذى وابن حبان فى صحيحه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج الى المصلى يوما فرأى الناس يتبايعون فقال يا معشر التجار .. فاستجابوا ورفعوا أعناقهم وأبصارهم اليه فقال : ان التجار يبعثون يوم القيامة فجارا الا من اتقى الله وبر وصدق . وأخرج ابن حبان فى صحيحه أنه صلى الله عليه وسلم قال : ان التجار هم الفجار قالوا : يارسول الله : أليس قد أحل الله البيع ؟ قال : بلى .. ولكنهم يحلفون فيأثمون ويحدثون فيكذبون ..

ان السماحة فى البيع والشراء أدب اسلامى رفيع يتقرب به المؤمنون لربهم فينالون رحمته .. روى جابر رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : رحم الله رجلا سمحا اذا باع واذا اشترى واذاقضى واذا اقتضى (٧١) ..

« يدعو الاسلام الى أدب السماحة فى البيع والشراء لأنه وسيلة لاثارة الراحة والاطمئنان فى نفوس المتعاملين .. ولا شىء أقوى فى توطيد العلاقات بين الناس من اشاعة الراحة والاطمئنان النفسى ولا شىء يوتر هذه العلاقات من القلق والتذمر ــ السماحة التى يطلب الاسلام ان يتأدب بها المسلمون هى بمثابة وقاية من اندفاع المتعاملين وراء المنفعة المادية المترقبة فى البيع والشراء فيتركونها تطغى على العلاقات الأخوية الانسانية. وبذلك ينزلون فى التعامل الى الغش والخداع أو الكذب والتحايل ويتوصلون بذلك حتما الى الاضرار وهو ما أسماه القرآن الكريم بأكل أموال الناس بالباطل (٧٢) ..

---

(٧١) رواه البخارى .

(٧٢) الاسلام فى حياة المسلم د. محمد البهى ص ٣٧٧ ..

وهذا الارتباط الوثيق بين الايمان والتعامل اليومى هو حال جماعة المؤمنين التى حدثنا القرآن عنها فقال :

« فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ *رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ *لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ » (٧٣)

فالتجارة وذكر الله عملان متصلان يهدفان الى غاية واحدة : يتاجر باسم الله فلا يلهيه الصفق فى الأسواق وصخب الحياة عن مساجد الله واقام الصلاة فهو مدفوع فى تجارته وصلاته وانفاقه بايمانه بالله الذى يخاف منه دائما ومن هنا كانت حياته كلها عبادة لله وحده ..

وعلى هذا الأساس العظيم لا يبيع ولا يشترى الا ما أحل الله .. أما ماحرمه كالخمر والخنزير والنجاسات والميتة والأصنام والمخدرات وكل مافيه ضرر بالفرد أو المجتمع فربحه حرام وسحت .. روى الجماعة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال : ان الله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام فقيل يارسول الله : أرأيت شحوم الميتة يطلى بها السفن ويدهن بها الجلود ويستصبح بها الناس ؟ قال : لا .. هو حرام .. ثم قال :قاتل الله اليهود ان الله لما حرم شحومها جملوها ثم باعوها فأكلوا ثمنها ..

---

(٧٣) سورة النور ٢٤/٣٦ — ٣٨ .

وعلى هذا الأساس ـ أيضا ـ لا يعتدى تاجر على تاجر ولا ينافسه منافسة غير شريفة حرصا على الأخوة التى تجمع المؤمنين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يبع أحدكم على بيع أخيه ولا يشتر على شراء أخيه ولا يخطب على خطبه أخيه .. (٧٤) انما هو الشعور الأخوى الرحيم الذى يغمر كيان مجتمع الاسلام فيحيا فى رحاب الأمان والاستقرار وتبدو معاملات أفراده فى بيعهم وشرائهم جزءا لا ينفصل عن عقيدتهم وقيمهم وتعاليم دينهم ، وتتجمل الحياة بانشراح الصدور وسعة الخلق ورحابة العفو وجمال الايثار وكرم الاخاء وصدق المودة فى الله .. وليس بعد هذا مطلب للانسانية تحيا فى ظله آمنة مستقرة تحوطها رعاية الله وتشملها رحماته وتنزل عليها بركاته ..

٤ ـ مكانة المعاملات من الحياة :

وهذه العناية بكل جوانب المعاملات المالية وبيان الصلة الوثيقة بينها وبين عقيدة المجتمع المسلم تبين منزلة المعاملات من الحياة .. لأن الاسلام دين الحياة يوجهها ويهيمن عليها ويرشدها الى أقوم سبيل ..

وما الحياة الا معاملة .. : معاملة بين الانسان وخالقه ومعاملة بين الانسان وأخيه الانسان .. وما دام الانسان مدنيا بطبعه يحتاج الى من حوله ويؤلف معهم وحدة لا تتجزأ فهو مضطر الى أن يتعامل مع اخوانه والا انعزل بنفسه وعاش وحيدا وهذا مالا يتيسر لأحد .. ومن فعله كان مخالفا لطبيعة البشر .. ومن يستغنى عن الأخذ والعطاء والبيع والشراء وهى معاملة يومية تسير بها قافلة الحياة ?? ..

---

(٧٤) رواه أحمد والبخارى والنسائى .

« فالزارع لابد له من البيع والشراء وكل عامل فى عملـــه يبيع ويشترى حتى الموظف فى ديوانه والمدرس فى درسه والواعظ فى وعظـه والمجاهد فى ميدانه والحاكم فى حكمه •• كل هؤلاء يبيعون ويشترون ويبذلون العمل ويتسلمون البدل •• فمن أخلص فى عمله وقدمه على الوجه الذى يحقق الغرض المقصود منه ويرضى به ربه كان ما يتقاضاه فى مقابل العمل محفوفا بالخير والبركة مثمرا فى نفسه وأسرته وكان هو محل ثقة عند من يعامله فتعظم مكانته فى النفوس ويقبل الناس عليه ويزداد خيره •• أما من أساء فى عمله وخدع وغش وجعل همه أن يأخذ البدل ويستوفى الثمن على الوجه الذى يرضى شهوته فقط غير مكترث بالمصلحة العامة ولا بفائدة المجتمع وغير مقدر لغضب الله وسخطه كان فيما يتقاضاه من الذين يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا •• سيكتشف أمره ويفتضح شـأنه ويعرف بالغش والخديعة فتسوء سـمعته بين الزملاء والرؤساء ولا يلبث حتى ينبذ من المجتمع نبذ النواة أو يرمى كالثوب الخلق [٧٥] ••

---

(٧٥) الاسلام عقيدة وشريعة للشيخ شلتوت ص ٢٧٩ .

الفصل الرابع

الحرية

١ ـ أساس الحريات

٢ ـ حرية الانسان

٢ ـ فى سبيل الحرية

٤ ـ الـــرق :

(أ) ظروفه وروافده

(ب) منافذ الحرية

(ج) معاملة كريمة

(د) معاملة ومعاملة



الحـــرية

١ ـ أساس الحريات :

كم يتوق الانسان الى الحرية ويضحى من أجلها .. وكم يتلاعب الساسة بعواطف الناس وهم يلوحون اليهم بهذا الأمل العذب ..

والحرية ليست شعارات ترفع وأعلاما تخفق ولكنها احساس ينبع من داخل المرء فاذابه وهو سجين الاضطهاد ورهن التعذيب والتنكيل حر يسخر من جلاديه ويرى فى أعينهم معنى المذلة والهوان : يحركهم ويفرض سلطانه عليهم والتاريخ أصدق شاهد، فهؤلاء هم المرسلون جميعا وأتباعهم طوردوا وعذبوا فما لانوا ولا استكانوا بل وقفوا فى وجه المتكبرين قائلين : ماحكى الله عنهم :

« وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ » (١)

وهذا هو بلال ـ رضى الله عنه ـ يصمد أمام وطأة التعذيب وهوله ومازاد على أن قال أحد .. أحد .. يهزبها أركان الظلم ويسم أمية بن خلف وأبا جهل وأتباعهما من الظالمين بالذل والصغار ..

وهذا هو ياسر وزوجه سمية أول شهيدين فى الاسلام ، تلك الأسرة التى سخرت من قوة الشرك واحتملت العذاب فى سبيل المبدأ ، وكان عزاؤها قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : صبرا آل ياسر فموعدكم الجنة ..

---

(١) سورة ابراهيم ١٢/١٤ .

ولقد حاولت قوى العدوان فى مكة أن تفتن المؤمنين فى دينهم •• وما تركتهم فى المدينة بل طاردتهم وقاتلتهم الى أن من الله عليهم بفتح معقل الوثنية ، ودانت لهم بلاد العرب بالطاعة وما استطاعت هذه القوى بكل ما لديها من عدة وعتاد أن تحول أحدا عن دين الله •• وما يمكن لقوة أن تحطم قلبا عرف الحرية وعشقها وتحرر من كل ضغوط الحياة فبقى عزيزا لا يعرف الذل ، كريما لا يرضى بالهوان ، قويا لا يستكين ولا يذل ولا يهون ••

وهذا الأساس المتين هو الذى أرسى قاعدته الكبرى منهج القرآن وهو ينشىء مجتمعا جديدا وفق تعاليمه الربانية وهديه الالهى •• بدأ بالانسان من الداخل فحرره من العبودية لكل ما فى الحياة وجعل العبودية لله وحده •• حرره من الحرص على الحياة والخوف من الموت :

فقال :

« أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ »(٢) .

وحرره من المذلة للقوت ولم يطلب منه لتحصيل قوته وقوت من يعولهم الا السعى وبذل المجهود •• أما الرزق : سعة وضيقا فمرده الى الله سبحانه ••

قال تعالى :

« ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ »(٣)

---

(٢) سورة النساء ٧٨/٤ .

(٣) سورة العنكبوت ٦٢/٢٩ .

وقال تعالى :

« وَمَا مِنْ دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ »(٤).

وحرره من التملق والنفاق من أجل حفظ مكانة أو منزلة عند الناس فقال :

« وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ »(٥)

وقال :

« وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ »(٦).

وحرره من أن يستعبد لوضع اجتماعى فاسد فدعاه الى النظر والتأمل وعاب التقليد والمقلدين ووصف من يقلد غيره دون وعى أو ادراك يميز به بين الحق والباطل بأسوأ صفة فقال :

---

(٤) سورة هود ٦/١١ .

(٥) سورة الأنعام ١٧/٦ ، ١٨ .

(٦) سورة يونس ١٠٧/١٠ .

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا : بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ * وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ » (٧).

ولم يتركه عبدا لنفسه وشهواتها وملذاتها فترديه وتطغيه ، انما حرره من هذه الشهوات ودعاه الى زهد القادرين الواجدين لا العاجزين المحرومين : أباح له الاستمتاع بما فى الدنيا من ألوان المتع ، ولكنه بين له أن هذا المتاع قليل والآخرة خير لمن اتقى .

فقال تعالى :

« وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ » (٨)

وقال تعالى :

« ٱعْلَمُوٓا أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا

---

(٧) سورة البقرة ٢/١٧٠ ، ١٧١ .

(٨) سورة القصص ٢٨/٦٠ .

وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ * سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ » (٩)

ووازن ــ مرة أخرى ــ بين متاع الدنيا ومتاع الآخرة تحريرا للنفس من شهواتها وأطماعها فقال جل شأنه :

« زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ * قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ» (١٠)

وانبثاقا من هذا المنهج العظيم فرض عليه الصلاة : تدريبا للنفس على التواضع والخشوع .. والزكاة : تحريرا من عبودية المادة وطغيان المال .. والصوم : كسرا لشهوة الطعام والجسد ، وتعويدا على قــوة

---

(٩) سورة الحديد ٥٧/٢٠ ، ٢١ .

(١٠) سورة آل عمران ٣/١٤ ، ١٥ .

العزيمة ، وغرسا لخلق الخشية والخوف من الله •• والحج : ليجمع هذا الخير كله ••

وبين له أن الفلاح — كل الفلاح — فى تزكية النفس وتطهيرها ، والخيبة والخسران فى تركها تفسق وتفجر فقال تعالى :

« قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا »(١١)

وذلك كله بناء للانسان المؤمن من الباطن حتى يرتفع به الى القمة العالية فلا يركع أمام ظلم ، ولا يسجد تحت أقدام الملذات ، ولا تستعبده منزلة أو مكانة •• وكيف يستعبد لشىء من ذلك وهو يعلم أن الأمر كله لله : فهو واهب الحياة •• وباسط الأرزاق يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير وهو على كل شىء قدير ••

وهو الغنى والكل اليه فقير ••

قال تعالى :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ * إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ »(١٢)

---

(١١) سورة الشمس ٩١/٩ ، ١٠ •

(١٢) سورة فاطر ٣٥/١٥ — ١٧ •

وهذه الحرية ـ وحدها ـ هى أساس عزة المؤمنين المستمدة من عزة الله سبحانه ..

قال تعالى :

« وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ » (١٣)

وقال تعالى :

« مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا » (١٤)

وهى أساس الحريات التى أعطاها القرآن للمؤمنين فعاش مجتمعهم حرا لا سلطان لأحد عليه ، لأن منهج القرآن بنى المؤمنين به من الداخل قبل الخارج ، ورباهم من الباطن قبل الظاهر فلم تستطع قوة فى الأرض أن تنزع تلك الحرية التى وهبها الله لهذا المجتمع أبدا ..

٢ ـ حرية الانسان :

والحرية التى أعطاها القرآن لمجتمعه عميقة الجذور باسقة الأغصان ممتدة الفروع : شملت الحريات بكل أشكالها وألوانها وظلالها .. وانفتح الطريق أمام الانسان الى عالم النور فاذا به طليق يغرد ويشدو للحياة ، ليعيد بناء الحياة .. لم يعد عبدا لشيء ولا أسيرا لأحد ، انما هو عبد الله وحده .. هكذا ولد حرا ويجب أن يبقى حرا .. من حقه أن يختار ماشاء من عقائد وديانات : فان الايمان أساسه الاقتناع العقلى ، وما تستطيع قوة فى الأرض أن تجبر انسانا من داخله على اعتناق مذهب أو دين الا اذا

---

(١٣) سورة المنافقون ٨/٦٣ .

(١٤) سورة فاطر ١٠/٣٥ .

كانت تمتلك من نفاسة مبدئها ووضوح غايتها ما يشد القلوب الى هـذا المبدأ وتلك الغاية ، وهذا ما صنع القرآن .. بدأ بالعقل فحرره من الأوهام والخرافات ، ودعاه الى التأمل والنظر ، وجعل التفكر أعلى وأشرف وأعظم أنواع العبادة ، وعرض على هذا العقل المتحرر مبادئه وقيمه دون قسر أو اجبار قال تعالى :

« لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِاللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » (١٥)

فآمنت العقول واستجابت النفوس ، ودخل النـــاس فى دين الله أفواجا .. ولم يفرض القتال الا لتحطيم وثنيات الجاهلية فى أنحاء الأرض تلك التى تحول بين الشعوب ونداء الله .. ولهذا خاض المسلمون المعارك فى أنحاء العالم ، وحطموا معاقل الظلم وفتحوا نوافذ الأشعة الالهية على عقول المستضعفين والمستذلين من أبناء الأمم وتركوهم وما يدينون به .. بل دفعوا عنهم كل اعتداءوما حالوا بينهم وبين الوصول الى أرقى المناصب وحافظوا على دور عبادة القوم ليؤدوا شعائر دينهم كما يريدون .. ولما اتضح وجه الحق والتقت القلوب على مائدة الهدى الربانى ، نسيت هذه الشعوب أديانها ، وتحولت الى الاسلام ونسيت لغاتها وتكلمت العربية لغة القرآن .. ولن تجد أعظم من هذه الحرية التى منحها القرآن للانسانية فى اعتناق ما شاءت من دين ، لأنه واثق من الحق الذى بين يديه .. لذلك يقول الله لرسوله صلى الله عليه وسلم :

---

(١٥) سورة البقرة ٢/٢٥٦ .

« وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَنَذِيراً * وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلاً * قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا » (١٦)

ويقول :

« وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ » (١٧)

بل ان هذا المشرك ـ يستجير بالمؤمن فلا يفرض عليه المؤمن دينه انما يسمعه كلام الله ، ثم يتركه وما أراد ويبلغه مأمنه ..

قال تعالى :

« وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ » (١٨)

ومع هذه الحرية الدينية حرية علمية أحاطت بفروع العلم وأنـواع المعارف ولم يحرم منها أحد يمتلك من مواهب العقل والنبوغ ما يؤهله الى أعلى درجات الصدارة العلمية .. وهذا النوع من الحرية هـدية أخرى من هدايا القرآن لم تظفر بها الانسانية فى تاريخها الطويل الا مـع

---

(١٦) سورة الاسراء ١٧/١٠٥ ـ ١٠٧ .
(١٧) سورة الكهف ١٨/٢٩ .
(١٨) سورة التوبة ٩/٦ .

بزوغ شمس هذا الكتاب الخالد الذى جعل العلم حقا مشاعا لجميع البشر، فامتلأت حلقات المساجد والمدارس ودور العلم بطلاب المعرفة من كل جنس وكل لون . واستطاع العقل فى هذا الجو العلمى أن ينطلق فى ميادين الآداب والفلسفة والعلوم ، وأن يجتهد ويستنبط من نصوص الشريعة ما تؤهله لذلك وسائل الاجتهاد والاستنباط ، وان يتدبر الكون وأحداثه وأن يناقش الآراء ويفاضل بينها ويختار منها ما يراه أقرب الى الصواب وأوفق للعقل ، مهتديا فى ذلك كله بقوله تعالى:

« فَبَشِّرْ عِبَادِ * ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ » (١٩)

وفى هذا الجو العلمى الحر والجو الفكرى المنطلق نشأت المذاهب وتعددت الآراء وكثرت المدارس الفكرية ، وتنوعت الحلقات العلمية وكان لكل ذى رأى أتباعه ولكل أمام مؤيدوه .. (٣٠) ..

ومع انطلاقة العقل من ربقة الأوهام واستثارته بالعلم تحريرالانسان من طغيان الساسة والحكام : فمن حقه أن يختار من يراه أصلح للحكم ، ومن حقه أن يناقشه ويعارضه فى الرأى ويشكو له ما وقع عليه من ظلم ، ويخالف أمره ويقف فى وجهه لا يهاب اذا أمره حاكمه بمعصية : فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق .. وللانسان حريته فى النقد والبناء ، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فلا يقف مكتوف اليدين وسفينة الحياة يخرقها الطغاة والمنحرفون ، انما يندفع حرا طليقا يقيم الحق ويأمر بالعدل ويحارب المنكر بكل ما يستطيع ..

---

(١٩) سورة الزمر ٣٩/ ١٧ ، ١٨ .

(٢٠) اشتراكية الاسلام د. مصطفى السباعى ص ٤٨ .

ولم لا يؤدى هذا الواجب تجاه حاكمه ومجتمعه .. ودينه قد أعطاه حريته فى كل شأن وكل أمر ؟؟ أعطاه حرية القول والفعل وتحقيق ماشاء من رغبات ولم يشترط عليه الا أن يكون ذلك وفق المبادىء والأخلاق الكريمة ، وأعطاه حرية اختيار ما شاء من العلم والعمل : يعمل ما يتناسب مع مواهبه ويخصص فيما يراه قادرا على النبوغ فيه .. ومن حقه أن ينتقل من مكان لآخر دون حجر عليه ، أو اضرار به مادام لايعارض مصلحة ولا يعتدى على الحرمات ..

وماذا يبقى للانسان من ألوان الحرية بعد أن أعطاه هذا الدين كل ما يعشق من هذه الألوان ؟ وماذا يبقى لأمة ترنو الى الحرية من ضمانات تحفظ عليها حياتها وحريتها بعد هذه الضمانات التى منحها اياها منهج القرآن .. ؟؟

٣ - فى سبيل الحرية :

وفى سبيل هذه الحرية تناثرت أشلاء الضحايا ، وسالت دماء الأبرياء عبر ممر التاريخ ، تحاول أن تصل الى واحة الحرية الظليلة تلتقط عندها أنفاسها المكدودة المكروبة فما قطعت فى هذا الطريق غير خطوات .. وما نالت الا الفتات المتناثر من أنياب الطغاة المستبدين ، الى أن أضاء نور القرآن فبدد هذا الظلام ومنح المجتمعات الانسانية حقها فى الحرية كاملا فكان هذا ميلادا جديدا للانسان توج به كفاحه الطويل ، وكان تحريره من كافة الضغوط والحاجات وتحطيم كل القيود من حوله منحة الهية تستحق الشكر والثناء الجميل ..

ومن يوم أن طوعت لقابيل نفسه قتل أخيه هابيل ليحرمه من حرية الزواج بمن شرع الله وأحل له .. وجهاد الانسان لم يتوقف . هذا نوح

عليه السلام « لبث فى قومه ألف سنة الا خمسين عاما » فآذوه ومن معه وحرموهم حق الحياة الآمنة المطمئنة وقالوا ما حكى الله عنهم :

« مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ * إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ » (٢١)

وقالوا :

« مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ » (٢٢)

وقال تعالى :

« وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ » (٢٢)

ولما وقفوا فى وجه رسالة الحق حقت عليهم كلمة الله ..

قال تعالى :

« فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ » (٢٣)

---

(٢١) سورة المؤمنون ٢٣/٢٤ ، ٢٥ .
(٢٢) سورة هود ١١/٢٧ ، ٣٨ .
(٢٣) سورة الأعراف ٧/٦٤ .

وما حدث لنوح وأتباعه نسخة تتكرر دائما فى تاريخ المرسلين ..

قال تعالى :

« كُلَّمَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضاً وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْداً لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ » (٢٤)

وقال تعالى :

« فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » (٢٥)

لكننا نتوقف عند جهاد الرسالة الخاتمة العامة لنرى عون الله لها وتأييده لرسولها وكيف لم يعاجل رب العزة من بعث فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بما عاجل به الأمم السابقة برغم طول الأمد وقسوة التعذيب وشدة المطاردة التى لحقت بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .. نتوقف قليلا نأخذ بعض الزاد لرحلة الحياة من موائد الله التى ربى عليها رسول الله وأتباع رسول الله ..

فقد بعث رسول الله الى هذا العالم وحده فبدأ بعشيرته الأقربين ، ثم بأهل مكة ثم بسائر العرب الى أن استقر دين الله ودانت الجزيرة ، فأرسل الى ملوك الأرض يدعوها الى الاسلام .. فهل ترك رسول الله

---

(٢٤) سورة المؤمنون ٢٣/٤٤ .

(٢٥) سورة العنكبوت ٢٩/٤٠ .

وما يدعو له ؟؟ وهل ترك أصحابه ؟؟ أو أن الخطر أحدق بهم والعذاب حل عليهم ؟ ..

لقد رأى السادة وأصحاب السلطان فى هذا الدين هجوما عنيفا على كل ما لديهم من مواريث الجاهلية ، ورأوه دعوة الى تحرير العقول من رق الاستعباد والاستغلال .. وتبع أصحاب السلطان ضعاف النفوس ممن تعصبوا لسادتهم عن جهل دون تفكير رشيد .. ووقف هؤلاء جميعا فى وجه دعوة الله وحاولوا أن يطفئوا مصدر النور بالتضييق على رسول الله وايذائه مرة ، وباغرائه بأعراض الحياة ومفاتنها مرة أخرى ، وهو ثابت فى موقفه يقول : « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ما تركته .. » ..حاصروه فى شعب أبى طالب وحرموه ومن معه الطعام والشراب ، ونفروا منه القبائل واجتمعوا على قتله الى أن نجاه الله ، فهاجر الى أنصار الله فى المدينة .. أما أصحابه فقد تركوا ديارهم مرتين الى الحبشة وأخيرا الى المدينة، وهناك أقام رسول الله مجتمع الاسلام العظيم فلاحقوه بالعدوان .. لكن ثورة الحرية سارت فى طريقها الى أن بلغت هدفها المرسوم ، ولم ترهبها قوة الباطل ، فانطلقت بأمر الله فى كل مكان لا تهدأ لأنها ثورة من أجل الحق يكسبه لنفسه ولمجتمعه وللانسانية جمعاء .. ان الثائر لضيق نزل بـه يهدأ اذا انفرج ذلك الضيق وانه ليثور كما تثور الريح المحجوزة والحيوان الحبيس ما هو الا أن يرتفع الحجاب وينفتح الباب حتى تهدأ الثـورة ويسكن الثائر والمثير ، ولكنه اذا وثب وثبته فى سبيل حق يؤمن به لا يرجع عنه أو يظفر به كما يطلبه ، واذا ظفر به لنفسه لم يكف عن الطلب وهو يراه مضيعا عند غيره ، ويكاد يلمس فى كل شىء نذيرا له بضـياع الحق وحافزا له على حمايته أن يضيع فانما الثورة الباطنة هى محضـا

الثورة الظاهرة .. وطالب الحق هو المطلوب الذى لا ينام عن طلبه وهو الرقيب على سريرته قبل كل رقيب .. [٢٦] ..

هذا المسلم الذى رباه القرآن ، يرى مصابيح الهدى بين يديه فيحس من أعماقه بحاجة الانسانية كلها الى هذا الضياء .. ويرى أن الظالمين يطاردونه ـ دائما ـ ليطفئوا نور الله ويأبى الله الا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ..

والقرآن فى سبيل الحرية يرفض الظلم ويجعل من يرضى به شريكا فيه يستحق عذاب الله فى الآخرة ، فمن واجبه أن يدفع الظلم عن نفسه بكل ما يستطيع ، فان قتل فهو شهيد وان عاش حرا كريما .. ان ضاقت به أرض فأرض الله واسعة فليهاجر فيها ، فان استكان للذل ورضى بالدون كان ظالما لنفسه لم يعطها حقها من الحرية وهى زاد الفطرة السليمة ..

قال تعالى :

« إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا : فِيمَ كُنتُمْ ؟ قَالُوا : كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا* إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا » [٢٧]

---

(٢٦) حقائق الاسلام وأباطيل خصومه ـ للعقاد ص ١٣٨ ، ١٣٩ .
(٢٧) سورة النساء ٤/٩٧ ـ ٩٩ .

وقال تعالى :

« يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ * كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ * وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ * ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ » (٢٨)

وقال جل شأنه :

« قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ » (٢٩)

وهو صبر فى مجال الدعوة الى الله ورفض للذلة حيثما كانت وكيفما كانت وشعار المؤمنين دائما :

قال تعالى :

« وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا » (٣٠)

---

(٢٨) سورة العنكبوت ٢٩/٥٦ ـ ٥٩ .
(٢٩) سورة الزمر ٣٩/١٠ .
(٣٠) سورة البقرة ٢/٢٤٦ .

واذا كان المظلوم الذى رضى بالظلم قد استحق هذا العقاب الالهى فان الظالم له العذاب الأكبر ..

قال تعالى :

« وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ * مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ * وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ * وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ » (٣١)

وفى سبيل هذه الحرية ــ وحتى تأخذ المجتمعات نصيبها الأوفى منها ــ سن القرآن من التشريعات ما يضمن الحفاظ عليها بعد أن أحياها حقيقة تستشعرها القلوب ، وتجاهد فى سبيلها بالغالى والنفيس حتى يتحقق لها ما تريد : فجعل للأمة حقها فى الأمن من اعتداء الغير وفى تقرير مصيرها وحياتها وفق مبادئها ، فان اعتدى عليها معتد هبت فى وجهه وفاجأته قبل أن يفاجأها ..

---

(٣١) سورة ابراهيم ١٤/٤٢ ــ ٤٥ .

قال تعالى :

« وَقَـٰتِلُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ » (٣٢)

ولان تقرير المصير كان يثبت حتى فى ميدان القتال • « يروى أن قتيبة ابن مسلم فتح بعض أقاليم سمرقند من غير أن يخيرهم بين القتال أو الاسلام أو المعاهدة ، فشكا أهل هذا الاقليم الى الحاكم العادل عمر بن عبد العزيز أن قتيبة لم يخيرهم ذلك التخيير ليقرروا مصيرهم ، فأرسل الخليفة الى القاضى ليستمع الى هذه الشكوى ويحققها، فتبين له صدقها فأصدر أوامره الى جند المسلمين بأن يخرجوا من البلد الذى فتحوه ويعودوا الى ثكناتهم ويخيروا أولئك بين هذه الأمور الثلاثة ويقرروا مصيرهم •

فاختاروا العهد ومنهم من اختار الاسلام دينا »(٣٣) •

كما جعل للانسان حقا فى حياة الأمان والاستقرار ، ولم يقبل توبة الظالم الا اذا رد الحقوق الى أصحابها أو عفا المظلوم عنه •• وأوصى بالاستئذان عند دخول المنازل فقال :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَداً فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا فَٱرْجِعُوا۟ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ » (٣٤)

---

(٣٢) سورة البقرة ١٩٠/٢ •

(٣٣) تنظيم الاسلام للمجتمع للشيخ محمد ابو زهرة ص ١٩٩ •

(٣٤) سورة النور ٢٧/٢٤ ، ٢٨ •

وحرم السخرية من الناس والتعالى عليهم وهمزهم ولمزهم ، كما حرم التجسس .. وهتك العورات ، والظن السيىء بالآخرين ، ونهى عن غيبتهم ونقل أسرارهم .. وهو فى ذلك يسير على خطته فى ايقاظ معنى الايمان واستجاشة مشاعر الخوف من الله وروابط الأخوة وما تقتضيه من واجبات فيقول :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِٱلْأَلْقَـٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ * يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ » (٣٥)

الى غير ذلك من المبادىء التى ترسم حدود الأدب مع الغير والمحافظة على حقوقهم ومنع الاعتداء عليهم والرفق بهم والاحسان اليهم ومراعاة حقوق الجوار المؤقت فى سفر أو طريق ، والدائم فى المسكن والأسرة .. وكلها مما انفرد بها المنهج القرآنى وهو يبنى مجتمعا حرا يقدر للناس حريتهم ويحافظ عليها بالتشريع الحكيم والثقة فى رصيد الايمان الذى يحمى المبادىء من أن تزيف أو تمسخ أو تشوه ..

---

(٣٥) سورة الحجرات ٤٩/١١ ، ١٢ .

فما أكرم هذا الجهاد فى سبيل الحرية .. وما أجدر الحرية التى أرادها الله للناس أن يضحى فى سبيلها بالأرواح والدماء ..

٤ ـ الرق :

(أ) ظروفه وروافده :

أتى هذا الدين الى الحياة فوجد عمود الاقتصاد فيها يقوم على الرقيق ، ووجد وضعا اجتماعيا سائدا فى أنحاء الأرض تعترف به الشرائع ويقره الفلاسفة من قديم الزمان : « فالفيلسوف أفلاطون قد اعتبر نظام الاسترقاق نظاما ملازما للجمهورية الفاضلة أو للحكومة الانسانية فى مثلها الأعلى ، وحرم على الرقيق حقوق المواطنة والمساواة ، وقضى على الرقيق الذى يتطاول على سيد غريب غير سيده بتسليمه الى ذلك السيد للاقتصاص منه على هواه، ولا يجوز فكاكه من العقوبةالا بمشيئته ورضاه واذا وجهت الرحمة بالرقيق فانما تجب الرحمة بهمن قبيل الترفع عن الاساءة الى مخلوق حقير لا يحسن بالسيد أن يهتم بالاساءة اليه » .

والفيلسوف أرسطو .. جعل الرق نظاما من الأنظمة الملازمة لطبائع الخليقة البشرية ، فلا يزال فى العالم أناس مخلوقون للسيادة ، وأناس مخلوقون للطاعة والخضوع وحكمهم فى ذلك حكم الآلات الحية التى تساق الى العمل ولا تدرى فيم تساق اليه ، وغاية ما أوصى به أن يتفضل السادة بتشجيع هذه الآلات على الترقى من منزلة الآلة المسخرة الى منزلة الآلة المتصرفة كلما بدت فيها بوادر الفهم والتمييز ...

ولما ظهرت المسيحية فى بلاد اليونان كتب القديس « بولس » الى أهل « أفسس » رسالة يأمر فيها العبيد بالاخلاص فى اطاعة السادة كما يخلصون فى اطاعة السيد المسيح ، وكان الحوارى بطرس يأمر العبيد بمثل هذا الأمر ، وجرت الكنيسة على منهجه وقبلت نظام الرق وزكاه

الفيلسوف « توما الأكوينى » أكبر حكماء الكنيسة لأنه أخذ فيه بمذهب أستاذه أرسطو ، وزاد عليه أن القناعة بأبخس المنازل من المعيشة الدنيوية لا تناقض فضائل الايمان [٣٦] ..

هكذا كان نظام الاسترقاق : أصلا معترفا به ولم يكن من الممكن الغاؤه دفعة واحدة ، لأن ذلك يؤدى الى توقف عجلة الحياة نفسها .. واذن ماذا يصنع القرآن وهو الذى جاء يعطى الانسان حريته وكرامته وانسانيته ؟ ماذا يصنع وروافد الرق تقذف كل يوم فى مجرى الحياة بآلاف الرقيق ، وأبواب العتق موصدة بقيود من حديد ؟؟ .. لقد كان انتماء الفرد الى شعب معين أو طبقة معينة يجعله رقيقا فى نظر كثير من الشعوب ، وكانت الحروب والقرصنة والخطف والسبى وارتكاب بعض الجرائم الخطيرة كالقتل والسرقة والزنى ، بل عجز المدين عن دفع دينه فى الموعد المحدد لسداده كلها روافد للرق ويزيد عليها أن النظام الانسانى أباح للانسان أن يبيع أولاده أو يبيع نفسه .. هذا زيادة على المورد الرئيسى من تناسل الرقيق فكان ولد الأمة يولد رقيقا مملوكا لسيدها ولو كان أبوه حرا ولو كان أبوه السيد نفسه .. ولهذا زاد عدد الرقيق على عدد الأحرار زيادة كبيرة .. « ففى أثينا مثلا بلغ عدد الرقيق زهاء مائة ألف ، فى حين كان عدد الأحرار من الرجال لا يتجاوز عشرين ألفا ، وقد كان من الأمور العادية على حسب ما يذكره أفلاطون أن يملك الفتى الأثينى خمسين رقيقا أو أكثر من ذلك » [٣٧] ..

---

(٣٦) الفلسفة القرآنية ــ للعقاد ص ٨٨ ، ٨٩ .

(٣٧) الحرية فى الاسلام د. على عبد الواحد وافى ص ١٦ .

(ب) منافذ الحرية :

.. ولقد عمد الاسلام الى هذه الأبواب فأوصدها جميعها وحرمها كلها ولم يبق منها الارق الحرب والوراثة تمشيا مع طبائع الأشياء واقرارا للواقع من أجل اصلاحه وتعديله ..

ولذلك لم يترك رق الحرب هكذا انما قيده بالحرب المشروعة التى يعلنها امام المسلمين ، والتى تقع بين جيش الاسلام والكفر .. اذ ليس من المعقول أن يسترق أسرى المسلمين ، ويفرض على الاسلام وحده تحرير من يقع فى يد أبنائه من المعتدين الآثمين ..

وليس الرق وحده هو مصير الأسير بل الامام مخير بين هذا أو المن أو الفداء أو القتل ، ان القرآن لم يذكر الا المن والفداء لأنهما أصل المعاملة التى يعامل بها الأسير .. قال تعالى :

« فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا » (٣٨)

..أما رق الوراثة فانه مقيد بألا يكون الولد من سيدها والا فهى أم ولد : لها ولولدها الحرية الى يوم القيامة وقد وسع على السيد الثرى بمن شاء من امائه دون عقد أو عدد ، وانتهز كل فرصة لالتقاء السيد بأمته لأن ذلك وسيلة التحرير الأبدى .. ولما لم يكن شراء الاماء الا لقصد التسرى بهن ــ فى الغالب ــ كان هذا الباب الذى فتحه القرآن للحرية كفيلا بنضوب هذا المورد وسد باب من أهم أبواب الرق ..

---

(٣٨) سورة محمد ٤/٤٧ .

•• ولقد فتح الاسلام أبواب التحــرير على مصــاريعها وتلمس أوهى الأسباب ليحرر العبيد من رق العبودية •• فجعل مجرد صدور لفظ من السيد يفيد العتق أو التدبير (أى تحرير العبــد بعــد وفاة سيده) سببا فى اعطاء العبد حريته •• كذلك اذا طلب الرقيق مكاتبة سيده وجب عليه اجابته : وقد سأل ابن جــريج عطــاء بن أبى رباح فقال : أواجب على اذا طلب مملوكى الكتابة أن أكاتبه ؟ بقوله : ما أراه الا واجبا واستدل بقوله تعالى :

« وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَـٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ اللهِ الَّذِى ءَاتَـٰكُمْ »

والأمر بايتاء المكاتب مالا يستعين به على الحــرية للوجوب قال البيضاوى : « أمر الموالى بأن يبذلوا لهم شيئا من أموالهم وفى معنــاه حط شىء من مال الكتابة وهو للوجوب عند الأكثر ويكفى أقل ما يتمول •• وعن على رضى الله عنه ، يحط الربع ، وعن ابن عباس رضى الله عنهما الثلث ، وقيل : أمر لعامة المسلمين باعانة المكاتبين واعطائهم سهمهم من الزكاة ، لأنه لا يأخذه صدقة كالدائن والمشترى •• »[٣٩] بل ان مجرد ضرب السيد لعبده أو لطمه يؤدى فى صورة تلقائية الى عتقه عند بعض الفقهاء ••

كما أن تحرير الرقاب كفارة لكثير من الأخطاء ، كالقتل الخــطأ والظهار والحنث فى اليمين والافطار عمدا فى رمضان •• ومن وجبت عليه كفارة من هذه الكفارات ولم يكن يملك عبدا وجب عليــه أن يشترى عبدا ويعتقه متى كان قادرا على ذلك ••

---

(٣٩) تفسير البيضاوى جـ ٢ ص ١٠٠ .

ولقد خصص القرآن سهما من الزكاة لتحرير الأرقاء قال تعالى :

« إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » (٤٠)

« ذكر يحيى بن سعيد أن الخليفة عمر بن عبد العزيز قد بعثه على صدقات أفريقيا ـ أى على جمع الزكاة من أهلها ـ فاقتضاها وطلب فقراء يعطيهم منها فلم يجد ، لأن عمر بن عبد العزيز كان قد أغنى الناس فاشترى بها كلها رقابا وأعتقها .. (٤١) » .

وما بقى من هذه الأبواب مغلقا فتحه القرآن بالايمان ودعا القلوب المؤمنة الى استنقاذ أصحابها من النار بفك الرقاب .. ورغبتها فى المنازل العالية عند الله بتحرير العبيد قال تعالى :

« فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ » (٤٢)

وقال فى أوصاف البررة :

« وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ » (٤٣)

---

(٤٠) سورة التوبة ٦٠/٩ .

(٤١) سيرة عمر بن العزيز لابن عبد الحكم ص ٥٩ .

(٤٢) سورة البلد ٩٠/١١ ـ ١٣ .

(٤٣) سورة البقرة ١٧٧/٢ .

بأن يشتريها ويعتقها أو يساعد المكاتبين على أداء ما عليهم ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل عضو منه عضوا من النار .. »(٤٤) وجعله عليه السلام من أفضل الأعمال التى يتقرب بها الى الله ، فكثيرا ما كان يقول : من فعل كذا كان كمن أعتق رقبة .. الى غير ذلك من المنافذ التى فتحها الاسلام وهو واثق أن عامل الزمن سوف يقضى على أسواق الرقيق ويعيد للمستعبدين حريتهم بعد أن أوصد كل الأبواب التى كانت تأتى بالرقيق الى الحياة ، وترك باب الحرية مفتوحا الى أن ينتهى رصيد القرون دون أن يحدث هزة فى حياة المجتمعات التى يقوم اقتصادها وحياتها الاجتماعية كلها على أساس ما يتحمله الرقيق فى خدمة سادتهم ..

(جـ) معاملة كريمة :

والى أن ينتهى هذا الرق الذى فرضته أوضاع المجتمعات . جاء القرآن بمنهجه ليعدل تلك الأوضاع ، فلم يترك العبيد لرحمة سادتهم وعنفهم وقسوتهم ، انما أوصى بهم خيرا ورفعهم الى مرتبة الآدمية الحقة وأعطاهم من المميزات والحقوق ما يحن اليه كثير من أحرار هذا الزمان ..

جعل العبد عضوا فى أسرة سيده : يأكل مما يأكلون ويلبس مما يلبسون ليس لأحدهم ميزة عليه فى ذلك .. اذا كلف بعمل شاق وجبت معاونته لأنه أخ لسيده : أخ فى الايمان وأخ فى الانسانية وهذا يقتضى الاحسان الذى أوصى به الله فى قوله تعالى :

« وَٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا * وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ

---

(٤٤) متفق عليه .

ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ » (٤٥)

وفيه يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم ولو شاء لجعلكم تحت أيديهم •• فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يطعم وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما يغلبهم فان كلفتموهم فأعينوهم •• »(٤٦) •

ومنع السيد أن يجرح احساس عبده بأن يناديه ، بعبدى أو أمتى : « لا يقل أحدكم عبدى أو أمتى وليقل فتاتى وغلامى •• »(٤٧) وكانت آخر وصاياه قبل انتقاله الى الرفيق الأعلى : الصلاة •• وما ملكت أيديكم •• (٤٨) وضرب صلى الله عليه وسلم المثل الأعلى فى هذه المعاملة : فقد كان يتورع عن تأديب وصيفته ضربا بالسواك •• وقال لوصيفة أرسلها فأبطأت فى الطريق : « لولا خوف القصاص لأوجعتك بهذا السواك » (٤٩) •• وجعل ضرب العبد سببا فى اعتاقه فحماه بذلك من سيده •• كما جعله بعد عتقه مولى للأسرة التى حررته : له مالها وعليه ما عليها يرثها وترثه •• ولم يحرمه بعد عتقه حقا من حقوق الأحرار حتى لو كان خلافة المسلمين ، وفى ذلك يقول عمر وهو يوصى بالخلافة من بعده : « لو كان سالم مولى أبى حذيفة حيا لوليته » فلسالم الذى كان عبدا لأبى حذيفة ما لسيده الحر القرشى من حق الامامة والخلافة ••

---

(٤٥) سورة النساء ٤/٣٦ •

(٤٦) متفق عليه •

(٤٧) البخارى •

(٤٨) رواه احمد فى مسنده والنسائى وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه عن أنس •

(٤٩) رواه احمد والطبرانى باسناد جيد •

كما أعطى دين الله للعبيد حقهم كاملا فى الزواج والطـلاق دون اكراه من أحد وجعل لهم أهليتهم فى الملك والتصرف اذا ما كوتبـوا أو فوضوا من سادتهم فى المال والتجارة ، وما صنعه الاسلام حيال الرقيق يعتبر قفزة فى تاريخ البشرية لم تحلم بها ولم تخطر لها على بال .. لأن أمم الأرض تنظر الى الرق على أنه من الأمور العادية التى تجـرى بها حياتها لم يفكر فى التخلص منها السادة ولا العبيد ـ لكن الدين العظيم « لم يتركها ولم يغفلها ولم يؤجلها بين الاغضاء والاستحسان لهوانهـا وقلة جدواها ، بل جرى فيها على دأبه فى علاج المساوىء الاجتماعيـة والأخلاقية يصلح منها ما هو قابل للاصلاح فى حينه ويمهد للتقدم الى المزيد من الاصلاح مع الزمن كلما تهيأت دواعيه .. » (٥٠)

(د) معاملة .. ومعاملة :

هذه المعاملة الانسانية الرحيمة هى التى فرضها منهج القرآن دون أن يسبق بها فى تاريخ البشر ، لأنه دين الحرية لا يرى فى أمر فســادا الا أصلحه ولو كان هذا الفساد من المسلمات الاجتماعية والأوضـاع العالمية .. وهو فى بنائه لمجتمع جديد لا يقلد غيره انمـا يبنيه بالوحى الالهى والتخطيط الربانى ، وحسبه أنه ألغى الرق وشرع العتق فى عصر أقيمت كل مجتمعاته على نظام الرق يؤيدها فى ذلك الفلاسفة المفـكرون وأصحاب الديانات السماوية من اليهودية والنصرانية ..

فاذا وضعنا ما شرعه كتاب الله وسنة رسوله من معاملة عادلة ردت على هذا النوع من البشر كرامته ورفعته الى مرتبة الانســان .. اذا وازنا هذا بما كان يعامل به الرقيق قبل هذا الدين وبعده فى أمم الحضارة الآن بعد أن ادعت هذا الأمم أنها ألغت الرق وحررت الانسان وأقامت

---

(٥٠) حقائق الاسلام وأباطيل خصومه ـ للعقاد ص ٢٠٣ .

المنظمات العالمية تحمى هذه الحرية فى أنحاء الأرض لظهر لنا وجه الحق مضيئا مشرقا ، ولرجحت كفة التشريع الالهى ، بل لما كان هنالك وجه للمقارنة على الاطلاق بين منهج أساسه حرية الانسان بكل ما فى الحرية من معان ، وخطة تقوم على سلب الآمنين آمنهم وحياتهم وانزالهم الى مرتبة أقل من مرتبة الحيوان ..

ومن حق حملة لواء المنهج القرآنى أن يواجهوا أدعياء الحرية وأن يشهروا سلاح الحق فى وجوههم بعد أن رموا دين الله بالبهتان واتهموه بأنه دين العبيد والرقيق ..

.. ويكفى أن الرق الذى سد الاسلام كل أبوابه وفتح كل طريق للقضاء عليه كان معترفا به فى تلك الأمم الى عهد قريب ، وان أول قرار بالغاء الرق وتحريم التجارة فى البشر أصدرته الأرجنتين فى ١٦ يونيو عام ١٨٢١ م أى بعد أن قضى عليه الاسلام من قبل بأكثر من ألف ومائتى سنة ، ومن بعد الأرجنتين كانت المكسيك فى ١٥ سبتمبر عام ١٨٢٩ م ، وكانت أولى الدول الأوربية فى ذلك المضمار انجلترا ألغت الرق فى ٢٨ أغسطس عام ١٨٣٣ ، وتلتها فرنسا فى أغسطس عام ١٨٤٨ ، ثم هولندا فى عام ١٨٦٣ ، والولايات المتحدة فى ديسمبر عام ١٨٦٥ . وفى مؤتمر بروكسل عام ١٨٩٠ ألغيت تجارة الرقيق بقرار عالمى .. لكن هذا المؤتمر حين ألغى رق فرد أباح رق الشعوب واستلاب حريتها باسم الحضارة والرقى ؟.

«وكانت الخطوات الحاسمة فى تسويغ الاستعمار وجعل استرقاق الشعوب للشعوب نظاما مشروعا تحميه كل القوانين الغربية قرارات مؤتمر برلين عام ١٨٧٨ التى جعلت جريمة الاستعمار عملا حضاريا » .

يقول الدكتور حسين مؤنس فى دراسته « صيد البشر » التى قدمها لجريدة الأهرام فى ١٩/٢/١٩٧١ وأيدها بالصور التى تبين بشاعة ما ارتكبه الأوربيون : « .. لم يحدث قط الا على يد هؤلاء الأوربيين أن تخصص ناس فى عملية صيد البشر وبنيت سفن خاصة لشحنهم ، وأنشئت مخازن للاحتفاظ بالبضاعة البشرية فيها حتى يتم شحنها ، وحدث أكثر من ذلك صنع تجار الرقيق الغربيون أدوات وقيودا وأغلالا خاصة لاستعمالها فى تقييد البشر أو تكميمهم .. وصنعت أقفاص لوضعهم فيها وأختام حديدية تحمى فى النار ثم تختم بها أيدى العبيد وظهورهم كما يفعل الناس بالماشية ، وحددت الأسعار لكل فئة من فئات الرقيق ، ووضعت المواصفات اللازم توافرها فى كل فئة منهم ، وظهرت فى الصحف اعلانات عن بيع الرقيق أو ايجارهم ــ كل ذلك صنعه الغرب وجرى العمل به بصورة قانونية حتى النصف الثانى من القرن التاسع عشر على الأقل .. وكانت الخطوة الأولى فى تشجيع الناس على الاقبال على شراء العبيد هى اذاعة الرأى القائل ، بأن السود الأفريقيين ليسوا من البشر ، وأنهم أقرب الى البهائم ، وعلى هذا الأساس يمكن اصطيادهم واستغلالهم والمتاجرة فيهم كالماشية سواء بسواء .. وكانت عملية الصيد رهيبة كانوا يقتلون ويحرقون دون رحمة ، كانت تسليتهم أن يهاجموا قرى الأفريقيين فى الليل ويلقوا النار فى الأكواخ التى ينام فيها أولئك الأبرياء ويقفوا لهم بالمرصاد على مداخل القرى ومخارجها : تخرج النساء مروعات يحملن أطفالهن على صدورهن ، وأولادهن يجرون خلفهن ــ اذا كانت المرأة شابة أخذوها وقتلوا رضيعها فى الحال .. الأطفال الصغار دون السابعة يقتلون أيضا ــ الباقون يكبلون ثم يساقون الى الحظائر .. لكى يصطادوا عشرين أفريقيا كانوا يبيدون أهل قرية كاملة يقدر « جون هنريك كلارك » أن أفريقيا خسرت فى هذه العملية ما بين ٦٠ ، ١٠٠ مليون أفريقى ، وقد جرت العادة أن يموت فى الغارة

ستة أضعاف من يؤسر فيها ويؤخذ رقيقا •• وهؤلاء الأسرى يساقون الى القلاع فى انتظار شحنهم الى الأسواق •• وفى أثناء احتجاز الرقيق فى القلاع كانوا يضربون ضربا مبرحا ويعذبون تعذيبا شديدا حتى تذل نفوسهم ويملأ الرعب قلوبهم من الأوربيين ويصيروا لهم أطوع من البنان ••

وكانوا يهتمون بأن ينقلوا على السفينة أكبر عدد ممكن من الرقيق : كانوا يرصونهم رصا فى غرف سيئة التهوية ، الغرفة التى سعتها ثلاثة أمتار فى أربعة يحشرون فيها خمسين أفريقيا •• كانوا يعطونهم أقل قدر من الطعام • لقمتين من الخبز وقطعة من البطاطس للواحد منهم فى اليوم والليلة •• •الماء أيضا كان يعطى لهم بحساب دقيق •• نصف كوب للشخص فى اليوم •• لم تكن هناك دورات مياه أو أى تنظيم صحى •• النتيجة ، كثيرون من الأفريقيين كانوا يصابون بالمرض فى أثناء الرحلة الطويلة من شاطىء أفريقية الى شواطىء البحر الكاريبى •• كان المرض اذا اشتد بأحد الأفريقيين ألقوا به فى البحر حيا •• هذه الرحلة كانت تعتبر أسوأ ما يصيب الأفريقيين بعد وقوعهم فى الأسر ، اذا تراخت الرياح أو تأخرت أرغم الأفريقيون على التجديف باستمرار •• والويل لمن يتراخى أو يتوقف : كان يجلد بالسياط أو يضرب بالرصاص •• وفى العادة كان يموت ثلث حمولة السفينة فى أثناء هذه الرحلة •• وبعد الوصول كان الباقون أحياء يوضعون فى حظائر ويقدم لهم شىء من الطعام والماء ليستردوا قواهم ويظهروا فى صورة رجال ونساء أصحاء قادرين على العمل •• هكذا يصل هؤلاء التعساء كعبيد لا فرق بينهم وبين الماشية أو المتاع •• وبمجرد أن تتم عملية الشراء يصبح العبد ملكا تاما لصاحبه، لا يسأله القانون عن حياته أو ما يصنع به ، لأنه كان مجرد شىء •• وكان

الأنجلو ساكسون يجتهدون فى تحطيم كل المقومات الانسانية والثقافية للأفريقى الذى يشترونه .. كانوا يبدءون بتفريق العائلات ينتزع الأطفال من أمهاتهم ، وتباع الزوجة فى بلد والزوج فى بلد آخر ، وكانوا يحرمون عليهم التحدث بلغتهم وكل ذلك لكى يقطعوا كل صلة لهم بأصلهم ، وقد عرف الأنجلو ساكسون كيف يصنعون أدوات للتعذيب خاصة بالأفريقيين، بل صنعوا لهم كمامات من الحديد هى أشبه بأقفاص فى حجم الرأس يلبسونهم اياها فى أثناء العمل حتى لا يجرؤ الأسود على الهرب ، لأنه اذا هرب بها لا يستطيع اخراج رأسه منها ووضعت القيود على تنقلاتهم فلم يكن من الممكن أن ينتقل أفريقى وحده أبدا .. لابد أن يصاحبه أبيض [٥١]» .

فهل بعد هذا الاعتداء الصارخ على الانسان وكرامته وحريته اعتداء ؟

وهل ما يقع من ظلم على الزنوج فى أمريكا وما يلقى أسرى الحرب العالمية فى الدول المنتصرة من مذلة وهوان يتناسب مع عصر الحضارة والتقدم ؟

وهل يحق لتلك الأمم أن تدعى أنها حاملة لواء الحرية ، وأنها وصلت الى قمة الحضارة الانسانية ؟!

ألا ما أبعد الفرق بينها وبين ما أعطاه القرآن للمجتمع الانسانى من الحرية مما يحق لأتباع هذا القرآن أن يفاخروا به وأن يرفعوا رءوسهم

---

(٥١) من مقال د. حسين مؤنس تحت عنوان : صيد البشر ـ جريدة الأهرام فى ١٩٧١/٢/١٩ م .

عالية ، لأنهم وحدهم سدنة الحرية ودعاتها •• استمتعوا بها فى ظل كتابهم الخالد ومنحوها للانسانية على اختلاف أجناسها وألوانها وأديانها وبلادها ••

وليس بعد هذه الكرامة فضل يفاخر به أتباع دين ما يفاخر أتباع دين الاسلام فان دينهم دين الحرية والحق والعدل والسلام ••

الفصل الخامس

المســاواة

١ ــ وحدة الجنس البشرى ..

٢ ــ مساواة عادلــة ..

المســـاواة

١ ـ وحدة الجنس البشرى :

اذا كانت الحرية أمل الأمم والشعوب ، وجاء منهج القرآن ليقيم المجتمع على أساسها ، فان المساواة هى الجزء المكمل لبناء هذا المجتمع .. وتلتقى الحرية مع المساواة لتعطى الصورة الوضيئة لما وهبه القرآن للمجتمعات من هذه المعانى الانسانية الرفيعة .. ومساواة القرآن أساسها وحدة الجنس البشرى : آدم عليه السلام أبو البشر ومن العنصر الذى خلق منه آدم خلقت حواء ومنهما تناسل جميع البشر .. وليس هناك .. اذن ـ مجال لادعاء أن هذا خلق من فم الاله وذاك خلق من رجله كما يدعى البراهميون .. وليس هناك فصائل خلقت مزودة بالعقل والارادة، والأخرى محرومة من هذا العقل كما زعم فلاسفة اليونان ..

وليس هناك شعب مختار بحسب خلقه ، وآخر وضيع كما افترى الاسرائيليون .. انما هى وحدة الانسانية فى منشئها ومصيرها .. فى محياها ومماتها .. فى حقوقها وواجباتها .. لا فضل الا بما يقدمه المرء من عمل صالح .. ولا اختيار لأمة الا بمقدار ما تبذل فى سبيل رسالتها وما تعطيه لغيرها ولنفسها ولأبنائها من خير ..

وان هذا الذى أقره كتاب الله لهو الهداية الالهية ، يؤكدها فى أسلوبه المشرق البديع فيقول :

« وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا

ٱلْعِظَـٰمَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقاً ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ »(١)

ويقول جل شأنه :

« وَٱللهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجاً وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللهِ يَسِيرٌ »(٢)

ويقول عز من قائل :

« أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ * فَجَعَلْنَـٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ * إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ * فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَـٰدِرُونَ »(٣)

ويقول رب العزة :

« فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِن بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ »(٤)

---

(١) سورة المؤمنون ٢٣/١٢ ــ ١٤ .

(٢) سورة فاطر ٣٥/١١ .

(٣) سورة المرسلات ٧٧/٢٠ ــ ٢٣ .

(٤) سورة الطارق ٨٦/٥ ــ ٧ .

يقول تعـالى :

« يَـٰأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَآءً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً »(٥)

فهى اذن رحم واحدة •• متواصلة لا تتعادى ولا تتناكر •• وما اختلفت أسماؤها وعناوينها وأممها الا من أجل امداد الحياة بشتى المواهب لينتظم أمرها ، وتستقر أوضاعها وتتعاون فيما بينها على تيسير مصالحها وقضاء حاجاتها ••

قال تعالى :

« يَـٰأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوباً وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ »(٦) .

وفى هذا المعنى يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى خطبة الوداع : « أيها الناس ان ربكم واحد وان أباكم واحد •• كلكم لآدم وآدم من تراب ، وليس لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى ولا لأحمر عـلى

---

(٥) سورة النساء ٤/١ .

(٦) سورة الحجرات ٤٩/١٣ .

أبيض ولا لأبيض على أحمر فضل الا بالتقوى .. ألاهل بلغت ؟ اللهم فاشهد .. ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب .. (٧) » ..

٢ ــ مساواة عادلة :

هذه النظرية السهلة الميسرة فى حقيقة المنشأة الأولى أثرت الحياة بالاخاء والتواضع والعمل الصالح ولم تترك للأحساب والأنساب ومن ادعوا أنهم من نسل الآلهة أو من جنس كريم والناس جميعا من جنس لئيم .. لم تترك لهؤلاء بابا الا أوصدته وتركت باب السبق فى الخيرات ميدانا فسيحا يتنافس فيه المتنافسون ، وأقرت بذلك مبدأ التفاوت فى المواهب والقدرات، مما ترتب عليه التمايز فى الأرزاق والدرجات ومناصب العلم والجهاد ، لكن هذا التفاوت لم يكن فى نظر منهج القرآن وسيلة للاستعلاء والسيطرة واستلاب الحريات وفرض الارادات ، انما هو لخدمة المجموع فى جو من المودة الانسانية والأخوة الرحيمة والمنبعثة من ايمان المؤمنين :

« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ » .

وباقرار التفاوت أقر القرآن الكريم أصلح النظم التى تستقيم عليها حياة الفرد والجماعة . لأن سنة الاختلاف بين الأحياء أعمق من حياة البشر وأعمق من نظم الاجتماع أو نظم الاقتصاد .. وحكمة التفاوت ظاهرة وآفة التشابه والتساوى أظهر ، لأن الحياة تفتقر الى المزايا اذا قصرت حركتها على تكرير صورة واحدة فى كل فرد من الأفراد ، وجعلتهم كلهم نسخة واحدة لا فضل لبيئة منهم على بيئة ولا لمجموعة منهم على مجموعة ولكنها تزخر بالمزايا المتجددة وتستزيد من الملكات المتعددة ..

---

(٧) رواه البيهقى .

كلما طرأ بينها التفاوت فى الصفات والتفاوت فى الأنصبة ، وكان للتفاوت بين آحادها فضل يحرصون عليه ويتطلعون الى بلوغه والتقدم فيه (٨) .

.. وعلى هذا تفاوت الأنبياء فى درجاتهم :

قال تعالى :

« وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ » (٩)

وقال تعالى :

« تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ » (١٠)

وتفاوت الناس بعلمهم ..

قال تعالى :

« قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ والَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ » (١١)

وقال تعالى :

« يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَٰت » (١٢)

---

(٨) الفلسفة القرآنية : للعقاد ص ٤١ ، ٤٢ .
(٩) سورة الاسراء ١٧/٥٥ .
(١٠) سورة البقرة ٢/٢٥٣ .
(١١) سورة الزمر ٣٩/٩ .
(١٢) سورة المجادلة ٥٨/١١ .

ولم يتساووا فى حظوظهم من الأرزاق ..

قال تعالى :

« نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيًّا » (١٣)

وقال تعالى :

« وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى الرِّزْقِ » (١٤)

أى فاضل وفاوت بينكم فى الرزق فبسط على واحد وضيق على واحد وقتر على واحد وكثر لواحد وقلل على واحد .. وكما فضل بعضهم على بعض فى الرزق كذلك فضل بعضهم على بعض فى الخلق والخلق والعقل والصحة والسقم والحسن والقبح والعلم والجهل وغير ذلك .. فهم متفاوتون ومتباينون فى ذلك كله وهذا مما تقتضيه الحكمة الالهية والقدرة الربانية (١٥) ..

وتلك هى المساواة العادلة التى يسعد بها المجتمع الانسانى .. وبدونها يكون الصراع بين الطبقات سمة بارزة فى كل جماعة انسانية ضلت طريق الاسلام .. ولن يحول دون صراع هذه الطبقات العمل على ازالتها ومحوها فذلك مستحيل ، انما يكون بالاعتراف بالتفاوت مع اعطاء كل ذى حق حقه مهما كانت مكانته من العلم وأغراض الحياة.. « فالعالم بخير مادام فيه أنواع الكفايات وفوارق المزايا والصفات ، ومادامت هذه الأنواع والفوارق فيه يتمم بعضها بعضا ، ويجرى بعضها على معرفة

---

(١٣) سورة الزخرف ٣٢/٤٣ .

(١٤) سورة النحل ٧١/١٦ .

(١٥) تفسير حاشية الجمل على الجلالين ج ١ ص ٥٨٥ .

بعض •• والعالم على شر ما يكون اذا زال فيه كل خلاف يزاول الأداة المختلف عليها يتنازع الناس الأموال فتزول الأموال ، ويتنازعون الحكم فيزول الحكم ، ويتنازعون الحرية فتزول الحرية ، وما هم فى الحق بقادرين على ازالة شيء واحد يتنازعون عليه فلو أزالوا فوارق الأرزاق لم يزيلوا الفوارق بينهم على الذكاء والغباء ، أو على القوة والضعف ، أو على الجاه والخمول ، أو على الوسامة والدمامة ، أو على الذرية والعقم، ولو أنهم أزالوها لزالوا أجمعين ولكنهم باقون برحمة الله ولا يزالون مختلفين »(١٦) ••

وهذه المساواة العادلة التى أشرق بها منهج القرآن على الدنيا أعطت للانسانية حقها الكامل فى المساواة الحقيقية •• وما دام الناس متساوين فى الأصل الذى منه انبثقوا فلا مكان بينهم للعصبية والتعالى والتفاخر •

لذلك رأينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرر أنه بشر وفرد كسائر الأفراد الا أنه تحمل أمانة الدعوة الى الله ••

قال تعالى :

« قُلْ إِنَّمَآ أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ »(١٧)

وقال تعالى :

« قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَراً رَّسُولاً »(١٨)

---

(١٦) حقائق الاسلام وأباطيل خصومة للعقاد ص ١٠٠ .

(١٧) سورة الكهف ١٨/١١٠ .

(١٨) سورة الاسراء ١٧/٩٣ .

وهو عليه السلام — دائما — يؤكد هذا المعنى حتى لا يكون تقديره واجلاله داعية تقديس وعبودية فكان يقول : « لا تطرونى كما أطـرت النصارى ابن مريم فانما أنا عبده فقولوا : عبد الله ورسوله [١٩] » ••

ويقول وقد خرج على جماعة فوقفوا له تبجيلا : « من سره أن يتمثل له الرجال قياما فليتبوأ مقعده من النار[٢٠] » •• بل عشيرته وأهله متساوون مع كل البشر •• لن ينفعهم الا ما قدموه بين أيديهم من صالح الأعمال•• يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا معشر قريش لا أغنى عنكم من الله شيئا ، يا بنى عبد مناف لا أغنى عنكم من الله شيئا ، يا عباس ابن عبد المطلب لا أغنى عنك من الله شيئا ، ويا صفية عمة رسول الله لا أغنى عنك من الله شيئا ، ويافاطمة بنت محمد سلينى ما شئت من مالى لا أغنى عنك من الله شيئا[٢١] » ••

الكل بشر : لا فرق بين أسودهم وأبيضهم ولا بين فقيرهم وغنيهم ولا بين رجالهم ونسائهم هم جميعا متساوون : فى حق التعبد والنسك ولهم من الأجر والجزاء على جهد كل منهم ••

قال تعالى :

« إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ

---

(١٩) رواه البخارى .

(٢٠) رواه ابو داود والترمزى .

(٢١) متفق عليه .

وَٱلصَّـٰئِمِينَ وَٱلصَّـٰئِمَـٰتِ وَٱلْحَـٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَـٰفِظَـٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيراً وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً » (٢٢)

وقال تعالى:

« فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وأُخْرِجُوا مِنْ دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَـٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَـٰرُ ثَوَاباً مِّنْ عِندِ اللهِ ، وَاللهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ » (٢٣)

وقال تعالى:

« وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَـٰئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيراً » (٢٤)

وقال تعالى:

« مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْأُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ا

(٢٢) سورة الاحزاب ٣٥/٣٣ .
(٢٣) سورة آل عمران ١٩٥/٣ .
(٢٤) سورة النساء ١٢٤/٤ .

فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ » (٢٥)

وهم متساوون فى العقوبة على أخطائهم ..

قال تعالى :

« وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ » (٢٦)

وقال تعالى :

« الزَّانِيَةُ والزَّانِى فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ اللهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ » (٢٧)

والرسول صلى الله عليه وسلم يضرب المثل الأعلى فى تطبيق ذلك فيقول لأسامة بن زيد ـ حبه وابن حبه ـ مستنكرا شفاعته للمرأة المخزومية التى سرقت قطيفة وحليا : « أتشفع فى حد من حدود الله ؟ » ثم قام فخطب الناس فقال : « انما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا اذا سرق الشريف تركوه واذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها (٢٨) » ..

---

(٢٥) سورة النحل ٩٧/١٦ .
(٢٦) سورة المائدة ٣٨/٥ .
(٢٧) سورة النور ٢/٢٤ .
(٢٨) رواه الجماعة

والناس **متساوون فى حق العمل** لا يمنع واحد من عمل مشروع ولا يعاب عليه مهما يكن هذا العمل ، يقول رسول الله صـــلى الله عليه وسلم : « لأن يأخذ أحدكم حبله ثم يأتى الجبل فيأتى بحزمة من حطب على ظهره فيبيعها فيكف الله بها وجهه خير له من أن يسأل الناس أعطـوه أو منعوه (٢٩) » ..

وعن المقدام بين معديكرب رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليــه وسلم قال : » ما أكل أحد طعاما قط خير من أن يأكل من عمل يده ، وان نبى الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده (٣٠) » ..

وهذا عبد الرحمن بن عوف كان يتاجر فى السمن والجبن فى سوق المدينة . وهذا أبو بكر رضى الله عنه ــ وقد بويع بالخلافة يخرج حامــلا أثوابه الى السوق يتجر فيها فلقيه عمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنهما فقالا : كيف تصنع هذا وقد وليت أمور المسلمين ؟ فقال : فمن أين أطعم عيالى ؟ قال : يفرض لك فى بيت المال .. ففرض له فى بيت المال ما يسد حاجته وحاجة من يعولهم حتى يتفرغ لشئون الخلافة ..

واذن فالباب مفتوح لكل فرد ليعمل ويستمتع بما اكتسب من عمله بعد أن يؤدى حق الله وحق المجتمع فيما اكتسبه من مال .. وبذلك لا يضيع فقير ولا يحرم مسكين ولا يطغى صاحب مال ولا يحرم أحد ثمرة كفاحه ..

.. **وحق العلم والثقافة مباح للجميع** .. ولقد أضـــاء فى أفق تاريخ الاسلام علماء من الموالى والعبيد وأهل البلاد المفتوحة .. لم يحرمهم

---

(٢٩) روا هالبخارى .

(٣٠) روا هالبخارى .

الاسلام من العلم للونهم أو جنسهم ، انما أحيا فيهم انسانيته الرحيمة فتفوقوا وبرزوا فى مجالات العلم وفروعه وتولوا الفتيا وتدوين العلوم والفنون وتأصيل القواعد لكثير من علوم العربية والاسلام : « كان عبد الله بن عباس يذكر ويذكر معه مولاه عكرمة وكان عبد الله بن عمر كثيرا ما يذكر ومعه مولاه نافع وأنس بن مالك ومعه مولاه ابن سيرين وأبو هريرة ومعه مولاه عبد الرحمن بن هرمز، بل كانت دولة الفقه للمولى فى بعض الأمصار كالبصرة ، حيث كان على رأسهم الحسن البصرى ، وفى مكة كان مجاهد ابن جبر وعطاء بن أبى رباح وطاووس بن كيسان ، وهذا الليث بن سعد كان أهل بيته يقولون: نحن من الفرس من أصبهان ، وهذا ابن حنبل أصله من مرو، والطبرى: من آمل بطبرستان وابن جريج: رومى المنبت وربيعة الرأى : فارسى الأصل . والشعبى علامة التابعين : كانت أمه من جلولاء . وهذا سيبويه الفارسى الأصل يضع قواعد النحو والكسائى وارث علماء البصرة فى اللغة فارسى الأصل وتلميذه الفراء ، كان ديلميا كمهيار وابن مسكويه وابن سينا والفارابى كانوا فرسا أجمعين . ومن قبلهم كان ابن المقفع الفارسى الأصل سيد النقلة الى العربية[٣١] ..

ولا منافاة بين صاحب حرفة وما يكسبه من ألوان العلم والمعرفة ، بل ان المنهج الذى تربى عليه المسلمون مزج بين السعى فى طلب الرزق والنبوغ فى ألوان المعرفة . « كان الامام أبو حنيفة خزازا ، كما كان كثير من رجالات الفقه بعده تجارا وصناعا . هذا الامام الخصاف : أحمد ابن عمر بن مهير أبوه تلميذ محمد والحسن صاحبى أبى حنيفة ، وكان الخصاف يؤلف للمهتدى بالله كتاب الخراج ويصنف كتبه العظيمة فى الفقه ، فى حين كان يعيش من خصف النعال ، وهذا الكرابيسى يبيع

---

(٣١) . أبو حنيفة بطل الحرية والتسامح فى الاسلام للأستاذ / عبد الحليم الجندى ص ٢٥ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٤٣ .

الكرابيس أو الثياب الخام ، وهذا القفال يخرج يده فاذا على ظهر كفه آثار فيقول : هذا من أثر عملى فى صناعة الأقفال ..

وهذا ابن قطلوبغا يعمل خياطا ، والجصاص شيخ زمانه ينتسب الى العمل فى الجص ، ثم هؤلاء: الصفار : من بيع الأوانى الصفرية (النحاسية) والصيدلانى (من بيع العطر)، والحلوانى (الذى كان أبوه يبيع الحلوى) والدقاق والصابونى والنعالى والبقالى والقدورى وغيرهم كثيرون يشهدون من خلال حقب التاريخ ، وبمجرد أن انفجر فجر الحضارة الاسلامية أن هذه الأمة حققت فى العصور الأولى ما جاهد العالم الغربى عشرات القرون لتحقيقه ولما يكد يحققه ، أن ليس ثمة مهن رفيعة وأخرى وضيعة ، انما ثمة رجال رفيعون وآخرون لا رفعة فيهم (٣٢) » .

ولقد سوى الاسلام بين الناس جميعا فى هذه الحقوق وغيرها من أنواع النشاط الانسانى لا فرق بين حاكم ومحكوم ، أو شريف ووضيع . ومناط الشرف والضعة هو تقوى الله : « ان أكرمكم عند الله أتقاكم » .

وها هو ذا أبو بكر يخطب الناس بعد أن ولى الخلافة فيقول : أيها الناس لقد وليت عليكم ولست بخيركم ان رأيتمونى على الحق فأعينونى، وان رأيتمونى على الباطل فقومونى .. كما كرر عمر هذا المعنى فقال له بعض الحاضرين : والله لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا . فقال : الحمد لله الذى جعل فى أمة محمد من يقوم اعوجاج عمر ..

ولقد شملت هذه المساواة ما بين الرجال والنساء : فالمرأة كالرجل فى سائر تلك الحقوق وان كان لها من الأعمال ما يتناسب مع أنوثتها ورقتها ، ولها فى الميراث نصف ما للرجل لكثرة أعبائه ، فهو المكلف بالانفاق عليها وعلى أولاده منها ، وعليه من المسئوليات المادية تجاه بيته

---

(٣٢) أبو حنيفة بطل الحرية والتسامح فى الاسلام للأستاذ عبدالحليم الجندى ص ٥٣٠ ، ٥٤٣ .

ومجتمعه مالم تكلف به المرأة ، وفى الشهادة : لا تمس كرامتها الانسانية، لأن جعل شهادة امرأتين تعدل شهادة رجل واحد فى الأمور المالية لما جبلت عليه من عطف الأمومة والبعد عن الحياة العملية ، وقد تنسى فتذكرها الأخرى كما قال القرآن ..

وتلك المساواة التى منحها كتاب الله للمرأة لا تدانيها مساواة التى وقتنا الحاضر فى أى حضارة سابقة أو لاحقة ، فهى صاحبة الرأى فى اختيار زوجها ، ولها حق الميراث والهبة والوصية ، لها حق التصرف فى مالها دون تدخل زوجها ، تحتفظ باسمها واسم أبيها ولا تذوب شخصيتها فى أسرة الرجل ، وهى على قدم المساواة مع الرجال فى كافة الحقوق والواجبات ، لأنها شقيقة الرجال ..

قال تعالى :

« هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا » (٣٣)

وما هكذا المساواة التى حصلت عليها المرأة فى أمم الغرب فانها ما خرجت للعمل وتساوت بالرجل الا لأن الرجل تخلى عنها ولم يحفظ لها أنوثتها وعفتها .. ووجد أرباب المال ذلك فرصة سانحة يضربون بها كرامة الرجل وحقه فى أجره كاملا فى مساواة مادية اقتصادية .. ومن أجل تحقيقها طلبت المرأة بحقها فى الانتخاب ، ولا تزال المرأة فى فرنسا مجردة من صفة الأهلية فى كثير من الشئون المدنية : « فلا يجوز لها أن تهب ولا أن تنقل ملكيتها ، ولا أن ترهن ولا أن تملك بعوض أو بغير عوض بدون اشتراك زوجها فى العقد أو موافقته موافقة كتابية ، وعلى الرغم مما أدخل على هذه المادة من قيود وتعديلات فيما بعد فان كثيرا من

(٣٣) سورة الأعراف ١٨٩/٧ .

آثارها لا يزال ملازما لوضع المرأة الفرنسية المتزوجة من الناحية القانونية الى الوقت الحاضر »(٣٤) ..

ولن تقارن المساواة التى أهداها المنهج الالهى للانسانية بما يسود من تفرقة عنصرية بغيضة يحمل وزرها اليهود ويدعون أنهم شعب الله المختار ، ويستبيحون قتل شعب ومسخه من الوجود والاستيلاء على أرضه ، وينزلون بالشعب العربى ما يمليه هذا الحقد من ألوان الطرد والتشريد ..

ولا بما يسود من تفرقة عنصرية بين البيض والسود فى أمريكا التى أذلت الرجل الأسود وحرمته من حق الحياة .. مجرد الحياة ، ومنعته من حقه فى العلم والمأكل والملبس والمسكن والعمل ، وفرضت عليه عبودية قاتلة فان ثار أو طالب بحقه نزل به من العذاب ما يخرس لسانه والا فالموت والدمار له ، وما هذا التمزق الذى أصاب المجتمع الأمريكى بخاف على أحد ، ولم تستطع القوانين أو الدساتير أن تسوى بين البيض والسود ، لأن التفرقة التى أصابته نابعة من وجدانه وضميره ..

وما هكذا المساواة التى أقرها الاسلام ، لأنها مساواة نافذة مطبقة من أول يوم فى بناء المجتمع الاسلامى ، فهى احساس من الأعماق بالاخاء الانسانى الذى يربط قلوب البشر ، وعلى أساسه كان بلال رضى الله عنه العبد الحبشى مؤذن الرسول وخازنه ، ومن نبع هذا الاخاء .. آخى الرسول بين المهاجرين والأنصار أحرارا وعبيدا وموالى ، فكان حمزة ومولاه زيد أخوين ، وكان أبو بكر وخارجة بن زيد أخوين وخالد بن رويحة الخثعمى وبلال بن رباح أخوين ، وهى أخوة عميقة لأنها صلة النفس والمال وسائر مظاهر الحياة ..

---

(٣٤) المساواة فى الاسلام د. على عبد الواحد وافى ص ٦٦ .

ومن فيض هذا الاحساس كان زيد بن حارثة أهلا للزواج من زينب بنت جحش بنت عمة رسول اللهعليه السلام ، وكان جديرا بقيادة المسلمين فى مؤتة • ومن بعـــده ابنه أســامة الشــاب الذى قاد جيشـــا عظيما لغزو الروم يضم كثرة المهاجرين والأنصار •

انها روح المساواة الحقة •• روح هذا الدين الذى لم يشهد العالم له مثيلا وانها الحرية فى أوسع معانيها يبنى على أساسها منهج القرآن مجتمع الرحمة والعدالة بعيدا عن التعصب للون أو جنس وشعاره دائما: يا أيها الناس ان الله قد أذهب عنكم حمية الجاهلية وتعاظمها بآبائها •• فالناس رجلان بر تقى كريم على الله ، وفاسق شقى هين على الله [٣٥] •

ودستوره دائما :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ » [٣٦]

---

(٣٥) الجامع للترمذى ومشكاة المصابيح : باب المفاخرة ص ٦٥٨ جـ ٤ .

(٣٦) سورة الحجرات ١٣/٤٩ .

الفصل السادس

نظام الحكم

١ ــ قواعد ثابتة

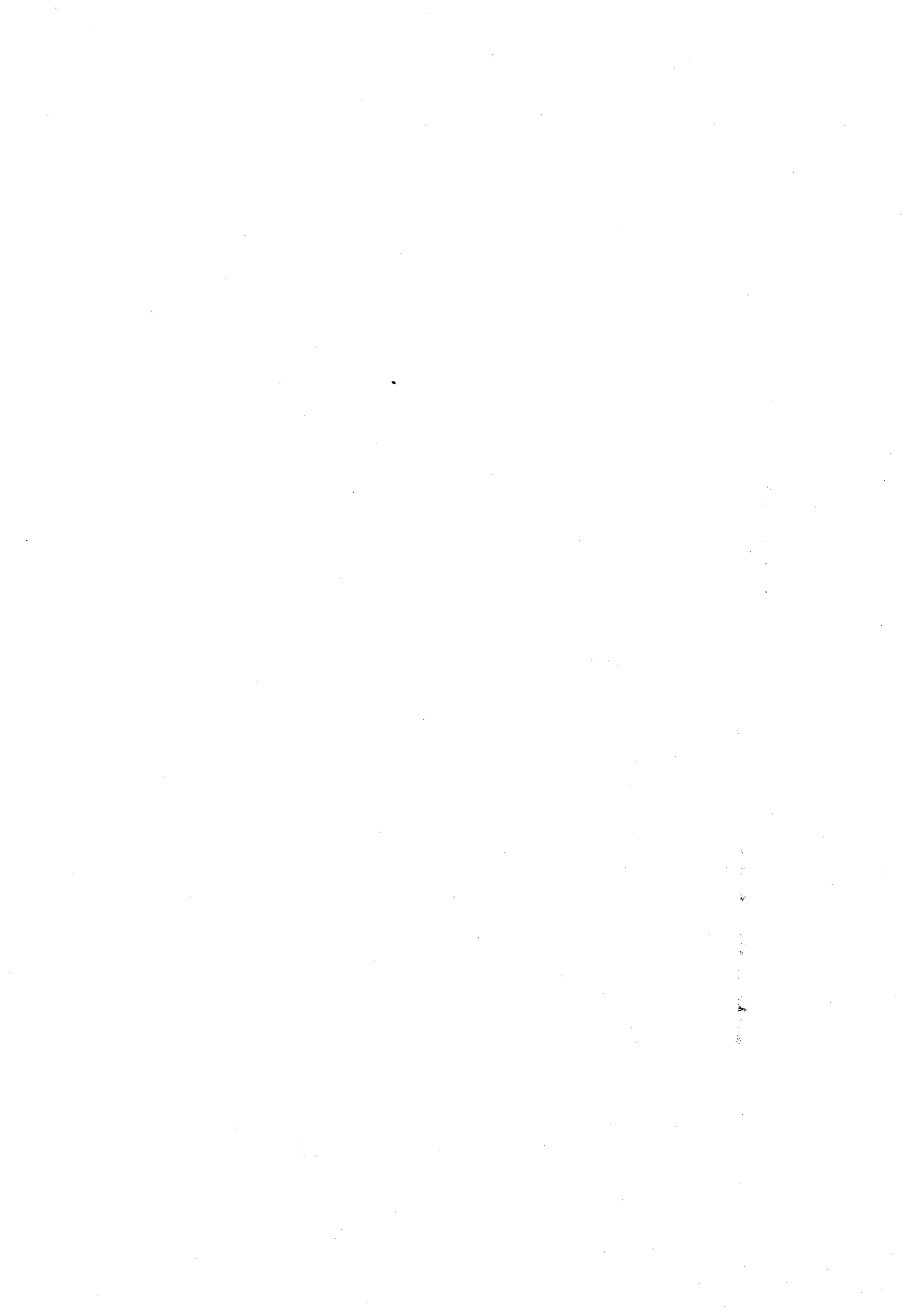
(أ) العــدل

(ب) الشــورى

(جـ) مسئولية الحاكم وطاعة المحكومين

٢ ــ بين النظرية والتطبيق

٣ ــ نظام الهي فريد



نظام الحكم

١ ـ قواعد ثابتة :

يمتاز منهج القرآن فى تربية المجتمع بأنه منهج عملى واقعى يواجه الحياة بما يصلحها ويقومها ويمدها بعناصر القوة والبقاء .. عاش هذا المنهج فى مكة يربى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على الايمان والثبات والصبر والأخلاق الطاهرة .. وبهذه التربية واجهت الثلة المؤمنة ارهاب الكفر وجبروت الشرك ، ولم تكن للمؤمنين حكومة قائمة ولا دولة لها من البطش والقوة ما يردع هؤلاء المعتدين الظالمين ، فلما أذن الله لرسوله والمؤمنين معه بالهجرة الى يثرب ، تكونت من هذا المجتمع دولة سارت على درب النور الالهى ، واسترشدت فى حياتها بهدى الله فكانت خير أمة أخرجت للناس .

وكان لابد لهذا المجتمع الجديد من مبادىء ثابتة يسير عليها فى حياته ، هل يخترع هذه المبادىء حسبما يمليه الهوى والغرض على أفراده؟! هل ينفرد رسول الله صلى الله عليه وسلم بوضع هذه الأسس من عند نفسه ؟ كلا ! فليس لهذا المجتمع الناشىء أن يخترع ماشاء له هواه من قواعد الحكم ونظم الاجتماع ، وليس لرسوله عليه السلام أن ينفرد بهذا التخطيط أبدا ، انما هو مجتمع يتلقى أوامره ونظام حياته من ربه رب السموات والأرض ، وما الرسول الا مبلغ عن ربه :

قال تعالى :

« وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ »[١]

---

(١) سورة : النجم ٥٣/٣ ، ٤ .

وإذن فنظام الحكم كسائر تشريعات الحياة بكل ما تشمله الحياة : أساسها كتاب الله وسنة رسوله .. وسنة رسول الله هي التنفيذ العملي والتطبيق الواقعي والتفسير الكامل لما جاء في كتاب الله .. والمبادىء التي أقرها لهذه النظم الاجتماعية تتناسب مع عالمية هذا الدين ، فهي صالحة لكل زمان ومكان .. وبعبارة أدق : هي مصلحة لكل زمان ومكان .. بل هي جهاز دقيق التركيب لا يقبل شائبة ولا يستطيع أحد أن يزيد فيه أو ينقص منه ..

قال تعالى :

« الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً » (٢)

ومن هنا تبدو خطورة عملية « الترقيع » التي تقوم بها الأمم التي تنتسب لدين الاسلام ، لأنها تعطل عمل هذا الجهاز الدقيق الذي صنعه رب هذا الوجود ، كما تبدو خطورة المحاولة التي يقوم بها كثير من حملة الأقلام الاسلامية وهم يحاولون أن يجدوا نظاما تعتنقه أمم الغرب أو الشرق ، ويدين به فلاسفة العالم ليلحقوا به نظام الاسلام في الحكم وغيره ويضعوه تحت لافتات تلك الأمم ..

ان نظامنا وحياتنا ــ باعتبارنا أمة مسلمة ــ تسير مع أنوار كتاب ربنا الخالد لتصل الى ما ينشده الانسان من سعادة واطمئنان ..

ومثل هذا النظام الذي يسيره الجهاز القرآني ليس بحاجة الى « ترقيع » أو استيراد « قطع غيار » تصلحه وتقويه ، ولن يشرفه أن

---

(٢) سورة المائدة ٥/٣ .

يوضع تحت اطار بشرى وتفكير انسانى ، فقلما سلم تفكير البشر من الخطأ والزلل ..

وهذه قواعد الاسلام مرنة كل المرونة ، صالحة للتطبيق على حسب حالة المجتمعات ، وذلك لأنها قواعد عامة ليس فيها حجر على النشاط البشرى فيما يراه كفيلا باستقرار حياته وانتظام مجتمعه ..

ومن حق أنظمة الحكم أن تتغير وتتشكل على حسب حاجة المجتمع ، لكنها فى منهج القرآن يجب ألا تخرج عن الأسس الرئيسية فى هذا المنهج والتى يمكن تلخيصها فى أمور ثلاثة :

١ ــ العدل

٢ ــ الشورى

٣ ــ مسئولية الحاكم وطاعة المحكومين ..

١ ــ العدل :

هدف نبيل تتوق اليه الشعوب ويحققه ــ واقعا ملموسا ــ نظام الحكم الاسلامى الذى يعتبر العدل دعامة قوية من الدعائم التى يقوم عليها البناء الاجتماعى .. فهو الغاية التى تسعى اليه الحكومة الاسلامية ، وبدونه تحكم على نفسها بالفناء والزوال ، كما هو غاية كل فرد فى أمة الاسلام : يحققه لنفسه ولمجتمعه وللانسان حيثما كان قال تعالى :

« إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيراً » (٣)

---

(٣) سورة النساء ٤/٥٨ .

قال على بن أبى طالب وزيد بن أسلم وشهر بن حوشب وابن زيد : هذا خطاب لولاة المسلمين فهى للنبى صلى الله عليه وسلم وأمرائه من بعدهم .. قال القرطبى :

والأظهر فى الآية أنها عامة فى جميع الناس ، فهى تتناول الولاة فيما اليهم من الأمانات فى قسمة الأموال ورد الظلامات والعـــدل فى الحكومات ، وهذا اختيار الطبرى ، وتتناول من دونهم من الناس فى حفظ الودائع والتحرز فى الشهادات وغير ذلك [٤] ..

والاحسان : قرين هذا العدل وكلاهما أمر به الاله اذ قال تعالى :

« إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ » [٥]

وما أجمل العدل مع الاحسان : لأن الاحسان يلقى ظلال الرحمة والمودة على العدالة التى تشمل كل جانب من جوانب النفس وتحيط بكل ما فى المجتمع ..

والعدل واجب حتى على الأنبياء : « روى عن بعض خلفاء بنى مروان أنه قال لعمر بن عبد العزيز : هل سمعت ما بلغنا أن الخليفة لا يجرى عليه القلم ولا يكتب عليه معصية ؟ فقال : يا أمير المؤمنين : الخلفاء أفضل أم الأنبياء ؟ ! ثم تلا قول الله لداود :

« يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ

---

(٤) تفسير القرطبى ص ١٨٢٦ .

(٥) سورة النحل ١٦/٩٠ .

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ » (٦)

قال صاحب الكشاف : فى تفسير قوله تعالى :

« فاحْكم بَيْنَ النَّاسِ بالْحَقِّ »

أى بحكم الله • ثم أضاف : ولا تتبع هوى نفسك فى فضائلك وغيره مما تتصرف فيه من أسباب الدين والدنيا فيضلك الهوى فيكون سببا لضلالك •• « عن سبيل الله » عن دلائله التى نصبها الله فى العقول وعن شرائعه التى شرعها وأوحى بها (٧) ••

أمر الله داود بالعدل كما أمر به محمدا عليه السلام ، وجعل ذلك من دعائم رسالته وأسس دعوته اذ قال :

« فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ » (٨)

---

(٦) تفسير الرازى جـ ٢٦ ص ٢٠٠ .. والآية من سورة : ص ٢٦/٣٨ (•)

(٧) تفسير الكشاف جـ ٣ ص ٣٢٦ .

(٨) سورة الشورى ١٥/٤٢ .

وهو الهدف الذى من أجله أرسلت الرسل ونزلت الشرائع ..

قال تعالى :

« لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ »(٩) .

والعدالة التى ينشدها نظام الحكم هى التى لا تحيف ولا تظلم أحدا ، انما تعطى كل صاحب حق حقه ، فالجميع أمام قانون الاسلام سواء ، والا كانت الفوضى والاضطراب وأدى ذلك الى ضياع الأمة وهلاكها .. قال الامام الماوردى : « وأما القاعدة الثالثة أى من القواعد التى تصلح بها الدنيا حتى تصير أحوالها منتظمة وأمورها ملتئمة ، فهى عدل شامل يدعو الى الألفة ويبعث على الطاعة وتعمر به البلاد وتنمو به الأموال ويكثر معه النسل ويأمن به السلطان ، فقد قال الهرمزان لعمر حين رآه وقد نام متبذلا : عدلت فأمنت فنمت . وليس شىء أسرع فى خراب الأرض ولا أفسد لضمائر الخلق من الجور ، لأنه ليس يقف على حد ولا ينتهى الى غاية ولكل جزء منه قسط من الفساد حتى يستكمل »(١٠) .

والعدل الذى يقوم عليه نظام الحكم فى الاسلام عدل من الحاكم: يحكم فى رعيته بشريعة الله وعدل من المحكومين فى ذات أنفسهم وفيما بينهم ، فلن تتحقق عدالة الحكم الا اذا تربت الرعية على الصدق فى القول والاعتدال فى السلوك ..

---

(٩) سورة الحديد ٥٧/٢٥ .

(١٠) أدب الدنيا والدين ص ١٢٩ .

وهنا يكون عدل الحاكم حقا يستمتع به سائر الناس .. وهذا ما صنعه منهج القرآن .. اذ طلب العدل فى القول من الناس جميعا ..

قال تعالى :

« وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ » (١١)

والعدل فى أداء الشهادة دون زيف أو تضليل .

قال تعالى :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا » (١٢)

ولن يحول بين هذا العدل المطلق عداء العدو كما لم يحل بينه حب قريب أو خوف جاه أو شفقة على فقير قال تعالى :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟

(١١) سورة الأنعام ١٥٢/٦ .

(١٢) سورة النساء ١٣٥/٤ .

هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ » (١٣)

قال الامام القرطبى : « دلت الآية على أن كفر الكافر لا يمنع من العدل عليه ، وأن يقتصر على المستحق من القتال والاسترقاق ، وأن المثلة بهم غير جائزة وان قتلوا نساءنا وأطفالنا وغمونا بذلك فليس لنا أن نقتلهم بمثلة قصدا لايصال الغم والحزن اليهم » (١٤) .

فهل فى تاريخ البشرية مثل هذه الصورة المشرفة وتلك العدالة التى وصلت عالم المثل والقيم ، وكانت حلم فلاسفة أصحاب المدن الفاضلة ولو عاشوا لرأوها حقيقة وضعها بين أيدى الناس جميعا منهج القرآن؟ والعدل من المجتمع كله ـ أيضا ـ فى معاملاته ..

قال تعـالى :

« يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً فَإِن كَانَ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً أَوْ ضَعِيفاً أَوْلَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ » (١٥)

---

(١٣) سورة المائدة ٥/٨ .

(١٤) تفسير القرطبى ص ٢١٠٧ .

(١٥) سورة البقرة ٢/٢٨٢ .

وما ورد فى القرآن من التحذير والارهاب للظالمين وبيان مصائرهم فى الدنيا والآخرة انما هو لتحقيق العدل المطلق .. والآيات والآثار فى ذلك أكثر من أن تحصى : قوم نوح وهود وصالح وشعيب وفرعون وقارون وغير هؤلاء وأولئك ..

يقول فيهم ربنا :

« فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » .(١٦)

ويقول سبحانه :

« وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ » .(١٧)

ويقول تعالى :

« وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ * وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ * إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ

---

(١٦) سورة العنكبوت ٢٩/٤٠ .
(١٧) سورة القصص ٢٨/٥٩ .

يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » (١٨)

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان الله يملى للظالم فاذا أخذه لم يفلته ثم قرأ :

« وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ » (١٩)

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرضه أو من شىء فليتحلله منه اليوم قبل ألا يكون دينار ولا درهم ان كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وان لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه (٢٠) »

وبهذا العدل الذى شع ضياؤه فى المجتمع الذى تعهده المنهج الربانى يتحقق لنظام الحكم الاسلامى ما يرجوه من عدالة يؤديها الحاكم ويفرضها عليه هذا الدين ويحرص عليها المجتمع حرصه على الحياة وينتزعها من يد حكامه لأنه حقق العدالة فى كل أمر وجعلها حقا مشاعا بين الناس ينزل عليها الأقوياء رغبة فى ثواب الله وخوفا من بطشه ، ويرتفع اليها أصحاب الحقوق فى عزة وثقة ويلتقيان معا على هذا العدل الكامل .. ومثل هذا المجتمع لا يظلم ولا يظلم : فحقه يحميه حكم عادل وامام عادل وأمة عادلة ..

---

(١٨) سورة الشورى ٤٢/٤٠ – ٤٢ .

(١٩) متفق عليه .

(٢٠) رواه البخارى .

(ب) الشورى :

هى المبدأ الملازم للعدل ، وبدونه يصبح العدل مقصوص الجناح لا يستطيع أن يحلق الى آفاق الحكم الصحيح النزيه ..

وحكم دون مشاورة بين الحاكم والمحكوم استبداد وانحراف ، لذلك أمر الله بالشورى وجعلها صفة من صفات المؤمنين فقال :

« وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ » (٢١)

ففى هذا أمر ملزم للمسلمين بالشورى فى أمورهم حيث اقترن قوله تعالى : «وأمرهم شورى بينهم» بركنين من أركان الدين ، وتوسطهما وهما اقام الصلاة وايتاء الزكاة ، والمأمور بهما شرعا ، فكان حكم الشورى حكمهما من حيث الوجوب والالزام ، وهذا يعنى أن يكون المسلمون على كلمة سواء فيما بينهم من شئون ، فتكون طريقتهم واحدة ووجهتهم واحدة ويدهم واحدة وموقفهم فى مواجهة الأحداث واحدا فلا يذهب كل واحد منهم مذهبا لا ترتكب كل جماعة منهم طريقا (٢٢) ..

وفى سورة آل عمران أمر صريح لرسوله بالمشاورة تأليفا للقلوب وجمعا للنفوس قال تعالى :

« فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ

---

(٢١) سورة الشورى ٤٢/٣٨.

(٢٢) الشورى فى الاسلام : تشريعا وتطبيقا مقال للأستاذ : عبد الكريم الخطيب بمجلة الوعى الاسلامى العدد ٦٩ ــ رمضان ١٣٩٠ هـ السنة السادسة .

ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ » (٢٣)

قال ابن عطية : « والشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام من لا يستشير أهل العلم والدين فعزله واجب ، هذا ما لا خلاف عليه » وقال ابن خويز منداد : واجب على الولاة مشاورة العلماء فيما لا يعلمون وما أشكل عليهم من أمور الدين ، ووجوه الجيش فيما يتعلق بالحرب ، ووجوه الناس فيما يتعلق بالمصالح ، ووجوه الكتاب والوزراء والعمال فيما يتعلق بمصالح البلاد وعمارتها .. (٢٤) ..

ومنهج القرآن لا يريد لمبدأ الشورى أن يكون « محمدة اختيارية » يقصد بها مجرد تأليف القلوب وتطييب النفوس دون العمل به كما يذهب الى ذلك صنائع الملوك المستبدين ، ولا يريده « صورة مفتعله » يبرر بها أرباب الطغيان طغيانهم . وانما يريده أمرا ثابتا مقررا مأمورا به ، هو حق للامة تأخذه بالقوة وواجب عليها ، تأثم جميعها بتركه ، وحقيقة لها أثرها العملى فى الحكم وسياسة الجماعة .. واذن فالشورى التى تنسج خيوطها بكثرة العدد أو عن طريق الاغراء والارهاب لا قيمة لها عند الله ، والشورى التى تجعل من الفرد المفسد أو الذى لا يعقل حاكما بأمره فى الأمة لا قيمة لها عند الله .. والشورى التى لا يجد المخلصون فى جوها متنفسا يكشفون فيه عن عبث العابثين وفساد المفسدين لا قيمة لها عند الله .. والشورى التى يلبس المنافقون فى جوها

---

(٢٣) سورة آل عمران ٣/١٥٩ .

(٢٤) تفسير القرطبى ص ١٤٩١ ، ١٤٩٢ .

مسوح الصدق والاخلاص ويكتمون عن الحاكم المخلص بذور الشر والفساد لا قيمة لها عند الله [٢٥] ..

والشورى التى أمر الله بها فيما لم يرد فيه نص قاطع من كتاب أو سنة ، والا فلا رأى لأحد ولا استشارة ــ ولهذا كان صلى الله عليه وسلم يستشير فيما لم ينزل فيه وحى فى مكائد الحروب وعند لقاء العدو وأمور الحياة العامة ، فاذا نزل حكم السماء خضع له الجميع طائعين ..

كما جعلها المنهج القرآنى صالحة للتطبيق والتنفيذ وليست علـى نظام معين فقد أمر الله بالشورى وسكت عن تفصيلها ليكون ولاة الأمر فى كل أمة فى سعة من وضع نظامها بما يلائم حالهم ، فهم الذين يقررون نظام انتخاب رجالها والشرائط اللازمة فيمن ينتخب وكيفية قيـامهم بواجبهم وغير ذلك مما تحقق به الشورى ، وكذلك نظام المسـئولية وكيف يؤدى رجال الشورى واجب النصح ــ وتقدير ما يمكن أن يطرأ ترك تفصيله لتراعى فيه المصلحة ومقتضيات الزمن ، ومثله البيعة ومن يتولاها وشرائطها وكل ما يتعلق بها مما يحقق الغرض منها .. واذن لا يمكن القول بأن فى الاسلام قصورا عن مسايرة الزمن فى شـكل الحكومة الملائمة ، لأن الاسلام أقر أسسا عادلة لا تختلف فيها أمـة عن أمة، وأفسح للناس ان يقرروا على هذه الأسس مايرونه من التفصيلات كفيلا بمصالحهم وملائما لأحوالهم [٢٦] . وأمانة ابداء الرأى حـق لكل صاحب رأى كما هو حق عليه ..

---

(٢٥) الاسلام عقيدة وشريعة للشيخ شلتوت ص ٤٥٤ .

(٢٦) السياسة الشرعية للأستاذ عبد الوهاب خلاف ص ٢٨ ، ٢٩ .

قال تعالى :

« وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ »[٢٧]

« وهذه الجماعة التى وقفت حارسة للحق آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر هى التى لا تتوانى عن تقديم مشورتها الصادقة ، ولذلك جعل الامام محمد عبده هذه الآية أدل على أصل الشورى من قوله تعالى : « وشاورهم فى الأمر » فان أمر الرئيس بالمشاورة يقتضى وجوبها عليه ، ولكن اذا لم يكن هناك ضامن يضمن امتثاله للامر فماذا يكون اذا هو تركه ؟ وأما هذه الآية فانها تفرض أن يكون فى الناس جماعة متحدين أقوياء يتولون الدعوة الى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وهو عام فى الحكام والمحكومين ، ولا معروف أعرف من العدل ولا منكر أنكر من الظلم[٢٨] » ..

وبهذا الأصل الذى أقيم عليه نظام الحكم فى الاسلام تتلاقى الأفكار وتتوحد المشاعر وتتقارب القلوب وتبتعد الأمة عن الخطر ..

(ج) مسئولية الحاكم .. وطاعة المحكومين :

وليست قيادة الأمة والاشراف على شئونها وتولى أمورها بمغنم يحرص عليه أحد من المسلمين ، انما هى مغرم ومسئولية خطيرة .. ليست للاستكثار من أعراض الحياة والتمتع بطيباتها ، بل للتجرد من زينة الحياة والاعراض عن ملذاتها .. وليست كبرا أو تطاولا على خلق الله ، ولكنها تواضع ورحمة واحساس رقيق .. فمن وجد فى نفسه

---

(٢٧) سورة آل عمران ٣/١٠٤ .

(٢٨) تفسير المنار للسيد / رشيد رضا ج ٤ ص ٤٤ .

قدرة على البذل والتضحية والايثار وأحس بما لديه من مواهب القيادة والرئاسة وارتضته أمته لسياستها كان جديرا بهذا المنصب الخطير والا عرض نفسه للخسارة الأبدية •• ومن تولى هذا فاغتر وخان وغش أضاع نفسه ••وفقد منزلته عند الله والناس •• يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من عبد يسترعيه الله رعية فلم يحطها بنصيحة الا لم يجد رائحة الجنة [٢٩] » ••

ويقول لأبى ذر رضى الله عنه : « يا أبا ذر : انك ضعيف وانها أمانة وانها يوم القيامة خزى وندامة الا من أخذها بحقها وأدى الذى عليه فيها [٣٠] » ••

انما يجب عليه العدل والشفقة وعدم الاحتجاب عن رعيته ومشاورتهم وحينذاك تجب له الطاعة من المحكومين ••

فالعدل ميزان دقيق فى يد الحاكم لا يحيف على أحد ولا يظلمه ولا يمنعه حقا من حقوقه ولا يستأثر لنفسه وأهله وأقاربه بمال أو منصب وفى المسلمين من هو أحق بذلك ••

أخرج ابن الجوزى عن عمر أنه قال : من استعمل رجلا لمودة أو قرابة لا يستعمله الا لذلك فقد خان الله ورسوله والمؤمنين ••

وروى الحاكم فى صحيحه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من ولى من أمر المسلمين شيئا فولى رجلا وهو يجد من هو أصلح للمسلمين منه فقد خان الله ورسوله والمؤمنين » ••

---

(٢٩) رواه الشيخان .

(٣٠) رواه مسلم .

قال ابن تيمية : « فان عدل عن الأحق الأصلح الى غيره لأجل قرابة بينهما أو ولاء عتاقة أو صداقة أو موافقة فى بلد أو مذهب أو طريقة أو جنس كالعربية والفارسية والتركية والرومية ، أو لرشوة يأخذها منه من مال أو منفعة أو غير ذلك من الأسباب أو الضغينة فى قلبه على الأحق أو عداوة بينهما فقد خان الله ورسوله والمؤمنين ودخل فيما نهى عنه فى قوله تعالى :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ »(٣١)

ثم قال تعالى :

« وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ »(٣١)

فان الرجل لحبه لولده أو لعتيقه قد يؤثره فى بعض الولايات أو يعطيه مالا يستحقه فيكون قد خان أمانته .. كذلك قد يؤثر زيادة ماله أو حفظه بأخذ مالا يستحقه أو محاباة من يداهنه فى بعض الولايات فيكون قد خان الله ورسوله وخان أمانته(٣٢) » ..

والعدل المطالب به الحاكم عدل مطلق تحققه الأمة فى ذات نفسها وتفرضه على حاكمها وتعيش من أجل هذا الحق حياتها ..

دخل أبو مسلم الخولانى على معاوية بن أبى سفيان فقال : السلام عليك أيها الأجير ، فقالوا قل أيها الأمير فقال : السلام عليك أيها الأجير

---

(٣١) سورة الأنفال ٨/٢٧ ، ٢٨ .
(٣٢) السياسة الشرعية : لابن تيمية ص ٣٠ ، ٣١ .

فقالوا : قل أيها الأمير قال معاوية : دعوا أبا مسلم فانه أعلم بما يقول . فقال : انما أنت أجير استأجرك رب هذه الغنم لرعايتها ، فان أنت هنأت جرباها وداويت مرضاها وحبست أولاها على أخراها وفاك سيدك أجرك ، وان أنت لم تهنأ جرباها ولم تداو مرضاها ولم تحبس أولاها على أخراها عاقبك سيدها ..

كذلك يجب على الحاكم أن يكون رحيما بأمته حريصا على ما ينفعها شفوقا عطوفا فهو أب للصغير وأخ للكبير يؤثرهم على نفسه كما يؤثر ولده وأهل بيته على نفسه وفى ذلك يقول الله لرسوله صلى الله عليه وسلم :

« وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ » (٣٣)

ويقول :

« فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ واسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى الْأَمْرِ » (٣٤)

وروى مسلم عن عائشة رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « اللهم من ولى من أمر أمتى شيئا فشق عليهم فاشقق عليه ومن ولى من أمر أمتى شيئا فرفق بهم فارفق به » ..

---

(٣٣) سورة الشعراء ٢١٥/٢٦ .

(٣٤) سورة آل عمران ١٥٩/٣ .

وليس من حقه أن يحتجب عن الناس انما يفتح بابه لكل صاحب حق :

روى أبو داود والترمذى وصححه الحاكم أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من ولاه الله شيئا من أمور المسلمين فاحتجب دون حاجتهم وخلتهم وفقرهم الا احتجب الله دون حاجته وخلته وفقره يوم القيامة ٠٠»

وليس له أن يستأثر بالأمر دونهم انما يشاورهم ويأخذ برأيهم والا كان حكما استبداديا ظالما ، ومن حق الأمة التى اختارته لهذا المنصب أن تخلعه وتختار من تراه أهلا لذلك ٠٠

فان قام بما وجب عليه تجاه أمته فحمى لها دينها وحقق ما تصبو اليه من عدالة وكرامة ولم يقدم هواه وشهوته على مصلحتها ولم ينفرد بالرأى دونها وجبت له النصيحة والنصرة والطاعة على كل أبناء هذه الأمة ٠٠

والنصح للحاكم مقياس الأمم الناضجة والشعوب الراقية : وبالنصيحة يعتدل المعوج وينتظم مجرى الحياة ٠٠ والمنهج الالهى يدفع المسلمين الى تقديم هذه النصيحة ويجعلها أعلى منزلة فى الايمان ٠٠ يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ورجل قام الى امام جائر فأمره ونهاه فقتله[٣٥] » ٠٠

ويجعلها الدين كله فقد روى مسلم عن تميم الدارى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « الدين النصيحة ، الدين النصيحة ، الدين النصيحة ٠٠ قلنا لمن يا رسول الله قال : لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم » ٠٠

---

(٣٥) رواه الحاكم عن جابر ٠

قال الامام النووى فى شرح هذا الحديث : النصيحة لأئمة المسلمين معاونتهم على الحق وطاعتهم فيه وأمرهم به ونهيهم عن المحـــــرمات وتذكيرهم برفق واعلامهم بما غفلوا عنه ولم يبلغهم من حقوق المسلمين وعدم الخروج بالسيف عليهم اذا ظهر منهم حيف وتأليف قلوب المسلمين لطاعتهم والصلاة خلفهم والجهاد معهم ، وألا يغروا بالثناء الكاذب عليهم وأن يدعى لهم بالصلاح ..

كما بين الرسول عليه السلام : أن النصيحة للحاكم من الأمور التى يرتضيها الله لنا اذ قال : « ان الله يرضى لكم ثلاثة : أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم (٣٦) » ..

وجعلها من الأمانة الواجبة على كل مسلم فقال : « ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم : اخلاص العمل لله ، ومناصحة ولاة الأمر ، ولزوم جماعة المسلمين (٣٧) » ..

ولن يستطيع حاكم أن يجابه الأحداث والمحن والفتن وحده فلابد من مناصرته وشد أزره والوقوف معه فى وجه كل معتد فى الـــداخل والخارج حتى يضمن الاستقرار والأمن لكل فرد ..

كما لا يستطيع أن يقوم بواجبه دون طاعة من المحكومين ولهـذا أمر الله بها فقال :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ » (٣٨)

---

(٣٦) رواه مسلم .

(٣٧) رواه أصحاب السنن .

(٣٨) سورة النساء ٥٩/٤ .

وطاعته واجبة اذا لم يأمر بمعصية ، ولذلك لم يجعلها القرآن طاعة مستقلة انما هى تابعة لطاعة الله وطاعة رسوله ، وفى الحديث الصحيح عن ابن عمر مرفوعا : « على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره الا أن يؤمر بمعصية ، فان أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة [٣٩] » ..

وفى حديث البخارى : « اسمعوا وأطيعوا ــ وان استعمل عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة ما أقام فيكم كتاب الله تعالى [٤٠] » ..

واذا ما اختلف الحاكم والمحكوم فى شىء فسبيل حسم هذا الخلاف هو الرجوع الى كتاب الله لا الرضوخ لهوى الحاكم وسلطانه ..

قال تعالى :

« فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا » [٤١]

وليس له بعد النصح والنصرة والطاعة حق على الناس أكثر من أى واحد فيهم : « يقتص منه ويقام عليه الحد الا أن يعفو صاحب الحق، ويأخذ من المال راتبا يكفيه كسائر الناس لا يزيد فى ذلك شيئا .. وليس له أن يعتدى على أموال الناس أو أرواحهم أو أجسادهم أو أعراضهم ، « كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه [٤٢] » ..

---

(٣٩) الشيخان .

(٤٠) رواه البخارى .

(٤١) سورة النساء ٤/٥٩ .

(٤٢) رواه الشيخان .

فليس لرجل أو طائفة أن تستبد بالأمر أو تتسنم عرش الديكتاتورية لأن كل فرد من أفراد هذا المجتمع خليفة ولا تجوز لطائفة أو فرد من أفرادها أن ينتزع حق الخلافة من جمهور المسلمين وينصب نفسه مسيطرا عليهم والذى يتولى هذا الأمر فى الاسلام منزلته الحقيقية أن جمهور المسلمين أو الخلفاء — ان آثرنا الكلمة الاصطلاحية — قد فرضوا خلافتهم الى رجل منهم وجعلوها مركزة فى ذاته لتنفيذ الأحكام وتسيير دفة الأمر بسهولة وذلك عن رضا منهم واتفاق كلمتهم ، فهو مسئول عند الله فى جانب وبجانب آخر مسئول عند عامة الخلفاء أى المسلمين الذين فوضوا اليه أمر الخلافة ، فان استبد بالأمر ونصب نفسه ديكتاتورا مطاعا على الاطلاق فهو غاصب وليس بخليفة ، لأن الديكتاتورية بحقيقتها ضد الخلافة العمومية [٤٣] » ..

٢ — بين النظرية والتطبيق :

ما أكثر النظريات التى تتناول نظم الاجتماع .. ولكن هل ترجمت تلك النظريات الى واقع ملموس ؟؟

وهل بقيت نظرية القرآن فى نظام الحكم حلما عذبا وخيالا هائما كهذه النظريات أو كانت نظرية صاغ جزئياتها حقيقة قائمة مجتمع أنشأه منهج القرآن ؟؟

التاريخ يقول لم أشهد تطابقا بين النظرية وواقعها كما شهدت فى رحاب القرآن .. وذلك لأن جماعة المؤمنين عاشت حياتها تترسم الهدى الربانى فى كل حركاتها وسكناتها ، فلم يكن لها هاد ولا مرشد سوى وحى الله وهدى رسوله الكريم ، فطبقت مبادىء الاسلام فى يسر وسهولة ، وهى تواصل مسيرة الحياة فى صنع الحياة يقول الأستاذ

---

(٤٣) نظرية الاسلام السياسية ص ٤٩ لأبى الأعلى المودودى .

ستروتمان : الاسلام ظاهرة دينية وسياسية اذ أن مؤسسه كان نبيا وكان حاكما مثاليا خبيرا بأساليب الحكم . ويقول توماس أرنولد : « كان النبى صلى الله عليه وسلم رئيسا للدين ورئيسا للدولة » ويقول الأستاذ الايطالى المعروف « نلينو » : « لقد أسس محمد فى وقت واحد دينا ودولة كانت حدودهما متطابقة طوال حياته (٤٤) » ..

فماذا نرى فى التطبيق ؟؟

نرى النبى عليه السلام مثالا للحاكم العادل الذى رسم للحكام من بعده كيف تكون العدالة فى أرقى صورها والتواضع والثقة فى فى الرعية وطلب مشورتها وتنفيذ رأيها واحترام مشورتها .. وأعطى أصدق صورة لكل من أراد قيادة شعبه فى جو من الاخاء والمودة والحب ولكل من أراد أن يصوغ من أمته قوة تجابه الخطر وتقف فى ميدان المحن فلا تحنى هامتها ولا تتنازل عن مبادئها وكرامتها ..

هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة بدر يقف قبل المعركة قائلا : أشيروا على أيها الناس .. فيصممون على لقاء العدو ، وقبيل المعركة يتقدم اليه الحباب بن المنذر متسائلا عن الموقع الذى هم فيه .. « أهذا منزل أنزلكه الله فليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ قال محمد : بل هو الرأى والحرب والمكيدة .. فقال لرسول الله : فان هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم فننزل ثم نغور ما وراءه من القلب ثم نبنى عليه حوضا فنملأه ماء ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون ونفذ الرسول ما أشار به الحباب . كما أشار سعد بن معاذ ببناء عريش لرسول الله يكون فيه

(٤٤) نظام الحكم فى الاسلام د. محمد يوسف موسى ص ١١ .

(٤٥) حياة محمد : محمد حسين هيكل ص ٢٦٠ .

حتى اذا لم يكن النصر فى جانبه وجانب أصحابه لم يقع فى يد عدوه واستطاع اللحاق بأصحابه فى المدينة ..

وفى أحد غلب الشباب ومن لم يحضر بدرا برأيهم فى الخروج على من رأى انتظار العدو داخل المدينة ، وكان أن دخل الرسول بيتهفلبس عدة الحرب وخرج الى الجهاد . وفى الأحزاب أشار سلمان الفارسى بحفر خندق حول المدينة واستجاب الرسول لمشورته ، وفى هذه الغزوة اتفق الرسول مع أهل الطائف أن يرجعوا عن المدينة ولهم ثلث ثمارها وسأل سعد بن معاذ رسول الله عما اذا كان للوحى دخل فى هذا الاتفاق فقال له الرسول انما هو أمر صنعته لكم رجوت من ورائه الخير فأخذ سعد المعاهدة ومزقها وقد كانت معدة للتوقيع قائلا : انهم لم ينالوا منا ثمرة الا قرى (كرم ضيافة) أفبعد أن أعزنا الله بك يأخذون ثلث ثمار المدينة عنوة لا والله .. فلم يغضب الرسول وسر بذلك المسلمون جميعا . الى غير ذلك مما لا يمكن حصره حتى قال أبو هريرة : « ما رأيت أحدا قط أكثر مشاورة لأصحابه من رسول الله صلى الله عليه وسلم » ..

وحسبنا فى شفقته ورحمته أنه رحمة للعالمين وأنه كما قال الحق سبحانه :

« لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ » (٤٦)

وحسبنا فى عداله مع نفسه أنه كانت تأتيه الغنائم والأموال الكثيرة فيوزعها على فقراء المسلمين وينام على حصير وقد أثر فى جنبه الشريفه ومات ولم يورث من بعده دينارا ولا درهما ، وأنه كان برهانا عمليا

---

(٤٦) سورة التوبة ١٢٨/٩ .

وتطبيقا واقعيا لكتاب الله حتى قالت عائشة رضى الله عنها حين سئلت عن خلقه : « كان خلقه القرآن [٤٧] » ..

ومن بعده كان أبو بكر مثال الحاكم الصالح والمؤمن الذى ارتوى من نبع رسول الله صلى الله عليه وسلم .. وقف عقب انتهاء البيعة بالسقيفة فقال : « أما بعد أيها الناس فانى قد وليت عليكم ولست بخيركم فان أحسنت فأعينونى وان أسأت فقومونى، الصدق أمانة والكذب خيانة والضعيف فيكم قوى عندى حتى أريح عليه حقه ان شاء الله والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه ان شاء الله ، لا يدع قوم الجهاد فى سبيل الله الا ضربهم الله بالذل ولا تشيع الفاحشة فى قوم الا عمهم الله بالبلاء ، أطيعونى ما أطعت الله ورسوله فان عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم » ..

وكان الى يوم بيعته تاجرا فلما أصبح أراد أن يغدو على تجارته لولا أن منعه المسلمون حتى يتفرغ لشئون الخلافة وفرضوا له ما يكفيه وأهله فى بيت المال ومع ذلك فقد أوصى عندما حضرته الوفاة أن يحصى ما أخذه من بيت المال فيدفع من ماله وأرضه تورعا وتعففا عن مال المسلمين ..

ولن تجد كهذه الرحمة لحاكم فى الأرض وأنت ترى أبا بكر يحلب للضعفاء ممن حوله أغنامهم قبل أن يتولى الخلافة ، فلما شغل بها سمع جارية تقول : اليوم لا تحلب لنا منائح دارنا ! فقال : بلى لعمرى لأحلبنها لكم . فكان يحلبها وربما سأل صاحبتها يا جارية أتحبين أن أرغى لك أم أصرح ؟ فربما قالت : أرغ وربما قالت : صرح فأى ذلك قالته فعل ..

---

(٤٧) رواه البخارى ومسلم والترمذى وأبو داود .

وكان عمر بن الخطاب فى خلافة أبى بكر يتعهد امرأة عمياء بالمدينة ويقوم بأمرها ، فكان اذا جاءها ألفاها قد قضيت حاجتها .. فترصد عمر يوما فاذا أبو بكر هو الذى يكفيها مئونتها لا تشغله عن ذلك الخلافة وتبعاتها عندئذ صاح عمر حين رآه : أنت هو لعمرى ..

فاذا ما انتقلنا الى عهد الفاروق عمر وجدنا صورة مضيئة لمبادىء الاسلام ، ورأينا خليفة فهم ان الأمر تكليف شاق لا منحة يستزيد بها من ملذات الحياة ، لذلك قال فى أول خطبة له : « أيها الناس ما أنا الا رجل منكم ولولا أننى كرهت أن أرد أمر خليفة رسول الله ما تقلدت أمركم » وفى خطبته الثانية قال : « ولكم علىّ ايها الناس خصال أذكرها لكم فخذونى بها : لكم على ألا أجتبى شيئا من خراجكم ولا ما أفاء الله عليكم الا من وجهه .. ولكم على اذا وقع فى يدى ألا يخرج منها الا فى حقه . ولكم على ألا أبعثكم فى المهالك ولا أجمركم فى ثغوركم [٤٨] وان غبتم فى البعوث فأنا أبو العيال » ..

وكان يشتد على نفسه ويتحرج حتى مما يراه الناس حلالا .. اشتكى يوما فوصف له العسل وفى بيت المال عكة منه فلما كان على المنبر قال : ان أذنتم لى فيها والا فانها حرام .. فأذنوا له ..

وهو الذى فهم أنه لن يشعر بشعور الرعية الا اذا عاش حياتها ، ففى عام الرمادة آلى على نفسه ألا يذوق سمنا ولا لحما حتى يحيا الناس وظل على ذلك حتى اسود جلده وبسر من أكل الزيت ، ثم جاءت السوق عكة من سمن ووطب من لبن فاشتراهما غلام له بأربعين درهما .. وذهب اليه ينبئه أن الله أحله من يمينه وأنه قد قدمت السوق عكة من سمن

---

(٤٨) لا أجمركم فى ثغوركم : اى لا أحبسكم فى أرض العدو فلا ارجعكم الى أهلكم .

ووطب من لبن[٤٩] وقد اشتراهما له ، فلما علم الثمن قال له : أغليت فتصدق بهما فانى أكره أن آكل اسرافا .. وأطرق هنيهة ثم قال : كيف يعنينى شأن الرعية اذا لم يمسنى ما يمسهم ..

وهذه صورة من صور العدالة حققها عمر الذى تربى على منهج القرآن : اذ يروى أنه ساوم رجلا على فرس ثم ركبه ليجربه فعطب فأراد أن يرده الى صاحبه فأبى فتحاكما الى شريح القاضى فسمع حجة كل منهما ثم قال : يا أمير المؤمنين خذ ما ابتعت أو رد كما أخذت .. فقال عمر .. وهل القضاء الا هكذا ؟ ثم أقام شريحا على قضاء الكوفة جزاء ما قضى بالحق والعدل ..

ولم يكن عمر ليحابى أحدا على حساب دينه لقرابة أو منزلة .. لهذا أقام الحد على ابنه عبد الرحمن لأنه تناول الخمر واقتص من ابن عمرو بن العاص لأنه ضرب المصرى ، وكاد أن يصل السوط الى عمرو نفسه لأن ابنه فعل ما فعل اعتمادا على جاه أبيه .. وهو الذى خطب الناس فقال : انى لم استعمل عليكم عمالى ليضربوا أبشاركم وليشتموا أعراضكم ويأخذوا أموالكم ، ولكنى استعملتهم ليعلموكم كتاب ربكم وسنة نبيكم فمن ظلمه عامل بمظلمة فلا اذن له على ليرفعها الى حتى أقصه منه ..

وهذا الشعور هو الذى أملى عليه أن يحرم ابنه من الخلافة بعده وله من المنزلة العالية مالا يخفى على أحد ، وقال قولته المشهورة : لا أرب لنا فى أموركم .. وما حمدتها فأرغب فيها لأحد من بيتى ان كان خيرا فقد أصبنا منه وان كان شرا فبحسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد ..

---

(٤٩) العكة : « بضم العين » آنية السمن أصغر من القربة .
والوطب : سقاء اللبن .

وجاء عثمان بن عفان وكان شيخا كبيرا فتولى الأمر من دونه بنو أمية وتغيرت المعانى النبيلة التى أقرها واقع الاسلام فى عهد أبى بكر وعمر .. وما ان جاء على بن أبى طالب حتى أخذ نفسه بالحزم ليرد الأمر الى نصابه فلم يأكل الا الشعير تطحنه له زوجته بيديها ويختم على جراب الشعير ويقول : لا أحب أن يدخل بطنى الا ما أعلم .. وكره أن ينزل القصر الأبيض بالكوفة مؤثرا عليه الخصاص التى يسكنها الفقراء ، وضرب أروع مثل فى الزهد والتعفف .. روى عن النضر بن منصور ابن عقلمة قال : دخلت على على عليه السلام فاذا بين يديه لبن حامض آذتنى حموضته وكسر يابسة فقلت : يا أمير المؤمنين أتأكل مثل هذا؟ فقال يا أبا الجنوب : كان رسول الله يأكل أيبس من هذا ويلبس أخشن من هذا وأشار الى ثيابه فان لم آخذ بما أخذ خفت ألا ألحق به . وروى عن هارون ابن عنترة عن أبيه قال : « دخلت على على بالخورنق — وهو فصل شتاء — وعليه خلق قطيفة وهو يرعد فيه .. فقلت : يا أمير المؤمنين ان الله قد جعل لك ولأهلك فى هذا المال نصيبا وأنت تفعل هذا بنفسك ؟ فقال والله ما أرزؤكم شيئا وما هى الا قطيفتى التى أخرجتها من المدينة» .

وكان من حقه أن يستمتع بالطيبات لكنه أراد أن يضرب المثل من نفسه للأفق العالى والزهد العظيم ، وهو الذى علم أن الحاكم لا يتميز على أحد ، فهو فرد من المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم يعطى الحق من نفسه لا يحول بين ذلك اختلاف دين أو علو منزلة .. وجد درعه عند رجل نصرانى فأقبل به الى شريح قاضيه يخاصمه مخاصمة رجل من عامة رعاياه وقال : انها درعى ولم أبع ولم أهب . فسأل شريح النصرانى : ما تقول فيما يقول أمير المؤمنين ؟ قال النصرانى : ما الدرع الا درعى وما أمير المؤمنين عندى بكاذب .. فالتفت شريح الى على يسأله : يا أمير المؤمنين هل من بينة فضحك على وقال : أصاب شريح — مالى بينة فقضى بالدرع للنصرانى فأخذها ومشى وأمير المؤمنين ينظر

اليه الا أن النصرانى لم يخط خطوات حتى عاد يقول : أما أنا فأشهد أن هذه أحكام أنبياء ــ أمير المؤمنين يديننى الى قاضيه فيحكم عليه .. أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله .. الدرع ــ والله ــ درعك يا أمير المؤمنين اتبعت الجيش وأنت منطلق الى صفين فخرجت من بعيرك الأورق فقال على : « أما اذا أسلمت فهى لك(٥٠) » ..

ووضع نصب عينيه أن يعيد للحكم الاسلامى جلال العدل وعظمة المبادىء التى تحكم المجتمع فقال عقب بيعته : أيها الناس انما أنا رجل منكم لى مالكم وعلى ما عليكم وانى حاملكم على منهج نبيكم ومنفذ فيكم ما أمرت به .. ألا ان كل قطيعة أقطعها عثمان وكل مال أعطاه من مال الله فهو مردود فى بيت المال فان الحق لا يبطله شىء ولو وجدته تزوج به النساء وملك به الاماء وفرق فى البلدان لرددته .. ان فى العدل سعة ومن ضاق عليه الحق فالجور عليه أضيق ..

ولم يصل الى غايته فقد عاجلته يد الغدر وقتل على باب المسجد بيد عبد الرحمن بن ملجم ، وتفرد معاوية بالحكم فجعله ملكا عضوضا توارثه بنمو أمية فانحرفوا عن مبادىء الاسلام ــ الا أنه من حقنا ونحن نرى واقع التطبيق لنظرية القرآن فى نظام الحكم أن نقف عند خامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبد العزيز وارث الخلافة عن سليمان بن عبدالملك وبرغم أنه من بيت الملك : أبوه عبد العزيز بن مروان وزوجه فاطمة بنت عبد الملك بن مروان وله من الثراء الواسع الشىء الكثير فانه ما كاد يتولى الخلافة حتى أعاد لمبادىء الاسلام فى الحكم رونقها وبهاءها ، فبدأ برد الأمر للأمة تختار من تراه أهلا لهذا المنصب الجليل اذ قال للناس : أيها الناس انى قد ابتليت بهذا الأمر من غير رأى كان منى فيه ولا طلبته

---

(٥٠) البداية والنهاية : لابن كثير جـ ٨ ص ٣ ، ٤ ، ٥ .

له ولا مشورة من المسلمين ، وانى قد خلعت ما فى أعناقكم من بيعتى فاختاروا لأنفسكم .. فصاح الناس : قد اخترناك يا أمير المؤمنين ورضينا بك فل الأمر باليمن والبركة .. وخطب الناس فقال : أيها الناس انه قد كان قبلى ولاة تجترون مودتهم بأن تدفعوا بذلك ظلمهم عنكم ألا لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، من أطاع الله وجبت طاعته ومن عصى الله فلا طاعة له .. أطيعونى ما أطعت الله فيكم فاذا عصيت الله فلا طاعة لى عليكم ..

وبدأ حكمه برد المظالم فبدأ بنفسه وقال : انه لينبغى ألا أبدأ بأول من نفسى .. فنظر الى ما فى يديه من أرض أو متاع فخرج منه حتى نظر الى فص خاتم كان فى يده فقال : هذا أعطانيه الوليد من غير حق مما جاء من أرض المغرب فرده .. وخرج مما كان فى يده من القطائع وكان فى يده قطائع باليمامة والمكيدس وجبل الورس باليمن وفدك فخرج من ذلك كله ورده الى المسلمين الا أنه ترك عينا بالسويداء وكان استنبطها بعطائه فكانت تأتيه غلتها كل سنة مائة وخمسون دينارا أو أقل من ذلك أو أكثر .

ثم ثنى بزوجته فاطمة بنت عبد الملك بن مروان وكان عندها جواهر أمر لها بها أبوها لم ير مثلها ، فقال لها اختارى اما أن تردى حليك الى بيت المال واما أن تأذن لى فى فراقك فانى أكره أن أكون أنا وهو فى بيت واحد ، قالت : لا .. بل أختارك يا أمير المؤمنين عليه وعلى أضعافه لو كان لى ، فأمر به فحمل حتى وضع فى بيت مال المسلمين ، فلما مات عمر واستخلف يزيد بن عبد الملك قال لأخته فاطمة : ان شئت رددته عليك قالت : فانى لا أشاؤه ، طبت عنه نفسا فى حياة عمر وأرجع فيه بعد موته لا والله أبدا . فلما رأى ذلك قسمه بين أهله وولده ..

وحمل بنى مروان على رد ما فى أيديهم .. « وتتابع الناس فى رفع المظالم اليه فما رفعت اليه مظلمة الا ردها سواء كانت فى يده أو فى يد غيره حتى أخذ أموال بنى مروان وغيرهم مما صار اليهم ظلما ، وكان يرد المظالم الى أهلها بغير البينة القاطعة وكان يكتفى باليسير فاذا عرف وجه مظلمة الرجل ردها عليه ولم يكلفه تحقيق البينة لما يعرف من ظلم الولاة قبله للناس وقد ذكروا أنه أنفذ بيت مال العراق فى رد المظالم حتى حمل اليها من الشام (٥١) » .

هذه مجرد أمثلة من واقع المجتمع الذى صنعه القرآن تتبين منها بجلاء — على قلة ما ذكرناه منها — بأن هذا الدين فى نظام الحكم — كسائر تشريعاته — لم يكن كلاما يقال أو فلسفة نظرية ليس لها من الواقع نصيب ، انما كان منهج حياة يسير عليه الحاكم والمحكوم مدفوعا بالروح التى سرت فى أوصال هذا المجتمع ، فاذا به خلق جديد لا يحتاج الى قوة القانون وسياسة الشدة وسلطان الجند انما ينفذ هذا القرآن فى خلوته وجلوته ايمانا منه بالله عظيم يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ..

ومع ذلك فقوة الجند وسلطان الحكم والقانون الالهى الذى يحدد خطوات الطريق كل ذلك موجود يرد لكل صاحب حق حقه ويفرض على الراعى والرعية نفسه فيتحاكم اليه الجميع عن رضا واقتناع ، لأن ذلك عنوان الايمان .. قال تعالى :

« فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً » (٥٢)

(٥١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص ١٠٦ ، ١٠٧ .

(٥٢) سورة النساء ٤/٦٥ .

نظام الهى فريد :

نظام الحكم كما أوضحه القرآن وطبقه المسلمون يتلخص فى أن أمر التشريع كله لله وحده وما الحاكم الا منفذ وحارس لهذه الشريعة وليس له امتياز على سائر الناس فى أى شأن الا أنه أثقل الأمة حملا ، والحكم الاسلامى قائم على العدل والشورى وطاعة المحكومين لحاكم ملتزم بوحى الله ، لم يأمر بمعصية ولم يتعد حدود الله ، فهل فى النظم التى عرفتها البشرية ما يشابه هذا النظام ؟

وهنا نبادر الى القول بأننا لا نتلمس لنظام الحكم فى منهج القرآن عنوانا نضعه تحت لوائه .. فحسب نظامنا أنه من صنع الله وحده وما عداه من صياغة البشر وأفكارهم ، والفرق بين هذا وذاك كالفرق بين الخالق والمخلوق والعابد والمعبود ..

لقد عرفت البشرية فى نظم الحكم : النظام الديكتاتورى ، وهو الذى يستبد فيه الحاكم برأيه ويفرض على شعبه ما يمليه هواه دون محاسب أو رقيب ، والحكم الاسلامى بعيد عن هذا الظلم ، لأنه يفرض على حاكم المسلمين المشاورة والعدالة بما تشمله من مساواة فى الحقوق والواجبات العامة . صحيح أن بعض الحكام المسلمين قد تجاوز حده واستبد بالسلطة حتى أعطى لأعداء الله برهانا يرمون به نظام الاسلام فى الحكم ومن هؤلاء الأعداء موير ، فى كتابه « الخلافة » اذ يقول : المثال والنموذج للحكم الاسلامى هو الحاكم المستبد المطلق .. ومنهم « ماكدونالد » الذى يقول : انه يمكن أن يقال ان مبدأ الحكومة الأتوقراطية أى الاستبدادية قد ظل مسلما به لا يجادل فيه فى الأقطار الاسلامية حتى القرن التاسع عشر ، وذلك حين وصلت الموجة التى صدرت عن الثورة الفرنسية عن طريق تركية الى المنطقة الحارة .. ثم يقرر أن ملاءمة « المنطقة الحارة للمبادىء الدستورية موضع شك [٥٣] » ..

(٥٣) النظريات السياسية الاسلامية . ضياء الدين الريس ص ٢٥٢

وما ذكره هؤلاء لا يحتاج الى مناقشة اذ ماصلة المناطق الحارة بالمبادىء الدستورية وما ذنب الاسلام اذا انحرف بعض الحكام المنتسبين اليه ؟ وهل المنهج القرآنى يتحمل تبعة ظلم هؤلاء الحكام وخروجهم عن قواعد الحكم الاسلامى الصحيح ؟

كما عرفت البشرية الحكم الوراثى ملكيا أو غيره ، وليس فى الاسلام توارث للحكم انما الأمر شورى بين المسلمين يختارون من يرونه أهلا لذلك لا يحول بينه وبين الخلافة حائل من نسب أو لون أو جنس ..

ولعل فى وفاة الرسول من غير عقب ذكر حكمة الهية سامية . ففى هذا اشارة الى عدم موافقة النظام الملكى للاسلام ، فان أغلب الظن أنه لو ترك الرسول ابنا لاختاره المسلمون رئيسا للدولة بعد أبيه صلى الله عليه وسلم ثم اختاروا من بعد هذا الابن ابنه وهكذا [٥٤] ..

وعرف الناس ـ أيضا ـ النظام « الثيوقراطى » : وهو ذلك النظام الذى يدعى فيه الحاكم أنه يستمد سلطانه من الله وليس عليه من شعبه رقيب ، وبذلك يفرض ماشاء من أحكام ويسن ما أراد من قوانين دون نقاش أو حساب ، يقول لويس الرابع عشر ملك فرنسا : « ان سلطة الملوك مستمدة من تفويض الخالق فانه مصدرها وليس الشعب وهم مسئولون أمام الله وحده عن كيفية استخدامها [٥٥] » ..

ومن بعده أصدر لويس الخامس عشر سنة ١٧٧٠ قانونا جاء فى مقدمته : «اننا لم نتلق التاج الا من الله فسلطة سن القوانين من اختصاصنا وحدنا لا يشاركنا فى ذلك أحد ولا نخضع فى عملنا لأحد [٥٦] » ..

---

(٥٤) نظام الحكم الاسلامى د . محمد يوسف موسى ص ١٤١ .
(٥٥) نظام الحكم الاسلامى د. محمد يوسف موسى ص ١٤١ .
(٥٦) المرجع السابق ص ٢٥٣ .

وفى هذا النظام أيضا يكون رجال الدين طبقة تتولى التشريع على حسب ما تقتضيه شهوات أنفسهم ثم ينفذونها فى البلاد مدعين أنها من عند الله ، ومثل هذا النظام بعيد عن ساحة الاسلام فليس لأحد فى نظام الحكم الاسلامى حق التشريع أو الانفراد بالسلطة ، انما ذلك كله لله وحده وما البشر الا منفذون لأوامر الله ..

يقول عفيف طبارة : « ان الحاكم فى الحكومة الثيوقراطية يستمد سلطاته من الله وترجع جذور الثيوقراطية الى الأفكار الدينية القديمة ، حيث كان رجال الدين والملوك يدعون لأنفسهم بأن سياستهم مستمدة من الله فيشرعون للناس قانونا من أنفسهم على حسب ما شاءت أهواؤهم . وتبنت المسيحية ذلك لأنه لم يكن فيها شيء من التشريع الا مواعظ خلقية مأثورة عن المسيح ، أما الدولة الالهية الاسلامية فتشتمل على التشريع المدنى والدينى الذى جاء به القرآن والذى لا يستبد به طبقة من رجال الدين ، بل يقوم على تنفيذه الشعب ولأهل الحل والعقد الحق فى عزل الخليفة ولا يملك أحد عزل البابا ــ والبابا بيده النقض والابرام والغفران والحرمان والخليفة ليس بيده شيء من ذلك ولا يخصه الدين فى فهم القرآن والعلم بالأحكام بمزية ، بل هو وسائر طلاب الفهم سواء انما يتفاضلون بصفاء العقل وكثرة الاصابة فى الحكم [٥٧] » ..

وربما اشتبه على بعض الناس أن نظام الاسلام نظام ديمقراطى ، وذلك لأن الشعب يحكم نفسه بنفسه فى النظام الديمقراطى وذلك قريب من الاسلام فى فرضه رقابة الأمة على حاكمها ، وجعل الأمور شورى بين المسلمين وتحقيق العدالة للجميع .. لكن النظرة الفاحصة ترينا أن الاسلام غير ذلك أيضا فجميع ما تؤمن به الأمة من فضائل وما تسير عليه

---

(٥٧) روح الدين الاسلامى لعفيف طباره ص ٢٨٣ ، ٣٠٤ .

فى علاقات أفرادها وما تدين به فى تعاملها مع غيرها مصدره هدى الله وسنة رسوله لا الشعب ولا أية سلطة أخرى ، وانما تفرض ارادة الشعب نفسها اذا سايرت منهج القرآن ولم تخرج عنه ..

وفى النظم الديمقراطية يحدد لرئيس الدولة مدة يتولى فيها الرئاسة وبعدها يتولى غيره أو يعاد انتخابه اذا كان دستور دولته يجيز ذلك أما فى نظام الاسلام فان للحاكم أن يبقى فى منصبه مادام صالحا له مؤديا واجباته ..

يقول أبو الأعلى المودودى : « الديمقراطية عبارة عن منهاج للحكم تكون السلطة فيه للشعب جميعا فلا تغير فيه القوانين الا برأى الجمهور ولا تسن الا على حسب ما توحى اليه عقولهم فلا يتغير فيه من القانون الا ما ارتضته أنفسهم وكل ما لم تسغه عقولهم يضرب به عرض الحائط ويخرج من الدستور وهذه الديمقراطية الغربية المموهة التى يتشدقون بها وبأن فيها حاكمية أو سيادة شعبية اذا سبرت غورها وأنعمت النظر فى دخائلها علمت أن الذين تتكون منهم لا يسن كلهم القوانين ولاينفذونها جميعا ، بل يضطرون الى تفويض سلطانهم الى رجال يختاروتهم من بينهم ليشرعوا قوانين ينفذونها ولأجل هذا الغرض يضعون نظاما للانتخاب خاصا ولا ينجح فيه الا من يغرى الناس ويستولى على عقولهم وألبابهم بماله وعلمه ودهائه ودعايته الكاذبة ، ثم ينفذون ذلك القانون الجائر على العامة بتلك القوة نفسها التى خولتهم اياها العامة ثم يصبح هؤلاء الناجحون بأصوات العامة آلهة لهم يشرعون ما يشاءون من القوانين لا لمصالح الجمهور ، بل لمنافعهم الشخصية ومصالح طبقاتهم المخصوصة التى ينتمون اليها فهذا هو الداء العضال الذى أصيبت به أمريكا وانجلترا وسائر البلاد التى تدعى اليوم بأنها جنة للديمقراطية ومأوى لها ، وبقطع النظر عن هاتيك المفاسد ان سلمنا أن القوانين تشرع فى تلك البلاد عن رضا

العامة فقد أثبتت لنا التجارب بأن العامة لا يستطيعون أن يعرفوا مصالحهم فان البشر قد خلقهم الله على ضعف فطرى كامن فى نفوسهم فيرون فى أكثر أمور الحياة بعض جانب من الحقيقة ولا يرون بعضها الآخر ولا يكون حكمهم مرتكزا على نقطة العدل عموما وهم فى الغالب يكونون مغلوبين على أمرهم من العواطف والميول فيرفضونها لأجل غلبة العواطف والشهوات على أنفسهم [٥٨] » .

واذن فنظام الحكم فى منهج القرآن ليس له شبيه أو مثيل ، انما هو نظام الهى فريد فى نوعه « فهو النظام الاسلامى وكفى ، النظام الذى غايته حفظ الدين وحراسته وسياسة أمور الأمة بحسب شريعة الله ورسوله وذلك ليصل بأبناء العروبة والاسلام ، بل بالناس جميعا الى خيرى الدنيا والآخرة معا ، ويقوم فيما يقوم عليه على الشورى والعدالة وضمان الحرية والحقوق لكل من أبنائه ولغيرهم ممن يقيمون بدار الاسلام ، ويحرس المجتمع والأمة من الظلم والبغى والعدوان ، ويكفل للجميع الحياة العزيزة الكريمة المجيدة [٥٩] » ..

وبعد ..

فتلك لبنات فى البناء الاجتماعى وليست كل اللبنات .. لبنات قوية اخترناها فسلطنا عليها الأضواء فتبينت لنا قوة هذا البناء الذى شاده منهج القرآن على العقيدة والأخلاق ، فاذا بنظام الأسرة خلية نابضة بالحياة والمودة واذا بالمجتمع المسلم يسوده الاخاء والتعاون ويتكاتف أفراده فى سبيل حياة أفضل .. واذا بهذا المجتمع فى معاملاته

---

(٥٨) نظرية الاسلام السياسية لابى الاعلى المودودى ص ٢٩ ، ٣٣ ، ٣٤

(٥٩) نظام الحكم فى الاسلام د. محمد يوسف موسى ص ١٤٥ .

على خير ما تطلبه الانسانية من حسن المعاملة ونزاهة الضمير ، واذا الحرية والمساواة شعار تحس به القلوب وتعشقه النفوس فتترجمه واقعا ملموسا .. واذا بهذا المجتمع يسير على منهج واضح فى نظام الحكم فلا يحيف حاكم على محكوم ولا يتخلف محكوم عن نصرة حاكم وطاعته ، واذا به بناء من طراز جديد لم تشهد له الانسانية مثيلا فى متانة بنائه وجمال صنعه وتكوينه .. وحسبنا أن تملينا هذا الجمال ودقة الصنع فى بعض جوانب هذا الصرح الشامخ .. أما الجوانب كلها بما فيها من روعة واتقان ، وأما سائر اللبنات بما لها من متانة واحكام فهذا ما ليس فى وسع أحد أو طاقته أن يحيط به . ولا يكلف الله نفسا الا وسعها ..

الباب الرابع

تنظيم القرآن لعلاقة المجتمع الاسلامى بالمجتمعات الأخرى

الفصل الأول : العلاقات الدولية فى القرآن

الفصل الثانى : القرآن وأهـل الكتاب

الفصل الثالث : القرآن وأهل الشرك

الفصل الأول

العلاقات الدولية فى القرآن

١ ــ كيان دولى لأمة القرآن

٢ ــ الجهاد فى سبيل الله

٣ ــ علاقة حرب أم علاقة سلام ؟

٤ ــ الجزية والخراج

٥ ــ المعاهدات

٦ ــ الوفاء بالعهود فى العلاقات الدولية

٧ ــ الاسلام دين السلام



العلاقات الدولية فى القرآن

١ ـ كيان دولى لأمة القرآن :

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الى هذا العالم وحده يحمل بين يديه نورا وكتابا مبينا ، ولم تكن مهمته سهلة لأنها مهمة التغيير العالمى فى الأفكار والمشاعر والعادات والتقاليد ونظم الحكم والسياسة حتى يتحقق الهدف من رسالته ..

يقول تعالى :

« قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِى وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ » (١)

ومع ضخامة هذه الرسالة كانت ضخامة التضحيات والمسئوليات .

وهل يستطيع فرد أن يحول الناس جميعا من الضلالة الى الهداية ومن الشقاء الى السعادة .. ومن الكفر الى الايمان الا أن يكون نموذجا فريدا وطرازا عظيما فى بذله وتضحيته ؟!

وهكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قال الحق فيه :

« وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ » (٢)

---

(١) سورة الاعراف ١٥٨/٧ .

(٢) سورة القلم ٦٨/٤

ولهذا تحمل من يوم أن جهر بدعوته صنوفا من الاضطهاد وألوانا من المطاردة ، وهو ما يفتأ ينادى قومه للايمان ويرشدهم الى طريق الله وتبعته ثلة مؤمنة ـ أيضا ـ طاردتها قوة الكفر وجبروت الاستعلاء حتى اضطروا الى الهجرة الى الحبشة مرتين •• وعلى نار تلك المحن التى ابتليت بها الصفوة المؤمنة ربى رسول الاسلام رجالا عمر الايمان قلوبهم وحررهم من ذات أنفسهم فصبروا على الايذاء وتقبلوا هـــذا الألم بصبر مشرق بالأمل والثبات واليقين ••

ولما لم يجد مع الرسول والمؤمنين به ما أنزله الكافرون بهـــم أرادوا أن يطفئوا نور الله ويقتلوا الرسول العظيم والنبى الطاهر •• الا أن الأمر كانت تدبره يد القدرة الالهية ••

كما قال سبحانه :

« وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ واللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ » (٣)

وفات المتآمرين أن أشعة القرآن قد اخترقت الحواجز والحدود، وأصبح للمسلمين بعد بيعة العقبة الكبرى بيثرب أهل ودار ••

وخرج الرسول وأصحابه الى اخوانهم الأنصار مهاجرين الى الله بدينهم ، فأصبح لهم بالهجرة هيكل اجتماعى ووجـــود دولى •• « وصارت لهم بها وحدة لها شعارها الخاص ونظامها الخاص وهدفهـا الخاص وقيادتها الخاصة •• صار لهم بها جوار غير الجوار الأول عقدوا معه معاهدة الأمن وعدم الاعتداء •• وبهذا وذاك كملت لهم عنـــاصر الوجود الدولى فيما بينهم بعضهم مع بعض بتشريعاتهم الداخلية وفما بينهم وبين غيرهم بتشريعاتهم الخارجية (٤) » ••

---

(٣) سورة الأنفال ٨/٣٠ .
(٤) الاسلام والوجود الدولى وللمســلمين للشيخ محمــود شلتوت. ص ٥٣ .

وهذا الكيان الدولى ألقى ثقله فى مجرى الأحداث العالمية فغيرها ويدلها ، بل غير خريطة العالم فزالت ممالك وسقطت عروش ودالت دول أمام زحف أمة القرآن ، وما كان لمثل هذا الوجود الاسلامى أن ينجح هذا النجاح وأن يحوز قصب السبق فى مضمار الدعوة الى الله الا لأنه امتلك مقومات الوجود الدولى : سياسية وتشريعية فكرية وتطبيقية ، وكان له من وضوح الرؤية ما أصاب به الهدف .. والأمة التى تمثل فيها هذا الكيان تقوم فى بنائها الاجتماعى على الأخوة الرحيمة فى الله والصلة الوثيقة بالخالق العظيم ، والتخلق بالصفات الكريمة والفضائل العالية ، والمساواة ، والحرية ، والعدالة لكل البشر ، ومع كل الناس والتزام كل فرد فيها وحى السماء : فلا يجور حاكم ولا يهمل محكوم . وبهذا الاعتزاز الكامل بمبادىء القرآن تحولت الأمة الى طاقة جبارة استمدت خلودها وبقاءها وكيانها من الطاقة الهائلة التى يحملها كتاب الله ، وبها يحول مجرى الحياة — دائما — الى طريق الله وحده .. ونبت هذا الكيان غضا طريا ، فنما وعظم كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار .. قال صاحب الكشاف : « وهذا مثل ضربه الله لبدء الاسلام وترقيه فى الزيادة الى أن قوى واستحكم ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم قام وحده ثم قواه الله بمن معه كما يقوى الطبقة الأولى من الزرع ما يحتف بها مما يتولد منها »[٥] .. والقرآن يصور هذا الكيان كيف اشتد أزره وقوى ساعده فيقول :

« وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ »[٦]

(٥) الفتوحات الالهية للعلامة الجمل جـ ٤ ص ١٧٢ .
(٦) سورة الأنفال ٨/٢٦ .

فقد كانوا قلة مستضعفة مهددة بالضياع لكنها قويت بالايمان واشتدت بالاسلام وتربت على منهاج الله فآواهم الله وأيدهم بنصره وحقق لهم وعد الله لعباده المؤمنين ..

حيث قال :

« وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً »(٧)

يقول العلامة أبو السعود فى بيان هذا الأمن : « كان أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم قبل الهجرة بعشر سنين بل أكثر خائفين ، ثم هاجروا الى المدينة وكانوا يصبحون فى السلاح ، ويمسون كذلك حتى قال رجل منهم : ما يأتى علينا يوم نأمن فيه ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : لا تعبرون الا يسيرا حتى يجلس الرجل منكم فى الملأ العظيم محتبيا ليس معه حديدة فأنزل الله عز وجل هذه الآية وأنجز وعده وأظهرهم على جزيرة العرب ، وفتح لهم بلاد الشرق والغرب ، وصاروا الى حال يخافهم كل من عداهم »(٨) ..

وجاء فتح مكة تتويجا لهذا الأمان وبفتحها سقط أكبر معقل للوثنية فدخل الناس بعدها فى دين الله أفواجا وتحقق بذلك وجود متكامل وكيان دولى لأمة القرآن .. وان كان هذا الوجود قد أخذ مكانته الدولية بعد عهد الحديبية وحين أرسل صلى الله عليه وسلم الى ملوك الأرض يدعوهم

---

(٧) سورة النور ٥٥/٢٤ .
(٨) تفسير أبى السعود : ارشاد العقل السليم ج ٤ ص ٧١ .

الى الاسلام ويحملهم مسئولية أممهم التى حجبوا عنها ضياء الدين الحق فأحس العالم روحا تتحرك فى كيان جديد ليأخذ وضعه العالمى بل ليؤسس أسرة عالمية تتعالى على روابط الأرض والجنس ، وتؤلف أمة على فكرة الايمان بالله وما يفرضه هذا الايمان على اتباعه من سلوك تجاه البشر جميعا ويحقق بذلك حلم الفلاسفة فى قيام النظام العالمى الذى يحمى مبادىء الخير والحب والسلام ..

٢ ـ الجهاد فى سبيل الله :

هل ترك المسلمون يبلغون رسالة الله ؟؟

لو كانت رسالتهم دعوة الى الرهبنة والنسك لهان أمرها ولما كان لها أدنى خطر .. لكنها رسالة الاصلاح العقلى والاجتماعى ورسالة التحرير الكامل للبشر من المذلة والهوان والاستعباد لغير الله .. ولابد لهذه الرسالة بحكم هدفها أن تصطدم بقوى الكفر وأن تتسلح لها بما يكسر هذه القوة ويفل من حدها ويجبرها على التسليم المطلق حتى ينفتح الطريق أمام الشعوب فترى اشراقة الحق وضياء التوحيد ونور الحرية والعدل ..

ولهذا لم يترك المسلمون يبلغون رسالة الله ، وماكان للطاغوت أن يتركهم يحطمون قيده وينزلونه عن عرش الألوهية والسيطرة والاستعلاء ، فأنزل بهم ما يشهد به التاريخ من ألوان العنت والتضييق محاولا اخماد هذه الشعلة ، ولكن هيهات ..

ومنهج القرآن فى تحديد علاقة المجتمع المسلم بغيره يقابل كل مرحلة بما يناسبها ويتدرج مع أطوار الدعوة فيلزم المؤمنين فى كل مرحلة بسلوك خاص تجاه المعتدين الى أن استقر الأمر وأصبح الدين كله لله : فهو يأمر بالصفح والصبر على الايذاء فى فترة طال أمدها فى مكة وكان كلما

جاء واحد من أصحاب الرسول ــ عليه السلام ــ شاكيا متألما ثائرا على قوة الباطل يود أن يأذن له الرسول فى قتال الأعداء يقول : اصبروا فانى لم أومر بقتال •• الى أن حررهم من أنفسهم ونزع منها عنجهية العرب وتعظمها وكبرها ، وأصبح الفرد المسلم لا يثور لضر نزل ببدنه انما يثور لما يصيب دينه واسلامه •• وما ان تمت الهجرة وأصبح للمسلمين مجتمع ذو قيادة حتى أذن الله لهم بالقتال ••

فقال تعالى :

« أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ * ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ »(٩)

وهو اذن من الله عن علم بما تحمله المؤمنون من ظلم ، واقرار لحقيقة هامة فى باب الجهاد هى أن القوة لا تسكتها الا القوة •• وما يجدى البلاغ والانذار مع قوم يصدون عن سبيل الله ويقفون فى طريقه ؟

---

(٩) سورة الحج ٣٩/٢٢ ــ ٤١ .

انه لو ترك المفسدون فى الأرض ينفذون خطتهم لهدمت أماكن العبادة ولضاعت مبادىء الحق ولكنها سنة الله فى خلقه ..

قال تعالى :

« وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ » (١٠)

فهو يقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق .. وتستقر تعاليم السماء على أرض الله متمثلة فى المجتمع المسلم حامل هذه التعاليم اقامة شعائر العبادة فى الصلاة وتكافل المجتمع وتسانده بالزكاة ، وحمايته من الانحراف بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، واندفاعه الى كل ذلك خوفا من الله وحده الذى له عاقبة الأمور ..وهذا الاذن بالدفاع عن دينهم ووجودهم أعقبه أمر بقتال من قاتلهم دون من لم يقاتلهم فقيل لهم :

« وَقَٰتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ » (١١)

ولما تألبت عليهم الجزيرة العربية واتضح أن الكفر لا يلقى سلاحه الا بالهجوم المسلح وازالة الطواغيت من طريق النور أمرهم الله بقتال المشركين كافة فقال :

« وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً » (١٢)

---

(١٠) سورة البقرة ٢٥١/٢ .
(١١) سورة البقرة ١٩٠/٢ .
(١٢) سورة التوبة ٣٦/٩ .

وقال :

« قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ » (١٣)

« فاستقر أمر الكفار مع الرسول بعد نزول براءة على ثلاثة أقسام : محاربين له ، وأهل عهد ، وأهل ذمة ، ثم آلت حال أهل العهد والصلح الى الاسلام فصاروا معه الى قسمين : محاربين ، وأهل ذمة ، والمحاربون له خائفون منه فصار أهل الأرض معه ثلاثة أقسام : مسلم مؤمن به ، ومسالم له آمن وخائف محارب •• فكان القتال محرما ، ثم مأذونا فيه، ثم مأمورا به لمن بدأهم بالقتال ، ثم مأمورا به لجميع المشركين (١٤) » ••

وليس هذا نسخا •• فما فى آيات الجهاد نسخ انما هى مراحل صالحة للتطبيق تفاعل بها المنهج القرآنى مع الظروف المحيطة به ولبى حاجات المجتمع الناشىء فى تحديد علاقته بغيره •• وبقى الهدف الذى يسعى اليه الجهاد نبراسا مضيئا ، فهو ليس جهادا للمغنم أو الاستمتاع بمتع الحياة ، وليس تحكما وتسلطا على خلق الله وفرض عقيدة الاسلام على الأمم ، انما هدفه لله وفى سبيله وهى غاية نبيلة مبرأة من الأطماع والأهواء •• غايته فتح الطريق أمام الشعوب وازالة طواغيت

---

(١٣) سورة التوبة ٩/٢٩ .

(١٤) زاد المعاد : لابن القيم فى الفصل الذى عقده باسم : فصل فى ترتيب هديه مع الكفار والمنافقين من حين بعث الى حين لقى الله عز وجل. جـ ٢ ص ٨١ .

الأرض ، ومن فرضوا ألوهيتهم على البشر .. فهو حرب للحكومات الظالمة والملوك الفاسدة ، لا حرب للأمم والأفراد اذ لا يعترف الاسلام بايمان المكره ، لأن الايمان اقتناع وكيف يقتنع مضطر ؟ ..

قال تعالى :

« لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » (١٥)

وقال تعالى :

« وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا » (١٦)

وقال تعالى :

« وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ » (١٧)

وفرق بين فرض الاسلام على عقول الناس وقلوبهم واسقاط معاقل الظلم التى تحمى الفساد .. فالاسلام لا يفرض على أحد دون اقتناع . واسقاط معاقل الظلم فرض يؤديه حملة الرسالة الالهية للانسانية حتى ترتوى من نبع القرآن المصفى ..

---

(١٥) سورة البقرة ٢/٢٥٦ .
(١٦) سورة الكهف ١٨/٢٩ .
(١٧) سورة يونس ١٠/٩٩ .

وهذا ما فهمه المسلمون المجاهدون الذين أسعدوا العالم بالاسلام وبذلوا أرواحهم وأموالهم وأولادهم فى سبيل الله ، لم يقل واحد منهم أنا أدافع عن وطن أو قوم ، انما قال أنا أدافع عن فكرة .. عن عقيدة عن مبادىء الرحمة ، وهذه لا وطن لها الا القلوب المتفتحة ، ولا يختص بها العرب وحدهم ولا الفرس أو الروم أو غير هؤلاء وأولئك ، انما هى الأخوة الجامعة التى تربط بين القلوب فى أنحاء الأرض ..

« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ . . » (١٨)

فهم اخوة مهما تباعدت ديارهم وتناءت مسافاتهم ، وهم شركاء فى حمل راية الجهاد والانطلاق بها الى حيث شاء الله أن تصل ..

وشعار المجاهدين كما أوضحه ثلاثة من أصحاب رسول الله هم : ربعى بن عامر ، وحذيفة بن محصن ، والمغيرة بن شعبة ، وقد أرسل اليهم رستم قائد جيوش الفرس فى القادسية وسألهم الواحد تلو الآخر ما الذى جاء بكم ؟ فكان جوابهم : « الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد الى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا الى سعتها ، ومن جور الأديان الى عدل الاسلام ، وأرسل رسوله بدينه الى خلقه فمن قبله منا قبلنا منه ورجعنا عنه وتركناه وأرضه ، ومن أبى قاتلناه حتى نفضى الى الجنة أو الظفر (١٩) » ..

والذين يحاولون اليوم أن يقيسوا هذا الجهاد المطهر بحروب اليوم يقعون فى خطأ عنيف ، فان الجهاد الاسلامى له بواعثه ودواعيه المنبثقة عن فكرة شاملة عن الكون والحياة وعن الفهم لمدى ما يجب على

---

(١٨) سورة الحجرات ٤٩/١٠ .

(١٩) تاريخ الفتح الاسلامى فى عهد الرسول عليه السلام وعصر الخلفاء الراشدين وبنى أمية للأستاذ / محمد فخر الدين ص ٢٩٥ ، ٢٩٦ .

الانسان المسلم تجاه اخوانه فى الانسانية ، وحروب اليوم اســـتغلال لشعوب ونهب لخيراتها أو دفاع عن فكرة اقليمية محــدودة بالأرض والقوم .. فاذا كنا نحاول أن نجعل الاسلام فى حروبه وقتاله فى أنحاء الأرض دين الدفاع لننفى عنه أنه قام بالسيف وانتشر على الأسنة فهذه خطورة على المنهج القرآنى نفسه ، وبها يصل العدو الخبيث الى مبتغاه من صرف الناس عن فساده وضلاله وكيف استشرى فى كل مكان ، وجعل بلاد الله نهبا مباحا يأخذ خيراتها ويستذل أبناءها ويفرض عليهم الفاقة والحرمان .. وما تقتيل الأبرياء والشيوخ والعجزة وتدمير الحرث والنسل واشاعة الخراب الا ظاهرة مصاحبة لحروب دول تدعى الحضارة والتقدم وتجند كتابها للحملة على منهج القرآن فى بنائـــه للمجتمعات ونظرته الى الواقع الانسانى بجملته وكيف يتم اصلاحه ..

وأمام هذه الحملة يقف أبناء الاسلام يتمحلون الأعذار لدينهم ويصفونه بأنه دين مظلوم اضطر الى الدفاع عن نفسه لتأمين وجوده ، وفاتهم ــ أولا ــ فساد هذه الحملة وكيف اختلط عليها الجهاد العام لأركان الظلم ووجوب انهيارها حتى يرى الانسان ببصيرته ما فى هــذا الدين من عزة وسعادة ، وهو بعد ذلك حر فى ايمانه بما شاء من أديان ومذاهب ، اختلط هذا بالفهم الخاطىء لطبيعة هذا الدين ، وخيل الى القوم انها حرب لاكراه الناس على الدخول فى الاسلام . وفات أبنـاء الاسلام ــ ثانيا ــ أن هذه الحملة انما هى لصرفهم عن عتو دول العالم الحديث وحروبها وما فيها من بوار وهلاك ..

وفاتهم ــ ثالثا ــ أن الجهاد فى سبيل الله متعدد المراحل .. وكل مرحلة لها دواعيها ومقتضياتها وأنه قد استقر الأمر فيه على اعلان الحرب على كل من يحمى الفساد ويقيم له دولة تنشره وترعاه ..

فليس من حق المسلم أن يقف عند مرحلة خاصة ليقول : هـــذا منهج القرآن وذاك طريقه فليس له أن يقف عند مرحلة الصبر والعفو والتسامح ليقول للمسلمين : هذا دينكم فلا تقاتلوا أحدا ودعوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله •• دعوا الظلم يرخي سدوله على الحياة وتحملوا ما ينزل بكم من هوان وارضوا بما يفرضه عليكم قانون البغى والضــلال ولا تثوروا على شيء من ذلك ••

ولا أن يتورط فى الدفاع عن المتكاسلين والقاعدين عن الجهاد ويقف عند الاذن بالقتال ليقول : ان الجهاد غير مفروض وانه مأذون فيه فقط •

أو يقف عند الأمر بقتال من قاتل المسلمين ليقول : انتظروا هجمات العدو ولا تزعجوه أنتم بالهجوم المفاجيء •• اتركوه وشأنه لأنه لم يعتد عليكم ولم يقدم لكم اساءة •• انما يجب على الباحث المنصف أن يتفهم كل مرحلة وظروفها ، ويعرف أنه لا تعايش بين الاسلام وأنظمة الكفــر الفاسدة التى تحجب عن الرعايا أنوار الله التى تخترق حجب القلــوب فتصل الى الفطرة ، فاذا بها تعود ــ سريعا ــ فى شوق الى دين الله كما قال تعالى :

« فِطْرَتَ ٱللهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » (*)

ولهذا وجب الجهاد لاخراج العباد من عبودية بعضهم لبعض الى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا الى سعتها ، ومن جور الأديان الــى عدل الاسلام كما قال أصحاب سعد لرستم ••

(*) سورة الروم ٣٠/٣٠ .

فاذا أردنا أن نقول ان دين الاسلام دين الدفاع فانما هو دفاع عن الحق وعن حرية الانسان وكرامته ، يقول أبو الأعلى المودودى : «الجهاد الاسلامى اذا أردت الحقيقة ـ هجومى ودفاعى معا : هجومى : لأن الحزب الاسلامى يضاد ويعارض الممالك القائمة على المبادىء المناقضة للاسلام ، ويريد قطع دابرها ولا يتحرج فى استخدام القوى الحربية لذلك .. وأما كونه دفاعيا : فلأنه مضطر الى تشييد بنيان المملكة وتوطيد دعائمها حتى يتسنى له العمل وفق برنامجه وخطته المرسومة . وغير خاف عليك أن الاسلام « حزب » فليس له من هذه الوجهة دار محدودة بالحدود الجغرافية يذود ويدافع عنها ، وانما يملك مبادىء وأصولا يذب عنها ويستميت فى الدفاع عنها ، وكذلك لا يحمل على « دار » الحزب الذى يعارضه ويناقضه ، وانما يحمل ويصول على المبادىء التى يتمسك بها ولا يغيبن عن بالك أنه لا يريد بهذه الحملة أن يكره من يخالفه فى الفكرة على ترك عقيدته والايمان بمبادىء الاسلام وانما يريد الحزب الاسلامى أن ينتزع زمام الأمر ممن يؤمنون بالمبادىء والنظم الباطلة حتى يستتب الأمر لحملة لواء الحق ، ولا تكون فتنة ويكون الدين كله لله »[٢٠] ..

وقول أبى الأعلى بأن الجهاد الاسلامى هجومى ودفاعى معا : لا تناقض فيه ، لأن الاسلام لا يترك فرصة لعدو الله كى ينقض عليه ويسلب الحق الذى بين يديه ، انما يفاجأه بقواته الحربية حتى يجبره على التسليم ولا شك أن هذا الهجوم دفاع عن الحق أيضا لا اعتداء فيه على حريات الشعوب ولا انتقاص فيه لحقهم فى الحياة الحرة الكريمة ، انما هو تأمين للعدل واحقاق للحق وانطلاق بالانسان الى الآفاق العالية من حرية الفكر والوجدان ليختار الانسان بنفسه طريق الهداية كما أودعها الله فيه ..

---

(٢٠) الجهاد فى سبيل الله : ابو الأعلى المودودى ص ٤٢ ، ٤٣ .

ويتمسك بالنور الالهى عن يقين واقتناع بعيدا عن سوط الارهاب والقسر بعد أن حطم الاسلام قيود الاستعباد من حوله •• وأسقط قلاع الظالمين فداسها تحت قدميه وتطلع الى ضياء الحق الذى يشع سناه مع حملة كتاب الله العظيم فعانق هذا الضياء فى شوق ومودة وحنين ••

٣ ـ علاقة حرب أم علاقة سلام ؟ :

كثيرا ما يتساءل الناس عن علاقة الأمة الاسلامية بغيرها من دول العالم : هل هى علاقة حرب أو علاقة سلام ؟ والعلماء أمام هذا التساؤل فريقان تبعا لفهم كل منهم لروح الاسلام ونصوصه ••

فمن قال انها علاقة الحرب الدائمة وانه لا يجوز للمسلمين أن يضعوا سلاحهم أبدا انما يشهرونه فى وجه كل مخالف لدينهم •• من قال هذا احتج بالآيات التى تدعو الى القتال وتحث عليه وترغب فيه •• ومنها قوله تعالى :

« كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » (٢١)

ومنها قوله :

« فَلْيُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَن يُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا » (٢٢)

---

(٢١) سورة البقرة ٢/٢١٦ •

(٢٢) سورة النساء ٤/٧٤ •

ومنها :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ » (٢٣)

الى غير ذلك من الآيات التى تدعو الى القتال وترغب فيه .. كما أوضح الرسول عليه السلام الغاية التى ينتهى اليها القتال فقال : «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فاذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم الا بحق الاسلام وحسابهم على الله (٢٤) » ..

وموالاة غير المسلمين لا تجوز قال تعالى :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ » (٢٥)

وقال عز وجل :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَـٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى

---

(٢٣) سورة الأنفال ٨/٦٥ .
(٢٤) رواه البخارى ومسلم عن ابن عمر رضى الله عنهما .
(٢٥) سورة المائدة ٥/٥١ .

تُسِرونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ ٱلسَّبِيلِ » (٢٦)

وقال جل شأنه :

« لاَ يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَىٰةً وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ» (٢٧)

وما دام الاسلام قد اتضح أمره وبلغت رسالته بالحكمة والموعظة الحسنة أولا ولم يستجب له هؤلاء ، فالحرب هى الدواء واجبارهم على الهداية هو الطريق ، وذلك لخيرهم وسعادتهم ، أما من قال انها علاقة السلام الدائم وما الحرب الا ضرورة ألجأت اليها الظروف حين لم يعد بديل سواها : فرأى أن آيات الجهاد جاءت تبين السبب الذى من أجله شرع القتال وهو دفع الظلم عن المسلمين فى بلادهم أولا وتأمين الدعوة وحمايتها ــ ثانيا ــ والقضاء على فتنة الناس فى دينهم وعقائدهم ثالثا ..

ومما يؤكد علاقة السلام : أن المنهج الالهى لا يحل قتل النساء والأطفال والرهبان والشيخ الكبير والزمن ومن لم يشترك فى القتال .. فمن يجوز قتله هو من حارب المسلمين ، وترك هؤلاء دون قتال دليل على أن المقصود هو تحطيم القوة التى تحمى الباطل وتدافع عن الطاغوت ــ ويزيد ذلك تأكيدا أن الاكراه على الدين لا يجوز ولا يعترف به القرآن فى نصوصه الصريحة ..

---

(٢٦) سورة الممتحنة ١/٦٠ .

(٢٧) سورة آل عمران ٢٨/٣ .

وتحديد علاقة الأمة الاسلامية بغيرها على كلا الوجهين ـ فى رأينا ـ أصابت بعض الحقيقة لا كلها •• فهى ليست علاقة حرب دائم ولا يمكن أن تكون علاقة سلام دائم •• فللحرب دواعيها وللسلام دواعيه •• وما يظن عاقل أن القوى المسيطرة المتحكمة فى رقاب العباد •• تنزل عن سلطانها بكلمة تقال أو موعظة بليغة ، انما تردعها القوة المسلحة فان ألقى العدو سلاحه وطلب الأمان فقد أعلن انقياده لحكم الله وتولت القيادة الاسلاميةصياغة الحياة بمنهاج الله الذىخرجت تجاهد البشرية عليهلتردها اليه ومن حقها ـ حينئذ ـ أن تمنح الأمان لكل طالب •• فما ابتغى الاسلام القتال الا ليصل الى هذا الهدف •• والأمان الذى يمنحه الاسلام للمقاتلين نوعان : مؤقت ومؤبد •• والمؤقت خاص وعام •• فالخاص : ما يمنحه فرد من المسلمين لواحد أو جمع محصورين وهو حق لأى انسان مسلم يمنحه لمن يشاء وعلى القوات المجاهدة التزام ذمة أخيهم •• قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم [٢٨] » والأمان العام : ما يبذله الامام لكافة غير المسلمين نظير الجزية التى يدفعونها اعلانا لطاعتهم للجيوش المنتصرة وبرهانا على القائهم السلاح ، فاذا تخوف الامام منهم ورأى فى عيونهم الغدر نبذ اليهم عهدهم الى مدتهم وانتظر حتى يصل الخبر اليهم ثم حاربهم •• فما كان لمن تربوا على المنهج القرآنى أن يغدروا ••

والأمان المؤبد هو عقد الذمة الذى يبرمه الامامأو نائبه مع الأمة المغلوبة ، ولا يجوز نقضه بحال والذى يمتلك نقضه هم أهل الذمة بدخولهم الاسلام أو بانضمامهم الى معسكر الأعداء المحاربين أو بثورتهم على النظام الاسلامى ، ومثل هؤلاء لا عهدلهم ولا ذمة •• وهذه العلاقات

---

(٢٨) رواه أبو داود وغيره .

الدولية لا يجوز أن يقال : انها علاقة حرب فقط أو علاقة سلام فحسب ، انما هى حالات تتجدد بتجدد الأحداث والمناسبات .. ولمنهج القرآن فيها حرية الحركة التى يواجه بها واقع دنيا الناس .. يقول المرحوم العقاد: « وانقضى عهد النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمون يعلمون حدودهم فى كل علاقة تعرض لهم بين أنفسهم وبينهم وبين جيرانهم : علاقة المودة والوئام وعلاقة الشغب والفتنة وعلاقة الحرب أو علاقة التعاهد أو علاقة الموادعة والمهادنة ، أو علاقة الأمان والاستئمان .. وهذه العناية باقامة الحدود وبيان واجباتها هى وحدها حجة قائمة للاسلام على خصومه الذين يتهمونه بأنه دين الاكراه الذى لا يعرف غير شريعة القوة أو شريعة السيف فمن كان لا يعرف غير السيف فما حاجته الى بيان لكل حالة من حالات السلم والحرب بأحكامها وواجباتها وحدودها وتبعاتها ؟ لا حاجة به الى حد من هذه الحدود مادام معه السيف الذى يجرده متى استطاع ، ولا حاجة به الى حد من هذه الحدود مادام عزلا من السيف مغلوبا على كل حال ، فانما يبحث عن تلك الحدود من يضع السيف فى موضعه ويأبى أن يضعه موضع المسالمة والاقتناع »(٢٩) ..

٤ ـ الجزية .. والخراج :

منهج الاسلام فى فرض الجزية على الرءوس والخراج على الأرض المفتوحة عنوة ولم تقسم على الفاتحين أو المفتوحة صلحا دليل على ربانية هذا المنهج وسموه وتحقيقه للعدل فى أجل صوره وأجمل معانيه :

فالجزية انما هى جزاء حماية المسلمين لغيرهم واعفائهم من الخدمة العسكرية، والخراج ضريبة الأرض المادية خالية من معنى العبادة يتساوى فيه الذمى بالمسلم اذ هو « أجرة عن الأرض لأن مالكيها هم مجموع الأمة الاسلامية وتبقى الأجرة وان انتقلت الأرض من أيدى أهل الذمة الى

---

(٢٩) حقائق الاسلام وأباطيل خصومه : للعقاد ص ٢٢٨ ، ٢٢٩ .

أيدى المسلمين فيجب على المسلمين دفع الخراج لأنه مؤبد مع الأرض .. وهكذا بقى الخراج طوال العهود الاسلامية[٣٠] » ..

والمسلم حين يشارك فى بناء أمته انما يتحرك بمنطق الايمان ، ويتصور الحياة لحظة عبادة وطاعة : فهو يدفع الزكاة التماسا لفضل الله ويدفع الخراج ان كانت أرضه من أرض الخراج ويتصدق بما شاء من صنوف المال حبا فى العطاء وأملا فى الثواب ويبذل نفسه وروحه فى سبيل نصرة الحق ، ومثل هذا التصور الذى يسيطر على حياة المسلم لا يفرضه على غيره لأنه لا يؤمن به كما لا يكلفه بالجهاد ، فذلك مجال الاستشهاد فى سبيل الله والاندفاع بالمبادىء الطاهرة الى اعماق الوجود ..

وهذه السماحة فى معاملة غير المسلمين وتلك العدالة التى حملت المسلم تبعات دينه ولم تطالب غير المسلم الا بقدر ضئيل من المال هو الجزية بلغت القمة ، وهى تقرر اسقاط هذه الجزية عن الشيوخ والعجزة والصبيان والنساء ، انما يدفعها القادرون من الرجال على حمل السلاح وحسبنا أن العلماء متفقون على أن الجزية « لا تؤخذ من المسكين الذى يتصدق عليه ولا من مقعد ولا من أعمى لا حرفة له ولا عمل [٣١] » .. بل ان تطوع من الرجال القادرين أحد للدفاع عن بلده أو شارك المسلمين فى الجهاد سقطت عنه الجزية : هذا كتاب العهد الذى كتبه سويد بن مقرن أحد قواد عمر لرزيان وأهل دهيستان وسائر أهل جرجان ونصه : « هذا كتاب سويد بن مقرن لرزيان صول بن رزيان وأهل دهيستان وسائر أهل جرجان : ان لكم الخدمة وعلينا المنعة على أن عليكم من الجزاء فى كل سنة على قدر طاقتكم على كل حال ، ومن استعنا به منكم

(٣٠) الخراج فى الدولة الاسلامية حتى منتصف القرن الثالث الهجرى د . ضياء الدين الريس ص ١١٧ .

(٣١) كتاب الخراج : لأبى يوسف ص ١٢٢ .

فله جزاؤه (أى جزيته) فى معونته عوضا عن جزائه ولهم الأمان على أنفسهم وأموالهم ومللهم وشرائعهم ولا يغير شيء من ذلك » ..

شهد : سواد بن قطبة وهند بن عمر ، وسماك بن مخرمة ، وعقبة ابن النهاس سنة ١٨ هـ (*) ..

وهذا كتاب عقبة بن فرقد أحد عمال عمر بن الخطاب ـ أيضا ـ لأهل أذربيجان يقول فيه : هذا ما أعطى عقبة بن فرقد عامل عمر بن الخطاب أمير المؤمنين أهل أذربيجان : سهلها وجبلها وحواشيها وشعارها وأهل مللها لهم الأمان على أنفسهم وأموالهم ومللهم وشرائعهم على أن يؤدوا جزية على قدر طاقتهم .. ومن حشر منهم فى سنة (أى جند منهم فى سنة) وضع عنهم جزاء تلك السنة ، ومن أقام فله مثل من أقام من ذلك (٣٢) ..

وان عجز المسلمون عن الدفاع عن أهل الذمة ردوا عليهم ما أخذوه منهم . هذا كتاب خالد بن الوليد لصلوبا بن نسطونا وقومه : « انى عاهدتكم على الجزية والمنعة فلك الذمة والمنعة وما منعناكم فلنا الجزية والا فلا .. كتب سنة اثنتى عشرة فى صفر (٣٣) » ..

وهذا أبو عبيدة بالشام لما تجمعت الروم لقتاله أمر أمراءه أن يردوا ما كانوا أخذوه من الجزية وقال لأهل البلاد : « انما رددنا عليكم أموالكم لأنه قد بلغنا ما جمع لنا من الجموع وأنكم قد اشترطتم أن نمنعكم وانا لا نقدر على ذلك الآن وقد رددنا ما أخذنا منكم ونحن لكم على الشرط وما كان بيننا وبينكم ان نصرنا الله عليهم .. » فكان أن قال أهل البلاد:

(*) الدعوة الاسلامية دعوة عالمية / محمد الراوى ص ٤٥٢ .
(٣٢) تاريخ الأمم والملوك للطبرى جـ ٢ ص ٢٥٥ ، ٢٥٦ .
(٣٣) المرجع السابق ص ٤٥١ .

« ردكم الله علينا ونصركم عليهم فلو كانوا هم لم يردوا علينا شيئا وأخذوا كل شيء لولايتكم وعدلكم أحب الينا مما كنا فيه من الظلم والغشم[٣٤] ».

وما شهدت الانسانية فى حياة الفاتحين مثل هذا التسامح فى أخذ الجزية ، فقد أوصى عمر من بعده بأهل الكتاب خيرا بأن « يوفى لهم بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم ولا يكلفوا فوق طاقتهم[٣٥] » .

بل أكثر من ذلك : اجراء عطاء من بيت المال للفقراء والمحتاجين من أهل الذمة : كتب خالد بن الوليد رضى الله عنه فى عهد ذمته الذى كتب لأهل الحيرة : « وجعلت لهم أيما شيخ ضعف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات أو كان غنيا فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه طرحت جزيته وعيل من بيت مال المسلمين هو وعياله[٣٦] » .

وأبصر عمر رضى الله عنه شيخا كبيرا من أهل الذمة يسأل فقال : مالك ؟ قال : ليس لى مال وان الجزية تؤخذ منى فأسقط عنه الجزية وأجرى له من بيت المال ، وكتب الى أمينه : « والله ما أنصفناه : أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم. « انما الصدقات للفقراء والمساكين » والفقراء هم المسلمون وهذا من المساكين من أهل الكتاب ووضع عنه الجزية وعن ضربائه[٣٧] » .

وان مات أحد من الذميين وعليه شيء من الجزية فلا يؤخذ من تركته ولا يكلف ورثته بأدائه .. كتب الامام أبو سيف : « ان وجبت عليه الجزية فمات قبل أن تؤخذ منه أو أخذ بعضها وبقى البعض لم يؤخذ بذلك ورثته ولم تؤخذ من تركته[٣٨] » ..

---

(٣٤) فتوح البلدان : للبلاذرى ص ١٤٣ .
(٣٥) كتاب الخراج : لأبى يوسف ص ١٤ .
(٣٦) كتاب الخراج لأبى يوسف ص ١٤٤ .
(٣٧) كتاب الخراج لأبى يوسف ص ١٢٦ .
(٣٨) كتاب الخراج لأبى يوسف ص ١٢٣ .

وهذا الرفق فى جباية الخراج من أصحاب الأرض المفتوحة برهان على عالمية منهجنا الالهى وكيف مكن الله لحملة هذا المنهج ..

هذا على بن أبى طالب يكتب الى بعض عماله : اذا قدمت عليهم فلا تبيعن لهم كسوة شتاء ولا صيفا ولا رزقا يأكلونه ولا دابة يعملون عليها ولا تضربن أحدا منهم سوطا واحدا فى درهم ولا تغمه على رجله فى طلب درهم ولا تبع لأحد منهم عوضا فى شىء من الخراج فانا انما أمرنا أن نأخذمنهم العفو فان أنت خالفت ما أمرتك به يأخذك الله به دونى وان بلغنى عنك خلاف ذلك عزلتك (٣٩) ..

وكتب مرة أخرى الى بعض عماله : « لا تبيعن لهم فى خراجهم حمارا ولا بقرة ولا كسوة شتاء ولا صيفا (٤٠) » ..

ولعلنا ونحن نقرأ قول الله تعالى :

« قَـٰتِلُوا ٱلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ ٱلآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّى يُعْطُوا ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ » (٤١)

نعرف ــ بعد أن رأينا مدى تكريم منهج القرآن للانسان وكيف يعامل المعاملة الرحيمة ــ أن غاية القتال انما هى استسلام العدو وتخليه عن العدوان والبغى .. والجزية اعلان عن قبول المودة وتقبل الصلح

(٣٩) كتاب الخراج لأبى يوسف ص ١٦ .
(٤٠) فتح البيان ج ٤ ص ١١٣ .
(٤١) سورة التوبة ٩/٢٩ .

وتقرير المسالمة ، ولهذا كانت هذه الآية وما قبلها فى تحالف المشركين مع أهل الكتاب واجماعهما على نقض العهود المتوالية بينهم وبين النبى صلى الله عليه وسلم ومثل هذه الفئة المعتدية لا يردعها الا القوة فتخزى وتذل وتنقاد لحكم الاسلام وتعلن ولاءها وطاعتها فى برهان واقعى بدفع ما يفرض عليها الاسلام من ضريبة مالية تسمى « الجزية » ..

ـ المعاهدات :

اعطى المنهج القرآنى للمسلمين حرية الحركة فى علاقاتهم الدولية فلم يجعل الحرب وسيلة لاجبار الناس على الايمان بالله وحده ، بل جعلها تحطيما لقوى الشر فى أنحاء الأرض . وارتفع عن التعصب الدينى وأراد للمجتمع الانسانى أن يحيا فى سعادة وهدوء ومودة وتراحم لا يفرق بين الناس مذهب أو دين فذلك شيء يرجع الى اختيار الانسان وحده والاسلام واثق من نفاسة بضاعته ورواج عقيدته وعظمة بنائه ، وأنه اذا ما سمعت به الفطر المستقيمة أجابته ولبت نداءه فلتحى الأديان متجاورة وليتقدم أصحاب كل فلسفة الى الناس ، ودين الله الحق منتصر بعد ذلك لا محالة ولهذا كانت المعاهدات وما تفرضه من تبعات على المسلمين وغيرهم لا تتدخل فى دين القوم ولا ترهبهم بقوة السلاح على اعتناق مبادىء الحق ، وكانت دليلا واضحا على عالمية هذا الدين وصلاحيته لكل زمان ومكان وما يحمل من سماحة ويسر وما فيه من عناصر البقاء والخلود ..

هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يكتب لأهل المدينة معاهدة جوار ينصهر بها المجتمع فى وحدة قوية تجابه الأحداث ويتفق فيها المسلمون واليهود وغيرهم على وجوب الدفاع عن أرضهم ، ومما جاء فى تلك الوثيقة التاريخية : « ان اليهود ينفقون ماداموا محاربين وان يهود

بنى عوف أمة مع المؤمنين : لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم الا من ظلم أو أثم فانه لا يوتغ (يهلك ويفسد) الا نفسه وأهل بيته وان ليهود بنى النجار ويهود بنى الحارث ويهود بنى ساعدة ويهود بنى جشم ويهود بنى الأوس ويهود بنى ثعلبة والجفنة ولبنى الشطبية مثل ما ليهود بنى عوف ، وان موالى ثعلبة كأنفسهم وان بطانة يهود كأنفسهم وان على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم وانه بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة وان بينهم النصح والنصيحة والبر دون الاثم ، وان النصر للمظلوم وان اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين وأن من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة الا من ظلم وأثم وأن الله جار لمن بر واتقى [٤٢] ..

هذه الوثيقة التاريخية من قرابة ألف وأربعمائة عام فتح جديد فى العلاقات الدولية لم تصل اليها مناهج الدراسات الدولية الا من عهد قريب ..

وهذا هو عهد الحديبية بين المسلمين وقريش دليل على حب السلام القائم على العدل ، فقد خرج الرسول فى العام السادس الهجرى بألف وأربعمائة الى زيارة بيت الله الحرام لا يبتغى حربا ، وانما ينشد سلاما وقد ساق الهدى أمامه وسلاح أصحابه فى غمده ، وما ان سمعت قريش بهم حتى أقسمت وتعاهدت على منعه من دخول البيت فلم يشعلها نارا عليهم وكان فى مقدوره ذلك ، انما عسكر فى الحديبية يود أن يدخل مكة دون قتال .. وجاءت رسل قريش تستوضح الأمر فقال لهم عليه السلام : انا لم نجىء لقتال أحد ولكن جئنا معتمرين ، وان قريشا قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم فان شاءوا ماددتهم مدة ويخلوا بينى وبين الناس ، وان شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا والا فقد

---

(٤٢) ابن هشام جـ ٢ ص ١٧ ، ١٨ .

حموا وان هم أبوا فو الذى نفسى بيده لأقاتلنهم على أمرى هذا حتى تنفرد سالفتى وينفذن الله أمره ..

وأرسل رسول الله رسله اليهم ومنهم عثمان بن عفان الذى احتبسته قريش وأشيع أنه قتل وأثار هذا الغدر خواطر المسلمين فبايعوا الرسول على الموت فى سبيل الله تحت الشجرة وفى ذلك يقول القرآن :

« لَقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً » (٤٣)

ونجا عثمان وأرسل أهل مكة سهيل بن عمرو فاتفق مع الرسول على أن يرجع النبى وصحبه فلا يدخلوا مكة تلك السنة ، فاذا كانت السنة القادمة دخلوها فأقاموا فيها ثلاثا بعد أن تخرج منها قريش ، وأن توضع الحرب عشر سنين ومن أتى محمدا من قريش بغير اذن وليه رده اليهم ، ومن أتى قريشا من المسلمين لم يردوه وأنه من أحب من العرب محالفة محمد فلا جناح عليه ومن أحب محالفة قريش فلا جناح عليه ، وبلغ من سماحة الاسلام ورسول الاسلام فى كتابة هذا العهد مالا يتيسر الا لمن يوحى اليه من السماء : فقد بدأ الرسول يملى على على بن أبى طالب شروط العهد فقال : اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم . فقال سهيل : أمسك لا أعرف الرحمن الرحيم بل اكتب باسمك اللهم .. قال رسول الله : اكتب باسمك اللهم ثم قال : اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو . فقال سهيل : أمسك لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ولكن اكتب اسمك واسم أبيك . وما ان تم هذا العقد حتى

(٤٣) سورة الفتح ١٨/٤٨ .

جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف فى القيود فرمى بنفسه بين المسلمين فقال سهيل : هذا يا محمد أول ما أقاضيك عليه وأخذ بتلابيب ابنه ليرده الى قريش وابن سهيل يصيح بأعلى صوته : يا معشر المسلمين أأرد الى المشركين يفتنوننى فى دينى ؟ فطمأنه الرسول قائلا : يا أبا جندل اصبر واحتسب فان الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين مخرجا ، انا عقدنا بيننا وبين القوم صلحا وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله وانا لا نغدر بهم (٤٤) ..

وعاد أبو جندل الى قريش تنفيذا لعهد النبى ووعده ..

ولقد سمى الله هذا الصلح فتحا مبينا فقد نزلت على رسول الله حين رجع من الحديبية سورة الفتح حتى لقد قال بعض الصحابة : ما هذا بفتح لقد صدونا عن البيت ، فقال صلى الله عليه وسلم : بل هو أعظم الفتوح قد رضى المشركون أن يدفعوكم عن بلادهم بالراح ويسألوكم القضية ويرغبوا اليكم فى الأمان وقد رأوا منكم ما كرهوا .. وقال الزهرى : « لقد كان فتح الحديبية أعظم الفتوح وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم جاء اليها فى ألف وأربعمائة فلما وقع الصلح مشى الناس بعضهم الى بعض وعلموا وسمعوا عن الله فما أراد أحد الاسلام الا تمكن منه فما مضت تلك السنتان الا والمسلمون قد جاءوا الى مكة فى عشرة آلاف (٤٥) » ..

وهذا لون آخر من ألوان المعاهدات مع البلاد المفتوحة تتبين فيه عمق العلاقات الدولية التى خطط لها المنهج القرآنى فأسعدت البشرية جمعاء واستظل الناس — على اختلاف منازلهم وأديانهم وعقائدهم

---

(٤٤) حياة محمد : لهيكل ٣٧٤ ، ٣٧٥ .

(٤٥) الفتوحات الالهية للعلامة الجمل ص ١٥٦ ، ١٥٧ جـ ٢ .

بلواء الاسلام الرحيم •• انه أشهر العهود فى صدر الاسلام بعد عهد الحديبية ذلك هو عهد بيت المقدس الذى كتبه الخليفة عمر بن الخطاب لأهل ايلياء وفيه يقول رضى الله عنه : « انه أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها •• وأنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من خيرها ولا من صلبهم ولا من شىء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار على أحد منهم ولا يسكن بايلياء معهم أحد من اليهود وعلى أهل ايلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن وأن يخرجوا منها الروم واللسوت ومن خرج منهم فهو آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ومن أقام معهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل ايلياء من الجزية ، ومن أحب من أهل ايلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى بينه وبين صلبهم فانهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم »(٤٦) .

ولقد ضرب عمر مثالا عاليا لأخلاق الاسلام وحرصه على السلام والأمان ، فقد حان موعد الصلاة والخليفة العظيم فى كنيسة بيت القدس وكان من حقه أن يصلى حيث هو ولكنه أبى وصلى بجوار الكنيسة ، ولما سئل فى ذلك بين أنه خشى ان صلى فى الكنيسة أن يتخذها المسلمون بعده ذريعة للاستيلاء عليها ••

ولقد جرت هذه المعاهدات فى تاريخ الاسلام سواء بين الأمم التى فتحت بلادها ففرضت عليها الجزية أو الخراج أو فى البلاد التى طلبت مودة المسلمين ومساعدتهم دون قتال •• وما خرجت هذه المعاهدات عن الأهداف التى أرادها منهج القرآن أساسا لعلاقات الشعوب لذلك اشترط فيها ألا تمس قانون الاسلام وشريعته العامة قال صلى الله عليه وسلم :

---

(٤٦) حقائق الاسلام وأباطيل خصومه للعقاد ص ٢٢٥ .

« كل شرط ليس فى كتاب الله فهو باطل .. » وأن تكون مبنيـــة على التراضى من الجانبين ومن هنا لا يرى الاسلام قيمة لمعاهدة تنشأ على أساس من القهر والغلبة وأزيز النفاثات ، وهذا شرط تمليه طبيعة العقد ، واذا كان عقد التبادل فى سلعة ما بيعا أو شراء لابد فيه من عنصر الرضا « الا أن تكون تجــارة عن تراض منكم » فكيف بالمعاهدة وهى للأمة عقد حياة أو موت .

كما اشترط فيها أن تكون بينة الأهداف واضحة المعالم تحــدد الالتزامات والحقوق تحديدا لا يدع مجالا للتأويل والتخريج واللعب بالألفاظ قال تعالى :

« وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ »(٤٧)

والدخل هو : الغش الخفى يدخل فى الشىء فيفسده(٤٨) وبهــذا حفظ على المسلمين وحدتهم وجعل لهم شخصية مميزة فى الصـــــعيد العالمى .

٦ ـ الوفاء بالعهود فى العلاقات الدولية :

واذا كان العالم قد عرف فى تاريخ العلاقات الدولية تزييف الحقائق والتغرير بالضعفاء والاعتداء على حق الشعوب وعرف ذلك ـ عن يقين ـ حين رأى دول الاستعمار الحديث وقد أصابها سعار السيطرة على امتلاك الأسواق والمواد الخام ، وفى سبيل ذلك هانت المبادىء والقيم ولم يعد الوفاء بالعهود والوعود الا نوعا من السذاجة لا يتناسب مع عصر التقدم

---

(٤٧) سورة النحل ١٦/٩٤ .

(٤٨) الاسلام عقيدة وشريعة لشلتوت ص ٤٦٩ .

والحضارة التى أقيمت على بحر من دماء الأبرياء .. اذا كان العالم قد عرف كل هذا فى معاملاته فقد جاء المنهج الربانى يرسم للناس الطريق ويعرف الدنيا أن الحياة لا تطيب بالغدر ، انما تجمل بالوفاء ..

والوفاء بالعهود ينبع من حقيقة الايمان بالله الذى قال فى كتابه :

أَخَذَ « مِن بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ؟ قَالُوا : بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ * أَوْ تَقُولُوٓا إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَاوُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ » (٤٩)

وعلى هذا الايمان أقام الاسلام دعوته فى الوفاء بالعهد فأمر به فقال :

« وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً » (٥٠)

وقال :

« وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ الأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ » (٥١)

---

(٤٩) سورة الأعراف ١٧٢/٧ ، ١٧٣ .

(٥٠) سورة الاسراء ٣٤/١٧ .

(٥١) سورة النحل ٩١/١٦ .

وجعل ذلك من صفات الصادقين البررة فى آية البر :

« وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا والصَّـٰبِرِينَ فِى الْبَأْسَآءِ والضَّرَّآءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَـٰئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَـٰئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ » (٥٢)

وقال فى سبب فلاح المؤمنين :

« وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ » (٥٣)

وبين أن هذا الوفاء من صفات أصحاب العقول السليمة :

« إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا ٱلْأَلْبَـٰبِ * ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللهِ وَلاَ يَنْقُضُونَ ٱلْمِيثَـٰقَ » (٥٤)

وعلى طريقة القرآن ومنهجه فى التربية يرغب ويخوف فيصل الى ما يريد من خلق الانسان الفاضل والمجتمع الفاضل لذلك بين مغبة الغدر وخطورة الخيانة فهذا دليل على سخط الله والبعد عن ركب الايمان قال تعالى :

« وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللهِ مِن بَعْدِ مِيثَـٰقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُوْلَـٰئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ » (٥٥)

---

(٥٢) سورة البقرة ١٧٧/٢ .

(٥٣) سورة المؤمنون ٨/٢٣ ، سورة المعارج ٣٢/٧٠ .

(٥٤) سورة الرعد ١٩/١٣ ، ٢٠ .

(٥٥) سورة الرعد ٢٥/٥ .

وصور نقض العهد بهذه الصورة : صورة التى تنقض غزلها بعد قوته واحكامه فهى حياة الضياع والضعف ، يقول القرآن بعد أن أمر بالوفاء بعهد الله :

« وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ »(٥٦)

ولا يعرف الاسلام وسيلة للغدر ولو كانت الدنيا بأسرها فانها عرض زائل ومتاع قليل ..

قال تعالى :

« وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ »(٥٧)

ويتحدث عن أهل الكتاب ونقضهم للعهد حديثا يشمل كل من سلك طريقهم فيقول :

« إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ »(٥٨)

---

(٥٦) سورة النحل ١٦/٩٢ .
(٥٧) سورة النحل ١٦/٩٥ ، ٩٦ .
(٥٨) سورة آل عمران ٣/٧٧ .

ويحدثنا القرآن عن سر اهلاك القرى فيقول :

« وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ »(٥٩)

والوفاء بالعهود والمواثيق ينبع عن هذا المصدر الكريم ، وكيف يغدر المسلمون ويخونون عهودهم ، وايمانهم بربهم حارس أمين يأبى عليهم ذلك ؟؟ انه يلزمهم احترام غيرهم مهما خالفهم فى عقيدة أو دين ، وهل بعد أن يعتبر المشركين القاصدين الى بيت الله الحرام أصحاب شعائر يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا ويجب أن يتركوا وشعائرهم .. هل بعد ذلك وفاء ؟ انه لا يرجو القتال ولا يبتغى اسالة الدماء ولكن الاسلام ينشد الأمان ..

يقول ربنا عز وجل :

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْىَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا ءَامِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَئَانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ »(٦٠)

---

(٥٩) سورة الأعراف ١٠٢/٧ .

(٦٠) سورة المائدة ٢/٥ .

وما دام العدو قد استقام على العهد فلا يحل نقضه بحال قال تعالى :

« إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ » (٦١)

فان بدأ هو بالخيانة أهدر دمه ولم يعد لعهده معنى ..

قال تعالى :

« وَإِن نَّكَثُوٓا أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ * أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ » (٦٢)

فان توقع منهم الخيانة نبذ اليهم عهدهم وأعلمهم بأنه سيعاملهم بالمثل ..

قال تعالى :

« وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ » (٦٣)

---

(٦١) سورة التوبة ٩/٧ .

(٦٢) سورة التوبة ٩/١٢ ، ١٣ .

(٦٣) سورة الأنفال ٨/٥٨ .

والرسول يقول مؤكدا ذلك : « من كان بينه وبين قوم عهد فلا يحلن لهم عهدا ولا يشدن حتى يمضى أمره أو ينبذ اليهم على سواء »(٦٤)

وهذه قفزة فى تاريخ التشريع الدولى لم تصل اليها أمة من الأمم .. بل ان كان بين المسلمين وغيرهم ميثاق وكان تحت حكم هؤلاء مسلمون ووقع عليهم ايذاء فلا يجوز للمسلمين نقض العهد ، وانما يصبر هؤلاء المستضعفون حتى يجعل الله لهم فرجا ومخرجا قال تعالى :

« وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَـٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا »

أى لا تنتظروا منهم ان يوالوكم بالنصرة وهم بدار الكفر ..

« وَإِنْ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » (٦٥)

والاسلام بهذا المنهج واثق أن العدو لن يدوم طويلا على وفائه بعهده .. وهؤلاء المؤمنون لابد منتصرون ..

وهنا نحب أن نتساءل : فى أى شريعة غير الشريعة الاسلامية السمحة تحترم المعاهدات الى هذا الحد ؟ ان أرقى الحكومات فى هذه الأيام أى بعد قرابة أربعة عشر قرنا من الزمان ، تنقض المعاهدات لمجرد الاعتداء على فرد منها فى الدولة المعاهدة ولو لم يكن هذا الاعتداء بسبب الدين أو المبدأ السياسى ، بل كان شخصيا بحتا وفى هذا العصر لا تنظر الدولة

---

(٦٤) رواه الترمذى وأبو داود .

(٦٥) سورة الأنفال ٧٢/٨ .

القوية الى المعاهدات التى تربط بها الدول الضعيفة الا كما تنظر الى قصاصة من الورق فلا احترام لهذه المعاهدات فى نظرها بل هى تعتدى أحيانا على الدول الضعيفة التى وقعت معها هذه المعاهدات ، لتتخذ من هذا الاعتداء وسيلة الى الغائها ممثلة مع هذه الدول دور الذئب مع الحمل ..

وعلى أن هذا الاستثناء (٦٦) الذى قرر مبدأ احترام المعاهدات فى الاسلام واضح لا غموض فيه قوى لا يتطرق الضعف اليه عام لا يخص حالا دون حال ولا قوما دون قوم ، فان الله عز وجل يعقبه بقوله : « والله بما تعملون بصير » وهو ترغيب فى الطاعة بقدر ما هو تحذير من العصيان وتهديد للمخالفين ، وبهذا الذى تنبه الآية اليه فى فاصلتها من تذكير المؤمنين بأن الله يطلع على كل ما يعملون ، مدرك كل الادراك خفايا ما يدبرون وينفذون ، تمتاز أحكام الشريعة الاسلامية فالمسلمون هم أبعد الناس عن الخيانة وهم أوفى الناس بالعهود لأنهم يؤمنون بالله، والله بما يعملون بصير (٦٧) . انها العدالة والوفاء فى علاقات أمة الاسلام بغيرها ، والتزام كامل بما عاهدوا عليه دون ظلم أو اجحاف قال صلى الله عليه وسلم : « لعلكم تقاتلون قوما فتظهرون عليهم فيتقونكم بأموالهم دون أنفسهم وأبنائهم (وفى رواية فيصالحونكم على صلح) فلا تصيبوا منهم فوق ذلك فانه لا يصلح لكم » وقال محذرا من ظلم المعاهدين : « الا من ظلم معاهدا أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة (٦٨) » .

---

(٦٦) اى الذى فى قوله : الا على قوم بينكم وبينهم ميثاق .

(٦٧) سورة الأنفال : عرض وتفسير د . مصطفى زيد ص ١٦٥ .

(٦٨) رواهما ابو داود فى كتاب الجهاد .

وقال : من قتل نفس معاهد لم يرح رائحة الجنة وان ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاما(٦٩) .

فهو ـ اذن ـ وفاء بالعهود حقا وفاء لا شبهة فيه . لم يجعله الاسلام تدبيرا من تدبيرات السياسة أو ضرورة من ضروراتها التى تجوز فيها المراوغة عند القدرة عليها ، بل جعله أمانة من أمانات العقل والضمير ، وخلقا شريفا يكاد الخارج عليه أن يخرج من آدميته ويسلك فى عداد السائمة التى لا ملامة عليها :

« إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ »(٧٠)

٧ ـ الاسلام دين السلام :

هذا الوضوح الذى اتسم به منهج القرآن فى تحديد العلاقات الدولية يبين أن الاسلام دين السلام ، وأنه ما فرض الجهاد حبا فى السلطة والاستعلاء ، انما فرضه اقرارا لمبادىء السلام فى وقت ضاع فيه السلام بين شعوب الأرض وحرفت الديانات والكتب السماوية ، فجاءت دعوة التوراة والانجيل داعية الى الاعتداء على حق الشعوب منادية باعلان الحرب الدائمة على الأمم : جاء فى سفر التثنية فى الأصحاح العشرين منه عدد ١٠ « حين تقرب مدينة لكى تحاربها استدعها الى الصلح فان أجابتك الى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك بالتسخير

---

(٦٩) رواه الشيخان والترمذى .

(٧٠) حقائق الاسلام وأباطيل خصومه للعقاد ص ٢٢٠ ، ٢٢١ والآية من سورة الأنفال ٨/٥٥ ، ٥٦ .

ويستعبد ذلك وان لم تسالمك بل عملت معك حربا فحاصرها واذا دفعها الرب الهك الى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف وأما النساء والأطفال والبهائم وكل مافى المدينة فتغنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التى أعطاك الرب الهك » ..

وفى انجيل « متى » فى الأصحاح العاشر عدد ٢٥ يقـول ، « لا تظنوا أنى جئت لألقى سلاما على الأرض بل سيفا فاننى جئت لأفـرق الانسان ضد ابنه والابن ضد أبيه والكنة ضد حماتها وأعداء الانســان أهل بيته » ..

وما بهذا أمر الله ولا نزلت كتب السماء ..

وكانت شريعة الرومان : « من جرك فهو عدوك تخضعه أو يخضعك وتبدؤه بالحرب متى استطعت أو يبدؤك بالحرب متى استطاع » وعلى منوالها كانت شريعة الدول الغربية فى القانون الدولى ..

لكن الاسلام خاتم الرسالات يجعل حياة المرء مع نفسه سلاما ومع اخوانه حبا واخاء ، ومع العالم كله مودة ورحمة ، أليست تحية المؤمن عند كل لقاء أو فراق « السلام عليكم ورحمة الله » ؟ أليست هــذه التحية هى ختام صلاته دائما يلقى بها عن يمين وشمال ويستقبل بهـا الدنيا وقد زودته الصلاة بأسباب السلام والرحمة ؟ ان القرآن نزل فى ليلة وصفت بأنها سلام :

« سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ » (٧١)

---

(٧١) سورة القدر ٩٧/٥ .

والدار التى يعمل المؤمن ليظفر بها هى دار السلام ..

« لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » (٧٢)

والتحية التى تتردد فيها يرددها المؤمنون فيما بينهم والملائكة كلما دخلوا عليهم سلام :

« تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَٰمٌ » (٧٣)

ويقول عز وجل :

« وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ » (٧٤)

بل انك تسمع بين أسماء الله التى ذكرت فى كتابه « السلام » ..

« هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ » (٧٥، ٧٦)

والسلام الذى ينشده منهج القرآن ليس هو الاستسلام والهوان وقبول المذلة انما هو سلام تحميه القوة ولذلك أمر الله باعدادها فقال :

---

(٧٢) سورة الأنعام ٦/١٢٧ .

(٧٣) سورة الأحزاب ٣٣/٤٤ .

(٧٤) سورة الرعد ١٣/٢٤ .

(٧٥) سورة الحشر ٥٩/٢٣ .

(٧٦) الدعوة الاسلامية دعوة عالمية / محمد الراوى ص ٤٣٤ ..

« وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ » (٧٧)

ومن منطق القوة يأمر القرآن بالميل الى السلام مادام العدو قد جنح اليه ..

« وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ » (٧٨)

وحتى لو كان ذلك خداعا من العدو :

« وَإِن يُرِيدُوٓا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ » (٧٩)

ويقبل من الاعداء السلام ولو كان فى أثناء القتال ماداموا قد طلبوه :

« وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا » (٨٠)

---

(٧٧) سورة الأنفال ٨/٦٠ .
(٧٨) سورة الأنفال ٨/٦١ .
(٧٩) سورة الأنفال ٨/٦٢ .
(٨٠) سورة النساء ٤/٩٤ .

ويدعو الى دخول المؤمنين فى السلم كافة :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱدْخُلُوا فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ »[٨١]

ويقيمها علاقة بر وحب بين مختلف الأديان والأجناس :

« لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ »[٨٢]

انما ينهى فقط عن مولاة العدو الذى بغى وتجبر :

« إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُوا عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ »[٨٢]

ومع شدة حرص الاسلام على السلام العالمى الى هذا الحد الذى تراه لا يريد للمسلمين أن يستذلوا فى سبيله ، بل يجب عليهم أن يحافظوا على السلام وعلى كرامتهم معا يقول الله جل شأنه :

« فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوٓا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ »[٨٣]

---

(٨١) سورة البقرة ٢٠٨/٢ .

(٨٢) سورة الممتحنة ٦٠/٨ ، ٩

(٨٣) الاسلام فى حياة المسلم د . محمد البهى ص ٤٧٨ والآية من سورة محمد ٣٥/٤٧

والحرب التى يشعلها على أعداء الله حماية للســـلام من عدوانهم وغدرهم •• وهو حين يدخل المعركة ملتزم بمبادىء السلام يده ممدودة لكل من أراده لا يبدأ بسـفك دم انما ينتظر ويتريث ويعرض مبادئه الخالدة ، فان قبلها العدو كان فى عداد جماعة المؤمنين له مالهم وعليـه ما عليهم وان أبى دفع الجزية عنوانا للتسليم والقاء السلاح والا فآخر الدواء الكى ولابد من خوض المعركة •• وهى معركة ضـد من حملوا السلاح فحسب لا ينجاوزها الى غير ذلك مما عرفه العالم فى حروبه من الدمار والخراب ، بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا رضى الله عنه فقال : امض ولا تلتفت • فقال يارسول الله كيف أصنع بهم ؟ قال : اذا نزلت بساحتهم فلا تقاتلهم حتى يقاتلوك ، فان قاتلوك فلا تقاتلهم حتى يقتلوا منكم قتيلا ، فان قتلوا منكم قتيلا فلا تقاتلهم حتى تريهم اياه ثم تقول لهم : هل لكم الى أن تقولوا لا اله الا الله ، فان قالوا : نعم فقل لهم : هل لكم أن تصلوا ، فان قالوا : نعم • فقل : لهم هـل لكم أن تخرجوا من أموالكم الصدقة ، فان قالوا : نعم • فلا تبغ منهم غير ذلك •• والله لأن يهدى الله على يديك رجلا خير لك مما طلعت عليه الشـمس وغربت (٨٤) ، ويوصى عليه السلام جيشه قائلا : انطلقوا باسم الله لا تقتلوا شيخا فانيا ولا طفلا ولا صغيرا ولا امرأة ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا (٨٥) ••

وهذه وصية الصديق لأسامة بن زيد وهو يتولى قيادة الجيش قال: لا تخونوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا الا للأكل ، وسوف تمرون بأقوام قد فـــرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له وسوف تقـدمون

(٨٤) البخارى
(٨٥) رواه أحمد وأبو داود

على قوم قد فحصوا أوساط رءوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فأخفقوهم بالسيف خفقا (٨٦) ..

ان الاسلام لا يطلب مغنما ماديا ولا كانت المغانم هدف الجيوش الغازية ، انما كان مطلبها تأمين الدعوة واخماد الفتنة بعيدا عن التعصب الدينى فلا عجب أن يقاتل المسلمون غيرهم من المؤمنين اذا ما انحرفوا عن طريق الايمان وابتغوا الفتنة ولم يستجيبوا لرأى الجماعة قال تعالى :

« وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ » (٨٧)

وما عرف المؤمنون الاعتداء على حق الشعوب لأنهم حملة راية الايمان ، به حاربوا وبه انتصروا وبه أمنوا الخائفين فى ربوع الأرض. وايمانهم تحميه قوة السلاح وشجاعة الرجال دون تقصير أو تفريط وما صنع أحد صنيعهم وما أخلص انسان اخلاصهم . هذا قول عتبة الغلام وقد رآه مخلد بن الحسين يحضر الى الميدان وقد أضنته العبادة والسهر قال عتبة لمخلد :

يا مخلد لو أنا نقاتل القوم بمثل ايمانهم لكان من أحمق الحمق أن نخرج اليهم وعددنا قليل وسلاحنا كليل ولكن شتان ما بين ايمان وايمان ..

---

(٨٦) تاريخ الأمم والملوك حـ ٣ ص ٢١٣

(٨٧) سورة الحجرات ٩/٤٩

ويارب نفس ومقت جلال الله فأرحض عنها غرورها فلم تشهد الا حاجتها اليه وفقرها بين يديه فأمدها بسر من بأسه وأيدها بكوكبة من جنده ، فاذا هى فى الميدان يصول فيها سر الله ويجول ـ فوالله لأن يصبر الكافر لجبل ينقض عليه أهون من أن يصبر لضربة من ضرباتها ..

يا مخلد انك لن تنصر الله فى معركة حتى تنصره فى نفسك بتغليب أمره على هواك ، وانظر ماذا يغنى شحمك ولحمك ان أنت خذلته فى الأولى ثم جئت تطلب نصره فى الأخرى وهو الذى جعل هذه بتلك وعدا حقا وجزاء صدقا :

« إِن تَنصُرُوا ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ » (٨٨ ، ٨٩)

وهذا سعد بن أبى وقاص يرسل الى عمر بن الخطاب بسلوك جند المسلمين : كانوا يدوون بالقرآن اذا جن عليهم الليل دوى النحل وهم آساد الناس لا يشبههم الأسود ولم يفضل من مضى منهم من بقى الا بفضل الشهادة (٩٠) فهل بعد هذا يتهم الاسلام ـ وهؤلاء رجاله الأطهار ـ بأنه دين السيف والقتال والحرب ؟ نعم انه كذلك لمن وقف فى طريقه وسد عليه المسالك وابتغاها فسادا فى الأرض وعلوا كبيرا وما يمكن لحق أن يقوم دون أن تحرسه قوة المجاهدين • وذلك هو السلام العالمى الذى أراده الاسلام للناس طريقا ودعا اليه البشرية جمعاء ..

---

(٨٨) سورة محمد ٤٧/٧

(٨٩) الدعوة الاسلامية دعوة عالمية / محمد الراوى ص ٤٤٨

(٩٠) المرجع السابق ص ٤٤٩



الفصل الثاني

القرآن وأهل الكتاب

١ ـ دعوة أهل الكتاب الى الاسلام

٢ ـ موقف النصارى

٣ ـ موقف اليهود

٤ ـ أهل الكتاب فى المجتمع الاسلامى :

« حقوقهم وواجباتهم »



القرآن وأهل الكتاب

١ ـ دعوة أهل الكتاب الى الاسلام :

ليل الكفر قد اشتد ظلامه وبسط أرديته على دنيا الناس فقد تاهت بأهل الكتاب من اليهود والنصارى السبل حين حرفوا الكتب المنزلة وأضاعوا تعاليم السماء ، كما ضل العقل الانسانى وهو يمرغ جبهته أمام حجر أصم لا يسمع ولا يبصر ، وتوزعت الانسانية فى أنحاء الأرض الأهواء حين غاب عنها حاديها وهاديها ، وفى وسط هذه المحنة بدا مصباح مضىء وسراج منير حمله الى العالم الانسانى محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم من أول لحظة تلقاه فيها فى جبل النور فى غار حراء ، فاندفع به فى ثقة أكيدة ، وايمان ثابت لا يتزعزع ، حتى أضاء ما بين الخافقين الى يوم القيامة ..

والتف حول هذا النور أمة أخذت فى النمو والازدياد شأن الكائن الحى ، الى أن وصلت الى ماشاء الله لها أن تصل ، واستظل بظلها القاصى والدانى فى أنحاء الأرض ، وكان لابد لهذه الأمة وتلك الجماعة أن تعرف غيرها وأن تحدد علاقاتها بهم : أخبرها كتاب ربها أن :

« ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَآءَ » (١)

وأن عيسى جاء :

« مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ

---

(١) سورة المائدة ٤٤/٥

فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ » (٢)

وأن بني اسرائيل اختارهم الله على علم على العالمين ..

قال تعالى :

« وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ » (٣)

لكنهم ما لبثوا أن خانوا العهود ونقضوا المواثيق فلعنهم الله وأبعدهم عن رحمته :

« لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ » (٤)

وسلط عليهم من لا يرحمهم :

يقول سبحانه :

« وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ » (٥)

---

(٢) سورة المائدة ٥/٤٦
(٣) سورة السجدة ٣٢/٢٤
(٤) سورة المائدة ٥/٧٨ ، ٧٩
(٥) سورة الأعراف ٧/١٦٧

وشتتهم فى الأرض وكتب عليهم الذلة والمسكنة ..

يقول ربنا :

« وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ »(٦)

واذن فتاريخهم مشرق فى بدايته ، مظلم فى نهايته وقد عاشوا فى هذا الظلام قرونا وأجيالا حتى جاءهم محمد عليه السلام مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه . يقول رب العزة :

« يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ »(٧)

وتوجهت دعوته اليهم فى لطف ولين ورفق يذكرهم بأيام الله ويقلب لهم صفحة مضيئة فى تاريخهم يوم أن كانوا دعاة هدى وأعلام رحمة ومنارة حق وايمان ، وصفحة أخرى كالحة يوم أن انحرفوا عن دين الله وطمسوا حقائقه ومعالمه . وهو يدعوهم الى الصفحة المضيئة والبحث فيها : فيجدون رسول الله مكتوبا عندهم فى التوراة والايجيل « روى البخارى قال : حدثنا محمد بن سنان قال حدثنا فليح قال حدثنا هلال عن عطاء بن يسار : لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص قلت : أخبرنى عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى التوراة قال : أجل .. والله .. انه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن : يأيها النبى انا أرسلناك

(٦) سورة الأعراف ١٦٨/٧

(٧) سورة الأعراف ١٥٧/٧

شاهدا ومبشرا ونذيرا ، وحرزا للأميين أنت عبدى ورسولى سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب فى الأسواق ولا يدفع بالسيئة السيئة — ولكن يعفو ، ولن يقبضه الله تعالى حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا اله الا الله ويفتح بها أعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا . قال عطاء ثم لقيت كعبا فسألته عن ذلك فما اختلفا حرفا [٨] ..

وسيجدون عيسى يناديهم :

« يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ » [٩]

فمحمد ليس بدعا من الرسل ولم يأت ليهدم مافى التوراة والانجيل، انما جاء خاتما للمرسلين وداعيا الى الله على طريقهم ،وهو يكشف النقاب عما أصاب أهل الكتاب وما اعترى كتبهم من ألوان التشبيه والتبديل ، لذلك كانت دعوته اليهم وجداله معهم ليردهم الى الحقيقة الناصعة من التوحيد الكامل لله وتنزيهه عن مشابهة خلقه واثبات صفات الألوهية والربوبية له وحده ..

فناداهم كما أمر الله بقوله :

« قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ » [١٠]

---

(٨) تفسير القرطبى حـ ٣ ص ٢٧٣٥
(٩) سورة الصف ٦/٦١
(١٠) سورة آل عمران ٦٤/٣

وحين حاولوا جر المؤمنين واقناعهم باليهودية أو النصرانية :

« وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا »

أمر الله المسلمين ان يرشدوا هؤلاء الى الحق وأن يردوهم الى الحقيقة السمحاء :

« قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُولُوا ءَامَنَّا بِاللهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ » (١١)

فهذا هو طريق الهداية الصحيح ..

قال تعالى :

« فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » (١٢)

وهذه صبغة الايمان التى طهرت النفوس عبر تاريخ الرسالات لا مايدعونه من المعمودية التى يغمسون فيها أولادهم تطهيرا لهم ، فيصير بذلك ولدهم نصرانيا حقا ..

---

(١١) سورة البقرة ــ ٢/١٣٥ ، ١٣٦

(١٢) سورة البقرة ٢/١٣٧

قال جل شأنه :

« صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَـٰبِدُونَ » (١٣)

ويأمر القرآن رسول الله أن يسألهم :

« قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ » (١٣)

ويناقشهم فى حقيقة نبوة ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط ، وهل كانوا هودا أو نصارى !! فيبين لهم أنهم كانوا حنفاء على دين الاسلام ..

يقول تعالى :

« أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُ مِنَ ٱللَّهِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ » (١٣)

نعم .. كان رهط الأنبياء على دين الاسلام .. هكذا يخبر عنهم ربهم وهو الذى أرسلهم وهو أعلم بهم وبما كانوا عليه لا ما يدعيه اليهود والنصارى لهؤلاء الأنبياء : ابراهيم عليه السلام يرفع القواعد من البيت واسماعيل ويجأران الى الله :

« رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ * رَبَّنَا

---

(١٣) سورة البقرة ١٣٨/٢ — ١٤٠

وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ » (١٤)

ويعلن اسلامه المطلق استجابة لأمر الله :

« إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ » (١٤)

ويوصى بها الأنبياء أبناءهم ..

قال تعالى :

« وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَابَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ * أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا : نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ » (١٤)

وموسى عليه السلام على هذا الطريق ينادى قومه :

« يَاقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ » (١٥)

وعيسى يقول لقومه حين أحس منهم الكفر :

---

(١٤) سورة البقرة ١٢٧/٢ ، ١٢٨ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣

(١٥) سورة يونس ٨٤/١٠

« مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ »[١٦]

ومن قبل هؤلاء نوح يقول لقومه :

« فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ »[١٧]

ومحمد عليه السلام يأمره ربه بقوله :

« قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ »[١٨]

فدين الاسلام دين الرسل جميعا ودين اتباع هؤلاء الرسل الكرام لا يقبل الله سواه :

« وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْأَخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ »[١٩]

---

(١٦) سورة آل عمران ٣/٥٢
(١٧) سورة يونس ١٠/٧٢
(١٨) سورة الأنعام ٦/١٦٢ ، ١٦٣
(١٩) سورة آل عمران ٣/٨٥

والى هذا الاسلام كانت دعوة أهل الكتاب : اســـلام الوجه لله والعبودية له وحده والاعتراف له بالكمال المطلق ، فهذا ماجاء به موسى وعيسى وهذا ما شرعه الله للأنبياء على اختلاف مراحل الحياة الانسانية .

قال تعالى :

« شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحاً وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ » (٢٠)

أما عبادة البشر وادعاء الألوهية لهم فهذا ما لم يقل به أحـد من رسل الله عليهم السلام ومن قال ان عزيرا ابن الله أو ان المسيح ابن الله أو انه هو الله أو انه ثالث ثلاثة فقد ضل سواء السبيل .. اذ كيف يكون لله ولد وليست له زوجة ؟ وكيف يكون له ولد وهو خالق كل شيء ؟ وهل يحتاج الخالق العظيم الى الولد ؟.

قال تعالى :

« بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ » (٢١)

---

(٢٠) سورة الشورى ١٣/٤٢

(٢١) سورة الأنعام ١٠١/٦

وما عيسى الا بشر كسائر البشر :

يقول سبحانه :

« مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ » (٢٢)

ويقول :

« إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ » (٢٣)

ولهذا يتوجه القرآن بالأمر لأهل الكتاب :

« فَـَٔامِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَٰثَةٌ ٱنتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا » (٢٤)

ويبين لهم أن المسيح عبد لله والعابد لا يعبد وحسبه شرفا أن يكون عبدا لله وحده ..

فيقول :

« لَن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ

---

(٢٢) سورة المائدة ٥/٧٥

(٢٣) سورة النساء ٤/١٧١

فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً * فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا وَٱسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَلاَ يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيراً » (٢٤)

وانها لدعوة هادئة فيها اقناع للعقل ومخاطبة للوجدان واستثارة لكوامن النفس يوجهها القرآن الى أهل الكتاب ويطالبهم بالعودة الى حقيقة الايمان بالله دون التواء أو تزييف ، ويوصى المسلمين أن يجادلوهم بالرفق واللين والاقناع القائم على البرهان العقلى ، وتجلية الحقائق واستقراء تاريخ الرسالات :

فيقول :

« وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلاَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوآ ءَامَنَّا بِالَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَـٰهُنَا وَإِلَـٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ » (٢٥)

فهم شركاء المؤمنين فى الايمان — وهو رحم بين أهله — ولكن ايمان أهل الكتاب يحتاج الى تصحيح وتنقيح واعتدال .. يحتاج الى اتمامه بالاعتراف بنهاية الرسالات وختام النبوات .. يحتاج الى الايمان بمحمد وما جاء به ، فبذلك تكمل الحلقة ويتم الايمان ويعتدل الطريق

(٢٤) سورة النساء ١٧١/٤ — ١٧٣

(٢٥) سورة العنكبوت ٤٦/٢٩

ويتشرف أهل الكتاب بالاسلام ، وما أكرمه من دين شامل كامل لا يفرق بين أحد من رسل الله ولا كتاب من كتبه . فهؤلاء مصابيح الهداية الى الخلق وما معهم نور يهدى الى الحق والى طريق مستقيم ..

٢ ـ موقف النصارى :

هذه الدعوة الرقيقة الهادئة التى دعا بها القرآن أهل الكتاب ،وقامت فى أساسها على البرهان المستقيم والنظر الصحيح ، كانت جديرة أن تجد طريقها الى قلوبهم ، وأن تلقى منهم التأييد والتسليم والايمان .. لكن الواقع أثبت غير ذلك :

اذ أن البراهين التى أقامها القرآن على ما وصل اليه أهل الكتاب من انحراف وأنهم كغيرهم فى حاجة الى الاسلام لم تلبث أن وجدت مقاومة عنيفة لا باللسان فقط ولكن بالمكر والكيد واعلان الحرب على المسلمين ورسول الاسلام . وان كان الوضع قد اختلف بالنسبة لليهود والنصارى على حسب ظروف الدعوة العالمية والمحلية واصطدام الاسلام بأحقاد القوم وأضغانهم تبعا لمجاورته لكلا الفريقين أو بعده عنهما .

« فالمسيحية انتشرت فى الجنوب عن طريق الحبشة ، وفى الشمال عن طريق سورية وشبه جزيرة سيناء الآهلة بالأديرة والصوامع ، وكانت النسطورية منتشرة فى الحيرة ، واليعقوبية فى غسان وسائر قبائل الشام » (٢٦) ..

« واليهودية انتشرت بالجهات ولا سيما الحجاز ونواحيها خيبر والمدينة بين قبائل قريظة والنضير ذات الشوكة المتأصلة هناك من زمن مديد ، كما اشتهر هذا الدين بجزء عظيم من قبائل اليمن بعد أن نقله

---

(٢٦) تاريخ الاسلام السياسى ص ٧١ د. حسن ابراهيم

التبابعة الى مساكنهم فى سنى ٢٥٥ ، ٣٠١ ، ٤٩٥ بعد الميلاد » (٢٧) ..

فلم يكن بمكة أو المدينة من النصارى الا أفراد قلائل لا ذكر لهم، أما اليهود فقد كانوا قوة اقتصادية واجتماعية فى المدينة ، وهى منطلق الاسلام الى بناء المجتمع الجديد وفيها قامت دولته ..

ونظرا لهذه الظروف لم يصطدم الاسلام ــ فى مراحله الأولى ــ بالنصارى ، لأنه لم يعايشهم ، ولكن ذلك لم يدم طويلا بعد أن استقر نظامه وثبتت أركانه وبدأ صلى الله عليه وسلم يراسل ملوك الأرض يدعوهم الى دين الله ، فوجدوا فيه الخطر على ما ادعوه من ألوهية كاذبة وسلطان يفرض جبروته ، وعنفوانه على الشعوب ، وتجردت الجيوش الكثيفة والقوى الجبارة لتقضى على الاسلام فى مهده ، فكانت غزوة تبوك آخر غزوات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفيها انسحب جيش الروم وأصابه الخوف من قوة المسلمين .. ولم ير الرسول القبائل والبلاد الواقعة على تلك الحدود ..

ومن « تبوك » الى « اليرموك » وفتح بلاد الشام وما وراءها لم يخب أوار المعركة الدائرة بين الاسلام والنصرانية ، وبتعبير أدق : بين الاسلام ومن انتسبوا الى دين المسيح زورا ، وكانت الحروب الصليبية التى امتدت لقرنين من الزمان ، وحملات التبشير والتنصير فى العصر الحديث كلها أدلة بارزة على هذا الحقد وتلك الكراهية للاسلام وأهله والتى بنيت على أساس من الجهل والتعصب الأعمى . وعدم تفتح عقول هؤلاء القوم الى ماجاء به الاسلام من تكريم لعيسى ورفع لمقام

---

(٢٧) خلاصة تاريخ العرب : لسديو : وانظر تمهيد هذا البحث ص ٢٧ ، ٢٨ .

الأنبياء وما فيه من جدل هادىء ودعوة صادقة الى وحدة الدين على مر الأجيال .. لكن الأمر كان أكبر من ذلك وأعظم .. كان ملكا وسلطانا وحكما وجهلا مفروضا على أتباع الملوك والحكام ، واندفاعا لصد تيار الاسلام دون روية أو نظر ، مما اضطر المسلمين الى خوض غمار الحروب الدامية حتى أزاحوا من طريقهم قوة الباطل ، وأسقطوا ملك الظالمين . قرأت الشعوب نور الله فتحولت الى دين الاسلام ونطقت ألسنتها باللغة العربية لغة القرآن ..

أما قبل أن يتسع مد الاسلام ويواجه الحكام الذين جندوا الشعوب لصد تيار الاسلام ، فقد كان الكثيرون من النصارى يأتون الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يجادلونه ويجادلهم ، ومنهم من كان يعلن اسلامه ويقتنع بما جاء به كتاب الله : ذكر البيهقى عن ابن اسحاق قال : قدم على النبى صلى الله عليه وسلم عشرون رجلا وهو بمكة أو قريب من ذلك من النصارى حين ظهر خبره من الحبشة فوجدوه فى المسجد فكلموه وسألوه ورجال من قريش فى أنديتهم حول الكعبة ، فلما فرغوا من مسئلتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عما أرادوا دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الله عز وجل وتلا عليهم القرآن ، فلما سمعوه فاضت أعينهم من الدمع ثم استجابوا له وآمنوا به وصدقوه وعرفوا منه ما كان يوصف لهم فى كتابهم من أمره ، فلما قاموا من عنده اعترضهم أبو جهل فى نفر من قريش فقالوا : خيبكم الله من ركب ، بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم فتأتونهم بخبر الرجل فلم تطل مجالستكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه بما قال لكم ، ما نعلم ركبا أحمق منكم فقالوا: سلام عليكم لانجاهلكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا نألوا أنفسنا خيرا فيقال انهم النفر النصارى من أهل نجران ، ويقال ان فيهم نزلت هؤلاء الآيات ..

« ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ »
الى قوله :

« وَإِذَا سَمِعُوا ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ »(٢٨)

ومن النصارى من كان يقتنع بالحق ولكنه يصر على ما معه من الباطل ، ومن هؤلاء من دعاهم الرسول عليه السلام الى المباهلة أى الابتهال الى الله والتضرع اليه أن يهلك الكاذبين ، فأبوا وخافوا على أنفسهم من مقت الله وغضبه ، ورجعوا على أن يسالموا الرسول ويدفعوا الجزية ، وفى هذه المباهلة يقول القرآن :

« فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ * إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ »(٢٩)

« روى أنهم لما دعاهم الى المباهلة قالوا : حتى نرجع وننظر فلما تخالوا قالوا للعاقب ــ وكان ذا رأى فيهم ــ ياعبد المسيح ما ترى ؟ فقال: والله لقد عرفتم يا معشر النصارى أن محمدا نبى مرسل ، ولقد جاءكم بالفصل من أمر صاحبكم ، والله ما باهل قوم نبيا قط فعاش كبيرهم ولا

---

(٢٨) تفسير القرطبى حـ ٣ ص ٢٢٥٢ ، ٢٢٥٣ والآيات من سورة القصص ٢٨/٥٢ ــ ٥٥

(٢٩) سورة آل عمران ٣/٦١ ــ ٦٣

نبت صغيرهم ، ولئن فعلتم لتهلكن فان أبيتم الا الف دينكم والاقامة على ما أنتم عليه فوادعوا الرجل وانصرفوا الى بلادكم ، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد غدا محتضنا الحسين آخذا بيد الحسن وفاطمة تمشي خلفه وعلى خلفها وهو يقول اذا أنا دعوت فأمنوا ، فقال أسقف نجران : يا معشر النصارى انى لأرى وجوها لو شاء الله أن يزيل جبلا من مكانه لأزاله بها ، فلا تباهلوا فتهلكوا ولا يبقى على وجه الأرض نصرانى الى يوم القيامة فقالوا : يا أبا القاسم رأينا ألا نباهلك وأن نقرك على دينك ونثبت على ديننا . قال : فاذا أبيتم المباهلة فأسلموا يكن لكم ما للمسلمين وعليكم ما عليهم . فأبوا . قال : فانى أناجزكم . فقالوا مالنا بحرب العرب طاقة ولكن نصالحك على ألا تغزونا وتخيفنا ولا تردنا على ديننا على أن نؤدى اليك كل عام ألفى حلة فى صفر وألفا فى رجب ، وثلاثين درعا عادية من حديد . فصالحهم على ذلك وقال : والذى نفسى بيده ان الهلاك قد تدلى على أهل نجران ولو لاعنوا لمسخوا قردة وخنازير ولاضطرم عليهم الوادى نارا ولاستأصل الله نجران وأهله حتى الطير على رءوس الشجر ، ولما حال الحول على النصارى كلهم حتى يهلكوا[٣٠]

والقرآن يحدثنا عن طائفة خاصة من النصارى استجابت للحق وفاضت أعينها بالدمع مما عرفت من الحق ، فامتدحها الله وأثنى عليها كما ذم اليهود ولعنهم فقال :

« لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱلَّذِينَ قَالُوٓا إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ

(٣٠) تفسير الكشاف للزمخشرى جـ ١ ص ٣٢٦

تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ * وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ * فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ » (٣١)

قال الامام القرطبى فى تفسيره : « وهذه الآية نزلت فى النجاشى وأصحابه لما قدم عليهم المسلمين فى الهجرة الأولى ـ على حسب ما هو مشهور فى سيرة ابن اسحاق وغيره ـ خوفا من المشركين وفتنتهم ، وكانوا ذوى عدد ثم هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المدينة بعد ذلك فلم يقدروا على الوصول اليه . حالت بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم الحرب ، فلما كانت وقعة بدر وقتل الله صناديد الكفار قال كفار قريش : ان ثأركم بأرض الحبشة فاهدوا الى النجاشى وابعثوا اليه رجلين من ذوى رأيكم لعله يعطيكم من عنده فتقتلونهم بمن قتل منكم ببدر . فبعث كفار قريش عمرو بن العاص وعبد الله بن أبى ربيعة بهدايا فسمع النبى صلى الله عليه وسلم بذلك فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن أمية الضمرى وكتب معه الى النجاشى فقدم على النجاشى فقرأ كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم دعا جعفر بن أبى طالب والمهاجرين وأرسل الى الرهبان والقسيسين فجمعهم ثم أمر جعفر بن أبى طالب أن يقرأ عليهم القرآن فقرأ سورة « مريم » فقاموا تفيض أعينهم من الدمع فهم الذين أنزل الله فيهم « ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا

---

(٣١) سورة المائدة ٥/٨٢ ـ ٨٥

الذين قالوا : انا نصارى ‥ » وقرأ الى الشاهدين ‥ رواه أبو داود قال : حدثنا محمد بن سلمة المرادى قال : حدثنا ابن وهب قال : أخبرنى يونس عن ابن شهاب عن أبى بكر بن عبد الرحمن بن الحرث بن هشام ، وعن سعيد بن المسيب وعن عروة بن الزبير أن الهجرة الأولى هجرة المسلمين الى أرض الحبشة وساق الحديث بطوله ‥ وقيل : أن جعفرا وأصحابه قدم على النبى صلى الله عليه وسلم فى سبعين رجلا عليهم ثياب الصوف فيهم اثنان وستون من الحبشة وثمانية من أهل الشام وهم بحيرا الراهب وادريس وأشرف وأبرهة ، وثمامة وقثم ودريد وأيمن ، فقرأ عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة -يس- الى آخرها فبكوا حين سمعوا القرآن وآمنوا ، وقالوا : ما أشبه هذا بما كان ينزل على عيسى ، فنزلت فيهم : « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى » يعنى وفد النجاشى ، وكانوا أصحاب الصوامع . وقال سعيد ابن جبير وأنزل الله فيهم أيضا : « الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به مؤمنون » الى قوله : « أولئك يؤتون أجرهم مرتين » الى آخر الآية ، وقال مقاتل والكلبى : كانوا أربعين رجلا من أهل نجران بن الحرث بن كعب واثنان وثلاثون من الحبشة وثمانية وستون من أهل الشام .

وقال قتاده : « نزلت فى ناس من أهل الكتاب كانوا على شريعة من الحق مما جاء به عيسى ، فلما بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم آمنوا به فأثنى عليهم [٣٢] » ‥

كما ساق القرطبى فى سبب نزول هذه الآيات حديث البيهقى عن ابن اسحاق فى المباهلة وقد سبق ذكره .

---

(٣٢) تفسير القرطبى حـ ٣ ص ٢٢٥٢ ، ٢٢٥٤

واذن فهؤلاء جماعة خاصة أثر فيها ما أنزل الله على رسوله ، ووصلت الى درجة الاحسان فى ايمانها .

قال تعالى :

« فَأَثَـٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ » (٣٣)

وليس كل من قال : انا نصارى « أقرب مودة » ورحما للمؤمنين .. فالتاريخ شاهد صدق على مالقيه المؤمنون من ألوان النكران والجحود من هؤلاء الذين قالوا انا نصارى وانهم ما سنحت لهم فرصة الا انتهزوها لاستئصال الاسلام وأهله ، وما زالت مأساة الأندلس وما حل بالمسلمين فيها نذير خطر لكل من فهم أن موالاة أعداء الله تفيد المسلمين شيئا ، انهم كما قال القرآن للمؤمنين :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ » (٣٤)

لكنها المعايشة والاكرام والاحسان من جانب المسلمين لمن عايشهم وسالمهم ، أما أن تقف هذه المعسكرات تناوىء الاسلام وتشن عليه حملة شعواء ، وتجند رجالها وشبابها وأموالها لصد تيار الاسلام وللقضاء على منهج القرآن ويأتى من المسلمين من يدعى أن النصارى أقرب مودة للذين آمنوا ، فهذا جهل بالقرآن وسياق آياته وما ترشد اليه من تحديد كامل لوضع المجتمع المسلم وعلاقته بالمجتمعات الأخرى ..

---

(٣٣) سورة المائدة ٥/٨٥

(٣٤) سورة المائدة ٥/٥١

ولا أظن أننا فى حاجة الى اثبات ما وصلت اليه النصرانية من التعصب ضد الاسلام امتد على مر التاريخ من يوم أن التقى بها الاسلام وبمعسكراتها الى يومنا هذا ، بعد أن أصبح ذلك أمرا معترفا به تعلنه الأمم المسيحية وتجاهر به فى عصر يدعى فيه هؤلاء النزاهة العلمية وخدمة الانسانية .. وهذا تقرير تقدمه بعثة من الأزهر مؤلفة من الأستاذين الفاضلين : عبد الله المشد ومحمود خليفة الى بلاد الصومال وأرتيريا وعدن والحبشة لدراسة أحوال المسلمين بهذه البلاد ، واستغرقت رحلة البعثة ثلاثة أشهر ما بين يوم ٢٦ من شعبان سنة ١٣٧٠ هـ الموافق أول يونيو سنة ١٩٥١ م الى يوم ٢٩ من ذى القعدة الموافق أول سبتمبر سنة ١٩٥١ وكتبت تقريرا مفصلا يقع فى ستين ومائة صفحة كبيرة يتسم بالدقة والاعتدال والواقعية ..

ومما جاء فى هذا التقرير : « أن نسبة المسلمين فى الحبشة بصفة عامة لا تقل عن ٦٥٪ من مجموع السكان ، وأنها ترتفع فى بعض المناطق الى ٨٥٪ وتهبط فى بعضها الى ٢٥٪ ، وهى فى مجموعها أغلبية أكيدة مع انقسام البقية من السكان الى مسيحيين ويهود ووثنيين » ..

ويعتمد التقرير فى هذا على الاحصاء الايطالى الدقيق الذى قام به الايطاليون فى سنة ١٩٣٦ واحصاءات القنصليات الأجنبية فى الحبشة ..

ثم يذكر التقرير هذه الحقائق المفجعة العجيبة :

أولا : ان الحكومة الحبشية بعد انتهاء الاستعمار الايطالى قد اغتصبت من المسلمين ثلثى أملاكهم العقارية وسلمتها للمسيحيين من الرعايا ، مع بقاء الضريبة الفادحة على الرعايا المسلمين حرصا على افقارهم وانحلالهم !

ثانيا : ان الحكومة الحبشية تمنح ارساليات التبشير المسيحية كل العناية والرعاية ، فى الوقت الذى تحرم فيه على المسلم أن ينتقل من محلته الى محلة أخرى لارشاد المسلمين ووعظهم ، وتقضى على كل محاولة ترمى الى ذلك ، وقد جاء فى تقرير لهذه الارساليات أنه يمكن تنصير جميع المسلمين فى هذه المناطق خلال خمس سنوات نظرا لجهلهم وفقرهم وعدم وجود من يعلمهم دينهم أو يحثهم على التمسك بعقيدتهم !

ثالثا : ان أكثر المسلمين فى الحبشة اهتماما بنشر علوم الدين هم مسلمو قطاعات : كفا جيما واللو هرر ، وأنه كان فى « جيما » وحدها أكثر من ستين مدرسة لتعليم أبناء المسلمين ، ولكن بعد أن أعلن ضمها الى الامبراطورية الحبشية واعتقل سلطانها الأمير عبد الله بن السلطان محمود بن داود المشهور باسم جيفار وزج به فى غيابة السجن استولت الحكومة الحبشية على هذه المدارس ثم أغلقت أكثرها وغيرت مناهج ما بقى منها ، ولم تجعل للغة العربية ولا للدين الاسلامى أثرا فيها ..

رابعا : ان السلطة الحبشية جاهدة فى سبيل نشر التعليم بين أبناء المسيحيين فى البلاد بقدر ما تسمح لها مواردها ، وأنها أنشأت لذلك حوالى مائتى مدرسة ابتدائية وثانوية للبنين والبنات ليس من بين تلاميذها وتلميذاتها أكثر من ثلاثة فى المائة من مسلمى الحبشة الذين لم تجد الحكومة بدا من قبولهم لظروف خاصة ، وأنه على الرغم من زيادة عدد المسلمين عن المسيحيين لا تقوم الحكومة بالانفاق على تعليمهم بأكثر من خمسة فى المائة من ميزانية التعليم .. هذا الى أن برامج المدارس الحكومية ليس للغة العربية ولا للدين الاسلامى نصيب فيها حتى فى المناطق الاسلامية المحضة ! ..

خامسا : ان المسلمين قد ألحوا على وزارة المعارف فى هذه المناطق بتقرير دراسة الدين الاسلامى واللغة العربية فى المدارس التى بها ،

فعينت مدرسين فى بعض هذه المدارس باسم تعليم الدين الاســلامى ، ورفضت طلب تدريس اللغة العربية واختارت مدرس الدين الاسلامى من بعض الجهلة الذين لا يدرون شيئا من تعاليم الاسلام ، ولم تحدد لحصة الدين زمنا خاصا كغيرها من حصص الأمهرية والانجليزية وسائر العلوم التى تدرس فى المدرسة ، بل كلفت مدرس الدين الاسلامى أن يجمع التلاميذ فى الأوقات المخصصة لراحتهم ليعلمهم فيها المبادىء التى لا تخرج عن أوقات الصلاة المفروضة وعدد ركعاتها وأركانها وشروطها وما شاكل ذلك ، فكان ذلك المدرس لا يجد من أوقات راحة التلاميذ ما يسمح بتعليمهم ويمر العام كله دون أن يلقى عليهم درسا واحدا !..

سادسا : ان الحكومة اختارت فى العام الماضى بعثات من المتخرجين فى بعض المدارس وأوفدتها الى المعاهد المختلفة فى الخارج ليعـــودوا فيتولوا المناصب الكبيرة فى الدولة ، وقد كان من بين المبعوثين اثنــان من المسلمين بحكم تفوقهما البارز ، ولكن بعد أن تمت اجراءات سفرهما حيل بينهما وبين السفر لأسباب غير معروفة !..

سابعا : انه كان للمسلمين ثمانى مدارس وكانت الدراسة فيهــا قائمة على أساس اللغة العربية والدين الاسلامى ومواردها تأتى مـــن التبرعات والهبات بواسطة جمعيات لهذا الغرض ، وكانت تقوم بتعليم ثلاثة آلاف من أبناء المسلمين ، وقد ظلت تؤدى مهمتها برغم جميع المتاعب الى سنة ١٩٤٩ ، ولكن الحكومة أرادت اخضاعها لبرامجها الخالية من اللغة العربية والدين، فلما رفض القائمون عليها هذاالأمر سلكت الحكومة مع هذه الجمعيات مسلكا اضطر أعضاؤها بسببه الى التخلى عـــن مساعدة هذه المدارس والتنازل للمعارف عن ثلاث مدارس منها وعندئذ حزفت منها مادتا اللغة العربية والدين الاسلامى !..

ثامنا : ان المدارس الباقية فى طريقها الى هذا المصير البائس ، لأن الوسائل التى اتبعت بشأن المدارس الثلاثة ماضية فى طريقها .. وقد تركت البعثة الحبشة ومدرسة رابعة تلاقى مصيرها ..

تاسعا : ان احدى المدارس الباقية طلبت من المعارف أن تسمح لبعض المدرسين المصريين بالحبشة أن يقوموا بتدريس بعض العلوم فى أثناء فراغهم نظرا لحاجة المدرسة الى بعض المدرسين الأكفاء ، ولكن المعارف الحبشية رفضت هذا الطلب ! ..

عاشرا : ان الكتب العربية لا يسمح بدخولها الى أثيوبيا ولا تداولها ، أما الجرائد والمجلات العربية فيسمح بدخولها تحت المراقبة الشديدة (٣٥) ..

وما يحدث فى الحبشة سياسة عامة يلقاها المسلمون فى كثير من البلاد التى يتولى الحكم فيها زمرة أتباع المسيح ..

وانها لمأساة حقا أن يكون هذا موقف النصارى من الاسلام ومن أتباع هذا الدين المبرأ من التعصب والداعى الى التسامح ، وهو موقف يتسم بالعداء الصارخ ويحتاج من مجتمع الاسلام الى يقظة ووعى وتبصر ..

٣ ــ موقف اليهود :

أما اليهود فقد كان اصطدام الاسلام بهم فى وقت مبكر نظرا لوجودهم فى المدينة ، وكان جوار المسلمين لهم جديرا أن يجعلهم مع المسلمين قوة واحدة ، بل كان كفيلا أن يبادر أهل الكتاب من اليهود

---

(٣٥) التعصب والتسامح بين المسيحية والاسلام/محمد الغزالى ص ٢٧٣ ــ ٢٧٥

الى الدخول فى الاسلام والدفاع عنه وحمل رايته والتشرف بالانتساب اليه ، وهم الذين كانوا ينتظرون مبعث محمد عليه السلام ويتوعدون الأوس والخزرج كلما اختلفوا واياهم قالوا لهم : « ان نبيا مبعوثا الآن قد أظل زمانه تتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وارم [٣٦] » ..

فلما هاجر الرسول الى يثرب عقد معهم معاهدة أمن ودفاع ، وحمى لهم دينهم وأموالهم وأعراضهم ، وجعلهم مع أهل المدينة يدا واحدة تصد كل عدوان ..

لكن نظرة اليهود الى الشعوب واعتقادهم أن بنى اسرائيل شعب الله المختار وأن الرسالة والقيادة يجب أن تكون منهم ، جعلتهم يكفرون بهذا الرسول الذى بعث من العرب روى ابن اسحاق بسنده عن ابن عباس أن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه ، فلما بعثه الله من العرب كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون فيه ، فقال لهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء بن معرور أخو بنى سلمه : يا معشر يهود اتقوا الله وأسلموا فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ونحن أهل شرك وتخبروننا أنه مبعوث ، وتصفونه لنا بصفته ، فقال سلام بن مشكم أحد بنى النضير : ماجاءنا بشىء نعرفه وما هو بالذى كنا نذكره لكم ، فأنزل الله فى ذلك من قولهم :

« وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ» [٣٧]

---

(٣٦) حياة محمد : لهيكل ص ٢٠٢ .

(٣٧) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٣٦ .. والآية من سورة البقرة ٢/٨٩ .

واليهود ضعاف أينما حلوا لا يستطيعون المواجهة الصريحة فـي ميدان قتال وحدهم ، ولقد صنع بهم التعذيب على يد فرعون فى مصر ، والسبى فى بابل والاضطهاد الرومانى وتفريقهم فى أنحاء الأرض عقـدة نقص وحقد ، فكانت وسيلتهم لتدمير أى مجتمع مكرا أو وقيعة وتفريقا للصف .. لذلك سالموا الرسول عند مقدمه أرض يثرب وانطوت قلوبهم على الكيد له .. تقول السيدة صفية بنت حيى بن أخطب أم المؤمنين :

« لم يكن أحد من ولد أبى وعمى أحب اليهما منى ، ولم ألقهما فـى ولدهما ولم أهش اليهما الا أخذانى دونه ، فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم قباء قرية بنى عمرو بن عوف ــ غدا اليه أبى وعمى أبو ياسر ابن أخطب مغلسين ، فوالله ماجاءنا الا مع مغيب الشمس فجاءانا فاترين كسلانين ساقطين يمشيان الهوينى ، فهششت اليهما كما كنت أصـنع فوالله ما التفت الى واحد منهما ، فسمعت عمى أبا ياسر يقول لأبى : أهو هو ؟ قال : نعم والله . قال : تعرفه بنعته وصفته ؟ قال : نعم والله . قال : فماذا فى نفسك منه ؟ قال : عداوته والله ما بقيت (٣٨) ..

وبقيت هذه العداوة مستترة لفترة قصيرة من الزمن خيل الى اليهود فيها أن باستطاعتهم ضم محمد الى صفهم والانتصار به على أعـدائهم فجاملوه وجاملهم ، وبقى يصلى الى بيت المقدس كما كان يصلى من يوم أن فرضت الصلاة ، فربما كان فى اتحاد وجهة العبادة اتحاد للفكرة وجمع للشمل والايمان بإله واحد ، والانضواء تحت لواء الدين الحق وجاءت آيات القرآن تذكر من تاريخهم الشيء الكثير وتبين أن منهم من يدرك الحق ويعرف الطريق فهم .. كما قال الله تعالى :

« لَيْسُوا سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ

---

(٣٨) سيرة ابن هشام حـ ٢ ص ٢٦

ءَايَٰتِ اللهِ ءَانَآءَ الَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى الْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ الصَّٰلِحِينَ * وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ » (٣٩)

عن ابن مسعود : المعنى ليس المؤمنون والكافرون من أهل الكتاب سواء ، وعن ابن عباس : لما أسلم عبد الله بن سلام وثعلبة بن سعية وسيد بن سعية وأسد بن عبيد ، ومن أسلم من يهود فآمنوا وصدقوا ورغبوا فى الاسلام ورسخوا فيه قالت أحبار يهود وأهل الكفر منهم : ما آمن بمحمد ولا تبعه الا شرارنا ، ولو كانوا من خيارنا ما تركوا دين آبائهم وذهبوا الى غيره ، فأنزل الله عز وجل فى ذلك من قوله :

« لَيْسُوا سَوَآءً إلى قوله : وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ الصَّٰلِحِينَ » (٤٠)

وعلماؤهم فى قمة من يحتج بهم القرآن لدى المشركين على صحة ما جاء فيه اذ يقول : (أى القرآن وما جاء فيه من أحكام ثابتة لا تتغير).

« وَإِنَّهُ لَفِى زُبُرِ الْأَوَّلِينَ * أَوَ لَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَٰٓؤُا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ » (٤١)

وعلماؤهم شهداء على صحة رسالته عليه السلام بعد الله سبحانه

---

(٣٩) سورة آل عمران ٣/١١٤ ــ ١١٥

(٤٠) تفسير القرطبى ص ١٤١٧

(٤١) سورة الشعراء ٢٦/١٩٦ ، ١٩٧

وتلك منزلة عالية لعلماء أهل الكتاب •• يقول القرآن :

« وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ » (٤٢)

وامتد حبل المودة ــ شأن المنهج الالهى فى تحديد علاقة المسلمين بمن سالمهم ــ فأباح الله للمؤمنين طعام أهل الكتاب ونكاح بناتهم فقال :

« ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ » (٤٣)

وأفاض عليهم رسول الله ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ من كرم عطفه وجمال عفوه وحسن أدبه وعظيم أخلاقه ما يجذب اليه القلوب ويستل منها بغضها وحقدها ، لكنهم ما ان رأوه يزداد فى المدينة وما حولها كل يوم قوة وأن الأمل فى اجتذابه الى صفهم وحدهم والاستئثار به لن يكون ، وأن هذا النبى ليس نبى بنى اسرائيل أو العرب ، انما هو رسول رب العالمين الى الناس كافة ، ما ان رأوا ذلك وتحققوه حتى تغيرت معاملتهم للمسلمين وبدءوا حملة من التشكيك فى الرسالة والرسول ، وأثاروهـا

---

(٤٢) سورة الرعد ٤٣/١٣

(٤٣) سورة المائدة ٥/٥

مكيدة يفرقون بها الصف الاسلامى الذى وحده الايمان والتجأوا الى معسكر الشرك وتحالفوا معه على حرب المسلمين والقضاء عليهم ، وبدأ أنهم على استعداد لمحالفة الشيطان لاطفاء نور الله ..

يقول القرآن :

« وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ »

وتظاهر بعضهم بالاسلام ــ وهو بين الحين والآخر يبدى من الشكوك والريب ويلقى على محمد من الأسئلة ما يحسبه يزعزع فى أنفس المسلمين عقيدتهم به وبرسالته الحق التى يدعو اليها .. قال تعالى :

« وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ » (٤٤)

قال القرطبى : معنى الآية أن اليهود قال بعضهم لبعض : أظهروا الايمان بمحمد فى أول النهار ثم اكفروا به آخره ، فانكم ان فعلتم ذلك ظهر لمن يتبعه ارتياب فى دينه فيرجعون عن دينه الى دينكم ويقولون : ان أهل الكتاب أعلم به منا (٤٥) ..

(٤٤) سورة آل عمران ٣/ ٧٢ ، ٧٣

(٤٥) تفسير القرطبى ص ١٣٥٣ .

وهم الذين أوعزوا من قبل الى نفر من المشركين أن يسألوا الرسول فيما ظنوه له محرجا ، فعن ابن عباس رضى الله عنهما أن قريشا اجتمعوا وقالوا : ان محمدا نشأ فينا بالأمانة والصدق وما اتهمناه بكذب ، وقد ادعى ما ادعى فابعثوا نفرا الى اليهود بالمدينة واسألوهم عنه فانهم أهل الكتاب ، فبعثوا جماعة اليهم فقالت اليهود : سلوه عن ثلاثة أشياء فان أجاب عنها كلها أو لم يجب عن شيء منها فليس بنبى ، وان أجاب عن اثنين ولم يجب عن واحد فهو نبى .. فاسألوه عن فتية فقدوا فى الزمن الأول ما كان أمرهم فانه كان لهم حديث عجيب ، وعن رجل بلغ شرق الأرض وغربها ما خبره ، وعن الروح . فسألوا النبى صلى الله عليه وسلم فقال : أخبركم بما سألتم غدا ولم يقل ان شاء الله . قال مجاهد : فلبث الوحى اثنى عشر يوما وقيل خمسة عشر يوما وقيل أربعين يوما وأهل مكة يقولون: وعدنا محمد غدا وأصبحنا لا يخبرنا بشيء حتى حزن رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكث الوحى وشق عليه ما يقول أهل مكة ثم نزل جبريل عليه السلام بقوله تعالى :

« وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَداً * إِلَّا أَن يَشَآءَ اللَّهُ »

« أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ الْكَهْفِ والرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَباً * إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ »

الآيات ونزل فيمن بلغ المشرق والمغرب :

« وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِى الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْراً »

الآيات ونزل فى الروح قوله تعالى :

« وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى » الآية

وأزعجهم اتحاد المسلمين واجتماع كلمتهم فحاولوا تفريقهم «روى أن نفرا من الأوس والخزرج كانوا جلوسا يتحدثون فمر بهم شاس بن قيس اليهودى ، وكان عظيم الكفر شديد الحسد للمسلمين ، فغاظه ما رأى منهم من تآلف القلوب واتحاد الكلمة واجتماع الرأى ، بعد ماكان بينهم من العداوة والشقاق ، فأمر شابا يهوديا كان معه بأن يجلس اليهم ويذكرهم يوم بعاث ، وكان ذلك يوما عظيما اقتتل فيه الحيان وكان الظفر للأوس ، وينشدهم ما قيل فيه من الأشعار ففعل ، فتفاخر القوم وتغاضبوا حتى تواثبوا وقالوا : السلاح ، السلاح . فاجتمع من القبيلتين خلق عظيم فعند ذلك جاءهم النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه وقالوا : أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن أكرمكم الله تعالى بالاسلام ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية ، وألف بينكم ؟! فعلموا أنها نزعة من الشيطان وكيد عدوهم ، فألقوا السلاح واستغفروا وعانق بعضهم بعضا وانصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم(٤٦) .. قال الامام الواحدى : اصطفوا للقتال فنزلت الآيات :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ كَـٰفِرِينَ »

الى قوله تعالى :

« كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ »

---

(٤٦) الفتوحات الالهية حـ ٢ ص ٦٤٥ .

فجاء النبى صلى الله عليه وسلم حتى قام بين الصفين فقرأهن ورفع صوته فلما سمعوا صوت رسول الله صلى الله عليه وسلم أنصتوا لـــه وجعلوا يستمعون له فلما فرغ ألقوا السلاح وعانق بعضهم بعضا وجعلوا يبكون (٤٧) » ..

واشتد الجدل بينهم وبين الرسول والمسلمين ، ونزلت آيات القرآن المتتالية تبين عنت اليهود وكفرهم وبعدهم عن جادة الطريق ، بل كان فى هذا الجدل اعتداء على ذات الاله وهجوم على كتاب الله ، مما أثار المسلمين حتى من اشتهر منهم بالحلم والأناة . هذا هو أبو بكر رضى الله عنـــه يذهب الى يهود بنى قينقاع حاملا رسالة من الرسول وفيها دعوتهم الى الاسلام ، واقام الصلاة وأن يقرضوا الله قرضا حسنا ، فرد فنحاص بقوله: والله يا أبا بكر ما بنا الى الله من فقر وانه الينا لفقير وما نتضرع اليه كما يتضرع الينا وانا عنه أغنياء ، وما هو عنا بغنى ولو كان غنيا ما استقرضنا أموالنا كما يزعم صاحبكم ينهاكم عن الربا ويعطينا ولو كان غنيا ماأعطانا فغضب أبو بكر وضرب وجه فنحاص ضربا شديدا وقال : والذى نفسى بيده لولا العهد الذى بيننا وبينكم لضربت رأسك ياعدو الله ، وشكا فنحاص أمره الى النبى صلى الله عليه وسلم وأنكر ما قاله لأبى بكر فى الله ، فنزل قوله تعالى :

« لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَاقَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ » (٤٨)

---

(٤٧) تفسير ابى السعود حـ ١ ص ٢٥٦ والآيات من سورة آل عمران ٣/١٠٠ ـ ١٠٣

(٤٨) حياة محمد : لهيكل ص ٢٣٦ ، تفسير ابى السعود حـ ١ ص ٢٩٨ ، الكشاف للزمخشرى حـ ١ ص ٣٦٥ والآية من آل عمران ٣/١٨١

ووصل الأمر منتهاه حين حاولوا فتنة الرسول نفسه . فعن ابن اسحق قال ابن عباس : اجتمع قوم من الأحبار منهم ابن صوريا وكعب ابن أسد وابن صلوبا وشاس بن عدى ، وقالوا : اذهبوا بنا الى محمد فلعلنا نفتنه عن دينه فانما هو بشر . فأتوه فقالوا : قد عرفت يا محمد أنا أحبار اليهود وان اتبعناك لم يخالفنا أحد من اليهود ، وان بيننا وبين قوم خصومة فنحاكمهم اليك فاقض لنا عليهم حتى نؤمن بك فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزلت هذه الآية :

« وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَـٰسِقُونَ * أَفَحُكْمَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ » (٤٩)

ولما وجدوه ثابتا لا يتزحزح أرادوا أن يمكروا به وأن يقنعوه بالجلاء عن المدينة فذكروا له أن من سبقه من الرسل ذهبوا جميعا الى بيت المقدس ، وكان به مقامهم ، وأنه ان يكن رسولا حقا فجدير به أن يصنع صنيعهم ، وأن يعتبر المدينة وسطا فى هجرته بين مكة ومدينة المسجد الأقصى ، لكنه ما كانت تنطلى عليه تلك الخدعة اذ كان دائم التوجه الى الله أن يجعل قبلته بيت الله الحرام ، فاستجاب الله رجاءه وتحول الى الكعبة على رأس سبعة عشر شهرا من مقامه بالمدينة ، وفى ذلك يقول

---

(٤٩) تفسير القرطبى ص ٢٢١٠ والآية من سورة المائدة ٥/٤٩ ، ٥٠.

القرآن :

« قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ » .

فثارت ثائرة اليهود وانتهزوها فرصة لتضليل الرأى العام واشاعة قالة السوء ، فنزل القرآن يرد عليهم افتراءهم وضلالهم اذ يقول :

« سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُواْ عَلَيْهَا ؟ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ »

الى قوله تعالى :

« وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ » (٥٠)

وكان انتصار المسلمين فى بدر فى رمضان من العام الثانى للهجرة دليلا على قوة الدولة الناشئة ، وضربة لكل من تحدثه نفسه أن يعتدى على هؤلاء المؤمنين . وكان هذا الانتصار على دولة الشرك جديرا أن يشرح

(٥٠) سورة البقرة ١٤٢/٢ ـ ١٥٠

صدر اليهود ويفرحهم ، فهم أهل كتاب منزل كما فرح المسلمون فى مكة لانتصار الروم على الفرس لا لشيء الا لأن الروم أهل كتاب وشركاء فى الايمان ، لكن هذا النصر قوبل بالتهوين من شأنه وبالحزن العميق من اليهود حتى قال كعب بن أشرف : هؤلاء أشراف العرب وملوك الناس والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها ، وذهب الى مكة يحرض على محمد وينشد الأشعار ويبكى أصحاب القليب ورجع الى المدينة فجعل يشبب بنساء المسلمين وكان لابد من قتل كعب فقتله المسلمون (٥١) .. ومن قبله قتل أبو عفك اليهودى وكان يرسل الأشعار يطعن بها على محمد والمسلمين ، ويحرض بها قومه على الخروج عليهم ، وظل كذلك بعد بدر يغرى بهم الناس فقتله سالم بن عمير ، كما قتلت عصماء بنت عمران ، وقد كانت تعيب الاسلام وتؤذى النبى وتحرض عليه . ومع ذلك فلم يكف اليهود ولم يحفظوا عهدهم ، فقد قدمت امرأة من المسلمين الى سوق اليهود من بنى قينقاع ومعها حلية جلست الى صائغ منهم بها ، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها وهى تأبى فجاء يهودى من خلفها فى سر منها فأثبت طرف ثوبها بشوكة الى ظهرها ، فلما قامت انكشفت سوءتها فضحكوا بها فصاحت فوثب رجل من المسلمين على الصائغ وكان يهوديا فقتله وشدت اليهود على المسلم فقتلوه ، ولما طلب اليهم الرسول أن يكفوا عن أذى المسلمين وأن يحفظوا عهد الموادعة أو ينزل بهم ما نزل بقريش ، استخفوا بوعيده وأجابوه : « لا يغرنك يامحمد أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة انا والله لئن حاربناك لتعلمن انا نحن الناس (٥٢) » ..

وكان لابد لمن نقضوا العهد أن يلقوا جزاء غدرهم فحاصرهم الرسول والمؤمنون معه خمسة عشر يوما فاضطروا الى التسليم والخروج

---

(٥١) ابن هشام حـ ٢ ص ١٤١ ، ١٤٢

(٥٢) حياة محمد : لهيكل ص ٢٧٨ ، ٢٧٩

من المدينة الى وادى القرى ، ومنها ساروا صوب الشمال حتى بلغوا « أذرعات » على حدود الشام ، وبها أقاموا بعد أن تركوا بالمدينة سلاحهم وكثيرا من أمتعتهم ودورهم ..

وكانت هزيمة المسلمين فى أحد فرصة لمن بقى من اليهود ليتشفوا من المسلمين وليطلقوا لألسنتهم العنان ، وكان أصحاب الرجيع الستة الذين قتلتهم هذيل ، وأصحاب « بئر معونة » الأربعون الذين أجارهم أبو براء وقتلهم عامر بن الطفيل ومن معه ، ولم ينج الا كعب بن زيد وعمرو بن أمية .. ولقى عمرو فى الطريق رجلين فحسبهما من القوم الذين عدوا على أصحابه فأمهلهما حتى ناما وعدا عليهما فقتلهما وتابع سيره حتى بلغ المدينة ، فأخبر الرسول بذلك فاذا الرجلان عامريان من قوم أبى براء ، واذا معهما عقد جوار من رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ذلك كله بابا لاستهتار اليهود بالقوة الاسلامية ، ولما كان بنو النضير حلفاء لبنى عامر ، فقد ذهب الرسول عليه السلام اليهم فى عشرة من أصحابه ، وطلب اليهم معاونة المسلمين فى دية القتيلين اللذين قتلهما عمرو ابن أمية خطأ — فأظهروا السرور لمقدم الرسول وصحبه ، ولكنهم كانوا يتآمرون على قتله ، ودخل عمرو بن جحاش بن كعب البيت الذى كان محمد عليه السلام مستندا الى جواره ليرمى عليه حجرا يقتله به ، وأعلم الله رسوله بغدر هؤلاء ، فانسحب من مكانه تاركا أصحابه يظنون أنه قام لبعض أمره ، وبعث النبى الى محمد بن مسلمة وقال له : اذهب الى يهود بنى النضير وقل لهم : ان رسول الله أرسلنى اليكم أن اخرجوا من بلادى ، لقد نقضتم العهد الذى جعلته لكم بما هممتم به من الغدر بى ، لقد أجلتكم عشرا من رئى بعد ذلك ضربت عنقه ... وعقدوا أمرهم على الخروج لولا رسل عبد الله بن أبى الذى وعدهم بالنصرة والمعونة ، فتحصنوا بحصونهم وعزموا على القتال فحاصرهم المسلمون عشرين ليلة اضطروا الى التسليم وخرجوا على رأسهم حيى بن أخطب فنزل خيبر

منهم من نزل وسار آخرون الى أذرعات بالشام وتركوا وراءهم للمسلمين مغانم كثيرة من غلال وسلاح وأرض قسمها الرسول علــى المهاجرين خاصة ، ولم يشترك فى القسمة من الأنصار الا أبو دجانة وسهيل بن حنيف لفقرهما ..

وما كان لليهود أن يسكتوا على هذه الهزائم المنكرة وهذا النصر المؤزر الذى حققه رسول الاسلام ، وما كان لهم ـ أيضا ـ أن يلتقوا بالمسلمين فى معركة وهم ضعاف لا يستطيعون ذلك ، واذن فلابد من وسيلة أخرى للقضاء على هذا الذى أخرجهم وشتتهم . لذلك انطلق رؤساؤهم ومنهم حيى بن أخطب وسلام بن أبى الحقيق وكنانة بن أبــى الحقيق وغيرهم ، لتأليب من يستطيعون واستثارة أصحاب الثارات والعداوات فى أنحاء الجزيرة على محمد وأصحابه ، وفى سبيل ذلك كذبوا على الله وكفروا بالله كفرا صريحا فسجدوا للأصنام وادعوا أن ما عليه المشركون خير مما جاء به محمد . قالت قريش ، أنتم أهل كتاب وأنتم أقــرب الى محمد منا ، فلا نأمن مكركم فاسجدوا لآلهتنا حتى نطمئن اليكم ففعلوا . وقال أبو سفيان لكعب انك امرؤ تقرأ الكتاب وتعلم ونحن أميون لا نعلم فأينا أهدى طريقا نحن أم محمد ؟ فقال : ماذا يقول محمد ؟ قال :يأمــر بعبادة الله وحده وينهى عن الشرك قال : وما دينكم ؟ قالوا : نحن ولاة البيت نسقى الحجاج ونقرى الضيف ونفك العانى ، وذكروا أفعــالهم . فقال : أنتم أهدى سبيلا . ولقد أنكر عليهم القرآن هذا الموقف المخزى فقال :

« أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ

بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا * أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيراً » (٥٣)

وخرج هذا الوفد الذى استولى عليه الشيطان الى غطفان والى بنى مرة وبنى فزارة وأشجع وسليم وبنى سعد وأسد وغيرهم ، وما زالوا بهم يحرضونهم ويفضلون لهم وثنيتهم على الحق الذى جاء به محمد ويعدونهم النصر لا محالة ، حتى اجتمع أكثر من عشرة آلاف مقاتل تحت امرة أبى سفيان قاصدين جميعا المدينة ليضربوا الضربة الأخيرة فى قلب أمة الاسلام ، ولولا الخندق الذى حفره المسلمون حول المدينة باستشارة سلمان الفارسى لأتاها الأحزاب من كل جانب وقضوا على من فيها .

وحاول رؤساء اليهود أن يضربوا المسلمين من الخلف وكان يهود بنى قريظة مازالوا بالمدينة فاتصل بهم حيى بن أخطب وأقنعهم بنقض العهد مع رسول الله فنقضوه يقول القرآن :

« هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالاً شَدِيداً » (٥٤)

ولولا أن أوقع نعيم بن مسعود بين بنى قريظة والأحزاب وأرسل الله على الأحزاب ريحا بالليل قلعت خيامهم وكفأت قدورهم فولوا هاربين لوصل اليهود الى غايتهم ولم يبق الا أن يواصل الرسول طريقه فى تصفية هؤلاء الغادرين ، فما كاد يرجع من حول الخندق حتى أمر مناديه فأذن

---

(٥٣) تفسير ابى السعود حـ ١ ص ٣٥٠ الكشاف للزمخشرى حـ ١ ص ٤٠٢ ــ والآيتان من سورة النساء ٥١/٤ ، ٥٢

(٥٤) سورة الأحزاب ١١/٣٣

فى الناس : من كان سامعا مطيعا فلا يصلين العصر الا ببنى قريظة ،واتجهت جموع المقاتلين الى بنى قريظة فاذا بهم ومعهم حيى بن أخطب النضيرى يقعون فى محمد بأقبح مقالة ، يكذبونه ويطعنون عليه وينالون من أعراض نسائه ، وحاصرهم الرسول خمسا وعشرين ليلة فلم يجدوا بدا من التسليم ورضوا بحكم سعد بن معاذ ، وكان حليفهم فى الجاهلية فحكم سعد أن تقتل المقاتلة وتقسم الأموال وتسبى الذرية والنساء ، فلما سمع الرسول هذا الحكم قال : لقد حكمت بحكم الله من فوق سبعة أرقعة .. وأمر فحفرت الخنادق بسوق المدينة ، ثم جيء باليهود فضربت أعناقهم ، وفى هذه الخنادق دفنوا وفى ذلك يقول القرآن :

« وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَـٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً * وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضاً لَّمْ تَطَؤُهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيراً » (٥٥)

وتطهرت المدينة من رجسهم لكن بقى خطرهم يتهدد المسلمين فى خيبر . وماذا يمنعهم أن يؤلبوا الأحزاب على المؤمنين كما فعلوا من قبل ، اذن فكسر سلطانهم هو الوسيلة التى تضمن أمن الجماعة المسلمة ، لذلك أمر الرسول عليه السلام من حضروا الحديبية أن يتوجهوا الى خيبر لتصفية آخر معقل لليهود فى الجزيرة ..

وفوجىء اليهود بجيش المسلمين فذعروا وتحصنوا فى حصونهم واستماتوا فى الدفاع عنها ، وأصر المسلمون على الفتح حتى سقطت حصون اليهود عن آخرها ، فسلموا وصالحوا الرسول على أن يبقوا

---

(٥٥) سورة الأحزاب ٢٦/٣٣ ، ٢٧

بأرضهم ولهم نصف ثمارها مقابل عملهم • « وقد كان من احسان النبى معاملة يهود خيبر أنه كان بين ماغنم المسلمون حين غزوها عدة صحائف من التوراة فطلب اليهود ردها فأمر النبى بتسليمها اليهم [٥٦] » ••

سلمت « فدك » دون قتال وكذلك فعلت يهود تيماء اذ قبلوا الجزية دون حرب ، أما يهود وادى القرى فقد قاتلوا لكنهم اضطروا الى الاذعان والصلح ••

وبذلك سـقط سلطان اليهود السياسى وان بقوا أفرادا تمتلىء قلوبهم غلا وحقدا وغيظا ، إلى أن أجلاهم عمر جميعا عن شبه الجزيرة وانتهى أمرهم فى تلك البلاد ، لكنهم ما فتئوا برغم تشريدهم وهزيمتهم يكيدون للاسلام وأهله ، فالذى أشعل وزر الوضع فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : يهود ، والذى أشعل الفتنة على عثمان فانتهت بقتله: يهود ، والذى أشاع الفوضى وأسال الدماء فى المواقع التى دارت بين المسلمين بعد مقتل عثمان يهود ، والذى ينشر الالحاد والكفر والنظريات الهدامة فى أنحاء العالم يهود ، والذى يقود الحملة المنظمة للقضاء على دين الاسلام فى ربوع الأرض: يهود لأن الاسلام هو القوة العظيمة والعقبة الكئود التى تقف فى طريقهم ويوم تنهار أركانه وتضيع معالمه يوم يفرح اليهود ويصلون الى ماتمنوه ، ولكن هيهات ••

فالله حافظ دينه ولن يتركه نهبا مشاعا : لن يتركه لليهود يعبثون به ولم يتركه لمن فرطوا فى حمل أمانته ••

وقد هدد خير الناس وأفضلهم : صحابة رسول الله اذ قال :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ

---

(٥٦) حياة محمد : لهيكل ص ٣٩٠

فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ » (٥٧)

نعم سوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه يعتزون بايمانهم ويواجهون بهذا الايمان فسق أهل الكتاب وكفرهم وحقدهم وهم يقولون :

« قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ » (٥٨)

ويدركون سر قول الله تعالى :

« لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ » (٥٩)

فهم أخطر عدو وأول عدو يأتى قبل المشركين فى عداوته على ما فى الشرك من ضلال وفساد ، واذا كانت معركة الاسلام مع الشرك قد انتهت بسقوط وثنية جزيرة العرب ـ وان بقيت آثارها فى أماكن مختلفة من العالم ـ فانها مع اليهود لم تنته بعد وما تزيدها الأيام الا ضراوة وقوة وما اعتداؤهم على أرض الرسالات فى فلسطين وهدمهم للمقدسات

---

(٥٧) سورة المائدة ٥/٥٤

(٥٨) سورة المائدة ٥/٥٩

(٥٩) سورة المائدة ٥/٨٢

الاسلامية واحراقهم للمسجد الأقصى وتشريدهم لملايين من العرب الا جزء من المعركة التى بدأها اليهود ضد الاسلام وأهله من يوم أن أصبح للاسلام وأهله وجود دولى على أرض المدينة ، وما معركتنا مع الصهيونية العالمية الا مرحلة من المراحل التى كتبت على أمة الاسلام حلقاتها ، وانتصار هذه الأمة حق لا مراء فيه ، كلما أخذت بمنهج القرآن فى حياتها فهو سلاحها الذى به انتصرت على كل الحاقدين وبه تنتصر ــ دائما ــ على من أشعلوها فتنة ودمارا وهلاكا ، وجند الله غالب لا محالة ..

قال تعالى :

« وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ » (٦٠)

٤ ــ أهل الكتاب فى المجتمع الاسلامى ــ حقوقهم وواجباتهم :

هذا العداء الذى قابل به أهل الكتاب سماحة الاسلام وأدى الى اصطدام عنيف مبكر مع اليهود فى الجزيرة العربية ، ومع النصارى من يوم تبوك « واليرموك » الى الحروب الصليبية الى يومنا هذا الذى مازال فيه تحالف أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، قائما من أجل القضاء على الاسلام وحرب المسلمين ..

هذا العداء قابله الاسلام بمنهجه فى اقرار الحق وازالة طواغيت الأرض ، واقامة النظام الانسانى الذى يحمى المبادىء والقيم ، وزال ظل الكفر وتقلص نفوذ أهل الكتاب فى كثير من بلاد العالم ، وبقى حكم القرآن مهيمنا على الحياة موجها لها نحو اسعاد الانسان ، وسواء كانوا أفرادا قلائل يشكلون مجتمعا مستقلا لكنه دان للاسلام بالطاعة والولاء

(٦٠) سورة الصافات ٣٧/١٧١ ــ ١٧٣

وسواء كانت هذه الطاعة عن طريق الحرب حتى ألقوا سلاحهم ، أم عن طريق الصلح دون قتال ، فان المنهج القرآنى فى تنظيم علاقة المسلمين بهذه المجتمعات بعد استسلامها يجعلهم فى ذمة المسلمين وحمايتهم ، ويسميهم « أهل الذمة » ويفرض لهم من الحقوق ما يعجز أى نظام بشرى فى تاريخ الانسان أن يلحق بسمو ما شرعه الله لهؤلاء ، حتى ذابوا فى المجتمع الاسلامى وأصبحوا شركاء فى بنائه واسعاده ، كما حدد ما عليهم من واجبات للمجتمع الذى حماهم ودافع عنهم وهيأ لهم الاستقرار والأمان • وخلاصة هذه الحقوق تلك القاعدة العامة : « لهم مالنا وعليهم ما علينا » وتفصيل هذه الحقوق أوضحتها شريعة القرآن وفاضت بها بحوث الفقهاء والعلماء ، وكل ما فيها ضمان لحياة أفضل فى ظل عدالة الاسلام ورحمته، وليس لذلك مقابل الا الجزية يدفعها أهل الكتاب دليل التسليم والرضا بحكم القرآن ، ومقاديرها سهلة ميسرة لا ظلم فيها ولا اجحاف ، ويعفى منها غير القادرين والعجزة والنساء والأطفال ، ولا يدفعها الا كل من يستطيع حمل السلاح ، وهى تتناسب مع قدرة الفرد المالية ، بل توضع عنه اذا لم يستطع دفعها ويفرض له عطاء من بيت مال المسلمين ان كان فقيرا ، وفى نظير هذه الجزية يستمتع أهل الذمة بكثير من الحقوق التى لا يتميزون بها عن المسلمين الا فيما يختص بهم وما يتعلق بنظام الدولة العام وتوجيه سياستها فذلك من حق المسلمين وحدهم ••

فلأهل الذمة حفظ أنفسهم ، ودم الذمى كدم المسلم ، روى عمر ابن الحسن عن ابراهيم رحمهما الله تعالى : أن رجلا من المسلمين قتل رجلا من أهل الذمة فرفع ذلك الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أنا أحق من وفى بذمته ، ثم أمر به فقتل • وقد روى الدارقطنى هذا الحديث عن ابن عمر رضى الله عنهما ولفظه : أنا أكرم من وفى بذمته [٦١] ••

---

(٦١) العناية فى شرح الهداية حـ ١ ص ٢٥٦

أخرج الطبراني ، أن عليا أتى برجل من المسلمين قتل رجلا من أهل الذمة فقامت عليه البينة فأمر بقتله . فجاء أخوه فقال : انى قد عفوت . قال : فلعلهم هددوك وفرقوك وفزعوك : قال : لا ، ولكن قتله لا يرد على أخي وعرضوا لي ورضيت . قال : أنت أعلم ، من كان له ذمتنا فدمه كدمنا وديته كديتنا . وقتل المسلم بالذمى هو ما رآه الشعبى والنخعى وأبو حنيفة وأصحابه والجمهور بخلافه [٦٢] ..

وهم كالمسلمين أمام القانون الجنائي والمدنى فحد السرقة والقذف والزنى تقام على الذمى كما تقام على المسلم ما عدا حد الخمر ، فان أهل الذمة قد استثنوا من حدها فى الاسلام ـ والربا والنظام الاقتصادى يتساوون فيه مع المسلمين ، كما لا يجوز ايذاؤهم ولا شتمهم ولا ضربهم ولا الاعتداء على أعراضهم ، ولا التدخل فى أمورهم الشخصية ، فلهم قانونهم الذى ينظم علاقتهم ببعضهم فى زواجهم وميراثهم وأحوالهم الخاصة . « كتب الخليفة عمر بن عبد العزيز الى الامام الحسن البصرى مستفتيا ما بال الخلفاء الراشدين تركوا أهل الذمة وما هم عليه من نكاح المحارم واقتناء الخمور والخنازير ؟ فأجابه الحسن : انما بذلوا الجزية ليتركوا وما يعتقدون ، وانما أنت متبع لا مبتدع والسلام [٦٣] » ..

فاذا طلب أهل الذمة قضاء شريعة الاسلام فى أحوالهم الشخصية أجبناهم لذلك وقضينا بينهم بحكم القرآن . ولهم شعائرهم الدينية يؤدونها فى معابدهم ولا يمنعون من ذلك . قال فى البدائع : « لا يمنعون من اظهار شيء مما ذكرنا من بيع الخمر والخنزير والصليب وضرب الناقوس فى قرية أو موضع ليس من أمصار المسلمين ، ولو كان فيه

---

(٦٢) نيل الأوطار حـ ٦ ص ٣٨٤

(٦٣) حقوق أهل الذمة فى الدولة الاسلامية لأبى الأعلى المودودى ص ١٨

عـدد كبير من أهل الاسلام وانما يكره ذلك فى أمصـــار المسلمين وهى التى يقام فيها الجمع والأعياد والحدود ، وأما اظهار الفسق الذى يعتقدون حرمته كالزنى وسائر الفواحش المحــرمة فى دينهم ، فانهم يمنعون منـه ســواء كانوا فى أمصار المسلمين أم فى أمصارهم (٦٤) ولمعابــدهم حرمتها ووقارهــا فـلا يجوز الاعتداء عليهــا ولا ازالتها . وقد بقيت دور العبادة لأهل الذمة على امتداد الرقعة الاسلامية محفوظة على مر الأجيال ، وبقى الخلق الاسلامى حاميا تلك المعابد من التشويه أو الازالة . ولهم حرية الكتابة والخطابة وابداء الرأى ومناقشة الحاكم والاعتراض عليه فيما يمس نظام الحياة ..

وفى مجال التعليم لا يجبرون على نظام التعليم الدينى الاسلامى ، فلهم الحق فى دراسة دينهم ، وتنظيم هذه الدراسة فى المعاهد العامة للدولة أو فى معاهدهم الخاصة ، ولهم حق تولى الوظائف والمناصب والكفاءة فى أداء العمل ، هى المقياس الحقيقى لا فرق بين مسلم وغيره ، وان كان للمسلمين وحدهم حق توجيه نظام الدولة العام ورسم الخطط بما يتلاءم مع مبادىء الاسلام ، ويبقى ماعدا ذلك من الوظائف الهامة فلهم حق توليها وتصل الى درجة الوزير لكن بشرط أن يكون من وزراء التنفيذ لا من وزراء التفويض (٦٥) .. ولقد كان من الذميين من تولى قيــادة الجيش ابان الحكم الاسلامى فى الأندلس ــ وفى عهد هارون الرشيد وضعت جميع المدارس تحت مراقبة أحد الذميين وهو « حنامينة » ، وبقى أهل الذمة فى أعمالهم فى البلاد المفتوحة لم يحرمهم الفاتحون المنتصرون ذلك لاختلاف فى الدين ..

---

(٦٤) بدائع الصنائع حـ ٧ ص ١١١

(٦٥) وزير التنفيذ بمثابة سكرتير لرئيس الدولة مهمته تنفيذ ارادة الرئيس وسياسته ووزير التفويض يشترك مع رئيس الدولة فى الحكم .

قال الدكتور « ترتون » : « كانت عادة الحكومة قد جرت على استعمال النصارى الذين قلما خلا منهم ديوان من دواوين الدولة، ونلاحظ فى سنة ٢٥٣ هـ وجود ايصال ضريبة باللغة العربية واليونانية ، وقد استعملت اللغة العربية لأول مرة فى أعمال الحكومة بأصفهان زمن أبى مسلم ، كما أننا نرى رجلا مسيحيا يتولى ادارة السجن قريبا من الكوفة سنة ٣٦ هـ وقت أن كان الوليد بن عقبة عاملا عليها . ولما تم للعرب فتح مصر أبقوا من فيها من العمال البيزنطيين (٦٦) » ..

وقد أسرف الحكام المسلمون فى استخدام أبناء الديانات الأخرى، فاستغل هؤلاء سماحة الاسلام فى معاملته لأهل الذمة استغلالا سيئا جعل أحد الشعراء يقول مندداً بعلو المنزلة التى وصل اليها اليهود :

يهود هذا الزمان قد بلغوا ... غاية آمالهم وقد ملكوا
العز فيهم والمال عندهم ... ومنهم المستشار والملك
يا أهل مصر قد نصحت لكم ... تهودوا فقد تهود الفلك (٦٧)

ولأهل الذمة مع ذلك الاعفاء من الخدمة العسكرية ، فدولة الاسلام تقوم على المبادىء المنبثقة من كتاب الله ، ولا يدافع عن تلك المبادىء الا من آمن بها ، وكأن الجزية بدل عن هذه الخدمة العسكرية فوق أنها عنوان الخضوع والاستسلام ، وقد سبق أن بينا أنه اذا اشترك أحد من أهل الذمة فى القتال مع المسلمين سقطت عنه الجزية ..

هذه أهم الحقوق التى خولها منهج القرآن لأهل الكتاب ولم يجعلها أمانى مكذوبة يستقطب بها الجماهير ، وانما أقامها حقيقة واقعة وأقر الفرق بين المسلم وغيره ليحدد لكل فريق واجباته وحقوقه وليعطى كل من استظل برايته حظه من العدالة والاستقرار : فالدولة الاسلامية

(٦٦) أهل الذمة فى الاسلام د. ترتون ترجمة د. حسن حبشى ص١٤
(٦٧) التعصب والتسامح بين المسيحية والاسلام للشيخ محمد الغزالى ص ٤٦

مضطرة ــ باعتبار نوعيتها ــ الى أن تميز بين المسلمين وغير المسلمين تمييزا واضحا ، وتحدد بالصراحة الحقوق التى تستطيع أن تخولها غير المسلمين ، والتى لا تستطيع أن تخولها اياهم ، والدولة القومية يتهيأ لها أن تسلك خطة النفاق فتقرر من حيث نظريتها أن جميع سكانها أمة واحدة وتجعل لهم على صفحة القرطاس حقوقا متساوية ، ولكن تميز بين الأغلبية والأقلية ولا تخول الأقليات شيئا من الحقوق على صفحة الأرض • ان المشكلة التى تواجه الدولة الاسلامية لوجود العناصر غير المسلمة فى نظامها تحلها هذه الدولة بأن تقنع تلك العناصر بما تعطيهم من الضمان بحقوق معينة ، وتمنع تدخلهم فى حل الأمور وعقدها فى نظامها المبدئى على أنها تفتح لهم باب الدخول فى الجماعة الحاكمة اذا رضوا بمبادىء الاسلام وقبلوها • أما الدولة القومية فتحل هذه المشكلة الناشئة من وجود العناصر الأجنبية فى نظامها بتدابير ثلاثة مختلفة : أولها أن تقضى على فردية هذه العناصر بالتدريج حتى تذوب فى الأغلبية ، والثانى : أن تستعمل الطرق الظالمة من القتل والسلب والنفى لمحو وجودهم من بلادها والثالث : أن تنزلهم فى حدودها منزلة المنبوذين ــ هذه هى التدابير الثلاثة التى كثيرا ما تستخدمها الدول القومية الديمقراطية فى العالم ، ولا تزال تستخدمها حتى فى هذه الآونة (٦٨) ••

وما أجدر هذا النظام الذى أقره رب العزة لاقامة مجتمع الاسلام أن يسود ويرتقى ، وأن يسعد به الناس جميعا على اختلاف أجناسهم وألوانهم وأديانهم ، فهو مجتمع محدد المعالم واضح السمات يعرف كيف يتعامل كل فرد فيه مع الآخرين ويعطيهم مالهم من حقوق ويطالبهم بما عليهم من واجبات ،وبهذا التناسب والتناسق بين الحقوق والواجبات يشعر الجميع بأنهم يستمتعون بأنوار القرآن ووحى السماء بما يحمل من خير زاخر للانسانية جمعاء » ••

---

(٦٨) حقوق أهل الذمة فى الدولة الاسلامية لأبى الأعلى المودودى، ص ٤ ، ٥

الفصل الثالث

القرآن وأهل الشرك

١ ــ المشركون والاسلام

٢ ــ علاقة المسلمين بهم

القرآن وأهل الشرك

١ ـ المشركون والاسلام :

في مكان قفر موحش ودع ابراهيم عليه السلام ابنه اسـماعيل وزوجته هاجر وتوجه الى الله بكل قلبه يدعوه :

« رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ * رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَآءِ * ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ * رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ » (١)

وما ان شب اسماعيل وترعرع حتى جاءه أبوه ينفذ أمر الله ويرفع مع اسماعيل القواعد من البيت وقد غمرهما فيض الهي واشراق نوراني فتوجها الى الله بهذا العمل المبارك :

« رَبَّنَآ تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا

---

(١) سورة ابراهيم ٣٧/١٤ ـ ٤٠

مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » (٢)

ذلك المكان هو « مكة » وهذا بيتها الطاهر المبارك :

قال تعالى :

« إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ فِيهِ ءَايَٰتٌ بَيِّنَٰتٌ ـ مَقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ ءَامِناً » (٣)

وجدير بمن عاش حول البيت أن يحمل راية التوحيد وأن يبتعد عن الانحراف فى العقيدة ، وأن يتجنب عثرات الشرك وتفاهاته وما فيه من قتل للمواهب البشرية والمزايا الانسانية ، لكن الأمر كان على عكس ما تتصور فسرعان ما دب دبيب الفساد الى العقول والقلوب ، وسرعان ما نصبت الأنصاب وأقيمت الأحجار حول هذا البيت العظيم ، وسرعان ما سجدت الجباه وتمرغت أمام تلك الحجارة الصماء ، وشاعت عبادة الأصنام فى أنحاء الجزيرة ، فاتخذت كل قبيلة لها صنما تطوف حوله وتسجد له ، بل اتخذ كل من أراد سفرا وبعد عن الحرم من حجارة الحرم ما ينصبه أمامه ليطوف به ويتقرب اليه ..

ولم تنجح اليهودية أو النصرانية فى اجتذاب العرب اليها برغم ما بذل فى سبيل نشرهما من مجهودات ضخمة الا فى أماكن متفرقة من الجزيرة

---

(٢) سورة البقرة ٢/١٢٧ ـ ١٢٩

(٣) سورة آل عمران ٣/٩٦ ، ٩٧

العربية ، وبقيت عبادة الأصنام دينا عاما يستقسم العرب عندها بالأزلام ويقدمون لها النذور ويتوجهون لها بالحاجات ، هذا مع اعتقادهم فـي وجود اله خالق رازق لكنهم عبدوها ـــ كما قالوا ـــ لتقربهم الى الله زلفى.

« وفى هذا الجو الملبد بالشرك وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم يرد الناس الى التوحيد الخالص ، ويدعوهم الى دين الله الواحد ، فهل فرط المشركون فى مواريث الجاهلية ؟ واستجابوا لرسول انتظروه ؟ : «وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من احدى الأمم» ، فقد بلغ قريشا قبل مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أهل الكتاب كذبوا رسلهم فقالوا : لعن الله اليهود والنصارى أتتهم الرسل فكذبوهم فوالله لئن أتانا رسول لنكونن أهدى من احدى الأمم اليهود والنصارى وغيرهم [٤] » ..

وهل سالموا هذا الداعى وتركوه ومن تبعه يدعون الناس الى الهدى ويرشدونهم الى الخير ؟!

لقد وجدوا فى هذه الدعوة خطرا على كل معتقداتهم وأوضاعهم ونظام حياتهم . وجدوها ثورة على الظلم الاجتماعى والتخلف العقلى .. وهدما لكل ما ورثوه من تقديس لآلهتهم وتعظيم لأصنامهم ، وكان من الممكن أن يترك محمد وصحبه لو اقتصر أمرهم على أنفسهم : فقـــد شاع من قبل بزوغ فجر الاسلام التحنف والحنفاء الذين هجروا الشرك وراحوا يبحثون عن الدين الحق ، فمنهم من تنصر ، ومنهم من بقى حائرا الى أن أدركه الاسلام . ومع ذلك لم يلحق هؤلاء الحنفاء الأذى ولـــم يقربهم أحد بسوء ، وانطلقوا يتعبدون كما يشاءون دون خوف أو تضييق أو تنكيل أو تعذيب أو تشريد . لكن القرآن كان غير ذلك ، لقــــد

---

(٤) تفسير ابى السعود جـ ٤ ص ٢٤٦

اختطفت أنواره القلوب وسيطرت على الأرواح ، وما ان انساب الرسول وأصحابه بهذا القرآن حتى وردت اليه الظماء ترتوى من نبعه المصفى ، فرجعت قوية فى ايمانها متينة فى عزيمتها، تهون الجبال ولا تهون، وتضعف الأبطال أمام جبروت الباطل وما تضعف قوى هؤلاء ..

وأرادها المشركون حربا على هذا الخير وقضاء على دعاته ورسله ، وما نجح الاقناع العقلى فى هداية المشركين ، لأن الأمر لم يكن أمر اقتناع أو غير اقتناع ، انما كان جحودا ونكرانا وكبرا على حق واضح مستقيم كما قال القرآن :

« قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَايُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّٰلِمِينَ بِآيَٰتِ اللهِ يَجْحَدُونَ » (٥)

« روى أن الأخنس بن شريق قال لأبى جهل : يا أبا الحكم أخبرنى عن محمد : أصادق هو أم كاذب ؟ فانه ليس عندنا أحد غيرنا ؟ فقال له : والله ان محمدا لصادق وما كذب قط ، ولكن اذا ذهب بنو قصى باللواء والسقاية والحجابة والنبوة فماذا يكون لسائر قريش (٦) » ..

«وروى ابن هشام أن أبا سفيان وأباجهل والأخنس بن شريق خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلى من الليل فى بيته ، فأخذ كل رجل منهم مجلسا يستمع فيه وكل لا يعلم بمكان صاحبه فباتوا يستمعون له حتى اذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فتلاوموا ، وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم فى نفسه شيئا ، ثم انصرفوا وتكرر هذا منهم فى الليلة الثانيــة

---

(٥) سورة الأنعام ٣٣/٦

(٦) تفسير الكشاف للزمخشرى حـ ١ ص ٥٠٢

والليلة الثالثة ، وفى كل مرة يتعاهدون على عدم العودة ، وفى الصباح أخذ الأخنس عصاه ثم خرج حتى جاء أبا سفيان فى بيته فقال له : أخبرنى يا أبا حنظلة ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فقال : يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها . وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها . قال الأخنس : وأنا والله حلفت به كذلك . ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته فقال : يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فقال : ماذا سمعت ؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف فى الشرف : أطعموا فأطعمنا وحملوا فحملنا وأعطوا فأعطينا حتى اذا تحاذينا (جثونا) على الركب وكنا كفرسى رهان قالوا : منا نبى يأتيه الوحى من السماء فمتى ندرك مثل هذه ؟! والله لا نؤمن له أبدا ولا نصدقه . فقام عنه الأخنس وتركه (٧) » ..

ويوضح هذه الحقيقة ما رواه ابن كثير بسنده أنه « قيل لمعاوية أيكم كان أشرف أنتم أم بنو هاشم ؟ قال : كنا أكثر أشرافا ، وكانوا هم أشرف فيهم واحد لم يكن فى بنى عبد مناف مثل هاشم ، فلما هلك كنا أكثر عددا وأكثر أشرافا ، وكان فيهم عبد المطلب لم يكن فينا مثله ، فلما مات صرنا أكثر عددا وأكثر أشرافا ، ولم يكن فيهم واحد كواحدنا ، فلم يكن الا قرار العين حتى قالوا منا نبى فجاء نبى لم يسمع الأولون والآخرون بمثله : محمد صلى الله عليه وسلم .. فمن يدرك هذه الفضيلة وهذا الشرف (٨) ؟؟ » ..

والرسول عليه السلام يسأل أبا سفيان : أقاتلتنى وأنت تعلم أنى رسول الله ؟ قال : علمت أنك صدوق لا تكذب وانما قاتلناك لأنك تعلم

---

(٧) ابن هشام حـ ١ ص ٣٣٧ ، ٣٢٨

(٨) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٨ ص ١٣٨

حالى فى قريش وجئت أمرا لا يبقى معه شرف فقاتلناك حمية وكراهة أن يذهب شرفى ..

لقد حسبوها ملكا وجاها يطلبه محمد لنفسه ويقيمها دنيا ـ يستمتع بها بنو هاشم ـ وحال الحقد والجهل والتعصب بينهم وبين الهداية ، وحجبهم عن نور القرآن . ومضت السنوات تلو السنوات والرسول يجادلهم ويبين ضلالهم وما فى عبادتهم من وأد للعقول ، وقتل لانسانية الانسان ، فلم يزدهم ذلك الا عتوا وضلالا ، ولم يدخل فى دين الله على مدى ثلاثة عشر عاما فى مكة الا أفراد قلائل تحملوا من صنوف الاضطهاد وألوان التعذيب مافاق قدرة البشر وطاقتهم ..

ولقد حاول المشركون أن يغروا محمدا بالمال والجاه فما استجاب لهم ، وما كان له أن يستجيب ! ..

بعثوا له عتبة بن ربيعة فقال : « يا ابن أخى انك منا حيث قد علمت من المكان فى النسب ، وقد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم فاسمع منى أعرض عليك أمورا لعلك تقبل بعضها ، ان كنت تريد بهذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وان كنت تريد تشريفا سودناك علينا فلا نقطع أمرا دونك ، وان كنت تريد ملكا ملكناك علينا ، وان كان هذا الذى يأتيك رئيا (تابعا من الجن) تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى تبرأ . فلما فرغ من قوله تلا محمد عليه السلام عليه سورة « السجدة » وعقبة منصت يستمع الى أحسن القول ويرى أمامه رجلا لا مطمع له فى مال ولا فى تشريف ولا فى ملك ولا هو بالمريض [9] » ..

---

(٩) حياة محمد ـ لهيكل ص ١٥٣

وحاولوا أن يطعنوا فى دعوته فما وجدوا مطعنا الا أن قالوا انـه ساحر مجنون وان ما بين يديه من كتاب الله أساطير الأولين . هذا هـو الوليد بن المغيرة حين سمع من محمد القرآن انطلق الى مجلس قومه بنى مخزوم ليقول : والله لقد سمعت من محمد آنفا كلاما ما هو من كـلام البشر ولا من كلام الجن ، وان له لحلاوة وان عليه لطلاوة ، وان أعلاه لمثمر وان أسفله لمغدق ، وانه يعلو ولا يعلى عليه . ثم انصرف الى منزله فقالت قريش : صبأ ـ والله ـ الوليد . والله لتصبأن قريش كلها فقـام أبو جهل وقال : أنا أكفيكموه فانطلق فقعد الى جنب الوليد حزينا فقال له الوليد : مالى أراك حزينا يا بن أخى . قال : وما يمنعنى ألا أحزن وهذه قريش يجمعون لك نفقة يعينونك بها عـلى كبر سنك ، ويزعمون أنك زينت كلام محمد ، وأنك داخل على ابن أبى كبشة وابن أبى قحافة تسأل من فضل طعامهم . فغضب الوليد وقال: ألم تعلم أنى أكثرهم مالا وولدا، وهل شبع محمد وأصحابه من الطعام فيكون لهم فضل ؟ ثم قام مع أبى جهل حتى أتى مجلس قومه فقال لهم : تزعمون أن محمدا مجنون فهـل رأيتموه يحنق قط ؟ قالوا : اللهم لا . قال : تزعمون أنه كاهن فهل رأيتموه قط تكهن ؟ فقالوا : اللهم لا . قال : تزعمون أنه شاعر فهل رأيتمـوه يتعاطى شعرا قط ؟ قالوا ، اللهم لا . قال : تزعمون أنه كذاب فهل جربتم عليه شيئا من الكذب ؟ قالوا : اللهم لا . فقالت قريش للوليد فما هو ؟ فتفكر فى نفسه وقدر ما أسر وقال :

« إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ » (١٠)

وأرادوا اعناته واحراجه فطالبوه بالمعجزات ..

(١٠) الفتوحات الالهية للعلامة الجمل جـ ٤ ص ٤٣٩ والآيات من سورة المدثر ٢٤/٧٤ ، ٢٥

« وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعاً * أَوْتَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيراً * أَوْتُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا * أَوْيَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْتَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰباً نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَراً رَّسُولاً » (١١)

وما هكذا يكون من أراد الحقيقة وتشوق الى معرفتها ، انما هو التحدى لهذه الدعوة وحامل لوائها « فان الله تعالى قد أعطى النبى صلى الله عليه وسلم من الآيات والمعجزات ما يغنى عن هذا كله مثل القرآن وانشقاق القمر ونبع الماء من بين أصابعه وما أشبهها من الآيات وليست بدون ما اقترحوه ، بل هو أعظم مما اقترحوه والقوم عامتهم كانوا متعنتين ، ولم يكن قصدهم طلب الدليل ليؤمنوا فرد الله عليهم سؤالهم » (١٢) ..

ولما لم تجد هذه الحملة الكاذبة وما تبعها من الأذى والتخويف ، وما فيها من اغراء تارة واضطهاد تارة أخرى اتفقوا على مقاطعة بنى هاشم وبنى المطلب فلا يتزوجون منهم ولا يزوجونهم ولا يبيعونهم شيئا ولا يبتاعون منهم ، وكتبوا بذلك صحيفة علقوها فى جوف الكعبة وانحاز بنو هاشم وبنو المطلب وأتباع محمد فى شعب أبى طالب ثلاث سنين يعانون

(١١) سورة الاسراء ١٧/٩٠ ــ ٩٣

(١٢) الفتوحات الالهية جـ ٢ ص ٦٤٩ .

الجوع والألم ، الى أن ثارت على هذه الصحيفة قلوب رحيمة أزعجها هذا الجور فهبت تطالب بتمزيقها فوجدوها قد أكلتها الأرضة ولم يبق الا فاتحتها : « باسمك اللهم » ، فخرج الرسول وصحبه من هذا الحصار ولم يزدهم ذلك الا استمساكا بالحق وتقديسا له ، وما حال هذا دون انتشار الدعوة بين العرب وقبائلها ، وقد خرج اليها رسول الله فى أثناء الحصار وبعده يدعوها الى الله . وبرغم ما بذلته قريش فى مواسم الحج من دعاية قصد بها تشويه جمال الرسالة واظهار الرسول بمظهر المفرق للجماعات ، الداعى للعداوات فانها لم تفلح فى ذلك ..

قدم الطفيل بن عمرو الدوسى الى مكة وكان رجلا شريفا لبيبا ، فمشت اليه قريش تحذره محمدا وأن قوله كالسحر يفرق بين المرء وأهله بل بين المرء ونفسه وأنهم يخشون عليه وعلى قومه مثل ما أصابهم بمكة ، وأن الخير فى ألا يكلمه ولا يستمع اليه . وذهب الطفيل يوما الى الكعبة وكان محمد هناك فسمع بعض قوله فاذا هو كلام حسن فقال فى نفسه : « واثكل أمى ! والله انى لرجل لبيب شاعر ما يخفى على الحسن من القبيح فما يمنعنى أن أسمع من هذا الرجل ما يقول فان كان حسنا قبلته وان كان قبيحا تركته ، واتبع محمدا الى بيته وأظهره على أمره وما دار بنفسه فعرض محمد عليه الاسلام وتلا عليه القرآن فأسلم وشهد شهادة الحق ورجع الى قومه يدعوهم الى الاسلام ، فلبى بعضهم وأبطأ بعض وما زال الطفيل بهم يدعوهم سنين متعاقبة حتى أسلم أكثرهم وانضموا الى النبى بعد فتح مكة [١٣] » ..

وما مر يوم الا زاد هذا الدين انتشارا وزاد المشركون له عنادا حتى كانت آخر مؤامرتهم التى لم يجدوا أمامهم غيرها ، وذلك حين اجتمعوا

---

(١٣) حياة محمد / لهيكل ص ١٧٢

يريدون قتل رسول الله مما اضطره الى ترك هذه البيئة الموبوءة والأرض التى لم تنبت فيها شجرة الدعوة ، وخرج مهاجرا الى يثرب يقيم فيها مع أنصار الله دولة الايمان ، ويبنى مجتمع الاسلام بعيدا عن أحقاد المشركين وسلطانهم ..

٢ ـ علاقة المسلمين بهم :

وفى المدينة كان للمسلمين مجتمعهم وكيانهم .. ومن حول المدينة فى أنحاء الجزيرة يبسط الشرك نفوذه ويمد سلطانه ، والمسلمون فى مدينتهم قلة أمام قوى الكفر والطغيان . الا أن هذه القلة أكسبتها المحن والأيام قوة وزادها الايمان زادا وأعطاها القرآن نورا تبدد به ظلمات الشدائد وتستعين به على عقبات الطريق . وهذه القلة تزيد فى كل يوم ويرتفع ذكرها فى كل مكان ، وليس من المنتظر أن يهادنها المشركون ويتركونها تنمو وتزيد ، ولذا كانت موقعة بدر فى العام الثانى من الهجرة وبدا فيها أنه لا مهادنة بين القوتين ، وظهر أن المشركين مصممون على ابادة هذه الجماعة المؤمنة ، لقد وقف أبو جهل بعد أن علم أن تجارة قريش نجت ـ متحديا قوة القدر ومستهترا بتدبير الله ، فقد قال : والله لا نرجع حتى نرد بدرا فنقيم ثلاثا ننحر الجزر ونطعم الطعام ونسقى الخمر وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا ، فلا يزالون يهابوننا أبدا ، فدارت عليه الدائرة ونزلت بجيشه الهزيمة وحق نصر الله للمؤمنين.

قال تعالى :

« وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ *

بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ * وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ * لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ » (١٤)

وكانت موقعة أحد .. وفيها تلقى المسلمون درسا لم ينسوه حين ترك الرماة مواقعهم ، فباغتهم المشركون وحاقت بالمسلمين الهزيمة ، وقتل منهم من قتل ومحص الله الصف الاسلامى بهذه الموقعة ، فظهر أهل الايمان بايمانهم وأهل النفاق والكفر بنفاقهم وكفرهم ..

وغزوة « الأحزاب » وما فيها من شدة المكيدة والحقد على المؤمنين دليل على هذا العداء ، فقد خرجت الجموع من كل قبيلة بتدبير اليهود وتحريضهم — كما مر فى موقف اليهود من الاسلام — ولولا أن حمى الله عباده وحفظ رسوله لأطبق هؤلاء الحاقدون على الاسلام وأهله ولضاعت رسالة الاسلام ..

وهكذا « كانت العداوة سافرة بين المسلمين ومشركى قريش لا يكتمها المشركون ولا يواربون فيها ولا يخفون أنهم عقدوا النية على الايقاع بمحمد وأصحابه ، وفض العرب من حوله وايذاء كل من يدخل منهم دينه. فلم تكن بين المسلمين والمشركين حالة غير حالة الحرب الا فى أيام صلح « الحديبية » ثم عادت الحرب سجالا بين الفريقين حتى تم فتح مكة

---

(١٤) سورة آل عمران ٣/١٢٣ — ١٢٧

واتنقلت الحرب من قتال سافر بين المشركين والمسلمين الى قتال بالدس والمكيدة بين هؤلاء وزمرة المنافقين (١٥) » ..

أما سائر العرب فقد وقفوا ينتظرون ما تكون النتيجة بين محمد وقومه . وفى هذا الانتظار كان الرسول يهادن منهم من مال الى المسالمة، ويفاجىء بالاغارة من حدثته نفسه أن يعتدى على المسلمين ولم يخرج عن هذه الحدود الواضحة ولم يترك فرصة لعدوه يستعد فيها ، انما كان يباغته بالهجوم لا ليجبره على اعتناق الاسلام ، وانما ليكسر فيه سلاح العداوة والبغضاء ، وينتزع منه القوة فيضطر الى المهادنة والقاء السلاح.

وهذا تاريخ الغزوات شاهد بذلك . يلخص الأستاذ أحمد زكى حروب المسلمين بعد بدر واخراج بنى قينقاع ، فيبدأ ببنى غطفان ، ولم يخرج المسلمون لقتالهم الا بعد أن علموا أن بنى ثعلبة ومحارب من غطفان تجمعوا برئاسة دعثور المحاربى للاغارة على المدينة ، ثم سرية عاصم بن ثابت الأنصارى وكانوا مع رهط عضل والقارة الذين خانوهم ودلوا عليهم هذيلا قوم سفيان بن خالد الهذلى الذى قتله عبد الله بن أنيس ثم سرية المنذر بن عمرو وهم سبعون رجلا يسمون القراء أخذهم عامر بن مالك ملاعب الأسنة لطمعه فى هداية قومه وايمانهم ، فلم يرع قومه جواره وقتلوا القراء ، ثم غزوة بنى النضير من يهود المدينة وذلك لنقضهم العهد والقائهم صخرة على النبى صلى الله عليه وسلم لما كان فى ديارهم (١٦) ، ثم غزوة دومة الجندل ولم يخرج المسلمون لقتالهم الا لما علموا أن فى ذلك المكان أعرابا يقطعون الطريق على المارة ويريدون الاغارة على المدينة ، ثم غزوة بنى المصطلق وهؤلاء ممن ساعدوا المشركين فى

---

(١٥) حقائق الاسلام وأباطيل خصومه العقاد ص ٢١٢ ، ٢١٣

(١٦) الأولى أن يقال : وهمهم بالقاء صخرة على النبى صلى الله عليه وسلم

أحد ولم يكتفوا بذلك ، بل أرادوا جمع الجموع للاغارة على المدينة ، ثم غزوة الخندق الذين حاصروا المدينة ، ثم غزوة بنى قريظة من يهود المدينة لنقضهم العهد واجتماعهم مع الأحزاب ، ثم غزوة بنى لحيان لقتلهم عاصم ابن ثابت واخوانهم الذين حزن عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم غزوة الغابة لاغارة عيينة بن حصن فى الأربعين راكبا على لقاح للنبى صلى الله عليه وسلم كانت ترعى الغابة ، ثم سرية محمد بن مسلمة الى « القصة » لما بلغ المسلمين أن بذلك الموضع ناسا يريدون الاغارة على نعم المسلمين التى ترعى بالهيفاء ، ثم سرية زيد بن حارثة لمعاكسة بنى سليم الذين كانوا من الأحزاب يوم الخندق ، ثم سرية زيد ـ كذلك ـ للاغارة على بنى فزارة الذين تعرضوا له ، ثم سرية عمر بن الخطاب لما بلغ المسلمين من أن جمع هوزان يظهرون العداوة للمسلمين ، ثم سرية بشير بن سعد لما بلغهم من أن عيينة بن حصن واعد جماعة من غطفان مقيمين بقرب خيبر للاغارة على المدينة ، ثم سرية غالب الليثى ليقتص من بنى مرة ـ بفدك ـ لأنهم أصابوا سرية بشير بن سعد ، ثم غزوة مؤتة وكانت لتعرض شرحبيل بن عمرو الغسانى للحارث بن عمير الأزدى رسول النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى أمير بصرى بحمل كتابا وقتله اياه ، ولم يقتل للنبى صلى الله عليه وسلم رسول غيره حتى وجد لذلك وجدا شديدا ، ثم سرية عمرو بن العاص لما بلغه من أن جماعة من قضاعة يتجمعون فى ديارهم وراء وادى القرى للاغارة على المدينة ، ثم سرية على ابن أبى طالب لما بلغهم من أن بنى سعد بن بكر يجمعون الجموع لمساعدة يهود خيبر على حرب المسلمين ، ثم غزوة خيبر لأن أهلها كانوا أعظم محرض للأحزاب ، ثم سرية عبد الله بن رواحة لما بلغهم من أن «باين رزام» رئيس اليهود يسعى فى تحريض العرب على قتال المسلمين ، ثم سرية عمرو

ابن أمية الضمرى لقتل أبى سفيان جزاء ارساله من يقتل النبى عليه الصلاة والسلام غدرا (١٧) ..

ولقد كان لسقوط معقل الوثنية وتسليم أهل مكة للجيش المنتصر ودخولها فى دين الله أثره فى تلك القبائل التى وقفت متحفزة للهجوم ، مستعدة للانقضاض والتى جربت قوة الاسلام وثبات المسلمين ، فاذا بالمسلمين صخرة صلبة لا تلين لذا سارعت أكثر القبائل بالطاعة وانضوت تحت لواء الدين الحنيف وخاصة بعد هزيمة هوزان وثقيف ، وبعد أن أرهب المسلمون جيوش الروم فى تبوك وأظهروا قوة الاسلام فى كل مكان، وجاء العام التاسع وخرج أبو بكر يحج بالناس وحول البيت الذى تحطمت الأصنام من حوله اجتمع المؤمنون والمشركون : للمؤمنين شعائرهم وللمشركين عاداتهم وقبائحهم وضلالهم . ومثل هذا التناقض يأباه الاسلام ولا بد أن يضع له حدا بعد أن علت راية الايمان ، لذلك كان لابد أن يمنع المشركين من دخول بيت الله الحرام ، وأن يعلن عليهم الحرب الدائمة حتى يستسلموا لأمر الله ، اذ لا يؤمن لهم جانب ولا يبقى لهم عهد . «فلقد ثابر الرسول على الوفاء فى جميع عهوده وثابر أهل الجزيرة من المشركين واليهود على الغدر بكل عهد من تلك العهود وعقدوا النية سرا وجهرا على اعنات المسلمين واخراجهم من ديارهم لا يحرمون حراما فى مهادنتهم ولا فى مسالمتهم ، ولا يزالون يؤلبون عليهم الأعداء من داخل الجزيرة وخارجها، وأصروا على ذلك مرة بعد مرة حتى أصبحت معاهدتهم عبثا لا يفيد ولا يغنى عن القتال فترة الا ردهم اليه بعد قليل ، ووضح من تشدد القوم واصرارهم عليه أنهم لا يهادنون الا ليتوفروا على جمع العدة وتأليب العدو من الخصوم والأحلاف ،فبطلت حكمة الدعوة الى العهد ولم يبق للمسلمين من سبيل الى الأمان معهم الا أن يخرجوهم من حيث أرادوا أن يخرجوا

---

(١٧) حقائق الاسلام وأباطيل خصومه للعقاد ص ٢١٣ ، ٢١٤

المسلمين ولا يبقوا أحدا غير مسلم فى تلك الجزيرة التى أبت أن تكون وطنا للمشركين وأحلافهم دون سواهم ، فانتهت حكمة التخيير بين المعاهـدة والقتال ، ووجب الخيار بين أمرين لا ثالث لهما وهما الجوار على الاسلام أو على الخضوع لحكمه، فلا جوار فى الجزيرة لأحدمن المشركين وأحلافهم من اليهود الا أن يدين بالاسلام أو الطاعة (١٨) » ..

ولهذا أرسل النبى عليه السلام على بن أبى طالب ليلحق بأبى بكر فى موسم الحج ويبلغ الناس بما أنزل الله على رسوله من سورة « التوبة » ــ فلما اجتمع الناس « بمنى » يؤدون مناسك الحج وقف على والى جانبه أبو هريرة فنادى على فى الناس يتلو قول الله تعالى :

« بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * فَسِيحُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَـٰفِرِينَ * وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ »

واستمر يتلو الى قوله تعالى :

« وَقَـٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ » (١٩)

(١٨) حقائق الاسلام وأباطيل خصومه للعقاد ص ٢٢٧
(١٩) سورة براءة ٩/ الآيات من أول السورة ــ الى الآية ٣٦ .

فلما أتم تلاوتها وقف هنيهة ثم صاح بالناس : أيها الناس انه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عند رسول الله عهد فهو الى مدته • وبسورة « براءة » تحـــدد الموقف الأخير والنهائى فى صلات المسلمين بالمشركين ، وهو موقف يتفق مع منهج القرآن فى مسايرته لطبيعة المجتمع الناشىء وتحديده لعلاقة هذا المجتمع بغيره من المجتمعات ، وبعد أن ثبتت أركانه واستقرت دعائمه وأخذ وضعه اللائق به فى الحياة ••

وعلاقة المسلمين بمشركي الجزيرة ـ كما قالت ســـورة التوبة : «وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة» • فهى المعاملة بالمثل ، وحرب دائمة بدأها المشركون وأعلنوها على الاسلام فى كل مكان ، ولابد مـــن اطفائها واجبارهم على التسليم • ولما علم المشركون ذلك لم يبق هناك مجال للتباطؤ ، فاذا بهم يتوافدون على المدينة تعلن وفودهم انضمامهـــا الى دين الله • وما أتى العام العاشر من الهجرة حتى خـــرج النبى عليه السلام بجمع زاخر بلغ تسعين ألفا وقيل أربعة عشر ومائة ألف الى مكة يؤدى فريضة الحج ويعلم الناس مناسكهم ويعلن عـــلى الملأ المبادىء الرئيسية التى جاء بها هذا الدين ، وهناك أعلن ما أوحى به الله من اكمال الدين واتمام النعمة وتبليغ الرسالة :

« الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً »[٢٠]

فهل معنى ذلك أن المشركين لا تقبل منهم الجزية ، وأن علاقـــة المسلمين بهم هى الحرب الدائمة لاجبارهم على الاسلام ؟ وهل فى ذلك

(٢٠) سورة المائدة ٥/٣ .

اكراه على الدين ؟ ألا يتنافى ذلك مع مبدأ الاسلام فى اعطاء الانسان حرية التدين ؟

لقد اختلف الفقهاء فى المشركين : هل تقبل منهم الجزية أولا ؟

«فقال قوم تؤخذ الجزية من كل مشرك ، وبه قال مالك ، وقوم استثنوا من ذلك مشركى العرب • وقال الشافعى وأبو ثور لا تؤخذ الا من أهل الكتاب والمجوس • والسبب فى اختلافهم معارضة العموم للخصوص ، أما العموم فقوله تعالى : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله » وقوله عليه السلام : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله فاذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم الا بحقها وحسابهم على الله » • وأما الخصوص فقوله لأمراء السرايا الذين كان يبعثهم الى مشركى العرب ومعلوم أنهم كانوا غير أهل الكتاب : فاذا لقيت عدوك فادعهم الى ثلاث خصال • فذكر الجزية فيها •• فمن رأى أن العموم اذا تأخر عن الخصوص فهو ناسخ له قال : لا تقبل الجزية من مشرك ما عدا أهل الكتاب لأن الآية الآمرة بقتالهم على العموم هى متأخرة عن ذلك الحديث ، وذلك أن الأمر بقتال المشركين عامة هو فى سورة « براءة » وذلك عام الفتح ، وذلك الحديث انما هو قبل الفتح بدليل دعائهم فيه للهجرة [٢١] » ومن رأى أن العموم يبنى على الخصوص تقدم

---

(٢١) ذكر ابن رشد هذا الحديث فى الفصل الرابع : فى شرط الحرب ص ٣٩٧ ونصه : كان صلى الله عليه وسلم اذا بعث سرية قال لأميرها : اذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم الى ثلاث خصال أو خلال فأيتهن ما أجابوك اليها فاقبل منهم وكف عنهم : ادعهم الى الاسلام فان أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ثم ادعهم الى التحول من دارهم الى دار المهاجرين وأعلمهم انهم ان فعلوا ذلك ان لهم ما للمهاجرين وأن عليهم ما على المهاجرين فان أبو واختاروا دارهم فاعلمهم انهم يكونون كأعراب المسلمين يجرى عليهم حكم الله الذى يجرى على المؤمنين ولا يكون لهم فى الفىء والغنيمة نصيب الا أن يجاهدوا مع المسلمين فان هم أبو فادعهم الى اعطاء الجزية فان أجابوا فاقبل منهم وكف عنهم فان أبو فاستعن بالله وقاتلهم ! •

أو تأخر أو جهل التقدم والتأخر بينهما قال: تقبل الجزية من جميع المشركين وأما تخصيص أهل الكتاب بين سائر المشركين فخرج من ذلك العموم باتفاق بخصوص قوله تعالى : « من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجـزية عن يد وهم صاغرون (٢٢) » ..

ومن رأى أن الجزية تؤخذ من كل كافر مشرك أو غير مشرك لا فرق فى ذلك بين الجزيرة العربية وغيرها قال : « انه ــ عليه السلام ــ لم يأخذها من مشركى العرب لأنها انما نزل فرضها بعد أن أسـلمت دارة العرب ولم يبق فيها مشرك فانها نزلت بعد فتح مكة ودخول العرب فى دين الله أفواجا فلم يبق بأرض العرب مشرك ، ولهذا غزا بعد الفتح تبوك ، وكانوا نصارى ، ولو كان بأرض العرب مشركون لكانوا يلونه وكانوا أولى بالغزو من الأبعدين . ومن تأمل السير وأيام الاسلام علم أن الأمر كذلك فلم تؤخذ منهم الجزية لعدم من يؤخذ منه ، لا لأنهم ليسوا من أهلها قالوا : وقد أخذها من المجوس وليسوا بأهل كتاب ولا يصح أنه كان لهم كتاب ورفع وهو حديث لا يثبت مثله ولا يصح سنده ولا فرق بين عباد النار وعباد الأصنام ، بل أهل الأوثان أقرب حالا من عباد النار وكان فيهم من التمسك بدين ابراهيم ما لم يكن فى عباد النار ، بل عباد النار أعداء ابراهيم الخليل فاذا أخذت منهم الجزية فأخذها من عباد الأصنام أولى ، وعلى ذلك تدل سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم كما ثبت عنه فى صحيح مسلم أنه قال : اذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم الى احدى خلال ثلاث فأيتهن أجابوك اليها فاقبل منهم وكـف عنهم ، ثم أمره أن يدعوهم الى الاسلام أو الجزية أو يقاتلهم . وقال المغيرة لعامل كسرى : أمرنا نبينا أن نقاتلكم حتى تعبدوا الله أو تؤدوا الجزية . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقريش : هل لكم فى كلمة

---

(٢٢) بداية المجتهد ونهاية المقتصد لابن رشد جـ ١ ص ٣٩٩ ، ٤٠٠

تدين لكم بها العرب وتؤدى العجم اليكم بها الجزية ؟ قالوا : ما هى : قال : لا اله الا الله (٢٣) ..

فاذا ما رجعنا الى حقيقة هذا الخلاف فى أخذ الجزية من المشركين وهل تؤخذ منهم جميعا أو ترفض من كل مشرك أو لا تقبل من مشركى العرب دون العجم ــ كما قال أبو حنيفة ــ لوجدنا أن الرأى الأخير أقرب الى الصواب وأن الاسلام حين أعلن حربه للشرك فى الجزيرة لم يكن متجنيا على المشركين ، فالشرك الذى كان موجودا حين قام محمد عليه السلام بالدعوة الى دين الحق لم يكن يمثل عبادة الأصنام وكفى ، ولو أنه كان كذلك لوجبت محاربته : فمن الازدراء للعقل الانسانى وللكرامة الانسانية أن يعبد الانسان حجرا لكن هذا الشرك كان يمثل مجموعة من التقاليد والعقائد والعادات ، بل كان يمثل نظاما اجتماعيا هو شر من الرق وشر من البلشفية وشر من كل ما يتصور العقل فى هذا القرن المتمم للعشرين . كان يمثل وأد البنات وتعدد الزوجات الى غير حد حتى يحل للرجل أنه يتزوج ثلاثين أو أربعين ومائة وثلاثمائة امرأة أو أكثر من ذلك ، وكان يمثل الربا فى أفحش ما يستطيع الانسان أن يتصور الربا ، وكان يمثل الاباحة الخلقية فى أسفل صورها ، وكانت جماعة الوثنيين العرب شر جماعة أخرجت للناس . ونود من كل منصف أن يجيب عن هذا السؤال : لو أن جماعة من الناس وضعت لنفسها اليوم نظاما فيه من العقائد والعادات : وأد البنات وتعدد الزوجات واباحة الرق لسبب أو لغير سبب ، واستغلال الأموال استغلالا فاحشا ، ثم قامت ثورة على ذلك كله تحاول تحطيمه والقضاء عليه أتتهم هذه الثورة بالتعصب وبالعمل ضد حرية الرأى ؟؟ واذا افترضنا أن أمة اطمأنت الى هذا النظام المنحط ، وأوشكت العدوى أن تنتقل منها الى غيرها من الدول فآذتها هذه الدول بحرب أتكون هذه الحرب مسوغة أم غير

---

(٢٣) زاد المعاد لابن القيم الجوزيه جـ ٢ ص ٨٠ .

مسوغة ؟؟ وهناك حقيقة تاريخية أخرى مستمدة من حياة الرسول ، فهو قد أنفق منذ بعثه الله برسالته ثلاث عشرة سنة حسوما يدعو الناس فيها الى دين الله بالحجة ، ويجادلهم بالتى هى أحسن ، وهو فيما قام بـه من غزوات لم يكن معتديا قط ، وانما كان مدافعا عن المسلمين دائما مدافعا عن حريتهم فى الدعوة الى دينهم الذى يؤمنون به ويضحون بحياتهم فى سبيله ، وهذه الدعوة القوية غاية القوة الى قتال المشركين على أنهم نجس وأنهم لا عهد لهم ولا ميثاق ، وأنهم لا يرعون فى مؤمن الا ولا ذمة ، انما نزلت بعد آخر غزوة غزاها النبى « غزوة تبوك » ، فاذا حل الاسلام ببلاد تفشى فيها الشرك وحاول أن يقيم فيها هـذا النظام الاجتماعى والاقتصادى الهدام الذى كان قائما فى شبه الجزيرة ، حين بعث النبى فدعا المسلمون أهليها الى ترك هذا النظام والى الأخذ بما أحل الله وتحريم ما حرم الله فلم يذعنوا ــ فليس من منصف الا أن يقول بالثورة عليهم ويقاتلهم حتى تتم كلمة الحق وحتى يكون الدين كله لله (٢٤) » .

واذا كان هذا شأن مشركى العرب وأن الجزية لا تقبل منهم أبدا ، وأن ليس لهم الا الاسلام أو القتال ، فان لغيرهم البقاء على دينهم اذا ما أدوا الجزية ، وأنه لا يمكن للاسلام أن يحارب فريقا لأنه من أهل الشرك ويترك آخر لأنه من أهل الكتاب أو المجوس فهذا مالا يتصوره العقل ، انما يهاجم الاسلام معاقل الكفر على اختلاف مللها ونحلها ، فان طلبت الأمان ودانت بالدين الحق قبل منها ذلك ، وان أبت طالبها بالجزية لا فرق فى ذلك بين مشرك وكتابى والا فهى الحرب الدائمة حتى يهدم تلك المعاقل وحتى يستطيع المنهج القرآنى أن يقر أسلوبه الربانى فى واقع

---

(٢٤) حياة محمد : لهيكل ص ٤٧٧ ، ٤٧٨

البشرية ، كما أراد الله لها فى ظلال السلام •• ومنهج القرآن فى تحديد علاقته على هذا الوجه مع المشركين داخل الجزيرة وخارجها ، انما يمثل طبيعة هذا المنهج فى نظرته الى واقع الانسانية وتعامله مع هذا الواقع بما يناسبه من حرية الحركة ومرونة التطبيق وقوة التنفيذ ، فهو ليس نظرية تدرس انما هو منهج تقوم به الحياة فتسعد تلك الحياة وترقى ••



خـــاتمـة

مقارنة بين :

منهج القرآن فى تربية المجتمع والنظريات التربوية الحديثة
مع العناية بابراز أهم النتائج التى وصـــل اليها البحث

١ ــ ماذا نقصد بالنظريات التربوية الحديثة ؟

٢ ــ مقارنـــات :

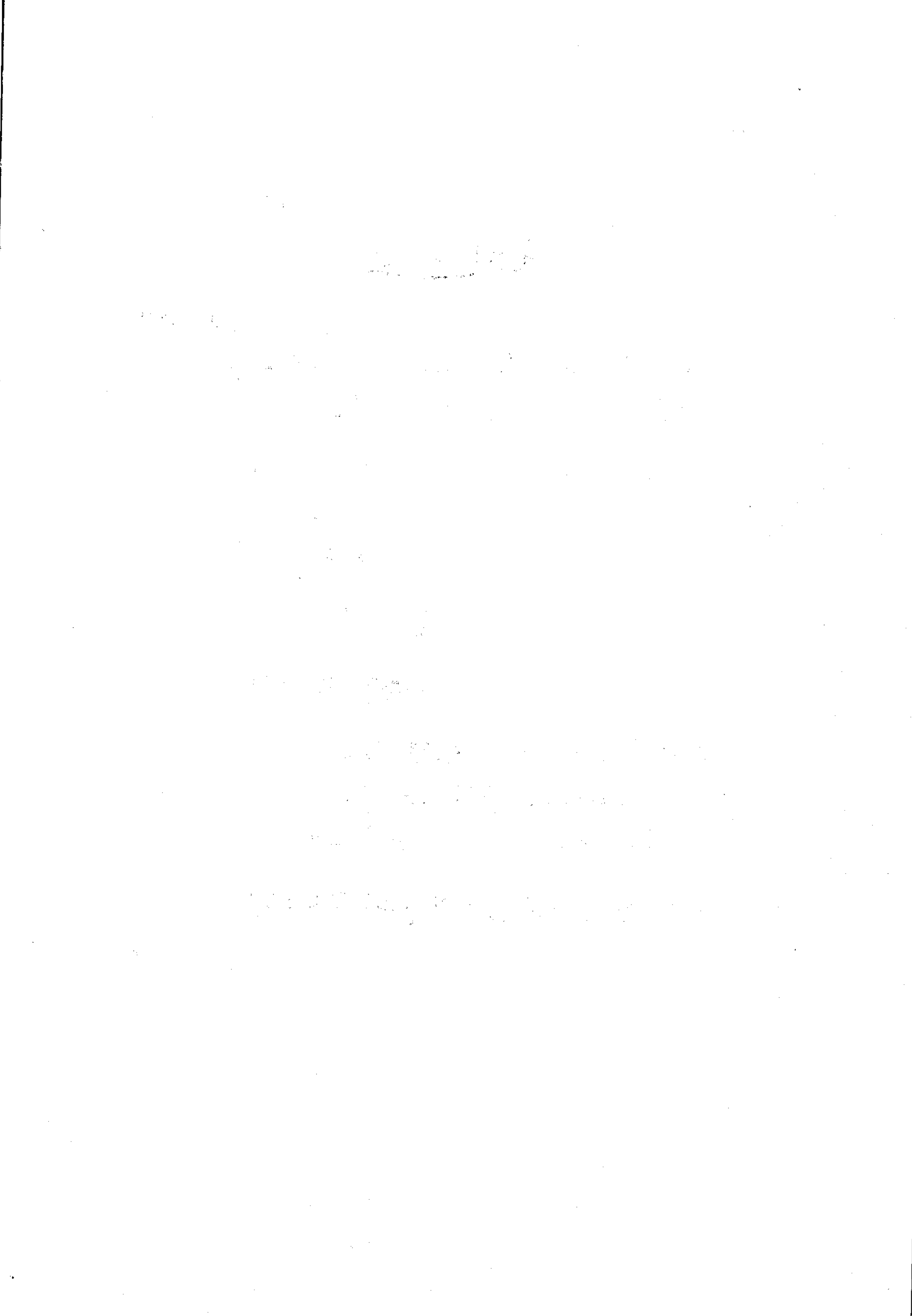
أولا : العقيدة

ثانيا : التربية الأخلاقية

ثالثا : البناء الاجتماعى

١ ــ نظام الأسرة ٢ ــ التكافل الاجتماعى
٣ ــ المعاملات المالية ٤ ــ الحـــرية
٥ ــ المساواة ٦ ــ نظام الحكم

رابعا : علاقة المجتمع الاسلامى بغيره من المجتمعات ...



١ ـ ماذا نقصد بالنظريات التربوية الحديثة ؟؟

لكل تجمع بشرى أساس يقوم عليه وفكر يحرك أفراده ، وماوجدت جماعة بشرية دون ايمان : حقا أو باطلا ، بشريا أو الهيا ، وعلى هذا الايمان الذى تدين به تلك الجماعة يكون حظها من الحياة السعيدة ونظرتها الى الطريقة التى تنظم بها أمور معاشها وتسوس بها أفراد مجتمعها ـ كما يكون هذا الايمان أساسا للعلاقات الدولية التى تتعامل بها مع غيرها من أمم الأرض ..

والفلاسفة والمصلحون فى كل عصر وجيل يزعجهم فساد النظام البشرى وما يترتب عليه من تعاسة الفرد وهلاك المجتمع ، فيحاولون انقاذ الانسانية المعذبة بما يقدمونه لها من وسائل الاصلاح وطرق العلاج ، وأملا فى تأمينها من الخطر وردها الى الطريق الصحيح ..

ولقد اختلفت هذه الوسائل وتباينت تلك الطرق ، ولكن هدفها واحد هو ضمان الحياة الرغدة للانسان ..

فيرى البعض أن الحياة السعيدة تتم فى أحضان الدين ، وقد نادى بهذا الغزالى وكومنيوس • ويترك البعض الآخر الدين وشأنه ، فالحياة السعيدة عند الرومان ـ مثلا ـ تتمثل فى القدرة على الخطابة والبيان • ويهتم « روسو » بالفرد فى جميع مراحل نموه ويهدف فى تربيته الى أن يستشعر الفرد هدوءا وسلاما داخليين • ويطلع عدد من المربين بآراء قوامها أن الاهتمام بالفرد ضرورى ، ولكن هذا الفرد يحيا وسط جماعة ولذلك ترى « لوك » يضع سعادة وهناء الجماعة هدفا لكل تربية ، ويفهم السعادة على ضوء ما يحسه الأفراد من لذة فى طاعتهم للقوانين الطبيعية والوضعية • ويجد الفرد راحة وسعادة فى كنف مجتمع فيه قوانين تحميه وتمنحه الحرية والعدالة ..

ويرى « ديوى » اهتماما بالفردية فى مجتمع ـ يتيح لكل الأفراد فرصا للنمو السليم المثمر ، مجتمع يتميز بأنه ديمقراطى لا طبقى .. وفى مثل هذا المجتمع يمكن للفردية أن تزدهر ..

وثمة مجموعة أخرى من الفلاسفة يتزعمها أفلاطون تؤمن : بأن التربية تهدف الى تكوين أفراد يصنعون المجتمع العادل ، ولذلك فيعامل كل فرد على حسب امكانياته وبحيث تستغل قدرات كل لتكوين النظام الاجتماعى المثالى . وقد ارتبطت أهداف التربية بآراء الفلاسفة عن الطبيعة البشرية فمن الفلاسفة من يؤمن بالطبيعة الشريرة المتأصلة عند الفرد ، وقد يستطيع أن يتخلص منها بالمعرفة والعبادة وممارسة الفضائل ، ومنهم من يرى الخير فى طبيعة الانسان وأن الشر يأتيه من العالم الخارجى ، وثمة فريق ثالث يؤمن بأن الفرد يولد ولديه الاستعداد للخير وللشر حسبما تعرض له من مثيرات تأتيه من حوله [1] ..

ولقد اتجهت أوربا بعد انتشار وازدهار التجارة فيما بعد القرن العاشر لاكتشاف مباهج الحياة الدنيوية ، وأطلقوا على هذا الاتجاه الذى حرر طاقاتهم اسم «الانسانية» وكان الداعية له « ايرازمس » الذى قال : أن الوظيفة الأولى للتربية هى أن تتشرب الروح بالتقوى والورع ، الوظيفة الثانية أن يحب الفرد ويتعلم الدراسات الحرة ، والثالثة أن يعرف واجبات الحياة ، أما الوظيفة الرابعة فهى تعويد الفرد منذ طفولته العادات الخلقية السليمة ويظهر من رأى « ايرازمس » تزاوجا بين الأهداف الأغريقية والرومانية والمسيحية واستمرارا لشريعة الفرسان ..

ثم كانت محاولات كثيرة لصبغ الاتجاه الانسانى بالواقعية ، ودعا « مونتين » الى الاكثار من الترحال والاتصالات الاجتماعية . أما

---

(١) تطور الفكر التربوى د. سعد مرسى احمد ص ٥٥٦ ، ٥٥٧

الانجليزى « بيكون » والمورافى « كومنيوس » فقد بثا حيوية واقعية فى الأهداف التربوية باهتمامهما الشديد بدراسة العلوم كمرشد عملى للحياة ، بل انهما قادا الدعوة بأن يكون هدف التربية تمكين الفرد من المعرفة والحكمة ، وفى رأيهما أن العلم لن يقدم المعرفة مبسطة فقط ولكنه العصا السحرية التى ستيسر المعرفة لكل فرد(٢) ..

ويلخص « كوندورسيه » هدف التربية بأنه تنمية للقوى الجسمية والعقلية والخلقية بما يسهم فى التقدم العام والتدريجى للجنس البشرى . ولم يؤمن « روسو » بأن الدولة قادرة على تحقيق هذه الأهداف ، وآمن بأنه اذا كان الاصلاح الاجتماعى هدف التربية فيجب أن يتم ذلك على أساس فردى لا اجتماعى . ونظم « سبنسر » الأهداف التربوية حول الحياة الكاملة على حسب قيمتها الحيوية بالنسبة للفرد والمجتمع ، ورأى أن تهدف التربية أولا الى تعليم الفرد كيف يحفظ نفسه ، وثانيا كيف يحصل على معاشه ، وثالثا كيف يربى صغاره ، ورابعا كيف يعيش اجتماعيا ومؤديا واجباته السياسية ، وخامسا كيف يستمتع بالأدب والفن وما الى ذلك (٣) » ..

وهذه النظريات التربوية تهدف الى ايجاد الوسيلة التى تنشىء بها الانسان المثالى وان اختلفت الأساليب والطرق وهذا — بلا شك — جزء من بحثنا الذى يهدف الى بيان منهج القرآن فى تربية المجتمع ، وما المجتمع الا لبنات ان صلحت صلح البناء كله وان فسدت هدم البناء كله . لكننا لا نستطيع أن نعرض هذه النظريات عرضا تفصيليا لنقارنها بالمنهج القرآنى فهذا — وحده — يحتاج الى عدة بحوث ، ومع ذلك فلن نعدم الفائدة اذ سوف نقارن بين منهجنا الالهى وأقصى ما وصلت اليه

---

(٢) المرجع السابق ص ٥٥٨ ، ٥٩٢ ، ٥٩٣

(٣) المرجع السابق ص ٥٥٨ ، ٥٩٢ ، ٥٩٣

النظريات التربوية الحديثة فى اقامة المجتمعات وتربيتها ، وذلك بما تمخضت عنه من ايجاد نظامين عالميين : الرأسمالى فى الغرب ، والشيوعى فى الشرق، وما تدين به هذه المجتمعات من نظريات فى عالم العقيدة والأخلاق ، وما يسودها من فكر يحكم حياتها فى نظام الأسرة والتكافل الاجتماعى والنظم الاقتصادية وفهمها للحرية والمساواة ونظام الحكم والعلاقات الدولية ..

ومثل هذه المقارنة على جانب كبير من الأهمية وذلك لما واكب هذه المجتمعات من تقدم علمى باهر وسبق مادى وترف حضارى خلب الأبصار واستولى على الألباب مما جعل كثيرا من المجتمعات تبادر الى تقليدها دون تمييز بين الغث والسمين والحق والباطل ، وظنت المجتمعات المتخلفة علميا وثقافيا أن التقدم العلمى والمادى وحده كفيل باسعاد الانسان ، وليت هذه المجتمعات أخذت هذا التقدم العلمى عن دول الغـــرب أو الشرق ، انما تأخرت فى هذا المجال وقلدت هذه الدول بل سبقتها فى اشباع الشهوات وارواء النفس من المتاع الحسى ، وقلدتها فى فصل الدين عن واقع الحياة ، فكان لابد من هذه المقارنة لنستبين الحق فنؤمن به وندافع عنه ونعرف الباطل فنرفضه ونبتعد عنه . وأبادر فأقرر بأننــا لا نبحث لنهج القرآن عن نظام عالمى أو تربوى نلصقه به ونرفع عليه لواءه. فحسب منهج القرآن أنه من صنع رب هذا الوجود ومن نفحاته وبركاته على خلقه . لكننا نقارن بين منهجين ليرى العالم أن ما بين يديه من مبادىء انما هى مبادىء هدامة قد أذهبت أمنه وسلامه وهو فى حاجة اذن الى دواء القرآن وعلاجه لأمراض المجتمعات ، ولذلك سوف نعرض لكــلا النظامين الرأسمالى والشيوعى وهما قمة ما وصلت اليه النظريات التربوية الحديثة فى تربية المجتمع ، وفى كل جانب من جوانب التربية : العقائدية والأخلاقية والاجتماعية والدولية سوف تقف لتقول للانسانية الضالة : هذا هو طريق الله طريق الحق ، ونستنتج بذلك أهم ما وصــل اليه البحث من نتائج تضاف الى ما فيه من نتائج رأيناها خـــلال الأبواب

والفصول ، وساقت اليها حاجتنا الى بعض المقارنات بين منهج القـرآن وغيره من النظم العالمية ..

والأمر بعد ذلك وبعد أن استوى هذا البحث نظرية متكاملة فـى طريقة القرآن فى تربية المجتمع يحتاج الى عزمة الرجال وصدق ايمانهم لتصبح النظرية واقعا ملموسا فى عالم حائر مضطرب لم يبق له بعد أن يئس من اصلاح حاله وبعد أن طبق ما شاء له هواه من نظريات سياسية واقتصادية واجتماعية ، فلم يجد فيها بغيته ولم يحقق بها رغبته وأمله . لم يبق ـ حينئذ ـ الا أن يجرب نظام الاسلام ومنهج القرآن فى تربية المجتمع الانسانى ، فعساه أن يسعد ، وهو أمل جدير بالنجاح وطريق راشد سديد فيه خير البشرية فى كل زمان ومكان .. ســارت فيـه الانسانية ردحا من الزمان فهدأت وسعدت وآن لها أن تهدأ وتسعد وما ذلك على الله ببعيد !!

٢ ـ مقارنات :

أولا ـ العقيدة :

لا تؤمن الشيوعية بما وراء الحس ، ويرى زعيمها «ماركس» أن العقل متوقف على المادة فى وجوده ـ ولا يمكن أن يوجد منفصلا عنها ، ولذلك فان العقل أو الروح بعد فناء الجسم لا وجود لهما ، وفكـرة الايمان بالله خرافة ووهم لأن الله ـ فى نظرهم ـ وراء المادة والايمان بوجوده وما يتبع هذا الايمان من بعث وحساب وجنة ونار وما فى عالم الغيب كله خرافة وتخدير للشعوب ، وان الاقطاع والاحتكار والاستغلال نبت كله فى ظل عقيدة الايمان بالله ، ولقد سرقت حرية الشعوب وأقواتها تحت وطأة الدين ..

ومنهج الشيوعية فى تربية مجتمعها يقوم — اذن — على العداء المطلق للدين كله ولرسالات السماء جملة وتفصيلا ، وأفراد المجتمع يربون على قطع صلتهم بالسماء ليرتبطوا بالأرض ، فالحياة لا هدف لها ولا غاية الا سد شهوة البطن والفرج ، وفى سبيل ذلك يحيا الانسان ومن أجله يقاتل ، أما ماوراء ذلك من وحى السماء وتعاليمها فهو عبث وبهتان لا يعرفه دعاة الشيوعية .

ولما كان الانسان بفطرته عابدا فلابد له من معبود يجله ويقدسه ، كانت نظرية التعويض فى المذهب الشيوعى هى البديل للايمان بالله ، فالولاء والعبادة والطاعة والتقديس تتجه فى التربية الشيوعية الى الدولة ، والجزاء الذى يلقاه المؤمنون عند ربهم هو هنا من الدولة والتقرب الى الله الذى يندفع له أهل الايمان تجعله الشيوعية فى انكار الفردية والتفانى فى خدمة الدولة ..

واذا كان هذا حال العقيدة فى المعسكر الشرقى فان المعسكر الغربى وما وراءه من الأمم التى تدين بالمسيحية قد وصل الى حد من الفوضى العقائدية أدت الى عزل الدين بعيدا عن الحياة والانطلاق فى تيار الشهوات الى الحد الذى أفسد الحياة ، وجعلها مرتعا للفساد والضياع والقلق والدمار ..

والمتتبع لخط عزل الدين عن الحياة فى تلك البلاد يجد جذوره فى تلك المهزلة التى ابتدعها قسطنطين الامبراطور الرومانى حين فرض المسيحية على امبراطوريته ومزجها بالعناصر الوثنية . يقول « دربير » الأمريكى فى كتابه : النزاع بين الدين والعلم : « دخلت الوثنية والشرك فى النصرانية بتأثير المنافقين الذين تقلدوا وظائف خطيرة ومناصب عالية فى الدولة الرومية بتظاهرهم بالنصرانية ، ولم يكونوا يحفلون بأمر

الدين ولم يخلصوا له يوما من الأيام وكذلك كان قسطنطين فقد قضى عمره فى الظلم والفجور ولم يتقيد بأوامر الكنيسة الدينية الا قليلا فى آخر عمره سنة ٣٣٧م ..

« وان هذا الامبراطور الذى كان عبدا للدنيا والذى لم تكن عقائده الدينية تساوى شيئا رأى لمصلحته الشخصية ولمصلحة الحزبين المتنافسين ـ النصرانى والوثنى ـ أن يوحد ويؤلف بينهما ، حتى ان النصارى الراسخين أيضا لم ينكروا عليه هذه الخطة ، ولعلهم كانوا يعتقدون أن الديانة الجديدة ستزدهر اذا طعمت بالعقائد الوثنية ، وأن الدين النصرانى سيخلص فى عاقبة الأمر من أدناس الوثنية وأرجاسها[٤] »

وهكذا اختلطت المسيحية السمحاء بالشرك والوثنية ، ولم تستطع الجماهير أن تتذوقها أو تدرك أسرارها ، فوقفت الكنيسة تدعى معرفة هذه الأسرار وفرضت ـ بذلك ـ سلطانها على القلوب والمشاعر ،ونادت الناس الى الرهبانية والنسك ورفض الحياة بكل ما فيها من متع ، فى حين أنها حازت الأموال والاقطاعات وفرضت الاتاوات ، واتخذت الجيوش وأصبحت صاحبة السلطان ، ولم يتورع دعاة النسك والرهبانية عن ارتكاب الموبقات داخل الأديرة وبيوت العبادة ، مما هز ثقة الناس فى الدين ورجاله ، وكانت صكوك الغفران مهزلة من مهازل الكنيسة لم يقبلها عقل على الاطلاق . وأخيرا حين استيقظت أوربا على صوت البعث الاسلامى وانطلق العلماء يصنعون الحياة وقفت الكنيسة تحرقهم وتعذبهم باسم الدين ، والدين من ذلك براء ..

وجاء أوجست كونت .. صاحب الفلسفة الوضعية ومن تبعه يرفض

---

(٤) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ـ لأبى الحسن الندوى ص ١٥٧ .

دين الكنيسة وينادى الى عبادة الانسانية ويقطع الصلة بالله والحياة والآخرة ، وأصحاب هذه الفلسفة يقولون : « اذا انقطع ايماننا وتصديقنا بحياة أفضل فى الآخرة ، وأردنا مع ذلك فى غير تفرق ايجاد حياة أفضل فسنخلق حياة أفضل ، ولكن نريد هذا ونريد أن نحققه يجب أن نضع مكان محبة الله محبة الانسان كدين وحيد حق ، وأن نضع مكان الايمان بالله الايمان بالانسان نفسه وبامكانياته الخاصة وبعظمته ، الايمان بأن تقرير المصير للانسانية ليس من طبيعة خارجية عنها أو فوقها ، وانما يرتبط بها نفسها تمام الارتباط (٥) ..

وفى عالم النظريات التى أملاها الهوى وأوحى بها الشيطان ، تاه العالم الغربى والشعوب التابعة له . وأصبحت العقيدة شيئا لا يذكر فى حياته وان كانت بقاياها مازالت فى الوجدان تدفعه الى حرب الاسلام والمسلمين ، وهنا يأتى المنهج القرآنى هاديا ومرشدا للانسانية منذ أربعة عشر قرنا ــ يدلها على طريق الله الحق ، و يأخذ بيدها الى الحقيقة التى ضل عنها عقل الانسان حين اتخذ الهه هواه ..

فالكون فى بداهة العقل ــ لابد له من مكون هو الله جل جلاله المتصف بصفات الجلال والكمال ، والقرآن فى تربيته للانسان وللمجتمع يسمو على كل مناهج التربية فى القديم والحديث . اذ يحرر الانسان من عبادة غير الله ، يحرره من عبادة نفسه حتى لا يطغى ويفجر ، ويحرره من عبادة الأرض والتراب حتى لا يذل ويخضع ، ويربطه بمصدر القوة التى تحرك هذا الوجود فى غيبه وشهوده ، ويمتد هذا الايمان فى أعماق النفس فيفسح فيها مجالا عظيما يشد المؤمن الى الماضى والحاضر والمستقبل ، فاذا بصاحبه يؤمن بما وراء هذا العالم من الملائكة والبعث والحساب وما فى

---

(٥) الفكر الاسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى د. محمد البهى ص ٣٥١ ، ٣٥٢

اليوم الآخر كله ، كان يؤمن بمن سبق من الأنبياء والمرسلين وما جاءوا به من وحى الله على امتداد عمر التاريخ حتى أدى كل رسول وكل رسالة دورها فى ارشاد العقل الانسانى الى أن كانت خاتمة الرسالات وجماعها ، وخاتم المرسلين وامامهم ، وخاتم الكتب والمهيمن عليها وتلك رسالة الاسلام وحامل لوائها محمد بن عبد الله ، وهذا كتابها الخالد على مر الزمن والى أن تقوم الساعة كتاب الله الذى ..

« لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ »(٦)

والوحدانية ، تلك التى أقام عليها منهج القرآن دلائله فى كل مايقع تحت سمع الانسان وبصره هو الركيزة الأولى فى هذا البحث ، وهى التى أقام عليها هذا المنهج بناءه الأخلاقى والاجتماعى والدولى ، وحسبنا أننا لمسنا قوة هذه البراهين ومسايرتها للفطرة ، وبعدها عن التعقيد ، وأن كتاب الله اذ يعرضها لا يحتاج فى ذلك الى تفلسف والتواء ، انما يسوقها سهلة سلسلة تحيط بالنفس البشرية من كل أقطارها ، فاذا بها ترى اشراقة الله فى ذاتها وفيما حولها من مخلوقات الله فى عالم الانسان والحيوان والنبات والكواكب والرياح والأرض ، وفى كل ذلك يناقش المنكرين للوجود الالهى والمشركين مع الله آلهة أخرى ، ويقود الجميع بالحجة القاطعة والبرهان الناصع الى توحيد الله والاعتراف بما له من عظيم الصفات . ولا يمل المنهج الالهى تكرار هذه الدعوة فيقف عليها من عمر الرسالة ثلاثة عشر عاما فى مكة لا يحدث الناس عن شىء سوى هذه العقيدة فى ذات الله ، حتى استقرت جذورها فى أغوار النفس وتشعبت فى الكيان الانسانى ، فاذا به يعيش حياته كلها راسخة الجذور عميقة البعد :

(٦) سورة فصلت ٤١/٤٢

« أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ * تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ » (٧)

ثانيا ـ التربية الأخلاقية :

اذا ما انتقلنا الى مجال الأخلاق ـ وهى مقياس انسانية الانسان وامتيازه على الحيوان ، وهى المحك الرئيسى لسعادة البشروأمنهم وسلامتهم ـ راعنا فساد الأخلاق وخبثها فى الشرق والغرب ، وأزعجنا تدهورها بتلك الصورة المزرية التى لم تصل اليها فى تاريخ الانسان من يوم أن خلقه الله ..

ومن العجب أن هذا الفساد وذلك التدهور يحميه العلم وتؤيده النظريات ، ويقوم على فلسفة خطيرة لم ينفع فى الوقوف فى وجهها صيحات المخلصين ونداءات المؤمنين لأنها فلسفات ونظريات مدعمة بالمال والقوة والسلطان ، وتمتلك من وسائل النشر والاعلام ما لم يتح لغيرها على الاطلاق ، وتقف حامية لها مدافعة عنها قوى سياسية ترى مصلحتها فى هذا الفساد الذى بسط جناحيه على العالم كله فلم يفلت منه أحد .

فالشيوعية تؤمن بمبدأ « النقيض » ، ومعناه أن كل شىء يحمل نقيضه فهو فى تطور مستمر لا ينتهى أبدا ، ولا تفرق الشيوعية بين عالم الأحياء وعالم المثل والقيم ، فما هو فضيلة اليوم رذيلةغدا وما يذمه مجتمع يمدحه آخر ، واذن فلا ثبات للأخلاق على حال انما تنقض نفسها بنفسها

---

(٧) سورة ابراهيم ١٤/٢٥

فتقاليد الأسرة فى نظر الشيوعية وفضائل الجنس وحرية الفرد ــ كما تريد أن تنظر اليها ــ ليس لها اعتبار ثابت : قيمتها اليوم تتغير عن ذى قبل ، ويجب أن تتغير ويجب أن يكون الجديد أفضل من القديم فى الـوقت نفسه ، والدعوة الى الحيوانية فى علاقة الجنسين بعضهما ببعض قد تكون مبدأ أخلاقيا ، ونظام تبنى الدولة للأولاد الشرعيين على السواء قد يكون نظاما أخلاقيا بعد أن يعتبر نظاما اجتماعيا ، ورق الفرد قـد يكـون مبدأ أخلاقيا كذلك . فاذا تم ووقع فى المجتمع أحد هذه الأمور فهو أفضل، لأن الحال الجديدة التى ينتقل اليها الشىء ــ بحكم مبدأ النقيض ــ أدخل فى القيمة والأفضلية ، والتقدمية التى تطلبها الماركسية دائما هى الحال التى تلى الحال القائم لشىء ما وهى التى تنطوى عـلى الاعتبار الأكثر والقيمة الفضلى ، « ومثل هذه النظرة الفاسدة » دعـوى الى اتكاس البشرية وليس الى تقدم الانسانية ، وهى عود بالانسان الى الرق وعـود بالفكر والايمان الى الجبر وعود بالانسانية الى الحيوانية وبالأخلاق والقيم الى الانطلاق فى الحيوانية (٨) ..

وهذه الأخلاق الفاسدة التى ليس لها ثبات فى المجتمع الشيوعى يؤازرها فى المعسكر الغربى والمجتمع الأمريكى شيوع نظريات «فرويد» فى الجنس والكبت ، وأن الانسان يجب أن ينطلق دون قيود أو حدود لاشباع غريزة الجنس فيه والا أدى ذلك الى العقد والأمراض النفسية .

وعلى أساس هذه النظرة كان الاختلاط والعرى والخلاعة والمجون ودور الملاهى والتمثيليات والقصص الداعرة لارواء غريزة الجنس ، ووصل بذلك الانسان الى مرتبة الانحطاط والتدهور وغرق فى حمأة الـرذيلة وسعارها وما ارتوى أبدا ..

---

(٨) الفكر الاسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى د. محمـد البهى ص ٣٧٦ ، ٣٧٧

ولقد استغلت الصهيونية العالمية ذلك كله لتدمر البشرية وتستولى عليها من أقرب طريق بعد أن نجح زعماؤها فى محو عقيدة الايمان من النفوس وغرسوا فيها أن الدين مخدر للشعوب ، وان الانسان ليس انسانا انما هو حيوان كما قال «دارون» وأن غرائزه كما زعم « فرويد » تنصب كلها فى الغريزة الجنسية التى يجب أن تنطلق دون أن يقف فى طريقها عائق من دين أو خلق .. تقول « بروتوكولات حكماء صهيون » : « يجب أن نعمل لتنهار الأخلاق فى كل مكان فتسهل سيطرتنا . ان فرويد منا وسيظل يعرض العلاقات الجنسية فى ضوء الشمس لكيلا يبقى فى نظر الشباب شىء مقدس ، ويصبح همه الأكبر هو ارواء غرائزه الجنسية وعندئذ تنهار أخلاقه » .. وتقول البروتوكولات : « لقد رتبنا نجاح داروين وماركس ونيتشه بالترويج لآرائهم وأن الأثر الهدام للأخلاق الذى تنشئه علومهم فى الفكر غير اليهودى واضح لنا بكل تأكيد » ..

ولعل هذا التآمر الصهيونى على الوجود الانسانى واستغلاله للفكر فى تحطيم كيان البشرية ، لعل هذا أن يكون مقنعا لمن اغتر بما فى هذه المجتمعات الفاسدة من مظاهر الأخلاق الفاضلة : كالصدق والأمانة والاخلاص فى العمل مما هو جدير بالاعجاب والتقدير . وأبادر فأقول : انه لا يمكن لمجتمع ما أن يخلص للشر كله ، فلابد أن تبقى فيه بقايا من الخير ، ومع ذلك فتلك الأخلاق فقدت عنصرها الانسانى وانحصرت فى حدود قومية ، بل فى حدود فردية فالصدق جميل اذا ما أدى الى نفع صاحبه والا فلا مكان له بين الناس ، والأمانة والاخلاص فى العمل صفات عالية اذا ما جلبت الخير والا فالخيانة والغش والخداع ونقض المواثيق أفضل وأجمل .

وما يمكن لسلوك انفصل عن الايمان بالله أن يعتدل ، وماذا تنتظر من قوم جعلوا دين الله وراء ظهورهم ، وانطلقوا يعبدون أهواءهم وشياطينهم

ويقيمون على تلك الغبادة صرح الأخلاق الذى لابد أن يتهاوى مهما بدا براقا جذابا ؟؟

ولقد أقامت هذه المجتمعات على تلك الأسس برامجها فى التعليم والتثقيف ، فالمدوسة المختلطة بين الذكور والاناث والرحلات والمعسكرات والشواطىء والحانات والمراقص والسينما والتليفزيون ، ونداءات الهوى والمجون وما يمد ذلك كله من فن القصص والنحت والتمثيل والتصوير ، وعشرات الرسائل التى تلتقى كلها فى النهاية لتملأ حياة الناس بهذا اللون الفاسد من التحلل والانطلاق والارواء الجنسى الميسر ، ولتصنع منه هذا الانسان المستهتر بالقيم الأخلاقية الرفيعة وما جاء به الدين من مبادىء الطهر والعفاف ..

وحين تتحدث عن منهج القرآن فى التربية الأخلاقية لا نجد مجالا للمقارنة بينه وبين هذا الدمار الذى أصاب حياة الانسان ..

ويكفى من البداية وقبل المقارنة أن هذا المنهج أخرج خير أمة أخرجت للناس على امتداد التاريخ الانسانى .

وما زالت مبادئه خالدة على مر الزمن ..

هذه هى الشيوعية التى ترى أن الأخلاق لا ثبات لها ، وأنها تهدم نفسها بنفسها ، ومن العار أن يدين مجتمع بفضيلة لأنها ستكون رذيلة ، وعلى أساس من هذه النظرة الفاسدة التى فلسفها « ماركس » وتبنتها الصهيونية العالمية وأصبحت شعار المجتمع الشيوعى يكون سلوك الانسان تجاه نفسه وتجاه من حوله ، وهى نظرة المجتمع الشيوعى الى من عداه من المجتمعات ..

فهل هكذا يكون الانسان الذى كرمه الله ؟؟ أو أن هذا هو الضياع والشقاء حين لا يجد المرء أساسا ثابتا يقوم عليه بناء الحياة .. لذلك أقام منهج القرآن أخلاق الانسان المسلم والمجتمع المسلم على أساس ثابت من عقيدة الايمان ، وهى من الثبات والقوة ما يدفع بالانسانية عبر الأجيال الى التراحم والترابط والمودة والاخاء ، وما يشعر معها صاحبها بأن ما جاءت به الرسالات وما كافح من أجله المرسلون من الأخلاق العالية كالصدق والوفاء والعدل والاخاء والشجاعة والمروءة والأمانة وعفة النفس والرحمة والرضا ، وغير ذلك من الصفات النفسية النبيلة كلها لا تتغير ولا تتبدل مهما توالت الأزمان وتعاقبت الأجيال .

وهذه نظريات الجنس والانطلاق فى الحيوانية التى أشاعها «فرويد» ونظريات التحلل من الدين ومثله وقيمه ، وأنه ليس فطرة وانما هو شىء عارض فى حياة الانسان كما زعم « دوركايم » تدعو من جانب آخر لفتح الباب على مصراعيه لاشباع الشهوات لئلا يحدث الكبت وتتولد العقد ، ولماذا الكبت ولماذا العقد والدين ليس أصيلا فى فطرة الانسان وطبعه حتى يقف حاميا وحاجزا وحارسا ؟؟

ويتعاون علماء اليهود جميعا لهدم انسانية هذا الانسان والقضاء عليه بتلك النظريات الهدامة التى روجت لها الدعاية العالمية تساندها القوى السياسية حتى أصبحت طريق الحياة لأمم الأرض على اختلاف أديانها ومذاهبها ، ووصلت بتيارها الآسن الى المجتمعات التى تعلن أنها تدين بدين الاسلام ، ووقف التطور شعارا يرفعه كل داع للفساد والتخلف والرجعية ، وسلاحا يشهره فى وجه من نادى بالتوقف والتريث ، والنظر الصادق الصحيح من أجل انقاذ مستقبل البشرية مما يهددها من الهلاك والضياع .

أما كتاب الله ومنهجه فى التربية الأخلاقية ، فلا يكفى أن نقـــول انه المنهج المتكامل الكفيل باسعاد الانسانية ، لأننا نؤمن به ولهذا تتعصب له وندافع عنه ، بل ان النظر الصحيح لكل صاحب عقل ناضـــج يحتم الرجوع لهذا المنهج والأخذ به بعد أن جربت الدنيا كلها ما شاء لها الهوى، فلم تجد فيه بغيتها وراحتها .. انما تجد هذه الراحة فى منهج يـــربط الأخلاق بالايمان بالله ويشرع من العبادات ما يسمو بحس المؤمن ويرده دائما الى ربه ويدربه على التطبيق العملى لأخلاق الاسلام ، ويضـــع هذا المنهج من أسس التربية ما لم تصل اليه أرقى النظريات التربوية سواء على مستوى الفرد أو المجتمع : اذ يجعل من القيادة قدوة تحتذى ، وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم المثل الأعلى للانسان الكامل بفعله وعمله وسلوكه قبل قوله ، كما كان الخوف والرجاء احدى وسائل التربية الالهية التى استطاع بها أن يشد المؤمن الى طريق الله ، وأن يدفعه الى التمسك بأهداب المبادىء الفاضلة . كذلك قدر ضعف الانسان عن مقاومة اغراء الفتنة ودواعيها فخلق له البيئة المناسبة ، وسد عليه كل طريق للفساد ، وأشاع فى المجتمع العفة والطهارة، ويسرله طريق الاستمتاع الحلال الطيب كما تعهد هذا الانسان من يوم طفولته ، فرباه على كريم الأخلاق وفاضلها وغرس فيه معانى النبل والاحساس الجميل بمن حوله من الناس ، كمـــا وجه اهتماما عظيما لاحياء انسانية الانسان والارتفاع بها الى أقصى مايمكن لها أن تصله من السمو والرفعة ..

وعلى حداء القرآن والصورة المشرقة المضيئة لمن كان خلقه القرآن انطلق أهل الايمان يحاولون ادراك تلك العظمة والوصول الى هذه الغاية حتى أصبح مجتمع الاسلام صورة فذة فى تاريخ البشرية وضرب أعــلى مثل فيما يمكن أن يتصف به الانسان باعتبـــاره انسانا ، وهـــذه النتيجة التى وصل اليها البحث من اعطاء صورة صادقة لمنهج القرآن فى

التربية الأخلاقية فى حاجة الى حسن التطبيق كما طبقها المجتمع الاسلامى الأول ، لنضمن الحماية من الفوضى الأخلاقية التى شاعت فى أنحاء العالم، وانتقلت عدواها الى مجتمعنا الاسلامى حتى تعود له روح الحياة مشرقة بالأمل عطرة بالايمان ، بعيدة عن التحلل مرتفعة عن الانتكاس والضعة والمهانة التى أفهمت الانسان بأنه حيوان فعاش بهذه الصفة حيوانا منطلقا فى حيوانيته دون رقيب أو حسيب !!

نعم اننا فى شوق الى حماية مجتمعنا من نظرة «الحيوانات» والارتفاع بهذا المجتمع الى المنزلة العالية فى الانسانية ، وتأكيد أن كل فـــرد فيه انسان ويجب أن يحيا انسانا كريما فاضلا متصفا بصفات الكمال الخلقى والرفعة فوق الأهواء والشهوات ، حتى لا يشقى ولا يضل ، وحتى يشعر بالأمان والراحة والسعادة • وكلها ـ وأكثر منها ـ جلية واضحة ميسرة فى المنهج الذى رسمه كتاب الله للتربية الأخلاقية ••

ثالثا ـ البناء الاجتماعى :

١ ـ نظام الأسرة :

فى البناء الاجتماعى يقف نظام الأسرة عنوانا لقوة هذا البناء ومتانته، ومع نظام الأسرة تكافل المجتمع ودقة معاملاته وما يستمتع به الأفـــراد من حرية ومساواة ، وما يطبقونه فى نظام الحكم من عدالة ومشورة، وبذلك يبدو البناء شامخا قويا لا تزلزله العواصف ولا تؤثر فيه الأهواء ••

ولقد فهم المغرضون أن الأسرة هى اللبنة التى يشيد بها كل بنـــاء فوجهوا معاولهم اليها حتى هدموها وذلك أن الأساس الذى تقوم عليه قد انهار ، فلم تعد العقيدة وما يتبعها من أخلاق فاضلة تحـــكم الحياة وتوجهها • ولهذا وصل حال الأسرة فى الشرق والغرب الى أسوأ نتيجة من التفكك والضياع ، وانفصم الرباط الذى يحميها من الفساد ، وانطلق

الزوجان يعبان من بحر الشهوات المتاحة لكل راغب ، وبقى الكيان الأسرى شيئا عارضا فى حياة تلك الشعوب ..

يقول «ول ديورانت» فى كتابه مباهج الفلسفة : «ولما كان زواجهما (الرجل والمرأة فى المجتمع الحديث) ليس زواجا بالمعنى الصحيح ، لأنه صلة جنسية لا رباط أبوة ، فانه يفسد لفقدانه الأساس الذى يقوم عليه وهو مقومات الحياة ، فيموت هذا الزواج لانفصاله عن الحياة وعن النوع ، وينكمش الزوجان فى نفسيهما وحيدين كأنهما قطعتان منفصلتان ، وتنتهى الغيرة الموجودة فى الحب الى فردية يبعثها حياة المساخر وتعود للرجل رغبته الطبيعية فى التنويع حين تؤدى الألفة الى الاستخفاف ، فليس عند المرأة جديد تبذله أكثر مما بذلته ..

« لندع غيرنا من الذين يعرفون ، يخبرونا عن نتائج تجاربنا ، أكبر الظن أنها لن تكون شيئا نرغب فيه أو نريده ، فنحن غارقون فى تيار من التغيير سيحملنا بلا ريب الى نهايات محتومة لا حيلة فى اختيارها ، وأى شىء قد يحدث مع هذا الفيضان الجارف من العادات والتقاليد والنظم . فالآن وقد أخذ البيت فى مدننا الكبرى فى الاختفاء فقد فقد الزواج القاصر (المقصور) على واحدة جاذبيته الهامة ، ولا ريب أن زواج المتعة سيظفر بتأييد أكثر فأكثر ، حيث لا يكون النسل مقصودا وسيزداد الزواج الحر مباحا كان أم غير مباح ، ومع أن حريتهما الى جانب الرجل أميل فسوف تعتبر المرأة هذا الزواج أقل شرا من عزلة عقيمة تقضيها فى أيام لا يغازلها أحد ، سينهار المستوى « المزدوج » وستحث المرأة الرجل بعد تقليده فى كل شىء على التجربة قبل الزواج ، سينمو الطلاق وتزدحم المدن بضحايا الزيجات المحطمة ثم يصاغ نظام الزواج بأسره فى صور جديدة أكثر سماحة

وعندما يتم تصنيع المرأة يصبح ضبط الحمل سرا شائعا فى كل طبقة يضحى الحمل أمرا عارضا فى حياة المرأة ، أو تحل نظم الدولة الخاصة بتربية الأطفال محل عناية البيت .. وهذا كل شيء [٩] » ..

هذه الحقيقة التى يقررها هذا الكتاب من عام ١٩٢٩م مر عليها أكثر من اثنين وخمسين عاما وصلت فيها الأسرة الى حد من الفوضى لم تقف عند حد ، ومازالت المرأة تطالب برفع الحواجز والعوائق .. بحيث لا يبقى اعتبار للتفريق بين ما يسمى علاقة شرعية وما ليس بشرعى فى صلة المرأة بالرجل وفى النظرة اليها فى ممارسة ما تنادى به طبيعتها كفرد وما تنتجه للدولة كعضو فى المجتمع [١٠] ..

والتطور وتغير القيم دعوات عريضة ومعاول هدم قوية هزت كيان تلك المجتمعات يقول بعض من خلبهم بريق تلك الأفكار : « هل صحيح أن الغيرة على الفضيلة والتقاليد هى التى تحفزنا الى مقاومة التطور والكيد للمرأة ؟ ان يكن ذلك فما أحوجنا — اذن — الى تحديد معنى الفضيلة والرذيلة ، ومعرفة مدى ما يجب على الأمم أن تقدمه للتقاليد من طاعة وولاء ، ان الفضائل الاجتماعية والقيم العليا التى تنتظم حولها حياة المجتمع وتناط بها وجهته ليست التى يرتضيها فرد أو جماعة من الناس وتلائم تفكيرهم واحساسهم ، بل هى التى تنسجم مع القاعدة وتسمو عن الشذوذ ، والقاعدة هنا هى التطور ، والشذوذ هو الرجعية والانتكاس ، فكل زحف الى الوراء مهما اتسم بحسن النية وسذاجة القصد ليس سوى رذيلة فى ثوب تنكرى خداع ، وليس هناك اثم أشد ولا خطيئة أفحش من مقاومة التطور واخضاع مستقبل الأمم لجهلها القديم [١١] » ..

---

(٩) مباهج الفلسفة : ول ديورانت ص ٢٢٥ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦

(١٠) الفكر الاسلامى الحديث د. البهى ص ٤٠٠

(١١) من هنا نبدأ : خالد محمد خالد ص ١٩٦ ، ١٩٧

ويقول آخر : « والخير والشر خضعا لناموس التطور فتغيرت معانى الرذيلة ومعانى الفضيلة ، كانت المرأة رمزا للشيطان ، وكانت الغريزة الجنسية خطيئة تحمل أوزارها المرأة وحدها ، فأصبحت المرأة نصفا مكملا للرجل ، وأصبحت الغريزة الجنسية حالة فسيولوجية تنظم لصالح المجتمع ومسرة أفراده (١٢) » ..

ولا شك أن هذه النظريات الهدامة التى اجتاحت الشرق والغرب وأودت بحياة الأسر وحطمت هذه المجتمعات ، وانتقلت الى بلاد الاسلام تحاول جرها الى هذه الهوة السحيقة ، لا يمكن قياسها بنظام الأسرة الاسلامى الذى ثبتت جذوره فى حياة المجتمع الاسلامى ، وبقى نبراسا يهدى الى الحياة الآمنة المستقرة ، فقد جعلها المنهج القرآنى أساس البناء الاجتماعى ، وعد الزواج رحمة وآية من آيات الله ، ووثقه بالميثاق الالهى والعهد الربانى ، وجعلها عشرة خالدة تأكيدا لأهمية الحياة الزوجية ، ورسم خطا واضحا ضمانا لسعادة هذه الأسرة : فسن لها الخطبة والعقد والشهود والمهر ، ودعا الزوجين الى التسامح والرضا ، فان كان هناك خلاف أدى الى نشوز أحد الزوجين فانما هو التأديب بالوعظ أو الهجر أو الضرب غير المبرح للزوجة ، والتنازل عن بعض الحقوق للزوج اذا نشز ضمانا لحياة هذه الأسرة ، فان اشتد الخلاف فالطلاق حيلة من لا حيلة له وهو توقف للحياة الزوجية لا قطع لها ، ونظام الطلاق فى شريعة القرآن أسمى من كل ما وصل اليه الفكر الانسانى فى نظام الأسرة كما شهد بذلك الباحثون فى كل مكان ..

ومكرمة أخرى للمنهج القرآنى فى نظام الأسرة ذلك هو ما سنه فى تعدد الزوجات حيث لم يتركه مطلقا كما كان الحال قبل الاسلام ، ولم

(١٢) الله والانسان لمصطفى محمود ص ٢

يمنعه نهائيا مراعاة للظروف والأحوال ، فحـــدده بأربع واشترط لذلك العدل والقدرة على الانفاق • وأخيرا جمع هذا النظام الخير من أطرافه وهو يوسع دائرة الأسرة : فاذا بها تشمل الأصول والفروع ولكل منهم حقوق وواجبات ، ويتقدم المنهج القرآنى بهذا النظام الالهى الى الانسانية فتطبقه أمة الاسلام فتسعد وترقى فى أسرها ، وترى الهدوء والســـكينة والاستقرار فى حياتها ، وما زال هذا النظام طريقا راشدا واضحا لم تصل اليه أمة من أمم الأرض ، وكيف تصل اليه بتفكيرها الأرضى البشرى ؟ وكيف تقارن هذا النظام الأرضى بنظام السماء ؟؟

٢ ـ التكافل الاجتماعى :

الصراع بين الطبقات الى أن يصل الأمر الى طبقة العمال وحـــكم الحزب الواحد الذى يفرض قوته ووجوده على سائر أفراد الشعب من أبرز سمات المجتمع الشيوعى ••

والتكافل بمعناه الواسع أو الضيق ـ اذن ـ لا وجود له فى هذا المجتمع ، فالدولة هى كل شىء فى حياة الفرد توفر له متطلبات الحيـــاة المادية والمعنوية وما هو الا آلة مسيرة يؤدى ما يطلب منه فحسب ••

والأمر قريب من ذلك فى المجتمعات الرأسمالية : فقد تلاشى التكافل الاجتماعى وانحصر فى لون واحد هو التكافل المعيشى ، بمعنى توفير الغذاء والكساء والدواء لكل محتاج • ونظرة الى الواقع ترينا أن الدولة فى المجتمع الشيوعى ما استطاعت ولن تســـتطيع أن توفر كل حاجيات الانسان ، وأن صورا من البؤس والشقاء ما زالت فى هذا المجتمع ، كذلك مثلت البطالة والحرمان جزءا عظيما فى الدول الرأسمالية ، وفات كل هذه المجتمعات أن الانسان فى حاجة الى أكثر من الطعام والشراب •

وهنا يبرز منهج القرآن وضاء مشرقا يحمل السعادة والأمان لكل الناس ، فيخطط للتكافل المعيشى فى موارده ومصارفه بصورة فذة لا تغادر ثغرة الا وأتت بما يناسبها من التشريع المحكم العادل ، ومع هذا التكافل الذى تنشده المجتمعات على اختلاف نظمها بين شيوعية ورأسمالية ، ومـا وصلت اليه ، ألوان عدة من التكافل الأدبى والسياسى والدفاعى والجنائى والأخلاقى والاقتصادى والعلمى والحضارى والعائلى مما هو مفصـل فى موضعه ..

وكل هذه الألوان تتناسق لتعطى ــ أخيرا ــ أجمل مظهر لمجتمع الاسلام فى تكافل أفراده وتعاونهم وانسجام كل فرد فى هذا المجتمع ، حاكم أو محكوم ــ مع من حوله واحساسه بأنه يحيا فى ظل عدالة اجتماعية لم يسبق لها مثيل فى تاريخ الانسان ، وحين يضع المنهج القرآنى هـذه الألوان للتكافل لا يجعلها مجرد أسطورة فى الخيال ، انما يحققها واقعـا عمليا يدفع اليه المجتمع بطريقته فى التربية وذلك بغرس احساس الاخاء الانسانى فى القلوب ، وجعل رابطة الايمان أساسا لمجتمع الاسلام ، ولا يزال يعمق هذا الشعور فى النفوس حتى يصل الى الغرض الأسـمى ، فاذا بالانسان مندفعا الى بذل أقصى ما يستطيع فى سبيل اسعاد اخوته فى الانسانية واخوته فى الايمان ، والسعادة ليست فى توفير الغذاء والكساء فحسب انما تشمل أشياء كثيرة أدبية وسياسية وعلمية وحضارية ، وكلها مما جعله القرآن سبيلا للمجتمع الذى رباه على أكرم مبدأ وأعظم منهج .

٣ ــ المعاملات المالية :

يقف النظام الشيوعى والرأسمالى دون عتبة السمو الربانى وهـو يخطط للحياة ويؤصل لها فى معاملاتها المالية ، فلا يترك خيطا فى النفس البشرية يؤدى الى دفع عجلة الانتاج من أجل اسعاد البشرية الا وشده

وأحكم رباطه ، ولا يترك دربا يفيض منه الخير على الناس الا ومهده وفتح له الأبواب •

لقد ربط تعامل الانسان بعقيدته كما هو شأن المنهج القرآني في التربية ، فبدت من أول لحظة طهارة المنبع الذى استقى منه المجتمع فكره ووجدانه وبين أن المال عصب الحياة فلابد للمؤمن من تحصيله ، لكنه — وهو يسعى لتحصيله — يدرك أن هذا المال مال الله أولا ، وما هو الا مستخلف فيه• ثانيا وما يجوز لخليفة الله أن ينسى ربه فى حال سعيه وكده، فليلق على تعبه برد الأمان والنقاء والطهر بذكره لربه وسيده ••

كما لا يصح لمن هذا حاله أن يغش أمته أو يقبل رشوة أو يحتكر أقوات الناس ويضيق عليهم أو يعاملهم بالربا ، وهنا نجد الأحكام والتفصيل الدقيق للوسائل النظيفة فى جمع المال كما نجدها — أيضا — فى انفاقه : فلا يجوز لمؤمن أن يكنز أو يقتر على نفسه وأولاده •• كما أنه ليس حرا فى بعثرة ماله والاسراف فيه انما هو الاعتدال الذى هو شأن أمة الاسلام فى كل حالاتها •

ولقد ضلت الرأسمالية الطريق ففهمت أن الحرية تعنى أن يفعل الانسان ما يشاء ، وأن يجمع ما يشاء وينفق ما يشاء ، فأدى ذلك الى انحرافات خطيرة فى نظام المجتمع ، ويكفى أن هذا كان وسيلة لتكوين الاحتكارات العالمية والتحكم فى حياة الملايين من سكان العالم •• وقد استطاع أقطاب المال أن يوجهوا الحياة لمصلحتهم على حساب الطبقات الكادحة بعد أن زيفوا كل الحقائق ، وطمسوا كل المعالم وظهروا أمام العالم بأنهم دعاة الحرية والعدالة •• لقد سيطروا على كل شىء وتدخلوا فى كل شىء ، يقول « ويليام هيرست » الكاتب الأمريكى :

« فنحن ما زلنا تحتفظ بشكل حكومتنا الجمهورى ولكن من الذى يسيطر على اللجان التى تختار المرشحين ؟ الشركات . من الذى يسيطر على المؤتمرات الانتخابية ؟ الشركات .. من الذى يسيطر على الـــذين يفوزون فى الانتخابات ؟ الشركات !! أحقا يصير نوابنا ممثلين للشعب أم هم ممثلون للشركات ؟ ليجب أى امرىء اجابة صادقة عن هذا السؤال .. أحكومتنا ما زالت حكومة للشعب وبواسطة الشعب أم هى حكومة لطبقة خاصة تقبض على زمام الحكم وتدير دفته ؟؟

وهذا أحد أقطاب المال فى أمريكا « توسند مارتن » يباهى بسيطرتهم الشاملة على هذا النحو فيقول : « نحن لا نبالى من من الأحزاب يتولى الحكم ، ولا من من الرؤساء يتولى منصب الرئاسة .. نحن لسنا رجال سياسة أو رجال فكر انما نحن رجال مال نمتلك أمريكا ولا ندرى كيف امتلكناها ، ولكننا نحرص على الاحتفاظ بما امتلكناه ، وسبيلنا الى ذلك هو القاء تأييدنا الضخم ونفوذنا الشامل ، واتصالاتنا السياسية ، ومن اشتريناهم من أعضاء مجلس الشيوخ ، ومجلس النواب ، ومن نستأجرهم من خطباء شعبيين نلقى كل هذا فى كفة الميزان ضد كل حركة تشريعية أو وثبة اصلاحية أو حملة انتخابية رياسية تهدد سلامة ما نملك [١٣] » ..

وعلى الطريق المقابل ولدت الشيوعية فألغت الملكية الفردية وادعى زعيماها « ماركس وانجلز » أن التملك ليس غريزة فى الانسان ، وأن الشر بدأ حين استقر هذا الانسان وبدأ حياة الزراعة وعرف الملكية ، لذلك يجب أن تكون الملكية عامة وأن يأخذ كل منها بقدر حاجته .

وأقامت الشيوعية نظامها كله على هذا الأساس فما ســارت فيه

---

(١٣) التنظيم الحديث للدولة الاسلامية بين الشريعة والقـــانون : محاضرة للدكتور محمـــد عبـــد الله العربى بدار الثقافة بالخرطوم فى ١٩٦٩/٢/١١ ص ٣٥ .

قليلا حتى أباحت الملكية الشخصية ، وسمحت للشعب بالكماليات ووضعت نظام الحوافز بين العمال ، وتراجعت عن كثير من الأسس التى قامت عليها النظرية الشيوعية ، وسمحت بالهبوط ولم تسمح بالصعود « وقد فعلت مدابرة الطبيعة فعلها فى جميع نوازع الحياة وفى مقدمتها عبقرية الأمة وملكاتها الانسانية ، وهو أول ما يصاب بمدابرة الطبيعة واكراه العقول والقرائح على نحو من الأنحاء ، فان مدابرة الطبيعة شر على عبقرية الأمة من الطغيان والاستبداد لأن عبقرية الأمة الروسية لم تحرم فى عهد القاصرة أفذاذا من نوابغ الأدب مثل دستيفسكى وتولستوى وترجنيف وشيخوف وأرتزياشف وجوركى ونخبة من الموسيقيين والدعاة ولكنها عقمت فلم تخرج واحدا من طبقة هؤلاء فى عهد النظام الشيوعى على وفرة الكتب المطبوعة وكثرة القراء بين جميع الطبقات ، ومن بلغ من أدباء الروس نصيبا من النبوغ يقارب تلك المنزلة كان مآله الى الخمول أو الانتحار ، وكان هذا ما استفادته الأمة الروسية من هذه التجربة الدامية التى كلفتها نيفا وعشرين مليونا من النفوس البشرية بين قتلى الثورة وفرائس الاضطهاد وصرعى المجاعة والوباء عدا خسارة الأمة فى الحرية واستقلال الفكر والشعور [(١٤)] » ..

وكلا النظامين موصوم بالبعد عن الله ، وما يمكن لنظام ابتعد عن هدى الله أن يسعد البشر ، لذلك شقيت به المجتمعات التى يقوم فيها وشقيت معها الانسانية كلها ، وأصابها ما أصابها من حروب ودمار ، وشاع فى أرجائها البؤس والشقاء والخوف والانهيار ، ومثل هذا العصر صورة للقلق والتعاسة برغم ما يمتلكه الانسان من تيسيرات مادية سهلت له حياته وجملتها بألوان لم تكن تخطر له على بال ..

---

(١٤) الفلسفة القرآنية للعقاد ص ٤٧ ، ٤٨ .

فهل يمكن لهذا الضلال الذى يتبناه العالم فى شرقه وغربه وماجنى منه غير الشوك والألم والدموع أن يتساوى بمنهج الله العظيم وهديه الكريم ، وبما أرساه من قواعد العدل الالهى المرتبط بعقيدة ثابتة لا تتغير توجه الحياة فى اطار الايمان بالله ربا وبكتابه دليلا وبرسوله مرشدا وموجها فتبعد بذلك عن تفاهات العقول وعجزها وتسمو الى ما تتطلع اليه الانسانية على اختلاف منازعها ومشاربها ؟؟

٤ ــ الحــرية :

والحرية دعوة عريضة يتمسح بها القادة والزعماء ويزعمها كل نظام فى أنحاء الأرض ، وفرق بين الزعم والحقيقة والواقع والخيال ..

فالديمقراطية الغربية تقوم على الحرية المطلقة للفرد متأثرة فى ذلك بالثورة الفرنسية واعلان حقوق الانسان الصادر عام ١٧٨٩م الذى يجعل للانسان حقوقا طبيعية أو حقوقا فردية هى ، الحرية والمساواة والملكية وحق الأمن وحق مقاومة الظلم ، وهذه كلها تعرف بالحريات العامة .. وبرغم الجمال الظاهرى لتلك الحرية ، فانه ثبت فشلها فقد أثبتت التجربة :

١ ــ عجز هذا المذهب عن تحديد وتقييد سلطان الدولة فالواقع أنه ينتهى بها اما الى الفوضى واما الى الاستبداد والسلطان المطلق ..

٢ ــ لا يفرض التزامات ايجابية على الأفراد ..

٣ ــ ولا على الدولة فليس عليها تعليم ولا مساعدات أو اعانات أو توفير العمل للعاطلين(١٥) ..

---

(١٥) مبادىء نظام الحكم د. عبد الحميد متولى ص ٧٩٤ .

وليت ما تدعيه أبواق الدعاية الغربية والأمريكية يصبح واقعا والضياع على أيدى هؤلاء ، وما وصلت أمم الأرض الى حريتها وما فى حياة الانسان .. الا أن الأمر قد اختلف فاذا بهذه الدعاوى العريضة فى تبنى الحرية كلمات جوفاء ، واذا بالشعوب تــذوق المذلة والهوان تخلصت من ظلمهم وجورهم الا من عهــد قريب ، وما زالت كثرة من شعوب الأرض تعانى الحرمان والكبت والضيق من جراء احتلال أراضيها، بل ما زال الاستعمار المقنع فى أجزاء كثيرة من العالم .

وماذا عن حياة هذه الأمم التى تدعى الحضارة والحرية ، هــل تحرر فيها الفرد أم كبلته الأهواء والشهوات وأصبح عبدا لملذاته لأنه محروم من هداية السماء ؟ وهل شعر الانسان هناك بآدميته ، وأحس المجتمع برابطة الاخاء تجمع الناس على بساط المودة والرحمة أو أن التمزق أصاب هذه المجتمعات فاذا باللون يلعب دورا خطيرا فى حياتها فتصبح التفرقة العنصرية لعنة تفتت رباطها وتشتت شملها وتصل فى ذلك الى مستوى خطير حرمت به الرجل الأسود من حق الحياة : أبسط الحقوق التى ينالها انسان عاش على ظهر الأرض .

واذا تبين فساد دعوة الحرية التى يعتنقها الغرب وأن الفرد فى هذه الأمم لم يشعر بها ولم يتذوقها كما أن الشعوب التى اتصلت بهذه الأمم ذاقت الاستعباد والظلم فانه لا يجوز لعاقل أن يفاخر بما يراه من الفتات المتساقط على موائد القوم ، وذلك اذ يرى كيف يستطيع كل انســان أن يناقش رئيس دولته وأن يختار من يمثله فى المجالس النيابية وأن ينتقد ما يراه مخالفا للمصلحة العامة فكل ذلك لا يقاس بما ران على النفوس من مذلة للأوضاع الفاسدة وما شاع فى هذه الشعوب من عبودية بعضهم لبعض ومن تفرقة بغيضة بين الطبقات ومن سيطرة رأس المال وتحكمه فى الرقاب .

أما الشيوعية فانها أرادت الحرية من طريق مسدود : فقد تبنت نظام امتلاك الدولة لكل وسائل الانتاج أملا فى تحرير العمال من أصحاب رءوس الأموال ، ولكنها فى الوقت الذى منعت فيه استغلال أصحاب الأموال فرضت عبودية الدولة وسلطان الحزب الشيوعى على مقدرات الناس وحياتهم ، وقضت بذلك على الحرية الشخصية ورسمت طريقا للسلوك لا يجوز للفرد أن يخرج عنه والا كان مصيره الهلاك .

« فجميع الأفراد فى النظام الشيوعى أجراء ، ولكن لا حرية لهم فى قبول العمل أو فى اختياره ، هم جنود محاربون ولكن لا فى سبيل الوطن أو فى سبيل الله أو بدافع التضحية لذات التضحية ، انما هم مساقون بالدفع من الخلف والسوط فى هذا الدفع الخلفى هو الذى ينطق دون التذكير بمعانى المجد والحرص على سلامة الوطن ، وجميعهم فى ظل هذا النظام أيضا منتجون ولكن انتاجهم انتاج « كم » أكثر منه انتاج « كيف » اذ تنقصهم الرغبة فى العمل ويدفعهم الى قبوله خلاء المعدة والرغبة فى ملئها فقط ، وهذه هى الماركسية عدوة الحياة الانسانية وعدوة الدين والايمان بالله وعدوة الملكية الفردية وعدوة الحرية فى الرأى وفى التعبير وفى العمل وفى نظام الحياة وفى بناء الأسرة ، التمليك الجماعى خداع ، والدولة ذات الطبقة الواحدة خداع ، الكل مسوقون والسائق حفنة من القادة ، واتجاه السير فى الحياة الى المعدة ، المعدة ، وبدل أن تعين أتباعها على أن يرفعوا رءوسهم لينظر بعضهم بعضا تحملهم على أن يخفوا وجوههم حتى لا يرى الواحد منهم الآخر على حقيقته ، ثم عليهم ولهم أيضا أن يتحسسوا بطونهم ويسمعوا نداءها وحده الافراد الشيوعيون مقضى عليهم بالفناء فى صورة ما ،والدولةهى الباقية ، فأى مجتمع يحيا اذا ماتت أفراده فى حياتهم وفى قبورهم على السواء ؟! أهو مجتمع العبيد أم مجتمع الانسان الحر الكريم؟ مع الأسف انها لا تؤمن بالحرية ولا بالكرامة ولا بأمثال هذه المثاليات ، انها لا

تؤمن الا بالجسد وبحيوانية الجسد ، وتكفر بانسانية الانسان وبخالق الإنسان معا وهو الله جل شأنه [١٦] » ..

واذن :فالعالم بأسره لم يعرف الحرية الا فى ظل منهج القرآن الذى رسمه لتربية المجتمعات، وقد جعلها شعورا واحساسا ينطلق بهما الانسان الى الآفاق السامية النبيلة دون أن يضغط على أعصابه خوف على منصب أو مكانة أو يهزه تملق كاذب أو يجرفه أمل فى سعة الرزق أو ضيقه أو نفع أو ضر أو متعة زائلة ، فهو حر من داخله بايمانه بمصدر القوة والرزق والنفع والضر والسعادة والشقاء ، وذلك كله عند الله ربه الذى خلقه ورزقه ..

ولم تعرف الحرية بكل ألوانها وأشكالها الا فى ظلال هذا المنهج : حرية التدين والتعليم والعمل والتملك وحرية الفرد السياسية والمدنية والاجتماعية والأدبية الى غير ذلك مما جعله القرآن واقعا حيا نابضا بالقوة والحركة ، وذلك بما رسمه من مبادىء تحفظ للانسان كرامته وحقه فى حياة آمنة مستقرة ، وما ربى عليه انسانه من الثورة على الظلم والتمرد على الظالمين ، ورفض كل أشكال الطغيان وصوره .

وهذا طريقه لتصفية الرق وتحرير الانسان واضح : فقد أقر الرق واعترف به ولكنه وضع خطته للقضاء عليه ، ورفع الرقيق فى فترة الانتقال هذه الى مرتبة لم تحلم بها الانسانية فى تاريخها كله ، بل انه أعطاهم من الحقوق ما لم تحصل عليه كثير من المجتمعات فى العصر الحديث ..

ومثل هذا المنهج الالهى الذى حرر الانسان وأطلق طاقاته وفتح

---

(١٦) الفكر الاسلامى الحديث د. البهى ص ٤٠٩ ، ٤١٠ .

أمامه كل الأبواب ولم يمنعه الا مما يتنافى مع انسانيته وكرامته ، أو ما فيه ضرر بنفسه أو مجتمعه ، مثل هذا المنهج لا يلتقى بمناهج البشر ولا يقارن بها أبدا بعد أن تبين خبثها وفسادها واشقاؤها للانسان الــذى لم يبق أمامه الا اشراق كتاب الله يلتمس فيه الرؤية الواضحة الى الطريق المستقيم ..

٥ ــ المساواة :

ما أجدرنا نحن المسلمين أن نفاخر بما أتاحه منهجنا القرآنى للبشرية من مساواة حقة نابعة من الوجدان الذى ملأه هذا المنهج بالثقة فى الجنس البشرى ، وأنه كيان واحد انبثق من أصل واحد ليس فيه الا ما يوجبه هذا الرباط من أخوة ومودة ومحبة ، وكل من ادعى ميزة على غــيره بحكم الجنس أو اللون أو الأرض أو غير ذلك من الأمور العارضــة فدعوته باطل وزور وبهتان ..

وعلى هذا الطريق سار منهج القرآن : فأقر التفاوت فى المــواهب والملكات وما يتبع ذلك من تفاوت فى حظوظ الرزق ومناصــب الحياة العلمية والأدبية ، ولكنه لم يجعل هذا التفاوت وسيلة لاستعلاء جنس على جنس أو طبقة على طبقة ، انما دعا الخاملين الى بذل الجهد بغيــة الوصول الى القمة ، ودعا الممتازين الى التواضع وجعل ما فى يدهم من مواهب تفضلا من ربهم وعطاء يستحق الشكر ، وما شكر هذه النعم الا ببذلها فى اسعاد الناس ..

وبهذا التقى الجميع على بساط الوئام والصفاء وذابت طبقــات المجتمع وفئاته فى وحدة جامعة ولم يبق هناك مجال لصراع الطبقــات أو استعلاء فريق على فريق ..

وذهبت المساواة مذهبها فاذا بها دستور الحياة فى مجتمع الاسلام: تشمل جميع أوجه النشاط فيه من سياسية واجتماعية واقتصادية وعلمية، فقد نالت المرأة ـ تحت ظل هذا المنهج ـ حقها كاملا وتساوت بالرجال فيما يستحق المساواة ، وتساوى الأغنياء بالفقراء والسادة بالعبيد والموالى وأهل الذمة بالمسلمين .. ولم يمنع الفقر أو العبودية أو الموالاة أو الدين أو غير ذلك مما تعارفت عليه المجتمعات فى تاريخها الطويل أسبابا تفرق بين الناس .. ولم يمنع ذلك كله أى فرد أن ينال حقه كاملا فى الاستمتاع بمتع الحياة والوصول الى ما يحب ويرجو وتحمل مسئوليته وجزائه فى غير ظلم ولا اجحاف ..

وهذه المساواة الكاملة لم تعرفها الرأسمالية أبدا : انما اندفع فلاسفتها يطالبون بلون واحد من المساواة هى المساواة أمام القانون ، وذلك لما كان لطبقة الأشراف ورجال الكنيسة من امتيازات على غيرهم، فاذا هدمت تلك الامتيازات وتساوى الناس فى الحقوق المدنية فقد تحققت المساواة فى نظرهم أما فى غير ذلك فلا مساواة ، بل ان هذه المساواة أمام القانون لم تحصل عليها الشعوب الا من عهد قريب بعد الثورة الفرنسية وبقيت ـ الى وقتنا هذا ـ جوانب المجتمع يفتتها الفهم الضيق للحياة وقيمها ومثلهااذ يفرض اللون والجنس والدين سلطانه على كل مظاهر تلك الحياة ..

ومع ذلك ينخدع بعض الناس بمظهر ما تتمتع به تلك الأمم من تيسيرات مادية فيظن ذلك هو التحضر والرقى ، ومادرى أن الحضارة ليست فى امتلاك طائرة أو باخرة أو نوع من أنواع المتع والراحة والترفيه فحسب ، انما هى أولا وقبل كل شىء فى امتلاك المبادىء التى تسكب السعادة فى القلوب وتتيح الحياة الكريمة للبشر ..

وأغرب مساواة هي التي توهمها ـ ماركس ـ وطبقها لينين في البلاد السوفيتية بعد نجاح الثورة الشيوعية ، فقد توهم ـ ماركس ـ أن المادة « هي كل شيء ، وأن التفاوت الاقتصادي أدى الى الاستغلال والظلم ، والتاريخ كله يدور في فلك المادة والاقتصاد ، والوسيلة ـ اذن ـ هي ازالة هذا التفاوت واستيلاء الدولة على كل شيء والقضاء على الملكية واعطاء كل فرد بقدر حاجته المعيشية بعد أن يبذل كل طاقته والمساواة في الأجور هي المساواة الكاملة في نظر ماركس .. وما أضيق هذه النظرة الى مجرى التاريخ ودوافع الحياة فان التاريخ لا تتقيد خطاه بتنظيم الأجور على نحو من الأنحاء ، لأن دوافع الحياة أعمق من ذلك وأعظم « ولن يمتنع تفاوت الأرزاق ولو منعته جميع القوانين التي في طاقة الحكومات أو الجماعات ، على أنه لو امتنع يوما بحيلة من الحيل الحكومية لبقي التفاوت الذي لا حيلة فيه لحكومة قط ولا تعدله في قيم الحياة قيمة تتعلق بالأرزاق أو بالأموال لأنه هو التفاوت الذي يسعد ويشقي ويرفع ويضع وتناط به الآمال والجهود والغبطة والرجاء، فقد يولد الانسان بوجه جميل يفتح له القلوب ويسخر له اللذات وتتمناه الألوف فلا هو قادر على أن ينزل عنه ولا هم قادرون على أن يأخذوه وقد يمتاز الانسان بالقوة التي تقاوم العلل وتستغني بالقليل من الطعام والكساء عن الكثير الذي لا ينفع الآخرين . وقد يمتاز بالذرية التي تعز على غيره ، أو يساوي غيره بالذرية ويمتاز عليهم بنجابة الأبناء، وقد يمتاز بالعبقرية والنبوغ ، وقد يمتاز بالفصاحة وذرابة اللسان وقد يمتاز بالظرف والفكاهة والايناس ، وقد يمتاز بطول الأجل والرضا عن العيش واعتدال المزاج وقد يمتاز بالهيبة ووجاهة المحضر وبروز الشخصية بين الأنداد والأقران [١٧] » ..

---

(١٧) الفلسفة القرآنية للعقاد ص ٤٦ .

ولقد فعلت هذه المواهب فعلها برغم كل نظام وما استطاعت القوة والارهاب أن تجبر الطبيعة على غير ما خلقت له . فظهر التفاوت بين أناس يرغبون جميعا فى منعه وأنشأوا الطبقات باليمين وهم يحاربونها باليسار ..

وهكذا تشقى الانسانية وتتعذب حين تختار لنفسها غير ما اختاره لها خالقها ، وما كان بها من حاجة الى هذا الضلال ومنهج الله بين أيديها من أربعة عشر قرنا من الزمان يحقق لها الحرية والمساواة والعدالة على أكرم ما أرادت وعلى أعظم ما تمنت ..

٦ ـ نظام الحكم :

ويأتى نظام الحكم فى المنهج الالهى محققا لآمال الانسان فى الحياة الحرة الكريمة ، اذ يقوم على أساس من الشورى والعدل وقيام الحاكم فيه بمسئوليته فى حراسة دين الله ، وتنفيذ شريعته وأداء الرعية لحق الطاعة لأميرها وقائدها .

والمقارنة بين طريقة الحكم الاسلامى وغيره من النظم العالمية قديما وحديثا قد سبق الحديث عنها (١٨) ، ومنها يتضح أن نظام الحكم الاسلامى فريد لم يضارعه نظام سابق أو لاحق وليس تقليدا لأى نظام بشرى ، وآن التقاء بعض النظم به فى جزئيات منها ليس كفيلا أن يجعل هذه النظم اسلامية ، ولا أن يجعل النظام الاسلامى مندرجا تحت واحدة منها ، وما يقال انه اشتراكى أو ديمقراطى أو غير ذلك لا يعطى الصورة الصادقة لهذا النظام ، فحسبه أنه نظام اسلامى وكفى ، ولن يشرفه أن

---

(١٨) فى الباب الثالث ـ الفصل السادس : نظام الحكم من ص ٣٤٥ وما بعدها

يكون قريبا من هذه النظم ولا ينقص من قدره أن يكون بعيدا عنهـا فلها مناهجها الخاصة ومجتمعاتها وظروفها وملابساتها التى طبقت فيها ، وللحكم الاسلامى منهجه الذى أصلح به فساد أمة جاهلة ، كما أن له طريقته فى اصلاح كل فاسد وتقويم كل معوج فى كل زمان ومكان وذلك بما فيه من عناصر القوة والصلاحية ، وبما اشتمل من مرونة فى التطبيق مما يدفع بالتقدم الانسانى الى الأمام فى ظل عدالة الهية تضمن لكل صاحب حق حقه ..

وما تدعيه الديمقراطية الحديثة من أنها أرقى نظام للحكم وصـل اليه الانسان فى تاريخه كله محض ادعاء كاذب . فان العدالة ــ وهى مطلب كل جماعة انسانية ــ ليس لها وجود فى تلك النظم اذ لا تشترط فى الحاكم ولا فى سياسة الحكم ، كما هو نظام الحكم الاسلامى الـذى يهدف الى اقامة السياسة العادلة وهى التى تعنى باسعاد الأمة وتعمل على تحقيق مصالحها ، ولا ينفذ هذه السياسة الا حاكم عادل فى مجتمع عادل ..

وأبرز ما فى الديمقراطية نظام التمثيل الشعبى وهو : ذلك النظام الانتخابى الذى يهدف الى تمثيل الأحزاب السياسية تمثيلا فى البرلمان يتناسب مع قوتها أى مع عدد أتباعها من الناخبين « وقد أدى هـذا النظام فى كثير من البلاد الى اضطراب سير أداة الحكم والى عـدم الاستقرار الوزارى وخلق وزارات ائتلافية (أى مكونة من عـدة أحزاب مختلفـة) يسـود أعضـاءها النزاع والخصـام لا الوئام والانسجام »[١٩] .

وفى التطبيق الشيوعى يقوم الحزب الشيوعى بفرض سلطانه على حياة الشعب وينال من المزايا والمناصب والمتع ما لا يتاح لغير أعضائه .

---

(١٩) مبادىء نظام الحكم فى الاسلام د. عبد الحميد متولى ص ٦٩٩.

ويمثل هذا النظام فى الحكم أسوأ ما عرفت المجتمعات من القسر والارهاب بما يمتلك من جهاز المخابرات السرية بدرجاته المتعـــددة ، والذى يبسط يده على كل مرافق الحياة ، وبما يمتلك ـ أيضا ـ من وسائل القوة المادية المسلوبة من كل طبقات الشعب والمركزة فى يـــد فئة قليلة منه ..

ومن البداية يعلن هذا النظام أنه قائم على صراع الطبقـــات وديكتاتورية الطبقة العاملة (البيروليتاريا) مما يدفع الحكم الشيوعى بالفساد والضياع ..

والنظام الديمقراطى والشيوعى فى الحكم لا يمثلان حياة الشعوب ولا يشرعان من أجلها ، انما يحكمان لصالح طبقة معينة هى الطبقـــة الحاكمة فيســود الظلم وتضــيع الحقــوق . يقــول الدكتور محمد عبد الله العربى : « ان المتتبع للتشريعات الحكومية الوضعية منذ أقدم العصور الى اليوم لا يلبث أن تصدمه ظاهرة مستمرة وممتدة طــوال عصور التاريخ . هذه الظاهرة هى أن بعض البشر سواءكان هذا البعض حاكما فردا أو طبقة مسيطرة أو هيئة نيابية مفروض فيها أنها تمثل الشعب تمثيلا صحيحا فى أقله وزائفا فى أكثره ـ أقول بأن بعض البشر حــين يستأثرون بالتشريع لابد أن يصوغوا تشريعهم لصالح أنفسهم .. ذلك طبع بشرى لا معدى عنه ولا محيص ، انه لا ينبع من رغبة شريرة أو نية مبيتة لظلم الناس ، انما ينشأ عن طبيعة الانسان ذاتها قال الله تعالى فى وصف طبيعة الانسان ..

« وَإِنَّهُ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ » (٢٠)

---

(٢٠) سورة العاديات ١٠٠/٨ .

والخير هنا هو : المال وقال الله تعالى :

« زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ »(٢١)

ومن ثم يقرر علماء السياسة أن الطبقة الحاكمة تحكم لصالح نفسها على حساب بقية الطبقات . فى مصر القديمة كان فرعون يقول : أنا ربكم الأعلى ، فكان تشريعه يلتزم تثبيت حكمه على حساب مصلحة الشعب كله : فى اليونان القديمة ، فى امبراطورية الرومان ، فى امبراطورية الفرس ، كانت كل الحقوق مقصورة على طبقة معينة دون سائر الطبقات حتى قال روسو : « ان الحرية فى العصور القديمة انما قامت على أكتاف العبودية ، فى العصر الاقطاعى — فى القرون الوسطى — كانت طبقة الاقطاعيين هى الحاكمة وتحكم لصالح نفسها على حساب بقية الطبقات الأخرى ، وكانت تشرع لحماية مصالح الاقطاع ضد الفلاحين فتعطى الاقطاعى حقوقا وامتيازات تحرم منها الفلاح وتخفف من الواجبات على كاهلها ، فى حين تثقل بها كاهل الفلاح . فى الوثيقة الشهيرة فى بريطانيا فى القرن الثالث عشر ، وثيقة «الماجنا كارتا» انما انتزعها الأشراف من الملك بغير تفكير فى مصلحة الشعب بل لمصلحة الأشراف أنفسهم وللحد من سلطان الملك عليهم ، فى فرنسا — قبل الثورة الفرنسية — كان التشريع بأيدى طبقة الأشراف ورجال الدين فأعفوا أنفسهم من الضرائب ومن

---

(٢١) سورة آل عمران ٣/١٤ .

الخدمة العسكرية الاجبارية وفرضوها على سائر طبقات الشعب ، فى الرأسمالية المعاصرة تحكم طبقية الرأسـمالين فتشرع لحماية مصـالح الرأسمالية ضد العمال وحتى ان وضعت فى التشريع نصوصا نظرية تبرق بألفاظ المساواة أمام القانون فالذى يحدث عمليا أن استطاعة تنفيذ القانون هى دائما الى صـف الرأسمالى أقرب منها الى صـف العامل الصغير ، ويستطيع الرأسمالى أن يحشد من القوى الى جانبه ما لايستطيع العامل ، ويستطيع أن يوجه الرأى العام بوسائل الاعلام المختلفة التى يملكها الى ما ينتفع به هو أكثر من العامل .

فاذا ما انتقلنا من الدول الرأسـمالية الى الدول الشيوعية فنجد تشريعها يقرر فى صراحة وبغير تمويه أنه قائم على استعلاء طبقة العمال وتحطيم الطبقة البورجوازية ومهما تكن طبقة العمال هى الأغلبية فهناك فريق آخر ليسـس التشريع فى صـفه بل هو ضده بصراحه وعن عمد واصرار ..(٢٢) » .

وما هكذا الاسلام الذى جعل الحاكم حاميا لشريعة الله وقائما على حدودها وجعل المجتمع حارسا لهذا الدين يتعاون مع حاكمه وينفذ ارادته مادامت من أجل الحفاظ على وحى الله وليس لأحد فى مجتمع الاسلام حق التشريع لأن ذلك كله مرده لله وحده الذى خلق الخلق وهو أعلم بمن خلق وهو اللطيف الخبير ..

وبذلك ضمن نظام الحكم الاسلامى الأمن والاستقرار والعـدالة لكل من استظل بظله مهما يكن دينه أو لونه أو جنسه ، وفى التطبيق

---

(٢٢) التنظيم الحديث للدولة الاسلامية بين الشريعة والقـانون — محاضرة للدكتور/محمد عبد الله العربى .. بالخرطوم ص ٣٣ .

العملى الواقعى أصـــدق برهان وأقوم دليل وشهادة حق على أن منهج القرآن فى نظام الحكم لم يلحق به ولم يسبقه نظام سابق أو لاحق ..

رابعا ـ علاقة المجتمع الاسلامى بغيره من المجتمعات :

جرى العرف الدولى ـ فى القديم والحديث على أن الحياة للأقوى وتجلت هذه الظاهرة فيما يفرضه الأقوياء من ظلم واستغلال واحتقـار للضعفاء .. وبرغم ثورة الضمير الانسانى على هذا الامتهان للكرامة الانسانية فان الواقع كان أعمق من هذا الشعور ، فبقى الزمن يضيف الى هذه الحقيقة : حقيقة التظالم بين الأمم تأكيدا يتحدى به ماتجيش به الصدور من الآمال العذاب فى حياة أفضل لبنى الانسان ..

وجاءت المواثيق الدولية والمنظمات العالمية وأمم الأرض جميعهـا تدعى لنفسها تحقيق حلم الانسان فى عدالة الأقوياء للضعفاء وفى تحديد الحقوق والواجبات لشعوب الأرض واعطاء كل ذى حق حقه .. فهـل تحقق هذا الحلم أو مازالت شريعة الغاب تحكم الحياة وتوجهها ومازال عالمنا يموج بالفتن والقلق ؟؟

ولعل تناحر العالم فى حربين عالميتين فى أقل من ربع قرن ووقوفه على حافة حرب عالمية ثالثة تطيح بكل التقدم البشرى شاهد صدق على أن العلاقات الدولية وصلت الى حد الامتهان والفوضى والاستهتار بقيم الحياة الانسانية . وما تدعيه ديمقراطية الغرب والأمريكان من عظمـة علاقاتها بغيرها ووفائها بعهودها ودعوتها العريضة للسلام يدحضه الواقع الذى يقول لهؤلاء : أنتم كاذبون فهذه الحروب التى أشعلتموها وهؤلاء الضحايا الأبرياء الذين أزهقتم أرواحهم وشردتم أطفالهم وأيمتم نساءهم بل قتلتم أطفالهم ونساءهم ، وتلك الثروات التى نهبتموها . كل ذلك وأكثر من ذلك يكشف زيف هذه الديمقراطية وعدالتها المدعاة ..

أما المجتمع الشيوعى فحسبه أنه يحاول التسلل للشعوب فى خبث من أجل تحويلها الى الشيوعية واثارة الطبقات ونشر الالحاد ، وحسبه أن غير الشيوعى ليس له مكان فى هذا المجتمع ، وأن الحرية والمساواة والعدالة بين الناس ليس لها وجود فى تلك المجتمعات ..

وحين يقارن هذا كله بمنهج القرآن فى تحديد علاقة مجتمع الاسلام بغيره من المجتمعات يبدو هذا المنهج سامقا عظيما لا يطاول سواء فى بواعث هذه العلاقات أو فى واقعها الذى سعدت به الدنيا ، وما أحوجها أن تسعد به من جديد فأمة القرآن التى أخذت وضعها الدولى على أرض المدينة انطلقت تجاهد العالم وترده الى منهاج الله فمن قبل منها هذا المنهج سالمته وتركته وما يدين به ومن وقف فى طريقها حاربته حتى يحكم الله بينهما وبينه ، وكان لابد لهذه الأمة من سياسة واضحة المعالم تحدد موقفها من كل الأجناس والشعوب، فكان كتاب الله يمدها بالبيان الواضح الجلى ويرسم لها الطريق فى دقة واحكام ..

ولقد رأت الشعوب جمال الوفاء بالعهود والحفاظ على كل عهد وميثاق ورأت قوما يتحركون باسم الله فلا يخونون ولا يغدرون ، يدعون الى السلام بقولهم وفعلهم . ومن احتمى بحماهم من أهل الأديان الأخرى له من الحقوق بما للمسلمين وليس عليه الا الجزية أو الخراج وأن يحفظ عهد المسلمين فلا يعتدى عليهم ولا يحالف عدوهم .

ولقد عاش اليهود والنصارى وغيرهم فى ظل دولة الاسلام فاستمتعوا بما أتاحه هذا الدين لكل من استظل بظله من الأمان والسلام، كما جاور هذا الدين كثير من أمم الأرض فما وجدت من مجتمع الاسلام غير العدالة والوفاء ،وفاء نابع من عقيدة المسلمين وايمانهم

بخالقهم ، وهى العدالة التى تحميها القوة والوفاء الذى يحرسه الرجال والحقوق المصونة المحفوظة لكل انسان ..

هذا فوق ما عرف لهذا المنهج من دعوته السلمية لأهل الكتاب وغيرهم من أهل الأديان الأخرى وكيف أقام الحجة الواضحة على خطأ ما يعتقدون وبين لهم الطريق الواضح المستقيم وبرغم ما يمتلكه من وسائل القوة التى يستطيع بها أن يجبر هؤلاء على الايمان بمبادئه فانه لم يفعل ذلك انما كانت سياسته :

كما قال تعالى :

« ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ » (٢٣)

وكما قال :

« قُلْ يَـٰأَهْلَ الْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِن دُونِ اللهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ » (٢٤)

---

(٢٣) سورة النحل ١٢٥/١٦ .

(٢٤) سورة آل عمران ٦٤/٣ .

فهل وصلت مناهج البشر بما لديها من منظمات عالمية وبما تمتلك من وسائل الذيوع والانتشار وبما يساندها من قوى مادية لم تتيسر لجيل من أجيال الانسانية .. هل وصلت الى هذا الشمول وتلك الاحاطة فى تحديد العلاقات الدولية ، وهل بلغت حد الاحكام فى تنفيذ القانون الدولى واتاحة الفرصة أمام الشعوب لتحيا آمنة مستقرة كما فعل منهج القرآن ؟؟

انه اذا كان لأتباع كل أمة أن يفاخروا بما لديهم فان أتباع أمــة الاسلام لا يدانيهم أحد ، ويكفيهم فخرا أن منهجهم القرآنى وصل الى القمة وهو يقرر من ألف وأربعمائة عام كيف يكون وضع المجتمع المسلم حامل رسالة السلام ، وكيف تقوم علاقاته مع شعوب العالم على أساس متين من رعاية مبادىء الاسلام وحفظ حقوق الأخوة الانسانية دون خلط بين هذه وتلك ..

كما وصل هذا المنهج الى القمة وهو يجعل من أبناء الاسلام حماة الحق ، وذادة العدالة ، وأنصار الشعوب المستضعفة فحملوا ســلاحهم الذى هدموا به معاقل الظلم والطاغوت حتى أشرق نور السلام من حد سيوفهم ، ورأت الأمم المغلوبة فيهم بر النجاة الذى ألقت عنده قلاعها ، وما هى الا لحظات من عمر الدهر حتى دانت تلك الأمم بدين الاســلام وتحدثت بلغة القرآن ومن بقى على دينه عاش كريما حرا فى ظل منهج القرآن العظيم وفى ذمة حماته من المسلمين ..

« وبعــــد »

فلعلنا أن نكون قد وصلنا الى بعض النتائج من خلال هذه الخاتمة ونحن نقارن بين منهج القرآن فى تربية المجتمع والنظم العالمية وعــــلى

رأسها النظام الرأسمالى والشيوعى .. وأقول بعض النتائج لأن النتائج كلها بدت من خلال البحث ونحن نستعرض منهج القرآن فى كل أمر وكل شأن له علاقة بتربية المجتمع ، سواء فى الجانب العقائدى أو الأخلاقى أو التنظيم الاجتماعى أو الدولى ، وفى أثناء ذلك تكون المقارنة بين المنهج القرآنى وما عداه من مناهج البشر ..

ولقد تبينت عدة حقائق هامة أكدناها فى كل موقف ونؤكدها هنا هى :

أولا : أن المنهج القرآنى فى تربية المجتمع لا يضارعه منهج قديم أو حديث ، وذلك لأنه تخطيط الهى ومنهج ربانى ، ويستحيل أن يتساوى فكر الانسان العاجز القاصر بمنهج الله العليم بما فى الكون ومن فيه والمحيط بالزمن فى أزله وأبده ..

وثانيا : أن الانسانية شقيت وتعذبت كثيرا قبل أن ترى هذا المنهج الالهى فلما سعدت به استراحت وأمنت فترة طويلة من عمرها ..

وثالثا : غاب هذا المنهج عن الحياة فعاد لها شقاؤها وعذابها ، ولقد وصلت فى هذا العصر الى قمة هذا الشقاء برغم ما تمتلكه من وسائل الراحة وما تفرضه من سلطان على مظاهر الطبيعة وتوجيهها لخير الانسان ..

ورابعا : أن دول العالم المتقدمة ماديا غرها ما أتاحه لها العلم المادى من سلطان وقوة فتاهت كبرا وافتخرت زورا بما لديها من فلسفات أقامت على أساسها نظام مجتمعاتها وفاتها أن الشقاء والتعاسة والبؤس نذير خطر فى تلك الأمم مما يبين فساد ما ادعت وبطلان ما قالت ..

وخامسا : أن أمة الاسلام ليس عندها ما تقدمه لهذا العالم المكدود الا ما قدمته أولا ومن واجبها الذى يفرضه عليها دينها أن تقدمه اليوم ، وذلك هو هذا المنهج العظيم ، اذ بذلك تنال عز الدنيا وسعادة الآخرة وتنقذ البشرية من الدمار الخطير والكارثة المحققة ان استمرت فى طريقها المنحرف عن منهج الله ..

وسادسا : هذا المنهج المتكامل لبناء الفرد وبناء الجماعة لا يجور على الفرد فيجعله آلة صماء ليس لها حق الحياة ولا يعتدى على حق الجماعة فيترك الفرد يطغى ويظلم انما هو الاعتدال الذى اتسم به هذا المنهج وبه كانت أمتنا أمة وسطا تحقق الخير والعدل والسلام لكل من عاش فى ظلها ..

وما أحوجنا الى هذا المنهج الربانى فى زمن تعالى فيه الباطل وضاعت فيه الحقوق وسلبت الشعوب أرزاقها وأمنها ..

ما أحوجنا الى هذا المنهج الربانى نخوض به معركة الحياة ضد أنصار الظلم ودعاة الفتنة .. وانا ان شاء الله لمنتصرون ..

« وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ ٱللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ * وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » (٢٥)

وحينذاك نسبح بحمد الله كما سبح لهذا النصر من أرسى قواعد المنهج العظيم صلوات الله وسلامه عليه وذلك اذ قال ربه :

---

(٢٥) سورة الروم ٣/٤ — ٦ .

« إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجاً * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابَا »(٢٦)

وصدق الله العظيم .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

(٢٦) سورة النصر ــ ١١٠ .

أهم المراجع

المراجع المذكورة هنا هى التى وردت فى هـوامش البحث وأسهمت فيه اسهاما مباشرا وقد رتبتها ترتيبا هجائيا بعد اسقاط حرف التعريف « ال » اما التى اعتمد عليها البحث اعتمادا غير مباشر فلم تذكر ..

١ ـ أبو حنيفة بطل الحرية والتسامح فى الاسلام : للأستاذ عبد الحليم الجندى ـ طبعة الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ١٣٩٠ هـ ـ ١٩٧٠م .

٢ ـ اجمال الكلام فى العرب والاسلام : للأستاذ مصطفى الدمياطى ـ طبعة المطبعة الجامعة ١٣١٣هـ .

٣ ـ أحكام الأسرة فى الاسلام ، د. محمد سلام مدكور ـ طبعة دار النهضة العربية ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م .

٤ ـ احياء علوم الدين : لحجة الاسلام أبى حامد الغزالى طبعة المطبعة العثمانية المصرية ١٣٥٢هـ ـ ١٩٣٣م . الطبعة الأولى .

٥ ـ الأخلاق : للأستاذ أحمد أمين . الطبعة الثالثة . دار الكتب ١٣٥٠ هـ ـ ١٩٣١ م .

٦ ـ الأخلاق : لصول سميلز . تعريب الأستاذ محمد الصادق حسين . مطبعة الاعتماد . ١٣٤٢هـ ـ ١٩٢٤م .

٧ ـ أدب الدنيا والدين : لأبى الحسن على بن حبيب المصرى الماوردى المتوفى سنة ٤٥٠هـ الطبعة السادسة . بالمطبعة الأميرية بالقاهرة. ١٣٤٤هـ ـ ١٩٢٥م .

٨ ـ أركان الاسلام الخمسة وأثرها فى حياة الأفراد والجماعات : للدكتور يحيى أحمد الدرديرى • الطبعة الثانية بالمطبعة السلفية ١٣٧١هـ ـ ١٩٥١م •

٩ ـ الاسلام دين المستوى الفاضل فى الانسانية : محاضرة للدكتور محمد البهى بجامعة الأزهر ٢٧ شوال ١٣٧٨هـ ـ ١٥ مايو ١٩٥٩م •

١٠ ـ الاسلام عقيدة وشريعة : للأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت • طبعة دار القلم بالقاهرة •

١١ ـ الاسلام فى حياة المسلم : للدكتور محمد البهى طبعة دار الفكر ببيروت •

١٢ ـ الاسلام فى عصر العلم : محمد فريد وجدى • مطبعة التركى سنة ١٣٢٠هـ •

١٣ ـ الاسلام والتعاون : للأستاذ عبد المنعم حمادة • اصدار المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ـ لجنة التعريف بالاسلام •• الكتاب ٤١ فى سنة ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م •

١٤ ـ الاسلام والوجود الدولى للمسلمين ، للشيخ محمود شلتوت ـ سلسلة الثقافة الاسلامية العدد الثالث ـ نوفمبر ١٩٥٨م •

١٥ ـ اشتراكية الاسلام : دكتور مصطفى السباعى • الطبعة الثانية بمطابع الدار القومية للطباعة والنشر سلسلة اخترت لك العدد ١١٣ •

١٦ ـ الشفاء : لأبى الفضل القاضى عياض بن موسى الأندلسى من علماء القرن السادس الهجرى الطبعة الأخيرة ١٣٦٩هـ ـ ١٩٥٠م •

١٧ ــ الأغانى : لأبى الفرج الأصفهانى . الطبعة الأولى بمطبعة الجمهور بمصر سنة ١٣٢٣هـ .

١٨ ــ الانسان فى القرآن : للأستاذ عباس محمود العقاد . طبعة دار الهلال .

١٩ ــ أهل الذمة فى الاسلام : تأليف دكتور : أ.س. ترتون الأستاذ بجامعة لندن . ترجمة وتعليق دكتور حسن حبشى . الطبعة الثانية ١٩٦٧ . دار المعارف ــ مطبعة الشاعر .

٢٠ ــ بدائع الصنائع فى ترتيب الشرائع : لأبى بكر بن مسعود الكاسانى الحنفى المتوفى سنة ٥٨٧هـ . الطبعة الأولى ١٣٢٨هـ ــ ١٩١٠م مطبعة الجمالية بمصر .

٢١ ــ بداية المجتهد ونهاية المقتصد : للشيخ أبى الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن رشد القرطبى . نشر مكتبة الكليات الأزهرية ١٣٨٦هـ ــ ١٩٦٦م .

٢٢ ــ البداية والنهاية : لابن كثير . اسماعيل بن عمر القرشى الدمشقى المتوفى سنة ٧٧٤هـ . مطبعة السعادة بمصر ١٩٣٨م .

٢٣ ــ البناء الاجتماعى : مدخل لدراسة المجتمع : د. أحمد أبوزيد مطبعة الدار القومية للطباعة والنشر ١٩٦٥م .

٢٤ ــ بروتوكولات حكماء صهيون وتعاليم التلمود : لشوقى عبد الناصر . الطبعة الثانية ١٩٦٧ دار التعاون للطباعة والنشر بالقاهرة.

٢٥ ــ تاريخ آداب اللغة العربية : لجرجى زيدان . طبعة دار الهلال ١٩٥٧م .

٢٦ ـ تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى : د. حسن ابراهيم حسن الطبعة الثانية ١٩٤٨م .

٢٧ ـ تاريخ الأمم والملوك : لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى ٢٢٤ ـ ٣١٠هـ . مطبعة الاستقامة بالقاهرة ١٣٥٨هـ ـ ١٩٣٩م .

٢٨ ـ تاريخ التمدن الاسلامى : لجرجى زيدان . الطبعة الثانية دار الهلال .

٢٩ ـ تاريخ الدولة العربية من ظهور الاسلام الى نهاية الدولة الأموية : للمستشرق الألمانى : يوليوس فلهوزن ـ ترجمة د. عبد الهادى أبو ريده . الطبعة الثانية ١٩٦٨م .

٣٠ ـ تاريخ الفتح الاسلامى فى عهد الرسول وعصر الراشدين وبنى أمية : للأستاذ محمد فخر الدين . طبعة مطبعة الطلبة بمصر .

٣١ ـ الترغيب والترهيب : للامام عبد العظيم بن عبد القوى المنذرى المتوفى سنة ٦٥٦هـ . الطبعة الثانية ١٣٧٣هـ ـ ١٩٥٤م. مطبعة الحلبى بمصر .

٣٢ ـ تطور الفكر التربوى : د. سعد مرسى أحمد ـ نشر عالم الكتب بالقاهرة . طبعة دار الثقافة العربية . مارس ١٩٦٦م .

٣٣ ـ التعصب والتسامح بين المسيحية والاسلام : للشيخ محمد الغزالى ـ نشر دار الكتاب العربى بمصر .

٣٤ ـ تفسير ابن كثير : المسمى تفسير القرآن العظيم : لأبى الفداء اسماعيل بن كثير القرشى الدمشقى المتوفى سنة ٧٧٤هـ . طبعة دار احياء الكتب العربية بمصر .

٣٥ ـ تفسير أبى السعود : المسمى : ارشاد العقل السليم الى مزايا القرآن الكريم : لأبى السعود محمد بن محمد العمادي المولود سنة ٨٩٦هـ والمتوفى ٩٥١ ـ مطبعة صبيح ١٣٧٢هـ ـ ١٩٥٢م .

٣٦ ـ تفسير البيضاوى : أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، لأبى الخير عبد الله بن عمر البيضاوى المتوفى ٧٩١هـ . وبالهامش تفسير الجلالين : السيوطى والمحلى الطبعة الأولى ١٣٥٨هـ ـ ١٩٣٩م . بمطبعة الحلبى بمصر .

٣٧ ـ تفسير الرازى : مفاتيح الغيب : للفخر الرازى ـ الطبعة الأولى ١٣٥٧هـ ـ ١٩٣٨م . بالمطبعة البهية المصرية .

٣٨ ـ تفسير سورة الانفال : عرض وتفسير : للدكتور مصطفى أبو زيد ـ الطبعة الثالثة ١٣٧٧هـ ـ ١٩٥٧م . طبعة دار الفكر العربى بمصر .

٣٩ ـ تفسير سورة النور : لأبى الأعلى المودودى . تعريب محمد عاصم حداد ـ طبعة دار الفكر ببيروت .

٤٠ ـ تفسير الطبرى : جامع البيان عن تأويل القرآن . لأبى جعفر محمد ابن جرير الطبرى . المطبعة الأميرية ١٣٢٧ هـ .

٤١ ـ تفسير القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ، لأبى عبد الله محمد ابن أحمد الأنصارى القرطبى . طبعة دار الشعب .

٤٢ ـ تفسير الكشاف : حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل . لأبى القاسم جاد الله ، محمود بن عمر الزمخشرى ٤٦٧ ـ ٥٣٨ مطبعة الحلبى بمصر ١٣٦٧ هـ ـ ١٩٤٨م .

٤٣ ـ تفسير المنار : المسمى تفسير القرآن الكريم : للسيد رشيد رضا ـ الطبعة الأولى بدار المنار سنة ١٣٢٥هـ .

٤٤ ـ تفسير النسفى : مدارك التنزيل وحقائق التأويل : لأبى عبد الله أحمد بن محمود النسفى ـ طبعة الحلبى بمصر .

٤٥ ـ تنظيم الاسلام للمجتمع : للشيخ محمد أبو زهرة ـ طبعة دار الفكر العربى بمصر ١٩٦٥م .

٤٦ ـ التنظيم الحديث للدولة الاسلامية بين الشريعة والقانون : محاضرة للدكتور محمد عبد الله العربى ـ بدار الثقافة . بالخرطوم فى يوم الثلاثاء ٢٤ ذو العقدة ١٣٨٨هـ ١١ فبراير ١٩٦٩م .

٤٧ ـ جامع بيان العلم وفضله : للامام أبى عمر يوسف بن عبدالبر النمرى القرطبى المتوفى ٤٦٣هـ صححه وراجع أصوله د. عبد الرحمن محمد عثمان . الطبعة الثانية ١٣٨٨ هـ . ١٩٦٨م ـ مطبعة العاصمة بالقاهرة .

٤٨ ـ الجامع الصحيح ، سنن الترمذى . لأبى عيسى محمد بن عيسى بن سورة ٢٠٩ ـ ٢٩٧ تخريج محمد فؤاد عبد الباقى . طبعة الحلبى الأولى ١٩٣٧م .

٤٩ ـ الجهاد فى سبيل الله : لأبى الأعلى المودودى . طبعة دار الفكر ببيروت .

٥٠ ـ حاشية الجمل على الجلالين : الفتوحات الالهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية : تأليف سليمان بن عمر العجيلى الشهير بالجمل المتوفى سنة ١٢٠٤هـ . وبالهامش كتابان : تفسير الجلالين واملاء ما من به الرحمن من وجوه الأعراب والقراءات فى جميع القرآن للعكبرى . مطبعة حجازى بالقاهرة ١٣٥٣هـ ـ ١٩٣٤م .

٥١ ـ الحرية فى الاسلام : للدكتور على عبد الواحد وافى . طبعة دار المعارف بمصر فى أبريل ١٩٦٨م . سلسلة أقرأ العدد ٣٠٤ .

٥٢ ـ حقائق الاسلام وأباطيل خصومه : عباس محمود العقاد الطبعة الثالثة دار القلم ١٩٦٦ .

٥٣ ـ حقوق أهل الذمة فى الدولة الاسلامية: لأبى الأعلى المودودى طبعة دار الفكر « بيروت » .

٥٤ ـ حقوق المرأة فى التشريع الاسلامى والدولى والمقارن : حسنى نصار . الطبعة الثانية دار نشر الثقافة بالاسكندرية .

٥٥ ـ حياة محمد : للأستاذ محمد حسين هيكل . الطبعة الرابعة ١٩٤٧م . مطبعة مصر .

٥٦ ـ الخراج فى الدولة الاسلامية حتى منتصف القرن الثالث الهجرى ، د. محمد ضياء الدين الريس . الطبعة الأولى ١٩٥٧ مكتبة نهضة مصر بالقاهرة .

٥٧ ـ خلاصة تاريخ العرب : لسديو . الطبعة الأولى ١٣٠٩هـ مطبعة محمد أفندى مصطفى بمصر .

٥٨ ـ دراسات موضوعية تحت ضوء القرآن والسنة : دكتور عبد الغنى الراجحى . مطبعة المعرفة بمصر .

٥٩ ـ دراسات فى تاريخ الشرق القديم : للأستاذ أحمد فخرى . نشر مكتبة الانجلو المصرية ـ دار ممفيس للطباعة . ديسمبر ١٩٥٨م .

٦٠ ـ دعوة التوحيد . حقيقتها . الأدوار التى مرت ، مشاهير دعاتها : للأستاذ محمد خليل هراس . مطبعة الامام بمصر .

٦١ ـ الدعوة الاسلامية دعوة عالمية : للأستاذ محمد الراوى . طبعة الدار القومية للطباعة والنشر ١٩٦٥م .

٦٢ ــ الدعوة الى الاسلام : سير توماس أرنولد . ترجمة د. حسن ابراهيم حسن وآخرين الطبعة الثانية للجنة البيان العربى سنة ١٩٥٧م .

٦٣ ــ دلائل التوحيد : للشيخ محمد جمال الدين القاسمى ــ الطبعة الثانية ــ لجمعية النشر والتأليف الأزهرية .

٦٤ ــ الربا : لأبى الأعلى المودودى تعريب محمد عاصم حداد مطبعة دار الفكر : بيروت .

٦٥ ــ الربا : للدكتور عيسى عبده ابراهيم . محاضرة بملحق مجلة لواء الاسلام العدد ١١ السنة ١٤ ــ رجب ١٣٨٠هـ .

٦٦ ــ رسالة التوحيد : للامام الشيخ محمد عبده . الطبعة الثانية ــ اصدار دار المنار بمصر سنة ١٣٨٦هـ .

٦٧ ــ الرسالة المحمدية : للسيد سليمان الندوى ــ المطبعةالسلفية ١٣٧٢هـ .

٦٨ ــ روح الدين الاسلامى : لعفيف عبد الفتاح طباره ــ الطبعة السادسة فى ٢١ جمادى الثانية ١٣٨٤هـ طبعة دار الكتب . ببيروت .

٦٩ ــ زاد المعاد فى هدى خير العباد : للامام ابن قيم الجوزيـة المتوفى فى ١٣ رجب سنة ٧٥١هـ ــ المطبعة المصرية فى رمضان ١٣٧٩هـ .

٧٠ ــ سبل السلام : لمحمد بن اسماعيل الكحلانى ثم الصنعانى ١٠٥٩ ــ ١١٨٢هـ . شرح بلوغ المرام من جمع أدلة الأحكام لأحمد ابن على العسقلانى ٧٧٣هـ ــ ٨٥٢هـ . طبعة الحلبى الرابعة ١٩٦٠م .

٧١ ــ سنن أبى داود بشرح الخطابى : الطبعة الأولى ١٣٥٢هـ ــ ١٩٣٣م . المطبعة العلمية بحلب .

٧٢ ـ سنن النسائي بشرح السيوطى وحاشية الامام السندى ـ المطبعة المصرية • الطبعة الأولى ١٣٤٨هـ ـ ١٩٣٠م •

٧٣ ـ السياسة الشرعية فى اصلاح الراعى والرعية : لأبى العباس أحمد بن تيمية ٦٦١ ـ ٧٢٨هـ تحقيق محمد ابراهيم البنا ، محمد أحمد عاشور • طبعة دار الشعب بالقاهرة ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧١م •

٧٤ ـ السياسة الشرعية أو نظام الدولة الاسلامية فى الشئون الدستورية الخارجية والمالية : للأستاذ عبد الوهاب خلاف • طبعة المطبعة السلفية بالقاهرة ١٣٥٠هـ •

٧٥ ـ سيرة ابن هشام : للامام عبد الملك بن هشام البصرى المتوفى سنة ٢١٣هـ وهى هامش كتاب الروض الأنف للامام السهيلى المتوفى سنة ٥٨١هـ طبعة مطبعة الجمالية بمصر سنة ١٣٣٢هـ ـ ١٩١٤م •

٧٦ ـ سيرة عمر بن عبد العزيز : لأبى محمد عبد الله بن الحكم المتوفى سنة ٢١٤هـ الطبعة الثانية فى جمادى الآخرة ١٣٧٣هـ ـ فبراير ١٩٥٤م مطبعة الاعتماد بمصر •

٧٧ ـ شرح المقاصد : لسعد الدين التفتازانى الطبعة الأولى بالمطبعة الخيرية بمصر •

٧٨ ـ الشورى فى الاسلام : تشريعا وتطبيقا : مقال للأستاذ عبد الكريم الخطيب بمجلة الوعى الاسلامى السنة السادسة العدد ٦٩ رمضان ١٣٩٠هـ •

٧٩ ـ صحيح البخارى بشرح ابن حجر مطبعة الحلبى ١٣٧٨هـ ـ ١٩٥٩م •

٨٠ ـ صحيح مسلم بشرح النووى : الطبعة الأولى ١٣٤٧هـ ـ ١٩١٩م المطبعة المصرية بالأزهر .

٨١ ـ صيد البشر : مقال للدكتور حسين مؤنس بجريدة الأهرام فى ١٩٧١/٢/١٩م .

٨٢ ـ الطاقة الانسانية للأستاذ أحمد حسين مطبعة مصر ١٩٦٢م .

٨٣ ـ عبقرية محمد للأستاذ عباس محمود العقاد طبعة دار الهلال ١٩٦٩م .

٨٤ ـ العرب وأطوارهم : للأستاذ محمد عبد الجواد الأصمعى الطبعة الأولى بمطبعة الجمالية .

٨٥ ـ العقد الفريد : لأبى عمر : أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسى طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٦١هـ ـ ١٩٤٢م .

٨٦ ـ العناية فى شرح الهداية : للامام محمد بن محمود البابرتى المتوفى سنة ٧٨٦ وهو هامش شرح فتح القدير لابن الهمام الطبعة الأولى بالمطبعة الأميرية ببولاق ١٣١٥هـ .

٨٧ ـ فتح البيان فى مقاصد القرآن ، لصديق حسن خنان المتوفى سنة ١٣٠٧هـ مطبعة العاصمة بالقاهرة ١٩٦٥م .

٨٨ ـ فتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية من علم التفسير: للشوكانى : محمد بن على بن محمد الشوكانى الصنعانى المتوفى فى جمادى الآخرة ١٢٥٠هـ طبعة الحلبى الأولى فى شوال ١٣٤٩هـ .

٨٩ ـ فتوح البلدان : للبلاذرى أحمد بن يحيى بن جابر ـ طبعة أولى ١٣١٩هـ ، ١٩٠١م شركة طبع الكتب العربية بمصر .

٩٠ ــ فجر الاسلام للأستاذ أحمد أمين الطبعة الثانية ١٩٣٣م ــ مطبعة الاعتماد ٠

٩١ ــ الفصل فى الملل والاهواء والنحل للامام أبى محمد على ابن أحمد بن حزم الظاهرى المتوفى سنة ٤٥٦ طبعة المطبعة الأميرية الأولى سنة ١٣١٧هـ ٠

٩٢ ــ الفكر الاسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى للدكتور محمد البهى الطبعة الخامسة ١٩٧٠م ــ دار الفكر ببيروت ٠

٩٣ ــ الفكر الاسلامى والتطور : للأستاذ فتحى عثمان طبعة دار القلم بالقاهرة ٠

٩٤ ــ الفلسفة الأخلاقية فى الفكر الاسلامى : د٠ أحمد محمود صبحى طبعة دار المعارف بمصر ٠

٩٥ ــ الفلسفة القرآنية : للعقاد ٠٠ كتاب الهلال العدد ٢٢٩ ذو الحجة ١٣٨٩هـ مارس ١٩٧٠م ٠

٩٦ ــ الفلسفة اليونانية : أصولها وتطوراتها : للبير ريفو ٠٠ ترجمة د٠ عبد الحليم محمود وأبو بكر ذكرى ــ مكتبة دار العروبة ٠

٩٧ ــ فى الدين والأخلاق والقومية : د٠ محمد عبد الله دراز ــ جمعها وقدم لها السيد محمد البدوى أستاذ الاجتماع بجامعة الاسكندرية

٩٨ ــ القاموس المحيط ، للفيروزابادى الطبعة الأولى ١٣٣٠هـ بالمطبعة الحسينية المصرية ٠

٩٩ ــ قيام الدولة العربية الاسلامية فى حياة محمد صلى الله عليه وسلم د٠ محمد جمال الدين سرور ــ الطبعة الثانية ١٩٥٦ ــ مطبعة الاعتماد ٠

١٠٠ ـ كتاب الأصنام : لابن المنذر هشام بن السائب الكليمى ـ تحقيق احمد زكى باشا ـ المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٣٣٢هـ ـ ١٩١٤م

١٠١ ـ كتاب الأموال : لأبى عبيد القاسم بن سلام المتوفى سنة ٢٢٤هـ تحقيق محمد خليل هراس • طبعة ثانية ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م دار الفكر بالقاهرة •

١٠٢ ـ كتاب الخراج : للقاضى ابى يوسف : يعقوب بن ابراهيم صاحب أبى حنيفة المطبعة السلفية ١٣٥٢هـ •

١٠٣ ـ الكتاب المقدس : « كتب العهد القديم والعهد الجديد » طبعة دار حلمى للطباعة • نشر دار الكتاب المقدس بالقاهرة •

١٠٤ ـ الله : لعباس محمود العقاد كتاب الهلال العدد ٢٠٧ ـ ربيع الأول ١٣٨٨هـ ـ يونيو ١٩٦٨م •

١٠٥ ـ الله والانسان : د• مصطفى محمود • طبعة دار الجمهورية بالقاهرة ١٩٥٧م العدد ١١٣ من سلسلة كتب للجميع •

١٠٦ ـ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين : للسيد أبى الحسن على الحسنى الندوى الطبعة الثالثة مطبعة المدنى ـ المؤسسة السعودية بمصر سنة ١٣٧٩هـ ـ ١٩٥٩م •

١٠٧ ـ مبادىء نظام الحكم فى الاسلام مع المقارنة بالمبادىء الدستورية الحديثة : د• عبد الحميد متولى الطبعة الأولى ـ دار المعارف ••

١٠٨ ـ مباهج الفلسفة ، ول ديورانت تقديم د• ابراهيم مدكور ترجمة د• احمد فؤاد الأهوانى مطبعة مصر ١٩٥٧م طبعة الثانية •

١٠٩ ـ المجتمع الاسلامي : د. أحمد شلبي الطبعة الثانية ١٩٦٧م ط دار الاعتماد العربي للطباعة نشر النهضة المصرية .

١١٠ ـ محاضرات في تاريخ الأمم الاسلامية : للشيخ محمد الخضرى بك طبعة الرابعة ١٣٥٤هـ مطبعة الاستقامة بالقاهرة .

١١١ ـ المحلي : لابن حزم المتوفى سنة ٤٥٦هـ الطبعة الأولى ١٣٤٧ ادارة الطباعة المنيرية . تحقيق الأستاذ أحمد شاكر .

١١٢ ـ المرأة في القرآن والسنة ومركزها في الدولة والمجتمع وحياتها الزوجية المتنوعة وواجباتها وآدابها : للأستاذ محمد عزة دروزه ط الثانية ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م منشورات المكتبة العصرية للطباعة والنشر ـ ـ صيدا ـ بيروت .

١١٣ ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر : للمسعودى أبى الحسن على الحسين بن على المسعودى المتوفى عام ٣٤٦هـ . تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ط الرابعة في ١٣٨٤هـ مايو ١٩٦٤م مطبعة السعادة .

١١٤ ـ المساواة في الاسلام : د. على عبد الواحد وافى ط الثالثة ديسمبر ١٩٦٥م طبعة دار المعارف بمصر مسلسلة اقرأ العدد ٢٣٥ .

١١٥ ـ المستدرك للحاكم : أبى عبد الله / محمد بن عبد الله المعروف بالحاكم النيسابورى المتوفى في صفر ١٤٥هـ ط مطابع النصر الحديثة .

١١٦ ـ المسند : للامام أحمد بن حنبل ١٦٤ ـ ٢٤١هـ شرحه ووضع فهارسه احمد شاكر . دار المعارف بمصر سنة ١٣٦٩ ـ ١٩٤٩م.

١١٧ ـ مشكاة المصابيح : للعلامة الخطيب التبريزى وبهاشه شرح مشكاة المصابيح لعلى القارى طبعة الحلبى الأولى ـ شوال سنة ١٣٠٦ .

١١٨ ـ مكة والمدينة فى الجاهلية وعهد الرسول لأحمد ابراهيم الشريف ـ مطبعة مخيمر نشر دار الفكر العربى .

١١٩ ـ الملل والنحل ، للشهرستانى : محمد بن عبد الكريم ٤٧٩ ـ ٥٤٨هـ تحقيق محمد سيد الكيلانى ـ ط الحلبى بمصر ١٣٨٧هـ ١٩٦٧م .

١٢٠ ـ منهاج الانقلاب الاسلامى : لأبى الأعلى المودودى ط دار الفكر ببيروت .

١٢١ ـ منهج القرآن فى بناء المجتمع : للشيخ محمود شلتوت ـ اصدار وزارة الأوقاف فى شوال ١٣٧٥هـ ـ الرسالة الخامسة .

١٢٢ ـ من هنا نبدأ : لخالد محمد خالد : ط العاشرة مارس ١٩٦٣م مكتبة المثنى ببغداد نشر وتوزيع مؤسسة الخانجى بالقاهرة .

١٢٣ ـ المواهب اللدنية : للعلامة القسطلانى شرح الزرقانى ط الأولى بالمطبعة الأزهرية سنة ١٣٢٥هـ .

١٢٤ ـ موجز تاريخ العالم : هـ.ج. ويلز ترجمة عبد العزيز توفيق ومراجعة محمد مأمون ط دار النهضة المصرية .

١٢٥ ـ نشأة الدولة الاسلامية : للأستاذ أمين سعيد ط ١٩٣٤م .

١٢٦ ـ نظام الأسرة وحل مشكلاتها فى ضوء الاسلام د. عبد الرحمن الصابونى طبعة دار الفكر ببيروت .

١٢٧ ــ نظام الحكم فى الاسلام : د. محمد يوسف موسى ط الثانية ١٩٦٤م دار المعرفة بمصر .

١٢٨ ــ نظام الحياة فى الاسلام : لأبى الأعلى المودودى ط دار الفكر ــ بيروت .

١٢٩ ــ نظرية الاسلام السياسية ، لأبى الأعلى المودودى ط دار الفكر ــ بيروت .

١٣٠ ــ النظريات السياسية الاسلامية : د. محمد ضياء الــدين الريس ط الرابعة ١٩٦٦ ــ دار المعارف بمصر .

١٣١ ــ النفحة الملوكية فى أحوال الأمة العربية الجاهلية للســيد عمر نور الدين القلوصى الأزهرى . ط الأولى ١٨٩٤م مطبعــة جريدة المهندس بمصر .

١٣٢ ــ النهاية فى غريب الحديث والأثر : لابن الأثير ومعه الدر النثير تلخيص ابن الأثير للسيوطى وبالهامش : مفردات ــ الراغب الأصفهانى فى غريب القرآن وتصنيفات المحــدثين فى غريب الحديث للحسن العكبــرى . ط الأولى ١٣٣٣هـ ــ المطبعة الخيرية بمصر .

١٣٣ ــ نيل الأوطار : لمحمد بن على الشوكانى ط الأولى بمطبعة بولاق فى رمضان ١٢٩٧هـ .

١٣٤ ــ هذا ديننا : للشيخ محمد الغزالى ط الثانية ١٣٨٥هـ ــ ١٩٦٥م مطبعة السعادة .

محتويات الكتاب

الموضـــــوع　　　　صفحة

الباب الأول

القــرآن والعقيدة

الموضـــوع صفحة

الباب الثانى

القرآن والتربية الأخلاقية

الفصل الأول :

الفصل الثانى :

الفصل الثالث :

الموضـــــوع	صفحة

الموضـــــوع صفحة

الموضـــــوع صفحة

الباب الرابع

تنظيم القرآن لعلاقة المجتمع الاسلامى بالمجتمعات الأخرى

الفصل الأول :

الفصل الثانى :

الفصل الثالث :

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٢٧	١٤	كَذِيًا	كَذِبًا
١٢٩	١٥	مِّنْ	مِّنَ
١٣١	١٧	مِّنْ	مِّنَ
١٣٢	٥	عَلَّمُ	عَلَّـٰمُ
١٣٢	١٠	إِنِ	إِن
١٣٤	٢	الرَّحْمَنُ	الرَّحْمَـٰنُ
١٧٥	٥	يَبْلُوكُمْ	يَبْلُوكُمُ
١٧٥	١٧	النحل١٦/٩،٩٢	النحل١٦/٩١،٩٢
١٩٣	٤	الْأخِرِ	الْآخِرِ
١٩٣	١٥	يُمَسِكُونَ	يُمَسِّكُونَ
١٩٩	١	مِّنْ	مِّنَ
٢٠١	١٤	الصَّلوٰةَ	الصَّلوٰةِ
٢٠٨	٥	لْمُنْزِلُونَ	الْمُنزِلُونَ
٢١١	١٣	سَخَّرْنَهَا	سَخَّرْنَـٰهَا
٢١٦	١٩	مِّنْ	مِّنَ
٢٢٥	٢	إِنِ	إِن
٢٢٦	١٧	لِّلْعَـٰمِينَ	لِّلْعَـٰلَمِينَ
٢٣١	٨	فَنِتِينَ	قَـٰنِتِينَ
٢٣١	١٠	عَلَيْكُمُ	عَلَيْكُمُ
٢٣١	١٣	مِنْكُمْ	مِنكُمُ
٢٥٣	٩	الْأخِرِ	الْآخِرِ
٢٥٤	١٣	لَكُم	لَكُمُ
٢٦١	٧	مُقِيمٌ	مُقِيمٌ
٢٦٩	٤	فَتَيَتِكُم	فَتَيَـٰتِكُمُ
٢٦٩	٨	الْمُحْصَنَـٰتِ	الْمُحْصَنَـٰتِ
٢٦٩	١٢	يُغْنِيَهُمُ	يُغْنِيَهُمُ
٢٧٣	١٥	غِلَاظٌ	غِلَاظٌ
٢٨٤	١٤	خَـٰلِقُ	خَـٰلِقُ
٣٠٣	١٦	يَنقُضُونَ	يَنقُضُونَ
٣١٠	١٢	وَزَوَّجْنَـٰهُم	وَزَوَّجْنَـٰهُم
٣١٥	١٥	صَدَقَـٰتِهِنَّ	صَدُقَـٰتِهِنَّ
٣٣٦	١٥	فَالْمُعَلَّقَةِ	كَالْمُعَلَّقَةِ
٣٤٠	٨	مِن فَتَيَـٰتُكُم	مِّن فَتَيَـٰتِكُمُ
٣٤٣	١٣	الْإِنسَـٰنَ	الْإِنسَـٰنَ

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٣٤٤	٢	الْإِنسَنَ	الْإِنسَٰنَ
٣٤٥	١٥	الَّذِينَ	الَّذِينَ
٣٥٤	٥	بِالْإِيمَنِ	بِالْإِيمَٰنِ
٣٦٢	١٥	من	مِّنَ
٣٦٦	١٣	الزَّكَوةَ	الزَّكَوٰةَ
٣٦٨	١	مِتكُمْ	مِنكُمْ
٣٧٠	٩	تَقُتلُوا	تَقْتُلُوا
٣٧٥	٩	حُتَّى	حَتَّى
٣٧٨	١٦	فلكُم	فَلَكُمُ
٣٧٩	٥	مّنَ	مِّنَ
٣٨٩	١٠	ووهى	وهى
٤١٠	٨	بِالْغَيْبِ	بِالْغَيْبِ
٤١٢	١	إِلَفِهِمْ	إِۦلَٰفِهِمْ
٤١٣	١١	الْإِنَسُنُ	الْإِنسَٰنُ
٤١٣	١٣	وَ كِهَةً	وَفَٰكِهَةً
٤٤١	١١	نَنوَكَّلَ	نَتَوَكَّلَ
٤٤٥	٩	الْمُقَطَنرَةِ	الْمُقَنطَرَةِ
٤٤٨	٧	بِالطَّٰغُوتَ	بِالطَّٰغُوتِ
٤٧٦	١٢	الْإِنَسٰنُ	الْإِنسَٰنُ
٤٧٩	١٣	والَّذِينَ	والَّذِينَ
٥٠٠	١	خَبِيرٌ	خَبِيرُ
٥٠٣	١٨	لِنتَ	لِنتَ
٥١٢	١٢	نَأْوِيلًا	تَأْوِيلًا
٥٣٣	١١	وَاتَّبِعُوهُ	وَاتَّبِعُوهُ
٥٣٨	١٣	الَّذِينَ	الَّذِينَ
٥٦٣	٦	يَبْلُوَكُمُ	يَبْلُوَكُمْ
٥٦٤	١٣	الْبَيْتِ	الْبَيْتَ
٥٦٦	١٠	وَإِنْ	وَإِن
٥٧١	١٣	إِلَيْكُمْ	إِلَيْكُمُ
٦٠٣	١٩	لـ بـإِ هـ	بِإِلَٰهِ
٦٢٧	٧	تَهوِىَ	تَهْوَىٰٓ
٦٤١	١٥	الَّذِينَ	الَّذِينَ

ايداع رقم ٧٩/٤٢٦٦ دولى رقم ٨ – ٢٥ – ٩٧٧/٧٣٠٢

دار الجيل للطباعة
جمهورية مصر العربية
١٤ قصر اللؤلؤة - الفجالة
تليفون : ٩٠٥٢٩٦